DAWN OF MIRRORS

ASH SEASON

فجر المرايا

موسم الرماد

منار بدر الدين

ضياء
t.me/twinkling4

جميع الحقوق محفوظة لدا: مكتبة ضَــاد، الإلكترونية. ©

تمَ تجهيز هذه النسخة بواسطة:

أشرف غالب.

تأكد من أنك تقرأ هذه الرواية من قناة ضــاد الرسمية على تطبيق تيليجرام:

تمّ تجهيز هذا الكتاب الالكتروني
بـواسـطـة:

مكتبة ضاد
t.me/twinkling4

لجميع الكتب، المجانية والمدفوعة،
وكل ما تشتهيه قريحتك الثقافية.

إهداء

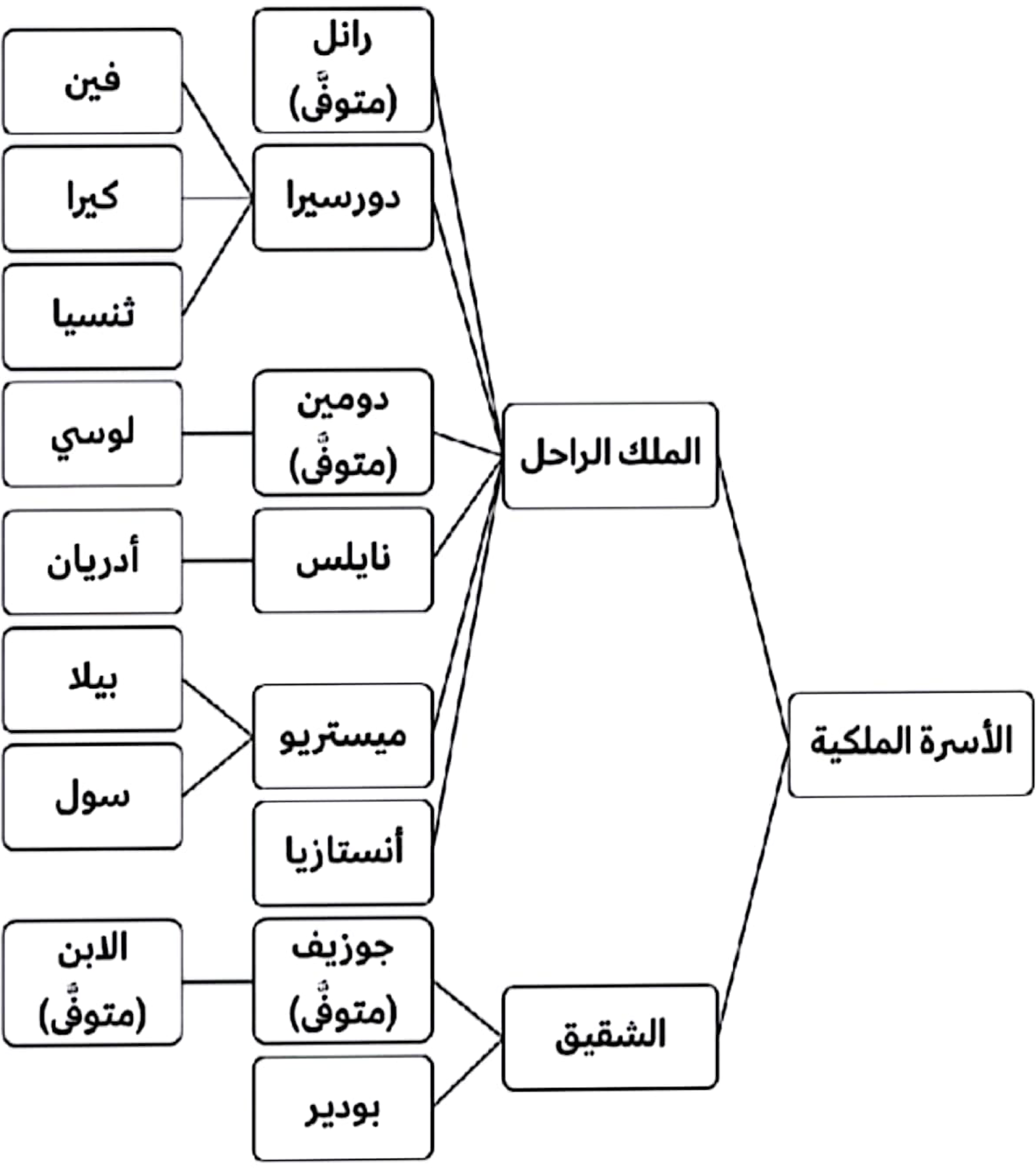
الحمد والشكر لله، ثم لأبواي اللذين دومًا ساندانی، لشقيقاتي وأصدقائي الذين حثوني مرارًا على الاستمرار بشتى لحظات الإحباط وكانوا كالجنود الباسلين.. أحتاج مجلدات بأكملها؛ لأعبر عن كمِّ حُبي وامتناني لكم.

أما بعد.. فلهؤلاء المشتتين بدروبهم.. المحاولين إيجاد أنفسهم بأغوار عالم يصرُّ على قمعهم.. المتمسكين بهويتهم رافضين الانغماس بسرب القطيع.. لكُم أنتم.. علّكم تجدون أنفسكم بالسطور القادمة أو تستمعون برحلة عبر الخيال بعيدًا عن ثنايا الواقع..

ثم لمحاولاتي.. أرجو ألّا تنضبي.



القاره المتجمده
شبه جزيره لونا
الأراضي الميتة
المرايا الشرقيه
جبل المرايا
المرايا الغربيه
العاصمه الأم
المملكه الغربيه
المعقل الغربي
مدن الساحل
الدرب القاحل
قريه لوسنيا
ممالك السحر
ارض البعث
جزر راندوس
ياما
المختاره
كبرثا
١٤ يوم


الأسرة الملكية
الملك الراحل
الشقيق
رانل (متوفًّ)
دورسيرا
دومين (متوفًّ)
نايلس
ميستريو
أنستازيا
جوزيف (متوفًّ)
بودير
فين
كيرا
ثنسيا
لوسي
أدريان
بيلا
سول
الابن (متوفًّ)

تمهيد

لم أعد أحصي الأيام كالسابق، لقد خضت رحلة طويلة صوب هذا الهدف الأوحد.. دون ذلك لا شيء بالوجود له أي قيمة، مملكتنا الشعبين الأصفر والأحمر غارقتان بمشاكل لا تُحصى منذ ظهور تلك الأميرة الهجينة، وإشاعة أن أحد الأمراء استعان بساحر ما وقُتل إثر ذلك.

يبدو أن الفرقة التي سببها إخوة الظل سابقًا للشعبين ستطولهم مجددًا عن قرب، لكني لا أكترث حقًّا، ولا يهمني بهذه الأرض سوى مساعدتي ليليس، عما قريب سأخرج بها من هنا، وسأعطيها الحياة التي تستحقها بمبعدة عن كل ما عاهدته سابقًا..

لكن بالغد سأجد تفسيرًا للحلم الطويل الذي لطالما راودني.. سأفعل كل ما بوسعي لمعرفة ما حل بالحالمين حتى لو اضطررت للتخلي عن كل شيء، بالغد سأنطلق لأنقاض مقر الحالمين لأنهي هذه الرحلة.

تأمل (رادو) الكلمات التي سُطرت أعلى إحدى أوراق كتاب بعنوان: "رحلات العالِم ران من شبه جزيرة لُونا"، وريقات قليلة التي لم تمحُ مياه المطر ملامحها كليًّا، وتلك إحداها، ذلك لمحاولة الوصول لذاك العالِم ران ومساعدته.

"سيدي القائد!"

التفت رادو لصوت الجندي الذي جاء مسرعًا من بين مياه الأمطار، وهو يهز رأسه بوجل معقبًا:

"لقد وجدنا جثة ما بالأنقاض، عليك رؤية ذلك..".

تحرك رادو متبعًا الجندي لتلك البقعة الخالية المجاورة لأنقاض مقرّ الحالمين، حيثما التف الجنود حول شيء ما فدفع رادو بهم جانبًا؛ ليرى ما الأمر ذلك فقط، ليلمح واحدة من أبشع الجثث الممثلة التي رآها في حياته، بمعالم لا وجود لها عدا من وجه شاهق، وعين واحدة سليمة زرقاء يسودها هلع من الجحيم ذاته.

تأمل الجثة، بينما أخذت الجمل من حوله تتردد:

"من باستطاعته فعل شيء كهذا؟!"

"هذا ليس بفعل بشري!"

***

[1]

هيلما

منذ مدة لا أتذكرها جئت برفقة -أبي الروحي- العالِم ران لهذه الأرض التي تنقسم لمملكتين يحكمهما قانون يُلقب بقانون المرايا؛ حيث يتطلب وقوف كل سكان المملكتين ذوي الأعمار من الحادي عشر حتى الثامنة عشر عامًا مرة كل سبع سنوات أمام مرايا عظيمة الحجم؛ لتحدد تلك المرايا لأي مملكة تنتمي أرواح هؤلاء الأشخاص، عقب ذلك يتم إجبارهم على الرضوخ لقانون المرايا، حتى يبلغوا الثلاثين عقدًا متجاهلين كليًّا أن هؤلاء الأفراد قد تُظهر المرايا انتمائهم لأرض غير التي شبوا بها؛ ليسيروا مجبرين نحو حياة مختلفة، وأرض غريبة تاركين كل أحبتهم خلفهم. لكن ذلك بالتأكيد أهون من مخالفة قانون المرايا الذي أدت مخالفته سابقًا لظهور المرض الذي نهب الأرواح كأعتى لص بالوجود، وهو (المرض الأزرق)، كل ما عانت منه المملكتان بسبب قانون المرايا بدأ بسبب لعن سكان الأرض الأصليين -إخوة الظل- للشعب الحالي لاحتلاله أرضهم وطردهم منها للأبد.

توجهنا -أنا والعالِم ران- لتلك الأرض؛ لأننا أردنا الوصول لأنقاض مقر الحالمين المندثرين، وهم المصطفون من إخوة الظل الذين أُشيع استخدامهم لسحرهم في الخير فقط. أراد المعلم ران معرفة ما حل بهم لكن لنحوذ ذلك الأذن، عقد المعلم برفقة الأميرة دورسيرا -الابنة الأكثر حدة للملك حينها- اتفاق بأن، ثمن ذهابنا: هو إيجاد حل لمشكلة ابنتها -الأميرة

كيرا- التي أظهرت المرايا مؤخرًا أنها هجينة تحمل دماء إخوة الظل، مُنبئًا لها إبادة الشعب الحالي للملكتين، وبسبب ذلك يحاول الجميع قتلها، لم تكن رحلتنا سهلة فقد تقاطع دربنا مع اللصوص، الخونة، وحتى القتلة المأجورين، وبخضم ذلك بدأت الأمور بمملكتي الشعب ذي العيون الصفراء والحمراء تزداد سوءًا، بداية من مناداة الجميع بقتل الأميرة الهجينة، وصولًا لخلافات شبت بين أفراد الأسرة الملكية أنفسهم، تسببت بمقتل الأمير جوزيف الذي لطالما سعى لعلاج المرض الأزرق، وبسبب موته ذاك انقسمت الأسرة الملكية لصفوف مختلفة كل منها يسعى للفوز، الإخوة ازدادوا عداء.. والأبناء تفرقوا مُشتتين بالأرض، ولا يعلم أحد حقًّا كيف تفاقمت الأمور لذلك الحد؟، حتى أنا لا أذكر إلام آلت رحلتي برفقة المعلم ران؟، وكيف أننا افترقنا وبلحظة اختفى المعلم من جواري، لا أتذكر سوى أن رؤى ما راودتني، رؤى أظهرت لي ماضي الحالمين، وأنهم من صنعوا المرايا العظيمة بعد إجبار إخوة الظل -شعبهم الأصلي- لهم بفعل ذلك وقتلهم بأبشع الطرق، حينما حاولوا رفض المعاونة بدحض الشعبين ذوي العيون الحمراء والصفراء.. آنذاك أخذت تلك الجملة تتكرر ببالي مرارًا، وهي أن: "الحالمين سيعودون".

أخذت تفكر بينما هي تتجول بتلك القاعة، ذات الثلاث مرايا وبئر الماء بالمنتصف، إنها الموجودة نفسها بمقر الحالمين، لكن كيف عادت لها؟!

تساءلت ليليس، وهي تنظر حولها.. لا يوجد وحوش أو

أشخاص مقتولون تلك المرة، ليس سوى ذكريات لكيف بدا هذا المكان، جوار المرآة على الحائط الأيسر كان يجلس أجدر الحالمين، ويظل ثابتًا لما يقارب اليومين؛ ليرى احتمالات العشر سنين المقبلة..، وفي المنتصف حول ينبوع الماء كان الحالمون يكوِّنون حلقة مميزة ينقلون خلالها وعيهم للماضي للتعلم من الخبرات السابقة، بالدور السفلي توجد كتب لا تُحصى تفقه منها الحالمون، لكن كيف تتذكر هذا؟! إنها لم تعشه مطلقًا.

اتجهت نحو المرآة الموجودة على الحائط الأيمن؛ لتلمح انعكاسها لكنها ذُهلت حينما رأته.. من تلك بالمرآة؟! إنها ليست هي بل امرأة بشعر طويل أبيض وعيون رمادية، ذات ملامح كبيرة السن ترتدي ملابس بيضاء بأطراف خضراء اللون، قربت ليليس يدها لتلمس المرآة في محاولة للتأكد من أنها لا تهلوس، فقام الانعكاس بنفس الفعل.. لكن للحظة شعرت أنها رأت تلك السيدة من قبل.

"جدتي!"

نظرت لمصدر الصوت؛ لتجده طفلًا في الحادية عشرة من عمره، ملامحه هادئة للغاية، وعيونه تشبه عيون تلك المرأة بالمرآة، بأذن واحدة والأخرى مبتورة، شعرت بألفة تجاهه لم تدر سببها، لكن قلبها نبض بحبه، وتذكرت أنها لأجله أوجدت المرايا العظيمة وخسرت كل ما تمسكت به، لأجل أن يصير الصبي على ما يرام.

ما الذي فكرت فيه لتوها؟! إن تلك ليست ذكرياتها، إنها

ذكريات المرأة بالمرآة، إنها ذكريات حكيمة الحالمين.

"لقد راودني حلم عن صبي يا جدتي، سيكون لديه قدرات تنبؤ أقوى من أي حالم آخر، سيكون المستقبل هو حاضره، سيستطيع بلمسة يده فحسب تهشيم المرايا العظيمة!"

صُعقت للغاية فشخص قادر على فعل ذلك لهو شخص أقوى من حكيمة الحالمين نفسها، تساءلت بجدية:

"هل هو رامي الأسهم الذي يرتدي السواد المقدر له تدمير شعب المملكتين؟"

لم تعد تستطيع التنبؤ كالسابق بعد صنعها للمرايا العظيمة؛ لتعرف الإجابة بنفسها.

"لا أدري على وجه اليقين.."

"متى سيظهر؟"

"ليس الآن.. بعد عشرات أو مئات السنوات.."

"فلتعد للحلم مجددًا!"

سكن الفتى، وأخذ بؤبؤ عينه يتلاشى تدريجيًّا كأن غيمة ضبابية تغطيه،، ثم أخذ يتحدث ناظرًا للعدم:

"منزل صغير ببلاد تسودها رائحة الأوراق.. تسير امرأة حاملة رضيع حديث العهد بأوج الليل مستهدفة ذاك المنزل"

"فلتتبعها!"

"حسنًا..

سيدة ما، ذات شعر أحمر تفتح الباب، وتحادث حاملة الطفل، سامحة لها بالدخول:

- هل جننتِ؟ حظيتِ بوليدك للتو، وتخرجين بالطرقات؟

لكن السيدة التي تحمل الوليد لا تتحدث وتتردد؛ فقد رأت طفلة ذات شعر أحمر بالمنزل تنظر نحوها بتوتر فتنظر السيدة ذات الشعر الأحمر للطفلة آمرة:

- ادخلي غرفتك!"

أكمل الفتى الذي بدا كأنه في عالم آخر:

"الهلع يظهر على وجه حاملة الوليد أثناء تحدثها، وقد انتقلت عدواه للسيدة ذات الشعر الأحمر:

"عليكِ مساعدتي! عليكِ إخباري، ماذا أفعل؟! فوليدي هو ذلك الصبي الذي أخبرتنا والدتكِ عنه! الذي سيصير التنبؤ بالنسبة له أسهل من التنفس! فقد راودني الحلم الذي كررته والدتكِ على مسامعنا! أخبريني بما يجدر بي فعله! ماذا إن علم قاتل الحالمين بأمر طفلي؟!"

- إنْ كان ما تقولينه حقيقيًّا فلن يستطيعوا قتله؛ فالحالم الحقيقي لا توجد سوى طريقة واحدة لإنهاء حياته.. نحن نعلم ذلك، أمثالنا فحسب هم من يُقتلون بسهولة.

- ولكن هذا بعد وصوله للسابعة! إنه الآن ليس سوى طفل رضيع!

- لا تقلقي..

الباب.. الباب يدق، حاملة الوليد تضعه فوق الأريكة وتتجه لتفتح الباب، بينما السيدة ذات الشعر الأحمر تدخل الغرفة التي توجد بها الطفلة ذات الشعر الأحمر، وتبتسم لها،، ثم صراخ والدة الرضيع يأتي من الخارج، تخبئ السيدة ذات الشعر الأحمر الطفلة أسفل الفراش وتردف:

- مهما حدث.. مهما رأيتِ.. لا تفتحي فمك! لا تتحركي.. ابقي مختبئة فحسب!"

اتسعت عينا ليليس

ماذا؟! تلك الجملة.. إنها آخر كلمات والدتها لها قبيل إخفائها أسفل الفراش واختفاء والدتها تماما! ما معنى ذلك؟! أهذا البيت الذي يتحدث عنه هو منزل ليليس ووالدتها؟ وتلك السيدة ذات الشعر الأحمر هي والدتها؟! والطفلة هي ليليس؟! والسيدة حاملة الوليد تلك، هي من زارتهم يوم اختفاء والدة ليليس؟! والبلاد التي تسودها رائحة الأوراق تلك هي شبه جزيرة لونا؟!

بدأت عيون الفتى تعود لطبيعتها تدريجيًا، وختم حديثه:

"أسمع صدى بكاء رضيع، لكن جدتي أنا حقًّا حزين؛ فأنتِ ستموتين اليوم..".

فجأة انسل لأذن ليليس صوت صراخ وصليل سيوف، لم تمر ثوان حتى وجدت امرأة تهرع الى القاعة صارخة:

"أيتها الحكيمة!"

لم تحتج ليليس للسؤال عما يحدث، فقد علمت الإجابة بالفعل .

"أيتها الحكيمة.. إنه هنا! القائد ديابلوس، إنه يُبيدنا".

أكملت المرأة بصوت باكٍ، جذبت ليليس الفتى لا إراديًا نحوها، هاتفة:

"اختبئ، لا تجعلهم يجدونك.. لا تمت! أتفهم؟!"

حاولت المحافظة على جديتها رغم شعورها بانهيارها داخليا، علل الفتى:

"أنتِ حقًا تتمنين ألا أموت أليس كذلك، جدتي؟!"

لوهلة تذكرت شابة مشابهة لذلك الصبي بيد أن تلك الشابة هي والدته.. وتمنت ألا يصيبه نفس مصيرها، أومأت فأومأ الصبي بدوره دون إبداء أي انفعالات، ثم رحل مبتعدًا عنها، لم تمر ثوان أخرى حتى اختفى الصبي بالفعل، سمعت صوت العديد من الأقدام المقتربة، ورأت جنود إخوة الظل يجتازون القاعة بسيوف ملطخة بالدماء، أخذت المرأة ترجو الحكيمة:

"أيتها الحكيمة، لا تدعيهم يقتلونني!"

لكن ذلك تآخر كثيرًا.

تقدم القائد ديابلوس صفوف الجنود، وأشار لأحد جنوده، فتوجه الأخير صوب المرأة التي أخذت تصرخ:

"كلا أرجوك، لقد فعلنا ما طلبت! لقد صنعنا المرايا العظيمة لتدمير الشعبا.."

لم تكمل جملتها حتى نُحرت عنقها بالفعل، وسقطت طريحة الأرض، نظرت لها ليليس بِأسى، بدا الأمر كما أنها رأته مئات المرات، لكن ذلك لم يقلل من ألمه، فتلك المرأة توسلتها؛ لتنقذ حياتها للتو لكنها لم تفعل، تحدث القائد ديابلوس:

"باقي شعبك غارق بدمائه بالفعل، ليس لدي الصبر؛ كي أريكِ المشهد حتى! نفذ صبري!"

لم تجب، ظلت تنظر له فحسب، صاح:

"لقد خدعتيني أيتها العاهرة!"

"لقد صنعت المرايا العظيمة"

"عن أي مرايا تتحدثين؟! لقد أخبرتني أنك ستعطيني ما سيدمر الشعبين تمامًا! وعوضًا عن إبادتهم أُصيبوا بمرض جعلهم يمتثلون لقانون تلك المرايا!"

"يجدر بك الصبر، لن يكون للشعبين وجود..".

"اخرسي أيتها العجوز الشمطاء! لقد تركت لك، ثماني سنوات؛ لأرى نتيجة لهرائك، لقد جلبتِ النهاية لنفسك ولشعبك!"

إنها النهاية بالفعل، وهي ليست حزينة لذلك.

"انهِ الأمر إذن، واقتلني".

قهقه القائد مستنكرًا:

"أقتلك؟! إنني أبعد ما يكون عن ذلك!"

أشار لبعض من جنوده أمرًا:

"فتشوا عن حفيدها، فلابد أنه هنا بمكان ما فلا أحد بوسعه الهرب من هنا، لقد حرصت على ذلك منذ ثماني سنوات".

شعرت ليليس بالضعف الشديد، مرت دقائق كالدهور حتى أتى أحد الجنود جاذبًا الصبي.

كلا، كلا، حاولت جذب الصبي من الجندي لكنه دفعها، بدا الصبي هادئًا تمامًا، وأردف:

"جدتي، لا تقلقي فأنا لن أموت!"

نظرت له بغير تصديق، بينما ضحك القائد بسخرية، ثم أشار للجندي بإيذاء الصبي، كانا يقفان بجوار الينبوع تمامًا، هرولت من موضعها نحو القائد، فوجه بعض جنوده سيوفهم نحوها لكنها لم تهتم، فذلك لا يمكن أن يحدث.

"سأعجل من فعل المرايا! لا تفعل ذلك!"

أخذت تتوسل للقائد الذي أشار للجندي بألا يلمس الصبي.

نظر لها القائد مبتسمًا، وهو يأمر:

"اجثي على قدميك، وازدادي توسلًا".

ذلك أكثر شيء مهين قد يفعله شخص بهذه الأرض، والآن بعمرها وبمكانتها عليها أن تفعل ذلك؛ كي لا يُقتل حفيدها دون عذاب فحسب؛ فديابلوس ذاك لا يريد سوى إرضاء كبريائه.

همت الإباء بشموخ، لكن أستدع كبرياءها يتسبب في تعذيب حفيدها بأبشع الطرق؟! ليتها أخذته عنوة من أحضان والدته، وقتلته فحسب قبيل كل هذا، ظل القائد ينظر لها منتظرًا فعلها القادم، نظرت صوب حفيدها ذي الملامح الخالية من التعبيرات، صار بذلك الشكل منذ ذاك اليوم الذي رأى فيه كل تلك الجثث، الذي بُترت أذنه فيه، الذي أُغتصبت والدته فيه، وذُبحت خلاله.

إن لم تجثي الآن، فما سيكون مصير الصبي في سطوة شيطان كديابلوس ذاك؟! أخذت نفسًا عميقًا، ثم بدأت بالجثو ببطء شاعرة بمقدار ذل ومهانة لم تتعرض لهما من قبل حتى صار وجهها مواجهًا لحذائه، أمر ديابلوس:

"والآن توسلي".

شعرت بأطرافها ترتجف مجددًا من كم الخزي الذي حل بها.

"أتوسل إليك أيها القائد ديابلوس أن ترحم حفيدي، وتعطيه موتًا سريعًا فحسب!"

ضحك ديابلوس:

"أين كبرياؤك أنتِ وقومك الآن؟! لقد صرتِ مثيرة للشفقة!"

قاطعهم الصبي: "سيدي إن ما تفعله لن يجلب لك سوى قدر مظلم للغاية، فجدتي لازالت تقمع نفسها؛ كي لا تخسر كل ما تمسكت به يومًا".

"تذكرني بوالدتك أيها الفتى، أتعلم ما حل بها؟ يمكنك

سؤالها بنفسك".

أنهى ديابلوس جملته مشيرًا للحارس الذي قام بقطع أذن الفتى الأخرى، ثم لسانه، ثم أطرافه على حدة، وتبعها بسلخ جلد الصبي، لم يبد الصبي أي انفعالات، بدا كما لو أنه متبلد الإحساس، لم يفت الكثير من الوقت حتى مات الصبي من فرط الألم، ولم تظهر سوى دموع متحجرة بعينه المفتوحة.

لم تبك الحكيمة، فقط ظلت تنظر بذهول للمشهد كما لو أنه مسرحية ما، كل ما شعرت به كان الخواء، لم تعد ترى أمامها، ولم تعد تدرك من تكون، ولم تعد تهتم.

تحدث القائد نحوها:

"لم يعد لكِ قيمة".

"سيدي، انظر!"

صاح أحد الجنود نحو الحُمم المتصاعدة من فروع ينبوع الماء الذي تحول لما يشبه فوهة البركان الصغيرة أخذت بالانتشار في القاعة ببطء، بينما قطر سائل أسود غليظ من أركان المكان وأخذ بالاقتراب منهم بسرعة شديدة، لم تظهر ماهيته الحقيقة، وتكونه من أشياء متناهية الصغر أقرب للحشرات التي اخترقت دروع الجنود، وتخللت لجلودهم وبدأت بالتهامها، صرخ الجنود وهم يحاولون إزاحة أجزاء دروعهم للتخلص منها، لكنها بدت ملتصقة بجلودهم بأعتى غراء بالوجود، وإذا نثر بعضها حتى بعيدًا يسطع آلاف غيره، أخذ الجنود يحكون جلدهم بهلع وبدءوا بتقطيعه من شدة عدم

احتمالهم! بل أُصاب بعضهم بالجنون من ذلك الشعور أعلاه، اقتربت الحمم منهم للغاية وأخذت بصهرهم واحدًا تلو الآخر، نظر القائد لجنوده الذين أصابتهم الحمم؛ ليبدوا شكلهم أبشع ما يكون فقد بُدوا كمن تم تعذيبه لألف سنة، لكنه رغم ذلك لا يستطيع الموت أبدًا، أصدروا صرخات عذاب قادمة من عقر الجحيم ذاته، بدأت معالم أجسامهم بالتبدل وصاروا أقرب للوحوش منهم للبشر.. وحوش عُذبت وحُرقت ومُثل بجثثها، وبدا كأنما الحمم اتخذت موضع بعض أجزاء جسدهم، لكن لماذا لا يصير مثلهم؟!

نظر نحو الحكيمة؛ ليجدها تنظر له بعيون سوداء تمامًا بلا بؤبؤ، إنه مظهر عيون إخوة الظل حين لا يرون أمامهم سوى التدمير الكلي لكل شيء، إنها تريده أن يظل للنهاية؛ ليشهد كل ذلك ويعلم ما سيصيبه تمامًا، بدأت الحشرات بالتمكن منه بدوره، فحاول إزالتها بكل ما لديه لكنها ازدادت وازدادت فحسب، لم ترحمه الحمم سوى بعد تعذيبه بألم لا يُطاق لما بدا أنه آلاف السنين، وحينها أخذ بالتلوي وهو ينصهر، شاهدته الحكيمة لبعض الوقت ولحمه يتفحم،، ثم سارت نحو ما كان ينبوع الماء من قبل، وصار الآن يخرج الحمم، انصهرت قدمها أثناء سيرها حتى سقطت صريعة في دمائها بعدما أصابتها الحمم بالكامل، لكنها حرصت على لمس الينبوع قبل فناء روحها، رغم ذلك فما شعرت به كان البرد القارص.

برد وجسد محطم تمامًا، فتحت ليليس عينيها ببطء؛ لتجد نفسها مستلقية في الخلاء أعلى تلك الأرض الطينية، بينما

تعلوها شجرة متوسطة الطول تمنع عنها بعض قطرات المطر، بدت السماء رمادية تشي بأن الغروب أوشك على الاكتمال، ارتجفت أوصالها من البرد لاتساخها وبللها بفعل ماء الأمطار والطين، نظرت نحو فستانها الأرجواني الذي لم يعد له معالم من فرط الاتساخ، يبدو أنها لا تحلم الآن.

ما الذي حدث؟! أين هو المعلم؟! تساءلت مزيحة خصلات شعرها المبللة عن وجهها، نظرت حولها باحثة عن أي أثر للمعلم لكن.. لا شيء سوى الأمطار والأرض الطينية، لم يكن بحوزتها سوى حقيبتها المتدلية من أحد كتفيها، فتحتها على أمل إيجاد أي شيء قد يفدها، لكنها لم تجد شيئًا مفيدًا، حتى استشعرت شيئًا ما بين أناملها، فآخرجته متأملة تلك القلادة البالية ذات الزمردة الخضراء.

"أريدك أن تُبقيها كدليل أنك ستتركين كل ما حدث لكِ خلفكِ، وستبدأين حياة جديدة".

رنت جملة المعلم ران تلك ببالها، فاحكمت قبضتها حول القلادة،، ثم قامت بارتدائها حول عنقها، عليها أن تجد المعلم! حاولت الوقوف لعدة مرات حتى استطاعت أخيرًا، شعرت بألم شديد بإحدى ساقيها، لم تكمل الثلاث خطوات حتى سقطت بعنف إثر ترنح القدم المتألمة، تأوهت بينما اتسخت يدها ووجهها بالطين.

"كانت قروية بسيطة.. تزرع التفاح في بستان قصر السيدة".

هيلما.. هيلما..

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

ذات أسئلة غريبة.. أحبها البعض لكنهم عهدوها مريبة.

سمعت ليليس ذلك الصوت المغني يكمل:

"سيدتي، اسردي على مسامعي الحقيقة.. هل أنا فعلًا تلك الفتاة البريئة؟!".

صاح صوت آخر:

"فلتتوقف عن الغناء؛ صوتك يزعجني!".

نظرت لمصدر الصوتين؛ لترى رجلين؛ أحدهما يمتطي فرسًا، بينما الآخر يجلس بأريحية أعلى عربة يجرها الفرس، لم يبدُ أن الأمطار تزعجه البتة، وأخذ يتحدث للآخر:

"تخيل إن عدنا للساحر الأكبر بشيء من هذه الأنقاض خاصة مع الشائعات عن الأصوات التي أفزعت سكان قرية لوستيا".

"لن نجد شيئًا! ها أنا أخبرك للمرة الألف، فلم يحدث شيء جديد في أنقاض مقر الحالمين، إن أهل المملكتين يذعرون من أي شيء له علاقة بالسحر، ويُدعون حياله بأي تكهنات لا صحة لها".

"إنهم حمقى، ماذا إن علما أننا ساحران من ممالك السحر، ولسنا تاجرين كما ادعينا، أقسم أنهم لبللوا سراويلهم"

"اخفض صوتك أيها الاحمق!"

حاولت ليليس النهوض، والاتجاه نحوهما بما أُوتي لديها من قوة قبل ابتعادهما، لكنها تعثرت مجددًا، تبًا! لماذا لا يرونها؟!

"أنتما! النجدة!"

كلا! إنهما يبتعدان!

رأت الجالس بأريحية ينظر نحوها، لكن يبدو أن الظلام لم يساعده على الرؤية، إنها تراه فقط؛ بسبب ضوء المصباح الذي بجواره ويحميه من مياه الأمطار بشال ما، لكن الرجل تحدث فجأة:

"لحظة ما هذا؟!"

ليجيبه رفيقه بنفاذ صبر:

"ماذا الآن؟!"

عدل الجالس على العربة جلسته،، ثم قفز أرضًا وبيده المصباح، ورماه بقوة لينكسر في الأرض وتشتعل النيران التي أخمدتها الأمطار سريعًا، صاح الذي يمتطي الحصان:

"هل أنت مجنون؟! ما الذي تفعله؟"

، ثم ركل الفرس؛ ليوقفه، فأجابه زميله الواقف على الأرض الصلبة:

"هناك شيء يلمع.. على مرمى البصر".

، ثم أخذ يسير صوب ليليس، بينما رفيقه يصيح:

"عُد! إلى أين تذهب أيها الغبي؟! سحقًا لي لموافقتي على تلك الرحلة من البداية!"

ظلت ليليس تنظر نحو ذلك الرجل الذي يسير نحوها بعيون

واسعة، وهي لا تدري كيف علم بوجودها؟!

توقف الرجل أمامها، وهو ينظر لها بدهشة، لم ترَ ملامحه جيدًا؛ بسبب الظلام لكنه كان طويلًا بعض الشيء، لكن رغم ذلك بدا أن هناك ضوءًا ما، وإلا كيف رأت تقدم ذلك الرجل نحوها من الأساس؟!

لكنها لم تنشغل بمصدره لهلعها أن يرحل الرجلان ويتركاها، ترى الرجل الآن ينظر نحو ذلك الضوء الخافت بذهول؛ لتدرك أن مصدره هو زمردة قلادتها.

***

أيها المعلم، أين أنت؟!

لقد كان برفقتها لكنها انحنيت فحسب؛ لجلب تلك القلادة، ثم لا تذكر أي شيء، تمامًا كما حدث عندما خبأتها والدتها أسفل الفراش قائلة لها:

"مهما حدث، مهما رأيتِ، لا تفتحي فمك، لا تتحركي، ابقي مختبئة فحسب".

لقد ذكر حفيد الحكيمة تلك الذكرى بأدق تفاصيلها، فما معنى ذلك؟! هل كان الرضيع الذي بحوزة السيدة التي جاءت لزيارة والدة ليليس ذاك اليوم أقوى الحالمين على مر الزمان؟!

"سيكون لديه قدرات تنبؤ أقوى من أي حالم آخر، سيكون المستقبل هو حاضره، سيستطيع بلمسة يده فحسب تهشيم المرايا".

تلك كلمات الحفيد، لكن من هو ذاك الرضيع؟! ولماذا كانت والدة ليليس على صلة قرابة بوالدة ذاك الرضيع من الأساس؟ بالطفل الذي علم الحالمين بأمره منذ سبعمائة عام! ومن هو الذي يرتدي السواد الذي ذكرته كبيرة الحالمين؟! أهي تلك الأميرة الهجينة بما أن دماء إخوة الظل تجري بعروقها؟!

ولماذا لا تتذكر ما حدث للمعلم أو لوالدتها؟!

دارت التساؤلات بعقلها، وهي مغمضة العينين أعلى تلك العربة الخاصة بالرجلين اللذين أنقذاها، لم تكن نائمة ولا متيقظة لكن عقلها لم ينفك عن التفكير؛ حتى أصابها الصداع، تردد صوت لأذنها:

"يا فتاة يبدو أن هناك امرأة تعرفكِ بهذه القرية".

لا أحد يعرفها في هذه القرية أو في أي مكان، الوحيد الذي عرفها لا تعلم مصيره.

فكرت، بينما ارتعشت أطرافها أسفل ذاك الغطاء الذي وضعه أحد الرجلين أعلاها، فتحت عينيها قليلًا؛ لتلمح ذاك الرجل ذا الشعر الأزرق غريب الهيئة يقف أمامها، بينما الأمطار تسقط خلفه، فقد أوقف الرجلان العربة أسفل أحد المنازل في القرية وشرعا يسألان: إن كان أحد يعلم بهوية تلك الفتاة ذات الهيئة المزرية، تحدث الرجل واضعًا يده أعلى جبهة ليليس: "فلترتاحي، سنتكفل نحن بإعادتكِ لأسرتكِ"

همت بإخباره أن لا أسرة لها، لكنها شعرت بنعاس شديد بسبب يده تلك، كان الأمر أشبه بالتضور جوعًا، وعدم النوم

لفترة،، ثم التهام وجبة ساخنة، وبعدها الالتفاف بغطاء ثقيل في بيت دافئ، بينما تأتي والدتها لتقبل جبهتها، ثم تنصرف لتقوم بأعمال المنزل، بينما تهطل الأمطار خارجًا، إنه كالشعور بخطر خارجي لكن ما يحيطها حقًّا هو الدفء، والأمان، يا له من حلم جميل لا تريد الاستيقاظ منه أبدًا.

"من فضلك اعتني بها، فهي في حالة مزرية، قد كانت تدمع أثناء نومها".

"لا تقلق، أخبرتك أني أعرفها".

سمعت تلك الأصوات، لكنها لم تهتم فقد أرادت أن تبقى ملتفة بذاك الغطاء، بينما تسمع دندنة والدتها بالخارج.. ذات الصوت البديع الذي يشع دفئًا، لكن الآن صار كل شيء باردًا للغاية.

فتحت عينيها؛ لتجد نفسها بغرفة صغيرة غير مألوفة، بينما يحيط القماش الأبيض العديد من أجزاء جسدها كجبهتها وقدمها، كانت نظيفة من الأوساخ الطينية ومجففة من ماء المطر، وبفستان جديد ذي أكمام طويلة يتخلله الأرجواني والأسود، لكن شعرها تُرك منسدلًا، وليس مربوطًا في جديلة واحدة، كما تصففه دومًا، تحسست القلادة لا إراديًا؛ لتجدها لازالت حول عنقها.

أين هي؟!

هذا غير مهم! عليها أن تجد المعلم.

همت بالوقوف، لكن بمجرد محاولتها للسير أعاقتها قدمها

الملفوفة بالقماش.

لا بُدَّ أن بها كسرًا ما؛ نتيجة تعثرها بتلك الصخرة، باقي جروحها قد التئمت نسيبًا، عدا تلك القدم، سحقًا..

فجأة! فُتح باب الغرفة، ودخلت سيدة مألوفة لليليس، كانت تمسك كوبًا به شراب ما، ثم تفاجأت:

"ماذا تفعلين؟! لا يجدر بكِ محاولة مغادرة الفراش!"

اتجهت نحو ليليس؛ لتعيدها للفراش،، ثم وضعت الكوب على طاولة صغيرة مجاورة للفراش، إنها مالكة ذاك النزل الذي أقامت فيه ليليس، والمعلم قبيل ذهابهم لأنقاض مقر الحالمين.

"السيدة روزالين؟"

"أجل يا حلوتي، ما أخبار جروحك؟ هل تشعرين بتحسن؟"

أومأت الفتاة، أكملت السيدة مشيرة للكوب أعلى الطاولة الصغيرة:

"فلتحتسي هذا المشروب سيشعرك بالراحة".

لكن المعلم أخبرها ألا تثق بتلك المرأة، وأن نواياها ليست حسنة.

"أين هو العالم الذي كنتِ بصحبته؟ ماذا كان اسمه؟ أكان لان؟!"

"العالِم ران من شبه جزيرة لونا، ولا أدري أين هو.. يجب أن

أبحث عنه وأتأكد أنه بخير".

"لا يمكنك بحالتك هذه، هناك كسر بقدمك، ثم ما أدراك؟! ربما رحل ذلك العالم، وتركك فحسب.."

هل ما تقوله تلك السيدة ممكن؟!

تساءلت بألم، لكن العالِم ران وعدها بأنها ستصير مساعدته الدائمة.

"أنا لا أحتاج مساعدتك.. أريدك أن ترحلي!

ألم تكن تلك كلمات المعلم بذلك، حين أوشك على استعمال السحر الأسود بأنقاض مقر الحالمين.. أربما رحل حقًا؟!

تخيلته ليليس يسير مبتعدًا عنها، لكن حتى إن فعل ذلك تريد الاطمئنان حياله فحسب..

تحدثت بحزن:

"حتى إن قام بهذا، أريد التأكد أنه بخير..".

"حسنًا؛ إذن إن كنتِ مصرة، لكن الليل قد شارف، فلتنامي الآن، ثم تبدئي ببحثك غدًا؛ فظلام الليل لن سيساعدك على إتمام مهمتك".

إنها محقة، إذن ستشرع في بحثها عن العالِم ران غدًا.

أردفت السيدة روزالين، وهي تنصرف: "سأتركك؛ لترتاحي، لا تنسي احتساء المشروب".

ثم أغلقت باب الغرفة خلفها، ربما تلك السيدة ليست سيئة

للغاية كما حسب المعلم، لكنه خبير بالأشخاص عنها، فإن أخبرها ألا تثق بها فهو محق!

***

من الغباء أنها شكت فيما قاله المعلم للحظة واحدة! قررت ليليس أنها لن تنام لكنها ربما أغمضت عينها لجزء من الثانية؛ ليراودها شيء ما لا تدري أهو حلم.. خاطرة.. رؤية..، لم تعلم لكنه جعلها ترى ما تريد تلك السيدة فعله بها.. ورغم احتمالية أن مخاوفها هي ما جعلتها ترى ذلك إلا أنها صدقت تمامًا رؤيتها، ولم تدرك السبب.

لا بُدَّ الرحيل من هذا المكان حتى رغم آلام قدمها؛ كي لا يصيبها ذاك المستقبل البشع الذي رأته، حاولت السير على قدمها السليمة، بينما القدم الأخرى بالكاد تلامس الأرض، واستعانت بيديها للاتكاء على الحائط لدعم القدم السليمة، لازالت تسمع صوت الأمطار بالخارج، فتحت الباب ببطء ونظرت للخارج لكنها لم تجد أحدًا. جيد فلن يتركوها؛ لترحل فحسب، خاصة لتكهن السيدة روزالين تلك بأن ليليس لا تعرف أحد في المملكتين بأكملهما سوى المعلم، وهو الآن مفقود، عليها التعامل بحذر إذن، وإلا قد تظل بهذا المكان ويصيبها ذلك الشؤم الذي خطر لها، ذُعرت لكنها حافظت على رباطة جأشها إلى حد ما عكس عادتها، وسارت بحذر نحو الدرج، كان الدور الأرضي مليئًا بالرجال والسيدات ال، ثملين، وكذلك السيدة روزالين، وبعض العاملين بالمكان، لن تستطيع المرور، وحتى إن تخفت بطريقة ما فقد يُكشف أمرها،

وكذلك فقدمها لن تساعدها على الركض، إنها بالكاد تسير بها بالاستناد نحو الحائط باستمرار، عليها أن تجد حلًا ما.

"هيا، هيا، تعال لا تقلق"

سمعت صوت إحداهن تصعد الدرج، في الواقع يبدوان كشخصين -فتاة وفتى-، توارت ليليس خلف إحدى الجدران، وهي تسترق السمع: "لكن والدتك موجودة.. إن علمت أننا تسللنا لغرفتكِ".

"لا تقلق والدتي لن تعلم، ولا يهم إن علمت، فمصدر رزقها من هذا المكان هو تسلل الرجال لغرف الفاتنات".

"لكنها ستقتلني؛ فأنتِ ابنتها في النهاية!"

"لا تقلق ستستطيع الهرب قبل أن يتم الإمساك بك، فقد أمرت أحد العاملين بالمكان بصناعة ما يشابه التل من القش أسفل نافذة غرفتي، ما عليك سوى القفز حين تكتشف أمي وجودك".

رأت ليليس تلك الفتاة تجذب الفتى نحو إحدى الغرف، وتغلق الباب سريعًا، ذلك هو الحل إذن.. قد تنكشف لكن مقارنة بالمرور من بين كل الموجودين بالدور السفلي فهذا الحل أقل خطورة، قطعت جزءًا من كم فستانها وأزالت القماش الأبيض من على إحدى جروح ذراعها؛ لتتظاهر أنها إحدى عاملات هذا المكان، ثم سارت نحو غرفة الفتاة ودقت الباب، وطأطأت رأسها، فتحت الفتاة الباب، وهي تصيح باستياء:

"ماذا؟!"

Page ٤٥١ / ٢٨ [1] هسلما

ظلت ليليس تنظر أرضًا؛ كي لا تُري الفتاة وجهها:

"أعتذر آنستي.. طلبت مني والدتك أن أناديكِ لأجلها".

"أمي تريدني؟ لماذا؟!"

"لا أدري آنستي، أكدت ضرورية الأمر، وأنها ستصعد لكِ إن لم تدلفي لها في الحال".

تساءلت الفتاة بتوتر: "تصعد؟! حسنًا، سأرى ما تريده..".

ثم سارت الفتاة لأسفل الدرج، رفعت ليليس نظرها نحوها.. عليها الرحيل الآن! سارت بأسرع ما لديها لداخل الغرفة؛ لتجد ذلك الفتى جالس على كرسي ما، لم ينظر لها، لكنه تساءل:

"عزيزتي، أتخلصتِ من ذلك الزائر الأحمق، من أنتِ؟!"

انتفض الفتى بفزع أثناء رؤيته لليليس.

لم تهتم له وتوجهت نحو النافذة؛ لتجد تل القش الذي تحدثت عنه الفتاة من قبل، لحسن الحظ حفظه سقف هذا النزل من الأمطار، إذا أدت ذلك بطريقة صحيحة فستسقط سليمة، ثم ستنزلق للأرض الطينية، آخرجت نصف جسدها بالفعل من النافذة، وأخذت نفسًا عميق.

"يا فتاة ماذا تفعلين؟!"

أجابت بتوتر:

"أعتذر لكن يجدر بك إيجاد مهرب آخر".

ثم قفزت لأعلى ذلك القش شاعرة بقلبها ينبض بقوة، بدا

الأمر كالانزلاق من أعلى تل عالٍ، لم تدرك وصولها للأرض حتى اصطدمت رأسها بها وأصاب الطين وجهها، شعرها وملابسها مجددًا، يبدو أن الأوساخ تنجذب لها في النهاية بطريقة أو بأخرى، كانجذاب أمثال السيدة روزالين تلك لها، فكرت محاولة الابتعاد عن ذاك المكان بقدر الإمكان.. كان المطر غزيرًا.. لم تدرك أن موسم الأمطار في هذه القارة (أثرا) يكون بتلك القوة.. لا يجدر بها أن تتشتت، فالمهم الآن هو أن تجد المعلم ران، وتبتعد عن تلك القرية، فقرية لوستيا الواقعة على الحدود الجنوبية لنصف القارة الشمالي، ليست إلا مكان دنس، مشهور بالأماكن المشابهة لنزل السيدة روزالين ذاك؛ لذلك لم يرد المعلم أن يبقى في تلك القرية أو ذاك النزل، فمن البداية اهتمت تلك الملقبة بروزالين بليليس لغرض واحد فحسب؛ لتجعلها تعمل عاهرة بنزلها، خاصة لاختلاف مظهر ليليس عن باقي الفتيات لقدومها من شبه الجزيرة؛ فالناس يملون المعتاد ويريدون ما هو مختلف كما أخبرها المعلم.

تبللت تمامًا بفعل الأمطار، لكنها أكملت المضي، وبدون تلك الشعلات المضاءة في الأرجاء ومحفوظة من مياه الأمطار لغدت الدروب قاحلة عن بكرة أبيها، احتمت أسفل أحد أسقف المنازل من تلك الأمطار التي لا تنتهي ومسحت وجهها المبلل، لم تجد أي شخص يسير في الشوارع؛ ففي خضم تلك الأمطار، الأبله فحسب هو من يتجول في الطرقات، خاصة بأوج الليل لكن، ما هذا؟

ركزت في أحد الأرجاء؛ لتجد رجلين بجوارهما عربة يتحدثان

Page ٤٥١ / ٣٠ [1] هيلما

لشخص أو لأشخاص، لم ترَ جيدًا بفعل الظلام، لكن أحد ذلك الرجلين؛ ذو شعر أزرق غريب المظهر، أليس ذاك هو من وضع يده أعلى جبهتها قبيل استيقاظها بنزل السيدة روزالين؟! بلى، إنه هو!

إنه لا يعمل لدى السيدة روزالين؛ فقد تحدث هو رفيقه قبيل إنقاذ ليليس عن أنهما من ممالك السحرة، ويتخفيان بمظهر تاجران.. ربما قد يساعدانها.

"يا فتاة هل ضللتِ الدرب؟!"

تحدث شخص ما، يمسك ما يشبه اللوح الخشبي العريض أعلى رأسه مقتربًا منها، نظرت له بتوجس.

"ماذا تفعلين خارج منزلك بمثل هذه الأجواء؟! أتحتاجين لمساعدة ما؟"

أردفت، وهي لازالت تنظر نحو الرجلين، متسائلة، إذا كان يجدر بها حقًّا الوثوق بهما أم لا:

"لا أحتاج المساعدة، أشكرك"

"إنكِ متسخة ومبللة تمامًا، هل أنت واثقة أنك لا تحتاجين للمساعدة؟!"

"كلا، شكرًا لك"

عليها الآن التركيز بالأهم، وهو إيجاد المعلم و..

لم تكمل تفكيرها حتى وجدت ذلك الشخص يجذبها بإحدى يديه ويكممها باليد الأخرى! حاولت التملص لكنه لم يدع لها

مجالًا، قال بحنق:

"حينما يستضيفكِ الناس في نزلهم لا يجدر بكِ الهرب؛ فذلك منافٍ لأصول العرفان!"

وأخذ يحاول جذبها نحو الطريق المؤدي لنزل السيدة روزالين، لا بُدَّ أنه أحد عاملي النزل، فكرت بهلع بينما هي تحاول الصراخ والتملص.

كلا إنها لن تعود لهناك! لن تحظى بتلك الحياة! زاد هلعها ومقاومتها حتى زمجر الممسك بها باستياء فقامت بعض يده المكممة لفمها بقوة؛ ليصيح لاعنًا إياها وهو يدفعها بعيدًا، استندت لسور المنزل محاولة تجنب السقوط، ونظرت نحو الرجلين اللذين جذبهما صياح الفتى فقد نظرا نحو مصدر الصوت، كادت تسير نحوهما لولا أن عامل النزل جذب ذراعها دافعًا إياها لخلف بعض الأشجار، ثم أسقطها أرضًا، وبلمح البصر دعس موضع الكسر بقدمها؛ لتصرخ ليليس والألم يغمرها، شعرت بدموعها تتجمع بمقلتيها.. إن ذلك مؤلم.. مؤلم للغاية، همت بالإمساك بموضع الكسر لكن عامل النزل أمسك بإحدى ذراعيها، وكاد يكسرها هي الأخرى، وكمم فمها بيده الأخرى متحدثًا:

"حاولي أذيتي مجددًا، وسأكسر ذراعك!"

سحقًا، أرادته أن يترك ذراعها فحسب، فلم تعد تتحمل الألم.

"عذرًا، ما الذي يحدث هنا؟!"

تساءل رجل ما أتى من بعيد وأخذ يقترب منهما، ترك عامل

Page ٤٥١ / ٣٢ [1] هيلما

النزل ليليس، ووقف متظاهرًا بمساعدتها على الوقوف هي الأخرى مجيبًا أثناء توجيهه طرف سكين في الخفاء نحو ظهرها؛ لتهديدها بألا تفتح فمها:

"لا شيء إني أساعد تلك الفتاة المسكينة فحسب..".

فتساءل الواقف أمامهما:

"حقًّا؟! أهو يساعدك أيتها الأنسة؟!"

لم تدر ليليس ماذا تفعل.. ظلت صامتة فحسب.

"إني أنتظر إجابتك أيتها الأنسة".

"إنها متعبة فحسب، فكما ترى حالتها، هيا بنا إذن من هنا".

أخذ عامل النزل يجر ليليس لتسير برفقته، لكنه توقف فجأة؛ بسبب ذلك الصوت من خلفهما:

"إنك كاذب ومحتال، وتصوب سكين نحو ظهر فتاة.. يا للعار!"

نظرت ليليس نحو الرجل ذي الشعر الأزرق الغريب؛ لتجده يضع يده أعلى رأس عامل النزل، لم تمر ثوان حتى ارتعشت يد العامل الممسكة بالسكين، ثم أسقطت السكين، دفع العامل يد الرجل عنه،، ثم هرول مترنحًا دافعًا ليليس أرضًا، بينما حاول الركض بعيدًا، وهو يضع يده أعلى جبهته، تساءل ذو الشعر الغريب:

"هل يجدر بنا إمساكه؟"

"ليس عليكما القلق حيال ذلك؛ فقد تمكن منه جنودي بالفعل!"

كان ذلك الصوت واثق وغير مكترث لرجل ثالث يقترب منهم، الظلام والأمطار لم تُظهر شكله جيدًا، لكن ما لمحته ليليس هو درعه الخاص بالجيش، سيفه العريض، وهيبته التي زادت بكون ليليس لازالت أرضًا؛ فقد بدا ذاك الرجل أكثر طولًا تسقط خلفه الأمطار، بينما يدوي صوت الرعد وشرارات البرق، وهو ثابت أمامهم، يسألها باقتضاب:

"أنتِ مساعدة العالِم ران؟"

أومأت بوجل، ليكمل هو:

"أنا الفارس رادو قائد جيش العاصمة الأم، وقد كُلفت بإحضاركِ أنتِ، والعالِم ران للعاصمة الأم!"

***

[2]

أرض البعث

اصطدمت نسمات الهواء بوجهه وهيئته متوسطة الحجم، بينما تطايرت خصلات شعره، خفف غطاء الرأس الذي ارتداه من حدة هجمات الرياح، لكنه لم يكترث، بل ظل تركيزه منصبًا نحو الأفق، متجاوزًا تلك السفينة متوسطة الحجم التي يعلوها وتلك المياه الزرقاء شبه الهائجة.. كل ما رآه حقًّا هي تلك الجزيرة الواقعة على امتداد بصره.. لم يظهر بها أي ضوء إطلاقًا، فيكاد يقسم أن لولا أشعة الشمس القليلة المتبقية لما رأى أي شيء.. بدت تلك الجزيرة كالمجهول تمامًا.. لا تُظهر سوى كهف شاسع، لكنها في الواقع ليست مجهولة بالنسبة له.. تطلبه الأمر وقت ومجهود لكنه استطاع الإلمام بأدق تفاصيل هذه الجزيرة، وما تخفيه خلف ذاك الكهف فهو ليس سوى المدخل الحقيقي لجزر راندوس، لا يخشى أكثر من المجهول؛ لذا قرر ألا يدخل في خضم أي أمر في حياته إلا بعد أن يصير واضحًا له كالشمس، وبالمقابل أن يغدو هو نفسه مجهولًا تمامًا بالنسبة للجميع، فحينها لن يعلم أحد حقًّا بما يفكر أو بما يخطط، بنقاط ضعفه وقوته.. في حين أنه سيدرك كل شيء بالشخص المواجه له.. قواه، ثغراته، ما يخشاه وما يتمناه، سيصير عدوه كالعاري تمامًا أمامه، بينما سيصير هو كالمحمي بحصون من الأسوار العالية.. التي يجهل خصمه ماذا يقبع خلفها، لن يتفوق عليه أي شخص أو يسبقه بخطوة مطلقًا، كما حدث في الماضي.

صدر صوت قبطان السفينة:

"لقد اقتربنا يا سيد إيليا، عليك بركوب القارب الآن، فلن نرسو بالسفينة حسب أوامر الأمير ميستريو"

"بالطبع..".

لم يمر الكثير من الوقت حتى صار إيليا أعلى القارب، بينما يجدف بحار شاب أمامه ليصلا للجزيرة، إيليا.. يا له من اسم ذي واقع غريب على أذنيه؛ فإيليا ليس رسول مُرسل من قبل الأمير ميستريو، كما يبدو بل هو ميستريو نفسه متخفٍ بتلك الهيئة، هيئة رسول طويل الشعر بأيدي موشومة وعين بيضاء، تطلب الأمر ستة شهور بالتحديد من نقش الحبر على يديه، منذ عودته للمملكة الشرقية بعد جنازة والده، العين البيضاء تطلبت عقاقير مستمرة لمدة شهرين، لها ترياق لكن لا بُدَّ أن يبدأ بأخذه بعد ثلاثة شهور، وإلا قد يفقد بصره بالفعل، لكن ليس هناك ما يدعو للقلق فقد وضع كل شيء في الحسبان من الألف حتى الياء.

"لا يجدر بك الذهاب بنفسك إنها مخاطرة كبيرة.. هناك طرق أخرى لتحقيق أهدافنا!"

كانت تلك كلمات ابنته بيلا له قبيل المغادرة نحو الجزر، لكنها لا تعلم السبب الفعلي لاتخاذه لتلك الخطوة بنفسه، فهي تحسب أنه يفعل ذلك؛ لتسهيل انتصار شبه جزيرة لونا على جزر راندوس واسترجاعها، وبالتالي اتحاد شبه جزيرة لونا معه هو وليس مع بودير، لكن هذا ليس صحيحًا كليًا؛ فمن هذا

المكان سيعلم منبع قوة المرايا، وبالتالي سيقترب أكثر لهدفه بتدمير المرايا العظيمة!

تأمل الجزيرة منعدمة الدفاع أمامه.. قد تبدو كذلك لكن في الواقع إذا حاول أحد فعليًا الاعتداء عليها، فلن تنفعه سفن أو مدافع أو أي أسلحة، لن يتخطى هذا الكهف مطلقًا ولن يستطيع ردمه، فربما حتى هبوط نيران من السماء لن تفعل ذلك؛ فنوعية الصخور المكونة له لم يتواجد في صلابتها مطلقًا في أي بقاع أخرى في العالم، كما أن الكهف مختوم بسحر سبعة من السادة القدماء لممالك السحر، حين وُجد تحالف بين جزر راندوس وممالك السحر قديمًا، لكنه لم يعد قائمًا الآن، بل إن الجزر تشن الغارات دومًا على الجزء الشرقي لممالك السحر.

أساطيل القراصنة توجد بسواحل أخرى للجزر، لم يستطع ميستريو التعرف على أماكنها بالتحديد، فبأي حال لا يمكن لأي شخص الدخول سوى عبر ذاك الكهف.

كان قد وصل للبر بالفعل، ووطأت قدمه أعلى الرمال الناعمة، لم يحادثه البحَّار الشاب بل عاد أدراجه للسفينة تاركًا ميستريو على ساحل الجزيرة بمفرده، جيد فتلك أوامر الأمير ميستريو: "لا أحاديث جانبية ولا أسئلة! القيام بالمهمة المطلوبة فحسب".

ظل واقفًا بموضعه منتظرًا قدوم مُستقبله، مع حلول الليل استحال المكان للظلام الدامس، بل أن ضباب ما صار يحيطه، ذلك حتى ظهر في الأفق شخص يقترب.

إنه أحد مستقبلين الرسل للجزر في بدايات العشرينات، متوسط الطول يرتدي ملابس بحارة خفيفة وبنيته الجسدية ممتازة، أيضًا، وشومه تنم عن انتمائه لجزيرة كبرثا، وبالتالي فهو يعتمد على القوة الجسدية عوضًا عن السحر أو التخفي.

وقف الفتى أمام ميستريو، وتفحصه، ثم أمر بجدية:

"ارمِ أية أسلحة تحوذها!".

"لم آتِ محملًا بأسلحة".

لم يكن ميستريو محملًا بأسلحة بالفعل، عدا ذلك الخاتم الصغير المزين لإصبعه ببراءة

"أصدقك، لكن لتعلم إذا استعملت السحر بأي طريقة ستموت فورًا!"

في جزر راندوس استعمال السحر مباح، ويصل لحدود مخيفة، ليس بقدر ممالك السحر بالطبع، لكن لازال

"اتبعني!"

أشار الفتى لميستريو، ثم سار متجهًا نحو الكهف، رأى ميستريو عددًا لا يُحصى من الهياكل العظمية بجوار فوهة الكهف التي لم يستطع رؤيتها من قبل بسبب الضباب.. هذه هي طريقة قول سكان الجزر للغرباء: لا تتجرءوا وتفكروا بالتعدي على أرضنا؛ فذلك سيصير مصيركم قبيل محاولة دخول الكهف حتى.

وصلا لمدخل الكهف الذي توحشت به الظلمة، عدا من غفير

من الضباب، أعقب الفتى باقتضاب:

"اتبع الضوء وقد تنجو".

لم يضف كلمة أخرى، واتجه للداخل دون انتظار ميستريو.

تلك هي أول مخاطرة إذن.. قد لا ينجو حقًّا، فالفتى لا يكذب، لكنه أتى مستعدًا، قام بلف جانبي الرداء أعلى ملابسه بإحكام حول ذراعيه بأربطة لا تظهر للعيان، كما آخرج قفازين وقناع للوجه من جيبيه وارتداهم.. لم يبدوا مميزين لكنهم كذلك، فهم من أمتن أنواع جلد التماسيح، لن يتمكن أي شيء من اختراقه، خاصة أن باقي ملابسه مبطنة بذاك الجلد. دخل الكهف، فرأى الفتى لم يبتعد كثيرًا.. للحقيقة لم يظهر الكثير بفعل الظلام الدامس، ليس سوى ضوء خافت في الأفق يسير الفتى نحوه بخطوات ثابتة، لكن حتى إن كان المكان أكثر وضوحًا لما ساعد قناع وجه ميستريو على الرؤية جيدًا، تسلل لأذنه صوت ماء، كما أن خطواته بدأ بإعاقتها حائل مائي ما، وصل الماء لمنتصف ساقه، شعر كأن شيء يحاول إحكام قبضته حول ساقه لكنه لا يستطيع، إن الجلد يعيق ذاك الشيء، يرى الفتى يسير أمامه نحو الضوء فحسب، ثم في لمح البصر يحرك ذراعه في اتجاهات مختلفة، وكذلك رأسه ويتردد صوت سقوط شيء بالماء، إذن فالفتى يتجنب شيء ما يحاول مهاجمته، فجأة يشعر ميستريو بمن يحاول إحكام قبضته حول ذراعه، لكن عليه ألا يحيد نظره عن الضوء، خاصة بوصول الماء لبطنه بالفعل، حاول تحسس ما يصر على إحكام قبضته حول ذراعه بيده الأخرى دون النظر، فشعر بكيان

أرض البعث [2] ٣٩ / ٤٥١ Page

ضخم، طويل ومتلوٍ كالثعبان لكن لديه حراشف كالسمكة، بل إن خصلات شعر ما تخرج من ثناياه، أخذ الكيان يحكم فمه على ذراع ميستريو.. يعرف فصيلة تلك السمكة.. إن حاول هز يده أو التخلص منها بالقوة فستلتف حول ذراعه؛ حتى يتوقف جريان الدم بها تمامًا، لا تموت سوى بالنار، بيد أنه إذا اضطر للسباحة وهو ما على وشك فعله بوصول الماء بالفعل لعنقه، فسيجدر به تحريك ذراعه تلك بلطف للغاية، غطس الفتى أسفل الماء؛ حيث إن الضوء صار هناك، فتبعه ميستريو بعد استنشاق أنفاسه لمرة أخيرة، عند ذلك الحد لم يعد يرى الفتى من الأساس، فقط الضوء الظاهر بالأفق، بينما تعلقت رائحة المياه المالحة بمنآخره، شعر بما يحاول الاصطدام به فعمل على تجنبه لكنه لم يستطع تجنب كل شيء، فقد شعر بأسماك أخرى تحاول الفتك بكل من بطنه وإحدى ساقيه، كانت الأخيرة تلك عنيفة للغاية فرغم الجلد السميك الذي يرتديه، شعر بضغط غير عادي على ساقه، بل إن حافة أحد أسنانها بدأت باختراق الجلد وإدماء ميستريو، عليه أن يسرع فتلك الدماء ستجذب المزيد من الأسماك، لولا هذا الرداء وتلك الملابس المبطنة بجلد التماسيح لكان قد هلك.

يرى الضوء أقرب فأقرب لكن مع ذلك يزداد عدد الأسماك التي تغرز أنيابها بملابسه، بينما يحرق الماء المالح مقلتيه، المزيد من السباحة وسيصل للضوء لكن أنفاسه بدأت بخيانته، لكن الضوء اقترب للغاية، ثم من لا مكان اقحمت سمكة انصالها بقناع وجهه.. عليه ألا يحيد عن الضوء؛ فحينها سيكون هالكًا، أخذ بفك أربطة بمقدمة ملابسه تربطهم جميعا

Page ٤٠ / ٤٥١ أرض البعث [2]

ببعضهم؛ ليتخلص منهم سريعًا، ثم أزاح قناع وجهه كذلك، وسبح بأسرع ما لديه باتجاه الضوء، وهو لم يعد يرتدي سوى سرواله السفلي؛ قد يموت الآن بسهولة أكبر لكنه أزاح عبء الأسماك التي أثقلته ومنعته من السباحة، وقد وصل للضوء فها هو أعلى تلك المياه، ثم ألم غير عادي عصف بساقه التي جُرحت من قبل؛ لقد تمكنت منه إحدى الأسماك قبل أن يخرج بأكمله من الماء، لكنه تحامل حتى آخرج باقي جسده، رأى الفتى يوجه شعلة للساق التي أحاطتها سمكة سوداء مظهرها أشبه بالشياطين بعيون حمراء، وشعر نابت منها الأقرب للقرون، تفحمت السمكة وسقطت تتلوى أرضًا، كان الفتى سليمًا، غير مصاب بأي خدش رغم ملابسه الخفيفة؛ هذا طبيعي فلابد أنه اعتاد تلك الرحلة حتى صار على دراية تامة بهجمات تلك الأسماك، أردف الفتى:

"لقد نجوت، ليس بالسيء".

ثم اتجه مبتعدًا؛ ليجلب شيئًا ما، ألم ميستريو السابق منعه من معرفة ماهية الضوء أو مصدره، لكنه الآن يراه ويرى المكان بأكمله، إنه أقرب بالشاطئ الصخري داخل ذلك الكهف تضيئه العشرات من الأحجار البيضاء والزرقاء الموجودة أعلاه، قذف الفتى بعض الملابس لميستريو مردفًا:

"خذ".

ثم أكمل:

"بالنسبة لجرحك فهو مسئوليتك أنت؛ سأنتظر دقيقتين فقط؛

كي ترتدي الملابس وتتبعني، وإن كان جرحك سيعيقك عن السير، فعد لحيثما أتيت".

أنهى كلماته، وسار مبتعدًا لبضعة خطوات أخذ يرمق جدران الكهف بملل:

"يا لهم من أناس مثيرين للشفقة! هذا كل ما جال بعقل ميستريو حيال سكان هذه الجزر أثناء ارتدائه للملابس؛ ففي الواقع هم ليسوا سوى حفنة من الهمج، وكل أهدافهم في الحياة: الغارات على البلاد الأخرى، وأخذ الأسرى وبيعهم كعبيد لممالك السحر، كل فخرهم هو عدد قتلاهم وأسراهم، لو أن لديهم هدفًا بحق، لربما تفهم ميستريو دوافعهم واحترمهم؛ فلا تغيير كبير يحدث دون تضحيات لكنهم ليسوا سوى عشوائيين ولا يثير تقززه أكثر من أمثال هؤلاء، حتى الملابس التي يرتديها الآن لا بُدَّ أنها كانت ملك أحد الرسل الذين لم يستطع النجاة من الأسماك، فأخذ سكان الجزر جثته مجردين إياه من الملابس، ثم رموه مجددًا للأسماك؛ لتكمل وجبتها؛ هذا سيفسر تلك الأجزاء المقطوعة بالأكمام.

من المثير للسخرية للغاية أن حجته للتواجد هنا، أنه يريد إقامة تحالف برفقتهم، حقًّا مجرد تصديق حكام الجزر لتلك الحجة يجعله يريد الانفجار ضحكًا؛ كأنه أبدًا سيريد التحالف مع قوم بتلك العشوائية، وذلك التفكير المضمحل.

تنهد، وهو يمرر أنامله خلال شعر رأسه الخلفي، ويتحسس خمسة قوارير متناهية الصغر ملفوفة بإحكام بخيوط حول خصلات شعره، ثم يفك إحداها، إن السائل بها لن يشفي قدمه

لكنه سيطهره.. هذا كافٍ؛ حتى يذهب لحكيم بتلك الجزيرة ليضمم الجرح.

وضع محتوى القارورة على جرحه شاعرًا بألم بشع يصيبه، ثم قطع إحدى أكمام الملابس التي ارتداها ولفها حول الجرح، ووقف متجهًا نحو الفتى الذي بادله النظر بملل، ثم أشار لميستريو باتباعه، لم يسيرا كثيرًا داخل الكهف ذي الأحجار المضيئة؛ حتى وصلا لمنحدر يشوبه الكثير من التكوينات الصخرية ويكون ما يشبه الشلال لداخل الكهف، اتجها لأعلاه؛ حيث ظهر نهاية الكهف والسماء من خلفه أخيرًا.. يرى معبرًا حجريًّا متلويًّا طويلًا لا أسوار له، يقود لتلك الجزيرة التي يتخللها الماء من كل الاتجاهات، سار حتى رأى ارتفاع المعبر الشاهق عن الماء.. وأكمل دربه عبره؛ حتى خطت قدماه تلك الجزيرة، ورأى منازلها المبنية على جوانب الهضاب الغزيرة بالأحجار المضيئة بينما الجزيرة نفسها يمر الماء بها في كل مكان، تملؤها القوارب التي استقلا إحداها، رغم تقززه من قومها إلا إنها مبهرة! إنها -المختارة-، هذا هو لقبها؛ فهي أهم جزيرة بجزر راندوس؛ حيث إنها مقر الحكم، نظام الحكم بهذه الجزر مختلف قليلًا، فالحاكم يتم اختياره من العامة، من أسرة الحاكم السابق هذا حقًّا غير مهم، يكفي صياح قدر كاف له من الحمقى وقدرته على إخضاع حكام (ياما، يلدا، كبرثا) الثلاث جزر الأخرى، ويخوض اختبار مميت وينجو، لكن في سابقة لم تحدث من قبل، فآخر ثلاثة حكام ماتوا بعد تنصيبهم حكامًا بيوم واحد؛ مما أفزع سكان -المختارة- مطلقين على ما حدث بـ"لعنة الحاكم"، وصار الحكم عشوائيًّا أكثر مما كان

سابقًا؛ فكثيرون يتصرفون أنهم الحكام لكنهم لا يستلمون مهام الحكم حقًّا، التي فعليًا لا تتضمن سوى الغارات والاستعباد، والآن عوضًا عن وجود حاكم واحد ينهي ويأمر بأوامر لا معنى لها صار هناك كثيرون؛ مما أدى لرفض الثلاث جزر الأخرى للانصياع للـ"مختارة"، ولشدة الغرابة عوضًا عن استفراد كل منهم بالحكم إتمامًا لكمّ العشوائية التي يقبعون في ظلالها تلك؛ قرر قوم كل جزيرة إرسال شخص واحد؛ ليتم ترشيحه للحكم، قد يكون ذلك هو الأمر الوحيد الذي يبدي مثقال ذرة من التفكير، الأمر الوحيد الذي قد يصعب سقوط جزر راندوس؛ لتتمكن منها شبه جزيرة لونا؛ لذا فقد أتى ميستريو ليدمره.

خرج كل من الفتى وميستريو لأرض صلبة مجددًا، متجهان لداخل ذلك القصر المنحوت داخل الصخر، حتى أدق التفاصيل بداخله منحوتة من الصخر الأصلي للجبل الذي حل القصر مكانه؛ مما أثار إعجاب ميستريو واحترامه، سار الفتى نحو قاعة كبرى بالدور الأول مخترقًا بابها، ليري ميستريو خلف ذاك الباب الصخري العديد من البحارة والقراصنة مختلفي الهيئة يجلسون أعلى كراسٍ وطاولات مرصوصة بالقاعة، بعضهم يسكر، آخرين يمازحون بعض الفتيات، أتلك حقًّا قاعة رئيسة بقصر أم حانة؟ لكن هذا ليس بمثير للدهشة بالنسبة لقوم مثل هؤلاء.

لم يبالي لأحد، ولم يبالي أحد له، بينما اتجه الفتى لأحد الجالسين مردفًا، وهو يشير لميستريو:

"إنه الرسول المبعوث من أحد الأمراء".

تفحص الرجل ميستريو بملل، ثم تحدث:

"حسبت أن أسماك الشيطان ستقتله فحسب، وأنني لن أخوض هذا، استمع لي يا أنت أيًّا كان اسمك أو مرسلك، أنا لا أتحاور في إجراءات التحالفات وكل ذاك الهراء، عليك الانتظار حتى نختار حاكمنا التالي، والمرشحون على وشك الوصول".

أومأ ميستريو دون إبداء أية تعبيرات.

"لماذا لا يصل هؤلاء الأقذار؟ مللت من الانتظار في هذه القاعة النتنة!"

صاح أحد الأشخاص الموجودين بضجر؛ ليجاوبه آخر:

"يا لهم من أنجاس لن أختار أيًّا منهم! نريد حاكمًا من المختارة!"

"نريد حاكمًا من المختارة!"

"سأكون أنا الحاكم أيها الحمقى".

أخذت العديد من الأصوات المختلفة تصيح بتهكم وسخرية، فجأة فُتح الباب الصخري مجددًا، وأتى من خلفه رجل يصيح: "لقد أتى المرشحون".

لكنه لم ينهِ جملته حتى دُفع بقوة صوب الجدار بفعل شخص مفتول العضلات؛ ليزيح الرجل من طريقه، ويدخل باندفاع لداخل القاعة، وخلفه اثنان: رجل وامرأة

صاح مفتول العضلات: "أرى أنكم بدأتم الحفلة باكرًا أيها الداعرون، وتحددون من الحاكم!؛ لنرى بشأن ذلك إذن!"، ثم قفز تجاه الطاولات المختلفة، وأخذ ينهال ضربًا على الرجال الجالسين لها.

لا بُدَّ أن ذلك الرجل هو هونج مرشح جزيرة كبرثا، أصلع الرأس بوشم يخص جزيرته على الجزء الخلفي من رأسه، يترك الجزء العلوي من جسده دومًا عاريًا؛ ليُرى الآخرين تفحل عضلاته والندوب الغائرة التي يحملها، يحمل سيف وخنجران بانحناء مدبب؛ سيف وخنجر حول خصره، بينما الأخير أعلى ركبته اليسرى، شخص كهذا رغم همجيته واندفاعه لصار أكثر المرشحين انتخابًا، خاصة لعدم سعيه لأي تغيير، بل لترك نظام الحكم والغارات الخاصة بالجزر كما هي، ذلك لولا كونه عنصريًّا يزدري الجزر الأخرى، وهذا هو سبب مقت الكثيرون له، وأيضًا زهو آخرين به، شخص كهذا هو الأسهل في التخلص منه فنقطة ضعفه هي اندفاعه لكنه قوي جدًا.

فكر ميستريو محللًا المعطيات

ترك هونج من كان يصوب ضرباته تجاههم بأنوف دامية وعيون أصابها الورم، ثم بصق وجلس بأريحية أعلى إحدى الطاولات التي تتوسط القاعة، صاح الرجل الذي دُفع نحو الجدار من قليل بفخر:

"القبطان هونج من جزيرة كبرثا، قتل مئتي وثلاثين ألف شخص، وأسر أربعين ألفًا!"

بالطبع هذا هو مثقال الفخر والثناء لديهم! فرغم تقزز ميستريو منهم إلا أنه من الممتع أن يرى بشر يعترفون بحقيقتهم فحسب، ولا ينغمسون أسفل شكليات لا تحدد مثقال أهمية الأفراد الفعلي لديهم، ربما ذلك أحد الحسنات المعدودة لديهم، رغم غباء الأمر برمته.

صاح هونج:

"أي شخص ليس من كبرثا العظيمة؛ ليأت ويلعق حذائي، ويرى رمز كل من ياما ويلدا والمختارة العفنين محفورين أسفل الخراء الملتصق بحذائي!"

أخذ بعض الموجودين يهللون له، بينما آخرون يستهجنون حديثه.

"لكن رغم ذلك قد دخلت القاعة برفقتنا يا ثور كبرثا"

تحدث الرجل الذي دخل من قليل خلف هونج

إن كان شخص حقًّا قد يثير ريبة ميستريو في هذا المكان فهو ذاك الرجل الملقب بـ(أفعى ياما)، المرشح الخاص بـ(ياما)، لا أحد يعرف اسمه حقًّا فتلك عادة بعض البحارة والقباطين، استخدامهم للقب ما عوضًا عن اسمهم، أفعى ياما يبدو كرجل عادي تمامًا، طول عادي، جسد عادي، ملابسه تظهر بها إمارات الزهو قليلًا، يرتدي قلادة تحمل رمز جزيرته وقبعة ذات حواف معدنية وشكل مميز، لديه لحية متوسطة الحجم، ولا يحمل سوى سيف وحيد، لكن سلاحه الفعلي المميت قابع أسفل قبعته تلك.

رغم أن أفعى ياما قد يبدو الأضعف في المرشحين إلا أنه أخطرهم من منظور ميستريو، وذلك لعدة أسباب؛ بدايتها أن ذلك الرجل يستخدم السحر بل ويتقنه، أساليب قتاله متلوية وتختلف كل مرة، ذو دهاء ويصعب توقع تحركاته، بل إن من الاحتمالات المحبذة أن ذاك الرجل هو من تسبب في لعنة الحاكم من البداية، وهو من اقترح بصورة غير مباشرة انتخاب مرشحين من الجزر الثلاث؛ حتى يحظى بفرصة كونه ليس من المختارة، ويستطيع أن يصير الحاكم، لا بُدَّ أنه أيضًا خطط لما سيحدث لاحقًا؛ كي يستطيع الظفر بالحكم. شخص كهذا سيصعب مهمة تفكيك جزر راندوس وإضعافها للحد الذي يمكن شبه جزيرة لونا من استعادة الجزر، خاصة وأن أغلب سكان الجزر يفضلون أفعى ياما عن المرشحين الآخرين، لم يستطع ميستريو بعد معرفة خطط أفعى ياما إذا تسلم الحكم، لكنه واثق أن الأفعى لن يترك الجزر كما هي فحسب، شخص مثله سيكون تحالفات وثيقة مع دول، وبلاد أخرى؛ تجعل التمكن من الجزر أمرًا مستحيلًا.

إن نقطة ضعفه الوحيدة هي ميوله المنحرفة لكن الأفعى دومًا يخمد الشائعات حياله إن تأكد سكان الجزر قطعًا بشأنها؛ فسيفقده ذلك شعبية لا بأس بها، وستقل فرصه بالحكم، لكن سكان هذه الجزر تفكيرهم عشوائي، فهناك احتمال أن تفشي الشائعات سيكسبه المزيد من الشعبية، أفعى ياما فرصته للحظو بالحكم هي الأعظم بلا شك.. صاح هونج متجهًا لأفعى ياما:

"من تناديه بالثور أيها الداعر؟!"

لكنه توقف فجأة في منتصف الطريق وأخذ ينظر نحو الأرض بغضب، ثم أخذ يسب، ويلعن:

"تُخفي الأرض من حولي! يا لك من ساحر داعر!"

أجاب الأفعى:

"لا تحزن أيها الثور، لقد فعلت ذلك؛ كي آتي لك بنفسي!"

ثم سار ليقف أمام هونج تمامًا، أمسك هونج بحلق أفعى ياما بقوة لكن في لحظة انسلت حية عملاقة لحد مروع من قبعة الأفعى، وأخذت تلف حول ذراع هونج وتضغط عليها بقوة؛ حتى أفلت حلق الأفعى، ثم لدغت الحية ذراع هونج بقوة، وعادت لمقبعها أسفل قبعة أفعى ياما الذي تحدث، وهو يتجه ليجلس أعلى أحد المقاعد:

"لا تقلق سيكون لديك وقت كافٍ لمحاولة اجتياز الاختبار؛ فاللدغة لم تكن بذاك السوء".

ضحك هونج بسخرية، وامتص سم الحية، وبصقه سريعًا:

"عن أي وقت تتحدث؟! أنتم شعب ياما القذر تحسبون أنكم الأذكى، لكن بعد أن أصير الحاكم سأبحر نحوكم لأمحوكم من على الوجود أيها الداعرون!"

"سأنتظر ذلك بفارغ الصبر يا ثور كبرثا!"

كاد هونج ينفعل مجددًا، لولا محاولة البعض لتهدئته، شرع الرجل الذي يقدم المرشحين بتقديم أفعى ياما:

"أفعى ياما من جزيرة ياما، عدد القتلى غير معروف، عدد الأسرى مئتان ألف!"

تحدث الأفعى:

"لن أخبركم أني إذا صرت الحاكم سأمحي شبه جزيرة لونا، سأعدكم بشيء واحد أيها القراصنة عند استلامي للحكم ستصير جزر راندوس وشعبها هم ملوك العالم؛ ليستعبدوا ويسحقوا شبه جزيرة لونا، وغيرها من البلاد، بل سيصير العالم كله في جعبتنا!"

فصاح الكثيرون له: "يا له من ذكي؛ إنه يستغل أكثر ما يحرك هؤلاء القوم وهو: كرههم لشبه جزيرة لونا، واستغلاله لذلك ليس في إطار محدد تمامًا كإفناء شبه جزيرة فحسب، بل يوسع مدى وعده لأكبر مما قد يحلمون، إن ميستريو يحترم ذلك الشخص وطريقة تفكيره، فهو يذكره بنفسه.

"وأخيرًا.."

تحدث الرجل الذي يقدم المرشحين، بينما تقدمت امرأة غير مبالية

"القبطانة إيزلا من جزيرة يلدا، أربعمائة وخمسون ألف قتيل، ولا أسرى إطلاقًا!"

أجل تمامًا كما قيل.. أربعمائة خمسون ألف قتيل بيد هذه المرأة وبحارتها.. إيزلا التي لا يمكن سوى أن تُوصف أنها عقرب حي، دومًا يعلوها رداء واسع حتى منتصف ساقها يخفي

أسفله أسلحتها التي ربما لا تُحصى، جسدها غريب الهيئة قليلًا بالنسبة لامرأة؛ فهو أقل أنوثة عن المعتاد، ذات بشرة سمراء، وشعر أحمر قاني قصير شديد التموج، وعيون يمتزج بها لوني السماوي والبنفسج، ترتدي قرط غريب الهيئة.

تلك المرأة قد تكون أكثرهم وحشية، وتميل للفعل عوضًا عن الحديث، ودومًا تسود كلماتها أنها تسعى للتغيير، لم تقل مطلقًا التغيير من أي نوع.. للأفضل أم للأسوأ؟ لكنها لا ترتدي أي وشوم أو حُلي تحمل رمز جزيرتها؛ لكرهها لذلك النوع من التفآخر. إنها لا تمثل خطرًا مدهمًا فحتى عدد مؤيديها متوسط، لكنها إن شكت بميستريو فلن تتردد للحظة عن قتله، في الغالب لن تصير الحاكمة؛ لذا فالأفضل تجنبها فحسب، لكن إن كانت بالفعل تسعى للتغيير فبالتأكيد لن تكل أو تيأس حتى إن فشلت في أخذ الحكم وفي تلك الحالة يجب التخلص منها.

نقطة ضعفها قد تكون بماضيها؛ فقد قُتل ابنها أمام عيونها من قبل أعدائها، ولم تستطع إنقاذه، فيمكن استخدام العاطفة لتدميرها، خاصة لتأثيرها الشديد بها، فأربعمائة ألف بأكملهم من قتلاها كان بعد موت طفلها!

تحدثت المرأة باقتضاب:

"سواء صرت الحاكمة أم لا، سواء أعجبكم أم لا، فسأغير الأوضاع بالجزر!"

إذن: فهي تصر على التغيير، جيد إذن فقد أوضحت الحال

لميستريو، صاح الرجل الذي قدم المرشحين:

"فلنقم بالأضحية إذن؛ ليبدأ الاختبار!"

فصاح الموجودون بالمكان، نظر ميستريو تجاه الثلاث مرشحين تباعًا: هونج، أفعى ياما، إيزلا أو بمعنى أصح: ثور، أفعى وعقرب.. إنهم وحوش ضارية ستقتل فورًا من يعترض طريقها، وعليه التخلص من ثلاثتهم.

***

"من الأمواج جئنا وإلى الأمواج سنعود.. منذ أن كنا بضعة بحارة ترمى بهم الملعونة شبه جزيرة لونا لظلمات البحّار؛ حينها الأمواج هي فقط من أنقذتنا رغم أنها جدر بها قتلنا، وحتى تنتهي حياتنا وتحملنا الأمواج لأرض البعث".

ظل ميستريو يستمع لذلك الهراء أثناء وقوفه بجوار تلك المجموعة من القراصنة والمرشحين الثلاثة أعلى أكثر المناطق الشاهقة بذلك المعبر الذي يربط الكهف بجزيرة المختارة، كان الارتفاع شاهقًا للحد الذي يجعل المرء لا يستطيع رؤية الماء من أسفله خاصة لمحاوطة الضباب لجانبي ذلك المعبر، بالإضافة لظلام الليل الذي لا يجليه سوى تلك المشاعل التي يمسكها البعض في محاولة يائسة لتقليل العتمة.

أخذ أحد الواقفين يردد بقوة كلامًا في عظمة البحر، وأنه هو وأمواجه المنقذون. هؤلاء القوم لا يعبدون البحر لكنهم بالتأكيد يمجدونه لحد مقارب لذلك؛ ففي معتقداتهم أن البحر والأمواج لصفهم، وهي من أنقذتهم سابقًا من حكم شبه جزيرة

لونا، بل وجعلتهم ينفصلون عنها ويحكمون أنفسهم،كذلك فمن يموت لديهم لا يقومون بدفنه مباشرة، بل يُلقونه في البحر لتعيده الأمواج -على حد قولهم- لـ(أرض البعث)؛ حيث يتم دفنه هناك، وأرض البعث هي جزيرة ضئيلة الحجم للغاية، توجد على بُعد مايقارب السبعين كيلومترًا من جزيرة المختارة، في الواقع إن الأجساد تنقاد لذلك الاتجاه فحسب لقوة التيار المائي في اتجاه جزيرة أرض البعث تلك، لكن رغم علمهم بذاك الأمر فهم يصدقون أن التيار صار قويًا بذاك الاتجاه فحسب؛ كي يجذب جثث الموتى نحو أرض البعث.. ياللا للعبث!.

"إن الأمواج أعطتنا جزرنا، حياتنا، كل ما نملك، أعز ما نملك".

أعز ما يملك! فكر في تلك الجملة؛ لتظهر في مخيلته صورة ابنته بيلا مبتسمة، فابتسم لجزء من الثانية، ثم تذكر ابنه سول فتلاشت تلك الابتسامة.

"أخي، أراك لا تتذكر حتى وجهي وكيف بدا، هل تعتقد الآن أن كل ما فعلته بسبب موتي كان صائبًا؟"

رأى ذلك الظل عديم الوجه يحادثه، لا يراه سوى ميستريو ودومًا يأتي لمحادثته بعد تفكير ميستريو في أفكار بعينها، أجاب ميستريو أخاه بأفكاره دون أن يفتح فمه:

"موتك لم يكن سوى الشمعة التي أضاءت لي ما جدر بي معرفته، لقد أرشدني السبيل المنشود، والآن لم يعد يعنى لي

شيئًا".

"أنت محق يا ميستريو، لم يعد يعني لك شيئًا؛ فقد صار خسارة في سبيل ما هو صائب، أليس كذلك؟ ككل تلك التضحيات الأخرى التي سببتها، وتجردت فيها من إنسانيتك في سبيل ما هو صائب -من منظورك-!"

"أجل يا أخي وأنا لست نادمًا؛ فأنا أفعل ذلك لأحمي شعبًا وأمة بأكملها، ولأحمي أعز ما أملك وفي سبيل ذلك لن أدع إنسانيتي تقودني مطلقًا، ليس بعد ما تسببت في موتك من قبل؛ حتى وإن كان ذلك ما قد أنار بصيرتي"

فجأة سمع ميستريو ظل أخيه يضحك سآخرًا، ثم أردف:

"لا تخدع نفسك يا ميستريو، فلقد تمكنت إنسانيتك منك مجددًا، أليس ذلك هو سبب تذكرك الدائم لي بعد أفكار بعينها؟ لتتذكر ما قد يحدث إن تركت إنسانيتك تتملكك، ما حدث قد حدث يا ميستريو ندمك وترددك الدائم حيال ذلك القرار.. ذلك القرار الأوحد.. لن يغير شيئًا؛ فأنت لن تستطيع العودة للخلف لتغييره، وحتى إن عدت، فلن تغيره! أتدري لماذا؟! لأنك لست مجهولًا بالنسبة لي؛ فأنا لست حقًا أخوك الميت رانل، بل صورة يكونها عقلك في محاولة بائسة لمشاركة أفكارك مع شخص مقرب لك".

"أنت محق يا أخي.."

أنهى ميستريو جملته، وقد تلاشى ظل أخيه للعدم، سمع صوت الرجل الذي يمجد في البحر يردد كلماته صائحًا:

"تلك المياه هي من ساعدتنا على الانتقام من أعدائنا، وإذلالهم! وبها سنستعبد أراضي شبه جزيرة لونا وقومها الملعونين!"

لقد اقتربت اللحظة إذن.. اللحظة التي سيتقدم فيها شخص كأضحية بالنيابة عن كل مرشح، والأضحية التي تنجو وتستطيع الوصول لشاطئ معين بجزيرة المختارة، ستعني باعتقادهم أن البحر هو من اختار نجاتها، وبالتالي هو من اختار المرشح الخاص بالأضحية لأنه قبل روحه فحسب دونًا عن أضحيته، من قبل كان المرشحين للحكم يكونون من المختارة، لكن بعد لعنة الحاكم تلك، وبرغم أن المرشحين من الثلاث جزر الأخرى إلا أن الشروط لازالت كما هي، من اختار البحر أضحيته للنجاة بالإضافة لاختبار مميت للمرشحين بعد مراسم الأضحية هو ما يحدد أي المرشحين سيصير هو الحاكم. بالطبع يستعمل الكثير من المرشحين أساليب للغش سواء في تقديم الأضحية أو في الاختبار المميت.

لكن إيزلا، وهونج لن يفعلا أيًّا منهما ذلك؛ فإيزلا مباشرة بتحركاتها لا تميل للتلوي، بينما هونج سيمنعه تكبره وزهوه بنفسه من ذلك، أفعى ياما أمر آخر بالتأكيد؛ سيكسب ذلك الرجل في النهاية بالتأكيد سواء جاراه ميستريو بلعبته تلك في أخذ الحكم أم لا؛ لذا لن يعيره ميستريو اهتمامًا في اللحظة الراهنة، سيترشح ليصير أضحية لهونج أو إيزلا، لكن هناك مخاطرة في كلاهما، ومكسب فإن أصبح أضحية هونج ربما سيُقتل فورًا من قبل الثور؛ لاحتقار هونج لأي شخص ليس

من جزيرة كبرثا، ناهيك عن شخص ليس من جزر راندوس من الأساس، لكن إن لم يقتله هونج، وعاش ميستريو خلال مراسم الأضحية، وهو ما سيحدث.. سيعامله هونج فيما بعد على أنه تميمة حظه، وذلك سيمكنه من استغلال اندفاع هونج والتخلص منه، لكن هونج لن يصير هو الحاكم وفي الواقع هو أقل المرشحين خطرًا فلا داع لمجازفة كتلك، بينما الخطر من إيزلا هو كونها إن شكت به لوهلة ستقتله بلمح البصر، لكن إن لم تشك به مطلقًا، ولم يمت وهو ما سيحدث، فسيستطيع التقرب لها واستغلال ماضي موت طفلها؛ لتحقيق أهدافه عبر جعلها تثق به، وحينها سيتخلص من ذلك التغيير الذي تسعى نحوه. هي إيزلا إذن، سيكون أضحيتها، إنه نفس القرار الذي اتخذه في الأصل قبيل مغادرة عاصمة المملكة الشرقية، لكنه أراد مراجعة المعطيات.

ازداد صوت الرجل الممجد في البحر علوًا: "لذا كما قدمت لنا تلك الأمواج كل شيء! ففي ظل اختيارنا لحاكم جديد، نحن نقدم أضحية للأمواج؛ كي يكون حاكمنا قاهرًا لأعدائنا و..".

"كفى!".

صاح هونج بصوت جهوري، واندفع نحو الرجل الممجد للبحر الذي نظر لهونج بتوجس، ثم في لمح البصر دفعه هونج من فوق المعبر نحو الضباب والمياه التي لا يُظهرها الارتفاع الشاهق، لم يكد حتى الرجل يصرخ من إثر الصدمة، تحدث هونج بملل: "ها قد قدمت أضحيتي!"

أخذ البعض يحيه على إزاحة حمل تلك الخطبة عن عاتقهم،

بينما آخرون نظروا له بغضب، لم يعلق المرشحان الآخران، بل ظلت إيزلا متجهمة الملامح كما تبدو طوال الوقت، أما أفعى ياما فابتسم نحو هونج الذي أراد مشاجرة الآخر بدوره بسبب ذلك، وبصق أرضًا، ثم صاح:

"لماذا تبتسم نحوي أيها الساحر اللعين؟"

"لقد استمتعت بذلك، أليس كذلك يا ثور كبرثا؟ فذلك الرجل لم يكن من كبرثا".

انفجر هونج ضاحكًا، فتحدثت إيزلا بموضوعية مقاطعة ذلك: "أضحيتك لا تُحسب؛ فالأضحية لا بُدَّ أن تكون مقيدة تمامًا قبل أن تبدأ رحلتها!"

"هذا صحيح يا داعرة يلدا؛ فقد دفعت ذلك الداعر نحو الحافة؛ لأنه جعلني أمل فحسب، كما أنه من جزيرة ياما القذرة".

أنهى هونج جملته الأخيرة، وهو ينظر نحو أفعى ياما بسخرية، ثم يبصق، لم تتغير ابتسامة أفعى ياما بدوره، تحدث القرصان الذي خاطب ميستريو عند ولوجه للقاعة بالقصر للمرة الأولى، قائلًا:

"فليتقدم كل من يريد أن يصير أضحية لكل مرشح".

أكمل القرصان بصوت جهوري متجاهلًا كل ما حدث منذ ثوان: "من سيترشح؛ ليصير أضحية أفعى ياما؟"

رُفعت العديد من الأيادي، ثم تقدم أحدهم، كان رجلًا في

منتصف الأربعينات لا يبدو به أي شيء مميز:

"أنا سأكون أضحية حاكمي أفعى ياما".

أومأ أفعى ياما، ثم أخذ ثلاثة من الموجودين يكبلون الرجل الأربعيني، ويقيدونه بقيود محكمة

شخص كهذا سيخسر بالتأكيد، ما نيتك بالتحديد يا أفعى ياما؟ تساءل ميستريو

تساءل القرصان مجددًا:

"من سيترشح؛ ليصير أضحية القبطانة إيزلا؟"

رفع ميستريو يده وتقدم، بينما انشغل عقله بما يعزم أفعى ياما على فعله، تساءل القرصان المسئول بحدة:

"من أنت؟! أنت لا تنتمي لجزر راندوس! من هذا الرجل؟!"

"أنا الرسول أيليا مُرسل من قبل الأمير ميستريو من المملكة الشرقية للجزء الشمالي من قارة أثرا"

"إنه ذلك الرسول الذي أتى لعرض تحالف يريده أمير ما"

وضح الفتى الذي استقبل ميستريو في البداية قبيل دخول الكهف

يالا كم العشوائية التي يشهدها الآن، وكانت إجابة ذلك الفتى كفيلة بإظهارها، فكر ميستريو شاعرًا بالشفقة حيال أرض هذه الجزر؛ لأنها سُكنت من قبل أشخاص بهذه الضحالة.

"أجل تذكرت! رسول ولم يمت في طريقه لهنا؟! غريب، لكنك ربما لن تُقبل كأضحية فأنت لست من الجزر، ثم ألم تُرسل لإيصال رسالة، كيف لك بأن تقدم بفعل كهذا؟!"

أجاب ميستريو:

"إنه لشرف لي ولأميري أيها القرصان!"

أخذ بعض الواقفين يؤيد تقديمه كأضحية، وآخرون يرفضون، قاطعت إيزلا الجميع بحزم:

"أنا لا أهتم إن كان من أهل الجزر أو لا أو إن كان حتى قرد، إن أقبل على تضحية كتلك، وكانت حياته معدومة القيمة لذلك الحد له ولأميره؛ فليصير هو أضحيتي!"

تلك المرأة.. ترفض تقاليد شعبها المقدسة؟! هذا مؤكد بوصفها له بأنه لا يعطي قيمة لحياته لإقدامه على أن يصير أضحية في هذه المراسم، أي مواطن آخر في الجزر فسيرى أن تلك تضحية عظيمة، وأن من يقوم بذلك بطل قومي! تلك المرأة لن تسعى لتغيير نظام الغارات أو الحكم فحسب، بل هل ستسعى لتغيير المعتقدات أيضًا؟!

هذا مطمئن ومقلق في ذات الوقت؛ ففعليا من أصعب ما قد يسعى له الفرد هو تغيير معتقدات متأصلة في قوم منذ دهور مضت، لكن ذلك ممكن على المدى البعيد إن استطاعت تكوين هيئة من الأتباع الذين يرونها كشخص ملهم، ويصدقونها حتى أخمص قدميهم، مكرسين أنفسهم في نشر أفكارها الجديدة، ومعتقداتها وتلميعها، واحتقار المعتقدات

المتأصلة والتقليل منها تحت مسميات مبتدعة حتى يمحوها بالتدريج، الأمر قد يكون أصعب ما يكون، لكن إن وصلت لتلك النقطة، نقطة أن يروها كملهمة منقذة لهم، كشخص منزل من السماء وزُرعت بهم فكرة احتقار تقاليدهم؛ فسيصير هدفها قابل للتحقيق، حتى إن لم يتبعها الجميع فعاجلًا أو آجلًا إن اتبعت خطوات ثابتة، ومخططة بدقة ستصير ذات تأثير ونفوذ عظيم، لكن إلى أي تغيير في المعتقدات تسعى؟! هذا سؤال مهم للغاية..،وكيف لامرأة قتلت أربعمائة وخمسين ألف شخص أن ترى أن حياة الآخرين لها قيمة؟!

ربما قد تكون جملة فحسب التي قالتها، لكنها قادت لمئات الأفكار بعقله، ففي الواقع الأشخاص دومًا يقولون ما يُظهر حقيقتهم بطريقة أو بأخرى، فامرأة كتلك لن تستفيد بأي شيء مما قالته حاليًا سوى جذب كره نحوها؛ لنبذها لمعتقدات الموجودين، وهي ليست مراهقة بلهاء لتتظاهر بالتمرد ظنًا منها أن هذا يبديها أكثر إثارة، إذن فهي لا تكذب فيما قالته.

صاح القرصان المسئول:

"إن الأضحية لهي شرف لمن يقدمها أيتها المرأة!"

تلا ذلك علو الأصوات بالاعتراض حيال ما قالته إيزلا؛ لتصيح بدورها:

"لتتركوا الشكوى للنساء أيها القراصنة مُدعين القوة! من منكم لا يعجبه حديثي، فليأتي لآخراسي؛ فأنا لن أتحمل هذا الهراء كثيرًا!"

غضب أحد الواقفين واندفع نحوها، لكن لم تمر سوى ثوان حتى صرخ الرجل؛ فقد كسرت ذراعه، وحين حاول الهجوم مجددًا كسرت ساقه!

إنها سريعة جدًا، وذاك بدون استخدام أسلحتها حتى! لكن لماذا تركت الرجل يئن بألمه فحسب ولم تقتله؟ ربما هي تقتل فحسب الغرباء عن الجزر، لكن في تلك الحالة لما قالت ما قالته حين قدم ميستريو أضحيته؟!

هناك أمر غريب حيال تلك المرأة، وعليه معرفته حالما يعرف خطط أفعى ياما.

عم الصمت لوهلة نظرت فيهم إيزلا للموجودين منتظرة أي شخص آخر يريد آخراسها، وينضم لذلك الذي يئن أرضًا، فلم يقترب أحد فنظرت نحو القرصان المسئول الذي أكمل حديثه، والغضب بادٍ على معالم وجهه، ثم أشار للموجودين بتكبيل ميستريو؛ ليصير مستعدًا للأضحية، ثم تساءل للمرة الأخيرة:

"من سيترشح؛ ليصير أضحية القبطان هونج؟"

لم يرفع أحد يده، وساد الصمت لبعض الوقت، تأكد ميستريو أن شعبية هونج هي الأقل بالفعل، صاح هونج بغضب: "ماذا داهكم أيها الداعرون؟!"

فجأة رُفعت يد شخص يقف في الخلف لم يلمحه أحد من قبل، ثم تقدم ذلك الشخص كان طويلًا يبدو في أواخر العشرينات، يرتدى ملابس رثة وقبعة واسعة للغاية تُخفي وجهه، ويمسك عصا طويلة تشبه الرمح، تساءل هونج بنفس

الغضب:

"من أي جزيرة أنت أيها الداعر؟ لا أرى لك أي وشوم".

لكن ذلك الشخص لم يجب، بل إن قبعته حتى أخفت عينيه وملامحه.

"إن ذلك الرجل آخرس"، تحدث أحد الواقفين فانتبه له الجميع، ليكمل:

"إنه ذلك الشخص الذي أتى لـ(المختارة) منذ ما يقرب العام، ولا يعرف أحد من أين أتى؟ أو ما قصته أو كيف اجتاز الكهف من الأساس؟"

أردف آخر:

"أجل تذكرته، إنه ذلك الشخص الملقب بـ(البحَّار) فحسب، أليس كذلك؟"

فزمجر هونج بغضب:

"داعر ليس من الجزر وآخرس، هو من سيكون أضحيتي؟!"

مرت بضع ثوان، عم الصمت فيه، ثم بصق هونج أرضًا بغضب، أردف القرصان المسئول نحو الملقب بـ(البحَّار):

"لن تستطيع بدء مراسم الأضحية بقبعتك، وعصاك تلك!"

فخلع الأخير قبعته وتمعن النظر فيها قليلًا، ثم رماها لتحملها الرياح باتجاه المياه السحيقة، ثم أخذ حبل من الموجودة لتقييد المرشحين، كأضحية ولف العصا إليه بصورة تجعلها متشبثة

بظهره، حينها فحسب لمح ميستريو ملامح البحَّار الذي أخذ اثنين من الموجودين يقيدانه، لُف قماش حول أحد عينيه يبدو أنها مصابة أو لم تعد موجودة أو ربما شيء آخر، بينما بدت عينه السليمة صفراء أقرب للون الليمون، ذو شعر بني متوسط الطول وندبات أعلى وجهه، هل هذا الشخص رحالة أم أنه مواطن من المملكة الشرقية؟! إنه بالتأكيد في الأصل منها بسبب لون عينه ذاك لكن من أين جاء؟ شخص عبر الكهف وقبع بـ(المختارة) دون هدف واضح، لا بُدَّ لميستريو بتوخي الحذر منه.. لم يول البحَّار اهتمامًا لأي شخص، ثم فجأة ودون أي إنذار نظر نحو ميستريو للحظة من الثانية، نظرة أشعرت الأخير بأن ربما هناك خطر أسوء من إيزلا، وأشد من أفعى ياما، وأقوى من هونج.. كيف لشخص كهذا، بل لماذا سيختار أن يكون أضحية هونج؟!

لم يكمل ميستريو تساؤله حتى كان بالفعل قد هدأ، واستوعب أنه وقع بشرك أفعى ياما، ذلك اللعين هو من جعل (البحَّار) ذاك يترشح؛ ليصير أضحية هونج.

إنه يريد أن تكسب أضحية هونج؛ كي تقل فرص إيزلا، وبالطبع في سبيل ذلك لا بُدَّ أن تموت أضحيته، وأضحية إيزلا، ثم سيدع إيزلا وهونج يقتلان بعضهما في الاختبار المميت أو سيتسبب بأي صورة بخسارتهما؛ كي لا تحيط الشكوك به، وبالطبع بعد تسلمه للحكم سيسم نفسه، لكن ليس بالصورة المميتة؛ ليرى الآخرون أنه تأثر بلعنة الحاكم لكنه نجا لأنه (المختار)..ذلك اللعين يريد التسبب في موت

ميستريو أثناء مراسم الأضحية، كم يحترم ميستريو شخصًا بتفكير أفعى ياما وسط بؤرة القمامة هذه، لكن أأسف أيها الأفعى، فلن أستطيع الموت اليوم هناك الكثير لم يتم إنجازه بعد.

فكر وهو يقف لجوار من ترشحوا؛ ليصيروا الأضحية على حافة المعبر، ثم وقف كل مرشح للحكم خلف أضحيته

وصاح القرصان المسئول:

"فلنقدم أضحيتنا للأمواج، ولتنجو أضحية الحاكم الذي سيقهر أعداءنا!"

فور إنهاء جملته دفع كل مرشح أضحيته نحو المياه السحيقة، هل بدا الأمر غريبًا أو جديدًا حقًّا بالنسبة له؟ السقوط من أعلى تلك الهاوية بعد تدربه سابقًا على أمر مماثل لذلك عشرات المرات.. لم يتغير شعور الهواء البارد الملامس لوجهه بقسوة أو الرهبة الأولى عندما تختفي الأرض الصلبة من أسفل قدمه، لكن بالطبع اختلف شعور أنه عند تدربه لم يكن ذلك سوى محاكاة للتجربة الواقعية، محاكاة إن لم ينجح فيها فسينقذه أحد ما، لكن الآن هو في معقر العدو فلا منقذ أو مهرب، وهو ليس ذلك الشخص الأبله الذي يُعتقد أنه لا يخشى الموت الذي سيأتي عاجلًا أم آجلًا؛ فهو لا يخطط للموت الآن، مازال هناك الكثير لم يتم إنجازه، بدءًا من تدمير جزر راندوس، وانتهاء بتدمير المرايا، وحتى بعد ذلك فهو لا يسعى للموت.. فلن ينجز كل ذلك؛ كي يموت كالشهيد في النهاية فحسب.. حسب البعض بداية من ابنته بيلا أن ذلك

ما يريده باتخاذه لمجازفات كالقدوم لجزر راندوس بنفسه وبمفرده.. إنها في الواقع مهمة لا يثق سوى بنفسه لأدائها، لكن لا أحد يعلم ما يعتمر باله حقًّا، وهذا جيد جدًا..

شعر بجسده يصطدم بالمياه السحيقة، ثم تغمره تمامًا ملطخة أنفاسه.. لم يستطع السباحة بفعل القيود، ولم يحاول حتى فعل ذلك، بل انحنى برأسه نحو ذلك الخاتم الموجود أعلى إصبع السبابة بيده اليمنى، وضغط بأسنانه أعلى أحد أجزائه؛ لتخرج آله حادة ضئيلة الحجم منه استخدمها في قطع قيوده.

انتظر بعض الوقت؛ كي يترك فرصة كافية للأضحيتين الآخرتين بقتل بعضهما أو الغرق، (البحَّار) ذاك سيحاول قتل ميستريو بلا شك، وبالطبع ميستريو ليس ندًا له، خاصة بساقه المجروحة تلك، تحسس القارورتين المدثرتين بخصال شعره، وتذكر خطته باستعمال السائل بهما في حالة اعتراض أي غريم لدربه، انتظر برهة أخرى، ثم سبح في اتجاه التيار متجاهلًا الألم بساقه؛ حتى اقترب من المكان الذي يصير تيار الماء عنده أشد ما يكون، لكنه رأى شيئًا غريبًا للغاية.. ذلك البحَّار كان يقف أعلى الجزء الأيمن للأرض اليابسة المحيطة للمياه دون قيود، يحمل شعلة وقد استرجع قبعته، لكن بافتراض أنه كان متمرسًا بالصورة الكافية لفعل كل ذلك، كيف استطاع الصعود لذلك الجزء من اليابس رغم ارتفاعه الشاهق وانجرافه الشديد، وفي وقت ضئيل كهذا؟!

حتى المرشحين الثلاثة لن تخولهم قدراتهم لتسلق مثل هذا الجرف العالي شديد الانحدار في وقت كهذا! إن هذا (البحَّار)

ليس شخصًا اعتياديًا على الإطلاق!

اتخذ البحَّار وضع القرفصاء، وأخذ يتأمل ببرود شيئًا ما في الدرك الأسود من الماء رغم الظلام الحالك في المياه المحيطة بميستريو إلا أنه حاول التركيز في الاتجاه الذي ينظر له البحَّار, حتى لمح جسدًا يجاهد؛ كي لا يفقد أنفاسه وتخور قواه تمامًا.. في سبيل ذلك أخذ يحاول ويحاول بكل ما أؤتي، إنه الرجل الأربعيني، على شفا حفرة من الموت.. بغرقه الذي صار أمرًا حتميًا، هو فقط يتمسك بقشة لا تكاد تكون موجودة من الأساس في أمل كاذب أن حياته لازال مقدرًا لها بالاستمرار.

بدا مشهد متوقع تمامًا، خاصة من أضحية غير متناسبة لمراسم كهذه، مثل هذ الرجل الأربعيني، لكن ما جذب انتباه ميستريو حقًّا هو كمية البرود على ملامح البحَّار، كما لو كان يجلس في عشاء ممل، إن ميستريو لا يهتم حقًّا بنظرات ذلك الشخص، لكنه لوهلة فُزع بحق.

حين تذكر ذلك اليوم، وتذكر رؤية سول برفقة بيلا بمفردهما بالقرب من تلك البحيرة، وقف سول على مشارفها، يبدو أنه لمح شيئًا ما في البحيرة، ربما هي سمكة أو ما شابه، لكنه تعثر وسقط، وظل يجاهد؛ كي لا يغرق، اندهشت بيلا، واقتربت منه لكنها..

لم يتذكر ميستريو كل شيء فقد لفت انتباهه غرق الرجل الأربعيني بالفعل، لكن قبل انقشاع الذكرى تمامًا، كان قد تذكر نظرات بيلا ذلك اليوم.

نظر نحو البحَّار فوجده تلك المرة ينظر نحوه، ارتاب ميستريو، فكيف استطاع رؤيته هو أو الرجل الأربعيني في ظل هذا الظلام حتى بإمساكه لتلك الشعلة؟! فلازالت المسافة بعيدة، ولازال الليل حالك السواد! ظل البحَّار ينظر له بملامح لا تعابير بها، ثم وقف وانصرف.

ألن يحاول قتله؟! أتلك حيلة ما؟!

تساءل وظل بمكانه لمزيد من الوقت ليتأكد من نوايا ذلك الشخص، وأنه لن يعود لمحاولة قتل ميستريو، مر بعض الوقت، ولم يتغير شيء وكان البحَّار قد اختفى تمامًا.

هذا هو نوع الإحباط ذو الإزعاج الأكبر لميستريو-المجهول-، وهذا الملقب بالبحار يمثل مجهولًا بالنسبة له الآن! علها حيلة ما من أفعى ياما، لكن هذا مستحيل! فرغم ذكاء أفعى ياما يستطيع ميستريو التنبؤ بتصرفاته، وما فعله البحَّار الآن منافٍ لأي منطق خاص بأفعى ياما.. لقد تصرف ذلك الشخص من محض إرادته، وليس بآوامر أفعى ياما.. لكن لماذا لم يحاول قتل ميستريو؟! أربما حسب أن ميستريو سيموت بمفرده بفعل تلك الرحلة؟! لكن هذا مستحيل! شخص كهذا لا بُدَّ أنه يستطيع معرفة الخصم جيدًا! إذن سيعلم أن ميستريو ليس شخصًا سيموت فحسب.. هل استهان بميستريو؟! مرجح، لكن مرجح ليست كافية عليه أن يجزم! اللعنة على ذلك الشخص.

أكمل رحلته تاركًا جسده لأمواج تيار الماء، وهو يراجع كل الاحتمالات الممكنة الخاصة بذلك الملقب بالبحار، حتى

خطت قدمه أعلى تلك الأرض الرملية، ورأى هؤلاء القراصنة يقتربون منه وينظرون له بدهشة، بينما يردف أحدهم:

"إنه أول أضحية تنجو منذ ظهور لعنة الحاكم!"

ردد القرصان المسئول، وهو يشير لإيزلا: "إذن فالأمواج تدعم القبطانة إيزلا!"

***

بلل، أصوات مهيبة صاخبة، ومياه تجد دربها لفمه الجاف، فتح عينيه؛ ليرى الغيوم أعلاه، لا تُظهر السماء من كثافتها، الأمطار صارت أعنف من ذي قبل بصورة جنونية، لكن المشكلة الحقيقية وجوده أعلى ذاك الزورق وسط أمواج البحر العاتية، نظر بعينيه في الأرجاء عن اليابسة لكن الظلام المحدق لم يساعده على إيجاد ضالته، بحث حوله بتلقائية عن مجداف، لكنه حالما رأى تلك القبعة لجواره، ظهرت الرؤية كاملة في عقله، وتذكر آخر ما عهده بعد الانتهاء من مراسم الأضحية، وتضميد قدمه بعدما صار شخصًا مقدسًا؛ لأنه الأضحية التي قبل البحر مرشحها، تبع ذلك ذهابه للشاطئ الذي انطلق منه المرشحون الثلاثة للاختبار المميت، وهو سباحة سبعين كليومترًا متتالية نحو أرض البعث في أوج الليل والأمطار عبر البحر الهائج دون أي مساعدة، بالطبع ليصلوا في النهاية للجزيرة الضئيلة ويتقاتلون حتى بقاء الأقوى فحسب.

أخذ يراجع ميستريو أسباب ترك البحّار له على قيد الحياة،

والسر الكامن خلف ذاك الشخص وخلف تلك المرأة إيزلا التي تسعى لتغيير لا يفهمه بعد، بل ويضع لها أفعى ياما حسبانًا، ذاك عندما وقعت عيناه على زورق متروك وأعلاه قبعة ذلك المسمى بالبحار، وحينها تكهن ميستريو أن البحَّار يريد ميستريو أن يتجه لأرض البعث. أذاك بفعل أوامر أفعى ياما أم لا ؟ لم يدرك ميستريو، لكنه قرر أنه لن ينساق بتلك اللعبة، وسينصرف حتى ضرب أحدهم مؤخرة رأس ميستريو وأفقده الوعي؛ ليجد نفسه الآن قابعًا بهذا الزورق في أوج الأمطار العاتية والأمواج الأعتى، إنه لا يحتاج لمجداف فهو يعلم وجهته، إنها أرض البعث والتيار كفيل بجذبه لها دون الحاجة لمجداف لقد فكر من قام بضرب ميستريو على مؤخرة رأسه بذلك.

لم يستغرق سوى بضعة ثوان حتى حدد اتجاه الرياح، إن طقس البحر المؤدي لأرض البعث غير مستقر دومًا، لكن في الليالي المطيرة كهذه.. تزداد سماكة قطراته مع استمرار هطول المطر؛ لذا يتم اختيار ليلة كهذه لأداء الاختبار الذي يخضع له المرشحون؛ كي يزيد صعوبة سباحة سبعين كيلومترًا في أوج الظلام دون أي مساعدة.. لا بُدَّ أن الأمطار لم تتوقف مطلقًا منذ شعر بها للوهلة الأولى أعلى اليابسة، بل ازدادت سوءًا إذا قورن سُمك القطرات الأولى للأمطار التي شعر بها بسُمك التي كانت تبلل وجهه منذ ثوان، إذن فبحسبة بسيطة لازال أمامه أربع ساعات حتى يصل لأرض البعث في الشمال الشرقي.

إن أفعى ياما حقًّا يرى أن إيزلا تشكل خطرًا جسيمًا بالنسبة

له؛ فهو مصمم على أن يذهب ميستريو الذي يُمثل أضحيتها لأرض البعث؛ ليُري القراصنة الآخرين أنها تستعين بأضحيتها خلال الاختبار، وذلك سيجعل البحر لصفها بصورة غير عادلة -كما يُشاع بمعتقداتهم- يا له من تفكير لا توجد بلاهة تنافس غباءه، لكن ماذا توقع من تفكير ومعتقدات قوم كهؤلاء؟!

مرت الساعات حتى اقترب للغاية من جزيرة أرض البعث، في الواقع لم تكن ظاهرة أو هذا ما حسبه فقد، كانت سوداء تمامًا برمال كاحلة وأشجار مجردة من الحياة، لم تظهر معالم الجزيرة حتى خفتت السحب مظهرة جزءًا من قمر أرجواني مشع.

قفز ميستريو للماء تاركًا القارب خلفه؛ ليحمله تيار الماء حيثما شاء، فكون أحد المرشحين الثلاثة قد وصل وارد؛ لذا يريد ميستريو التسلل للجزيرة، لا أن يظهر للعيان بقارب كذاك.

كانت موجات البحر شديدة لكن أخف من زي قبل، رغم احتقاره لهؤلاء القوم والمرشحين، إلا أن سباحتهم لكل تلك المسافة دون انقطاع في ظل هذه الظروف الجوية لهو شيء يحتاج لقوة وعزيمة بالغة تستحق التقدير والثناء.

سبح حتى وطأت قدمه رمال أرض البعث الممتلئة بعظام الموتى، وبالفعل بدت أشبه بجزيرة الموت بذلك اللون الأسود الذي لا يوجد سواه على أرضها فحتى بوجود الضوء أعلاها ستظل كنقطة سوداء يتحاشاها أي قرصان أو بحار، فهي أشبه بالفضاء الداكن إذا اجتمع في بؤرة واحدة ليسحب الكون كله

لداخله.

لكنه شعر أعلاها بشعور غريب، فقد شعر بأنه خفيف للغاية، وبأن نسمات الهواء تدغدغ أوصاله بصورة أصابته ببعض القشعريرة، لكنه سار متجاهلًا ذلك؛ حتى اختبأ جيدًا وسط الأشجار ببقعة سمحت له بمراقبة المكان الذي سيأتي منه المرشحون، فقد استطلع المكان ولم يجد أيًّا منهم، لكن ماذا عن الملقب بـ(البحَّار)؟!

لم يفكر كثيرًا حتى بدا المكان منيرًا عن ذي قبل، خاصة حين انقشعت الغيوم عن البدر الأرجواني كليًا، وسطع ضوؤه الذي لم يعهد مثله من قبل.

بدأ جسد ما بالخروج من الماء واستنشاق أنفاسه، جسد أنثوي ولكن بصورة ضئيلة تطغى عليه عضلات لم تكن ظاهرة من قبل بسبب ذلك الرداء الذي ترتديه إيزلا حتى ساقيها مخفية أغلب معالم جسدها، والأسلحة التي تحملها، أما الآن يعلوه ملابس البحارة التقليدية فحسب.

لكن لن ينكر ميستريو فضلها ذاك، ثم سيرها لتظهر ملامحها أسفل ضوء ذلك القمر الأرجواني، لقد بدت كمُنزلة مختارة بالفعل لا كسفاحة، لقد بدت جميلة بخصلات شعرها القصير الأحمر الذي التصق بعضه على وجهها وعنقها بفعل مياه البحر. يتذكر امرأة طغى عليها هذان اللونان من قبل، واحدة فقط التي رآها بذاك المظهر لكنه لم ولن يعلم اسمها أبدًا.

لوهلة تذكر أبناءه، لكنه تناسى ذلك وقرر التركيز على

الموقف الحالي، إن كمية الأسلحة التي تخفيها إيزلا أسفل ذلك الرداء الواسع الذي ترتديه غالبًا -وتجردت منه الآن بسبب سباحتها- كمية جنونية، فهو يرى كم خناجر.. سكاكين، وقارورات مثبتة بقميصها وسروالها تقارب التسع، هذا بالإضافة لحزام معدني غريب الشكل أقر ميستريو أنه لا بُدَّ أنه سلاح كذلك، أزاحت إيزلا خصلات شعرها عن وجهها، وأخذت أنفاسها لكنها في لمح البصر انحنت بجزعها لجانبها الأيسر، لم يفهم ميستريو ماذا حدث لكنه أدرك الوضع حين رأى خنجرًا استقر على الأرض خلفها بجوار الجانب الأيسر لها، ورأى خط من الدماء ينسل من الجانب الأيسر لعنقها، لم يكن مميتًا لكن بدا مؤلمًا، من فعل ذلك سريع للغاية لكن إحساسها بتلك الضربة، ورد فعلها أسرع، لا عجب بأن امرأة كتلك قامت بكم غارات غير عادي، ولم تمت.

أمسكت إيزلا بالجزء المصاب من عنقها ناظرة تجاه ذلك المتفحل الخارج من المياه

"يبدو أن ذبحك لن يكون مملًا للغاية يا عاهرة يلدا"

كان ذلك هونج يخطو رمال الجزيرة ممسكًا بخنجره الآخر، سارت إيزلا؛ حتى أمسكت بخنجره الذي كاد يشق عنقها منذ ثوان، وتأملته.

"ماذا، أيعجبك أيتها العاهرة؟ احتفظي به، سأسترجعه حين أجعلك جثة متعفنة، ثم سأبصق على جثتك!"

رمت إيزلا الخنجر نحوه، ولكن ليلتقطه هونج ليس لمحاولة

قتله مردفة ببرود:

"هاك خنجرك؛ كي تذبح عنقي جيدًا!"

بدا الغضب جليًا على وجه هونج وبصق كعادته صائحًا:

"أتقللين مني أيتها العاهرة؟! أنتِ وجزيرتك وسخ سأمحوه من الوجود!"

جذبت إيزلا حزامها الذي ظهر أنه سيف بمفاصل غير مثبتة، ثم أحكمت طرفيه بين كفيها فانضمت أجزائه أعلى المفاصل غير المثبتة وصار سيفًا محكمًا، بالطبع أدمى ضغطها بكفها على سن السيف يدها، لكنها لم تكترث وتحدثت للمرة الأخيرة:

"لا تتحدث كثيرًا، فلتظهر ما لديك!"

زمجر هونج بصوت عالٍ، وبدأ هجومه بكلا خنجريه بقوة على إيزلا التي لم تتردد للحظة، وأخذت بالهجوم هي الأخرى، لقد كان كلاهما في منتهى الشراسة كأسدين ضاريين، لم يتخذ أي منهما موقف الدفاع، وأخذا يتبادلا الضربات دون أي هوادة أو لحظة لاسترجاع أنفاسهما، لم يستطع ميستريو حتى لمح أغلب ضرباتهما من فرط سرعتها، وبراعتها رغم ذلك لم يخفَ عنه أن رغم احتراف كل منهما إلا أن كليهما قد جُرحا بالفعل. فهونج جرح إيزلا بذراعها أثناء محاولته لتسديد ضربة مميتة نحو قلبها، بينما إيزلا جرحت ساقه أثناء محاولتها لبترها تمامًا، لكن لسرعتهما فلم تكن الجروح غائرة للغاية.

لكن أين أفعى ياما؟! لا بُدَّ أنه خطط لكل ذلك.

لم يكمل ميستريو حتى شعر بذلك النصل البارد على عنقه، ويكف يحيط بمقدمة عنقه بهدوء، توقع شيئًا مشابهًا لهذا، لكن ذلك لم يقلل من وطأة قلقه، رغم الموقف ظل محافظًا على هدوئه ولم يستدر، وظل يراقب إيزلا وهونج وهما يفتكان ببعضهما.

"جئت لهذه الجزيرة منذ ما يقارب العام منتظرًا إياك.."

بدا صوت المتحدث عميقًا ذا بحة منخفض أشبه بالهمس، ذاك ليس صوت أفعى ياما.

أكمل المتحدث:

"إن من يطلق كذبة بخصوص أمر ما سيعود عاجلًا أم آجلًا لتلك الكذبة أو سيبعث أحدًا عوضًا عنه، أنت من خططت لإشاعة أن جزر راندوس هي من اختطفت الأميرة الهجينة أثناء نفيها الملفق لشبه جزيرة لونا، لكنك حرصت أن تنتشر الإشاعة بواسطة آخرين، وأن تبدو لا صلة لك بالأمر إطلاقًا، أليس كذلك؟!"

كيف؟! ذلك كل ما خطر ببال ميستريو، لقد صُعق تمامًا، كيف لأي أحد أن يعرف بذاك الأمر؟! بتلك الخطة التي أعدها من قبل حتى اجتماعه هو وإخواته؛ ليقرروا ماذا سيحل بكيرا، لقد علم أن أخاه دومين سيصر على نفيها لهلعه الشديد من السحر، بينما أخته دورسيرا لن تسمح بذلك مطلقًا وستقلب الأمور رأسًا على عقب، وأي خلاف كبير في ذلك الحين بين دومين ودورسيرا، خاصة بخصوص كيرا لجعل دورسيرا

تنضم لصف جوزيف وبودير، وبالتالي لم تكن لتتصاعد الأمور حتى يفقد بودير أعصابه متسببًا دون عمد في مقتل نفسه أو جوزيف وهو ما حدث، وبالتالي الوضع القائم في المملكتين والعاصمة الآن لم يكن ليحدث، وميستريو احتاج لحدوث كل ذلك؛ كي يصل في النهاية لنقطة تدمير المرايا، بالطبع حدثت بعض الأحداث غير المخطط لها وبصورة غامضة، كمقتل أخيه دومين؛ فميستريو لم يرد ذلك إطلاقًا، لكن شخصًا استغل الأحداث المتصاعدة وقتل دومين في خضمها.

لكن قبيل كل ذلك علم ميستريو أنه لا يمكنه ترك سبيل؛ لتخلي دورسيرا عن دومين مبكرًا ليس قبل انقلاب بودير على أقل تقدير؛ لذا لجأ لحيلة صنع تحالف في الخفاء بين أخويه نايلس ودورسيرا دون معرفة أي منهما بأنه من خطط لذلك، وهذا في سبيل تهريب كيرا للمملكة الغربية، ثم بث فكرة إشاعة اختطاف كيرا من قبل جزر راندوس تلك بعقل أخيه -معدوم الشخصية- نايلس؛ كي يبثها الآخر بدوره بعقل دورسيرا، ويتم الأمر وتتفشى تلك الشائعة، وبها يستطيع تهدئة الخلاف بين دورسيرا ودومين بشكل مؤقت، وفي نفس الوقت تزداد كراهية الشعوب الأخرى تجاه جزر راندوس، وبالتالي زيادة فرصته في استقطاب دعم شبه جزيرة لونا له حين يحين الوقت.

لكن من أين أتت الغلطة؟! كيف استطاع ذلك الشخص معرفة أمر لا يعرفه سوى ميستريو بهذا الشكل، فحتى الجواسيس الذين وكلهم ميستريو بتلك المهام، لم يعط أيًا

منهم قطعة الأحجية كاملة بهذا الشكل، بل أوكل لكل منهم جزءًا على حدا، كما أنهم لا يعرفون بعضهم؛ كي يستطيعوا جمع النقاط كلها، بالإضافة لثقته بولائهم.

شعر بإبهام الكف الموضوع على عنقه يستشعر نبضه، ثم أردف ذلك المجهول بالنسبة لميستريو:

"إذن إني محق، لا أحتاج لرؤية ملامحك للتأكد من ذلك فشخص بثباتك، ودهائك يعيش؛ ليُخفي حقيقية ما يفكر به، لكن نبضك لن يكذب مطلقًا".

لم يجب ميستريو بل أخذ يلعن ذلك المجهول بالنسبة له، لكنه لا يعلم حقيقة ميستريو، فحسب كلام ذلك الشخص: هو يعلم فحسب أن من يقف أمامه الآن هو من تسبب بإشاعة خطف الجزر لكيرا أو شخص نائب عنه.

إذن فهو لا يعلم هوية من تسبب في الإشاعة في الأصل، وكذلك لا يعلم هوية ميستريو الحقيقية الآن، لازال ميستريو محميًا ببعض الجدران من المجهول بالنسبة لذاك العدو، لكن ذكر العدو لتلك الواقعة بالتحديد،كشفت بصورة كبيرة عما يريد.

ابتعد الخنجر والكف عن عنق ميستريو، ثم أردف الآخر: "يمكنك الذهاب لمساعدة مرشحتك، أشكرك على إعادة القبعة لي".

التف ميستريو لوهلة؛ ليرى أنه ذلك الملقب بـ(البحّار) يرتدي قبعته.. مُدعٍ الخرس ينظر له نظرة منعدمة من الحياة،

ثم يناوله الخنجر الذي كان يهدده به منذ ثوان، بالطبع ذلك للدفاع عن إيزلا.

ربما ذلك البحَّار مجهول، لكنه كشف لتوه سبب اهتمامه بميستريو، حتى إن يفصح عنه بصورة واضحة فذلك (البحَّار) أتى لهذه الجزر منذ ما يقارب العام، لكن ليس لانتظار ميستريو، بل لانتظار كيرا! لكنه اكتشف أنها كانت إشاعة وحيلة ليس فإلا، وحين علم بمجيئ رسول من المملكة الشرقية، رسول استطاع أن يجتاز مدخل الكهف إلى الجزر أثار ذلك اهتمامه، وقام بربط الإشاعة السابقة بذلك الرسول، وعلى إثر ذلك قام بمقامرة وخالف أوامر أفعى ياما تاركًا الرسول؛ ليعيش حتى يتأكد البحَّار بنفسه إذا كان محقًّا بما اعتقده أم لا، وكل ذلك في سبيل شيء واحد لم يُدلِ به البحَّار حتى الآن، لكن ميستريو متأكد أن ذاك البحَّار سيعود له في سبيل ذلك الشيء، وهو: الوصول لكيرا الأميرة الهجينة.

والآن حان دور البحَّار في تنفيذ أوامر أفعى ياما، وإظهار ميستريو بمظهر الأضحية التي تتعاون مع إيزلا، في الواقع بيد أن أفعى ياما هو من ساعد ذلك البحَّار على اجتياز مدخل الكهف نحو الجزر أو هو من مكنه من البقاء في جزيرة المختارة؛ حيث يحقق البحَّار مبتغاه؛ ولذلك ينفذ البحَّار أوامر أفعى ياما، رغم صراحة أفعاله بأنه مستقل، ولا ينصاع لأحد.

سار ميستريو مبتعدًا نحو إيزلا وهونج، وهو يرى ضوء النهار بدأ بالظهور، باتت أحد المجهولات واضحة لميستريو الآن، وهو سبب عدم محاولة (البحَّار) لقتل ميستريو، لازال

المجهول الخاص بالتغيير الذي تبغاه إيزلا، وسبب وضع أفعى ياما حسبان لها.

تلك المرأة التي أخذت تقاتل بضراوة غير عادية رغم ذلك استطاع هونج دفعها، وإسقاطها لكن قبيل غرس سيفه بعنقها استخدمت إيزلا سيفها كدرع، وفي لمح البصر سحبت القرط الذي يعلو أذنها، وأقحمت سنه في صدر هونج، ثم دفعته عنها بكلتا ساقيها.

جلس هونج مستندًا لركبتيه وهو ينهج، بينما وقفت إيزلا وأخذت أنفاسها، وقف ميستريو بعيدًا عنهم، فلم يلحظوه من شدة إنهاكهم، وهو لم يتحدث بسبب ذهوله مما فعلته إيزلا.

آخرج هونج القرط من صدره، وأخذ الدم يسيل من موضع الطعن، ثم تحدث من بين أنفاسه:

"أيتها العاهرة كان بإمكانك قتلي! لماذا لم تفعليها أيتها الداعرة؟!"

هذا صحيح فإن استعملت إيزلا أحد خناجرها التي تثبتها في ملابسها عوضًا عن ذلك القرط لاستطاعت قتله بالفعل، بل الآن وهو جالس منهك القوى أمامها تستطيع الفتك به فحسب، تلك المرأة متناقضة تمامًا، مجهولة بقدر يقلق ميستريو.

أجابت إيزلا:

"لأنك لست عدوي أيها الداعر!"

"لقد كنت سأنحر عنقك يا عاهرة يلدا، سحقًا لكِ أيتها

الشمطاء!"

"إذن قد اجتمع شمل الجميع".

كان ذاك أفعى ياما، وهو يخرج من الماء آخذًا أنفاسه، ثم أكمل متسائلًا:

"ومن هذا؟ أأحضرتي أضحيتك لتسليك يا إيزلا؟"

نظر كل من هونج وإيزلا نحو ميستريو الواقف خلفهما ببضع الخطوات، ظهر الغضب جليًا على إيزلا، وآخرجت أحد خناجرها مندفعة نحو ميستريو، ثم جردته من سلاحه، ووجهت الخنجر نحو عنقه بغل، في الواقع لم يقاوم ميستريو فلا معنى لأي من هذا، سألت إيزلا بحدة:

"من أرسلك لهنا؟!"

فجاوبها بهدوء:

"شخص أفقدني وعيي ووضعني في قارب به خنجر، وقد حمل التيار القارب لهنا، وحين حاولت الهروب لم أستطع بمفردي؛ فأنا لا أعرف كيف أعود أدراجي؛ لذا اقتربت منكم حين رأيت أنكم أنهيتم قتالكم".

لم يذكر الجزء الخاص بـ(البحّار)؛ لأنه لايزال يريد معرفته حياله، كمراده من إيجاد كيرا.

نظر له الثلاثة مرشحين دون أن يعلقوا على حديثه، عدا هونج الذي بصق، ولقب ميستريو بالداعر، بينما بدت إيزلا أغضب ما تكون، وقامت بدفع ميستريو أرضًا بقوة.

لكن لفت نظر الجميع تلك السفينة التي تقترب من على بُعد مع علو الشمس وتوقف الأمطار تدريجيًا، لم يمر كثير من الوقت حتى وصلت السفينة للجزيرة، وخطا العديد من القراصنة رمال الجزيرة كان أحدهم القرصان المسئول أثناء مراسم الأضحية وكذلك الفتى الذي استقبل ميستريو في البداية، وبدا من حديث المسئول أن ذاك الفتى كان موكلًا بمراقبة المرشحين أثناء رحلتهم للجزيرة، صاح المسئول:

"أول من وصل كانت القبطانة إيزلا، لكنها استعانت بأضحيتها؛ لتجعل البحر لصفها، وهذا محرم؛ لذا فمن وصل ثانيًا وهو القبطان هونج سيكون هو حاكمنا!".

وقف هونج بصعوبة، فبرغم أن الجرح بصدره غير مميت، لكنه لازال مقاربًا لذلك، ثم نظر بغضب نحو إيزلا والآخرين، وبصق قائلًا: "سحقًا لكم جميعًا أيها الداعرون ولحكم الجزر، فليحترق في الجحيم، ولتحترقوا برفقته!".

ثم بصق مجددًا معلنًا أنه لن يصير الحاكم دون إبداء سبب واحد، لكن السبب واضح كتلك الشمس الساطعة. لقد جُرح كبرياء هونج كون إيزلا -المرأة قاطنة يلدا- هزمته، بل ولم تقتله؛ فهو لم يخسر فحسب بل وتُرك حيًا لتطاله ألسنة الشامتين، تحدث القرصان المسئول محاولًا ختم الأمر:

"في تلك الحالة، فالحاكم هو أفعى ياما!"

ابتسم أفعى ياما لوهلة، ثم أردف:

"بقدر ما أريد استلام الحكم لجعلكم ملوك الأرض! لكن هذا

الأضحية هنا يقول أنه أُرسل رغم إرادته! وهذا يعني أن أحدًا ما عمل على تخريب جهود القبطانة إيزلا بوصولها لأرض البعث في البداية".

يا له من أفعى حية.. فكر ميستريو، وهو يشعر برغبة في الضحك من خبث ذاك الرجل المتلوي؛ فهو لا يريد الفوز بالحكم حتى يدمر سمعة إيزلا تمامًا أولًا، أو يتسبب بموتها، لا يريد ترك أي فرصة بأن يؤيدها أي شخص بأي حال، وهو مازال لم يصل بعد لتلك النقطة.

أكمل أفعى ياما: "وقد أختارها البحر؛ لذا فإن لم يتم الحكم في هذا الأمر بطريقة صحيحة لربما أغرقتنا الأمواج جميعًا!".

لقد تأكد ميستريو الآن من ثلاثة أشياء: أن أفعى ياما بالفعل يخشى إيزلا بصورة كبيرة لسبب لازال غير معروف، وأن أفعى ياما لن يترك إيزلا لشأنها؛ حتى يقضي عليها تمامًا، وثالثًا أن أفعى ياما ذلك شيطان حي!

ختم أفعى ياما حديثه:

"لذا، فإن القبطانة إيزلا هي حاكمتنا حتى تثبت إدانتها أو حتى يُظهر البحر الحقيقة!".

***

[3]

العائد

"إن فعلت ذلك فربما لن تظهر هجينًا، لكنك لن تحصل أبدًا على تلك القوة؛ فتلك القوة تنتمي لقدماء الشعبين الذين لم تتلوث نفوسهم بأرواح أخرى! وفي النهاية أنت تحمل دماء إخوة الظل، ولن يغير أي شيء تفعله ذلك".

تكررت تلك الجمل بأذن فين كثيرًا، ورأى شخصًا معتدل الحجم قصيرًا قليلًا لديه عين صفراء وأخرى حمراء جالسًا، وقد بدا الغضب بعيونه بسبب الجمل السابقة، ثم تحدث:

"سأحصل على قوة أجدادي، وأخضع الشعبين اللذين نبذاني مهما تطلب الثمن!"

فجأة تحول المشهد من أمام فين لمجموعة من الناس يرتدون ملابس سوداء وأوشحة تخفي ملامحهم، بعضهم ذوو عيون حمراء والبعض الآخر أصفر العيون، يقارب عددهم الخمسين، يقودهم شخص أعور بعين واحدة صفراء، إنه نفسه الهجين الذي رآه فين منذ ثوان، لكن بيد أنه تخلص من عينه الحمراء، سار خلفه هؤلاء الناس لمسافات طويلة بأراضٍ واسعة، يتخللها بعض العشب لكنها أقرب لكونها قاحلة حتى وصلوا لتلك البقعة الخصبة، بقعة تحوي صخورًا عالية للغاية مستطيلة الشكل يصل عددها لواحد وخمسين صخرة منتظمة على شكل دائرة ممتدة على مساحة واسعة، إنه يتذكر هذا المكان، لقد أتى هنا من قبل.

حلَّ الظلام في غضون ثوان، وبدأ الموجودون يغنون ويرقصون بكلمات غير مفهومة، ثم يجرحون يدهم تاركين الدماء؛ لتسيل أعلى الأرض الخصبة، بينما يصيح بهم الهجين الأعور:

"لا تخافوا يا إخواني إنها الطريقة الوحيدة للتخلص من المرايا!".

"إن قام إخوة الظل بمحاربتنا بسحر المرايا فسنفنيه بسحر أجدادنا القدماء! وهذا ليس من المحرمات!"

"سيتذكرنا شعبنا بتدميرنا للمرايا، وليس باستخدامنا للسحر، فلا تذعروا إخواني!"

"فليحضر القائدان العظيمان روخو وأمار؛ ليحررانا من سحر المرايا!"

بدأ الرجل يرفع يديه بعزم نحو السماء، وهو يصيح بصوت صاخب للغاية أخفى جميع الأصوات الأخرى:

"فليحضر القائدان العظيمان روخو وأمار!"

فجأة صم صوت الرعد الجميع، وظهر البرق بضراوة، بينما ابتلت الأرض بأمطار غزيرة، فصمت جميع الموجودين وتوقفوا، بينما لاحت ابتسامة على وجه الأعور حين سمع أصواتًا رافقت الرعد زلزلت كيان الأرض بزئيرها الحاد! وظهرت تلك الظلال الضخمة آخذة في الاقتراب منهم، حتى اتضحت تلك الملامح المرعبة لوحوش هي أشبه بالأسود.

ظهر الهول على الواقفين، وأخذوا بالتشبث ببعضهم في

محاولة بائسة للابتعاد عن تلك الوحوش التي حاوطتهم من كل اتجاه، رفع الأعور رأسه لينظر لهم، ثم صاح بصوت صخب:

"إخواني.. لا تحزنوا.."

وفي لمح البصر زأرت الوحوش بأعلى ما لديها، لينافس صوتها صوت الرعد هاجمة على الموجودين بشراسة غير طبيعية.

"فتضحيتكم ستكون هي البداية للعالم الجديد!"

ازداد صوت الرعد بصورة مرعبة يتخلله أصوات صارخة بشدة، ثم فتح فين عينيه بهلع؛ ليجد نفسه بمكان غير مألوف، ولازال صوت الرعد وهطول الأمطار يتردد بأذنه، بدا أن استنشاق أنفاسه صعبًا للغاية، حاول الهدوء مبتلعًا ريقه، ثم نظر في أرجاء المكان متعجبًا أين هو؛ ليجد أنه في غرفة أنيقة يُظهر زجاج نافذتها الأمطار المتساقطة خارجًا، والبرق الذي يليها، حاول ثني جذعه ليجلس فشعر ببعض الألم ببطنه فرفع الغطاء الذي يعلوه، ثم قميصه؛ ليرى تلك الأقمشة والضمادات المحيطة ببطنه، فجأة فُتح الباب ودخلت خادمة بيدها حاملة معدنية تعلوها بعض القارورات وأقمشة وضمادات مشابهة للتي رآها فين أعلى جسده، فور رؤية الخادمة له هلعت، شعر فين بالحرج وأعاد قميصه لموضعه سريعًا، اللعنة لا بُدَّ أن الحمرة قد أصابت وجنتيه، لم يكد يتحدث حتى كانت الخادمة قد أسقطت الحاملة المعدنية التي بيدها، وهرعت لخارج الغرفة.

"ماذا أصابها؟!" تساءل بتوتر.

ثم نظر نحو القارورات التي نُثرت في الأرجاء، لكن ما جذب انتباهه حقًّا هو انعكاس صورته على الحاملة المعدنية، بدا باهتًا أكثر نحولًا وغزا البياض شعره كرجل ستيني.

ما الذي حدث له؟! تساءل بصدمة، وهو يمسك خصلات شعره البيضاء, ويقربها من عينيه متأملًا إياها بذهول

"فين، لقد استيقظت!"

نظر نحو الباب؛ ليرى بيلا تقف ناظرة نحوه بغير تصديق، لقد بدت ساحرة كعادتها، لكن لماذا بيلا هي من حضرت؟ لماذا ليس بودير أو والدته؟!

لم يدر عما يجدر به الاستفسار أولًا، أين هو؟ كيف هي موجودة هنا؟ أم ماذا حدث بوادي الأسود؟

هرعت بيلا نحوه سريعًا مطوقة عنقه بذراعيها، وهي تحتضن إياه بينما تخشب هو بموضعه شاعرًا بنبضات قلبه تتسارع حتى ابتعدت عنه، وجلست على أطراف الفراش الذي يعلوه، وعلى وجهها ابتسامة مشرقة، ثم تساءلت:

"كيف تشعر؟"

حاول لم شتات نفسه من احتضانها له لتوها، لكنه لم يجب، فلم يدر بما يفكر، أهما بالعاصمة الآن؟! هذا غير ممكن فبودير هو الملك، وفين وبيلا من ذوي العيون الصفراء، لكن يبدو أن ابنة خاله تداركت سريعًا عدم استيعابه لما يحدث،

فاعقبت:

"عفوًا على عدم توضيحي لما حدث، لقد ابتهجت كثيرًا لرؤيتك على ما يرام فحسب، لقد وجدك جنود والدي في وادي الأسود برفقة معاون عمتي ساريو، كاد أسد يفتك بكما لكن لحسن الحظ فهؤلاء الجنود كانوا يمشطون تلك المنطقة، كنت أنت تدمي بشدة، وبحالة سيئة لكن حمدًا للخالق فقد تم إنقاذك".

لمس موضع الجرح من أعلى قميصه، وهو يفكر فيما قالته بيلا لتوها مستنتجًا: أنهم الآن بالمملكة الشرقية، أكملت ابنة خاله: "جرحك التئم بالفعل؛ فقد مر وقت طويل، لكن الحكيم أخبرنا أنه قد يصيبك بعض الألم"

فجأة تذكر فين سبب خوضه لتلك الرحلة في الأصل وتساءل سريعًا:

"هل عادت كيرا للعاصمة الأم سالمة؟ هل هي وثنسيا على ما يرام؟!"

ضحكت بيلا برقة مجيبة:

"أفقت لتوك من ثبات طال لشهور، وأول ما تسأل حياله هو أختاك؛ إنه لأمر مثير للإعجاب والاحترام -تفانيك حيالهما-، لكن أعتذر ليتني أعرف معلومة واضحة حيالهما؛ كي أطمئنك، فلقد دل سؤالك السابق على إدراكك أننا لسنا بالعاصمة الأم بل بالمملكة الشرقية؛ لذا فأنا لا أعلم الكثير حيال المتواجدين بالعاصمة الأم".

أنهت جملتها بأسف، ابتسم فين مجاملًا:

"لا بأس يا بيلا، أشكرك في جميع الأحوال".

"إنني سعيدة للغاية؛ لأنك بخير، واستيقظت أخيرًا!"

ابتسم وقد نبض قلبه بقوة لتعليقها ذلك، لكن لحظة ما الذي عنته بتلميحها السابق عن طول مدة سُباته؟!

"بيلا، هل قلت: إنني أفقت من سبات طال لشهور؟!"

لكن قبيل سماع إجابتها جذب انتباهه هطول المطر الشديد، لم يعهده بتلك القوة منذ فترة، فاستوعبت ابنة خاله ذلك مردفة: "لا تستعجب، فقد حل موسم الأمطار".

نظر لها باندهاش..

"فين، لقد مر ثلاثة أشهر منذ مجيئك لهنا".

***

من هذا الذي ينظر له عبر المرآة؟!

ربما بعض ملامحه مشابهة لملامح فين، لكن الهيئة العامة تبدو كشخص يكبره بعقد كامل.

لا عجب بحدوث هذا بعد رؤيته لذاك الوحش واقترابه الشديد منه، لم يظن مطلقًا في حياته أن هناك رعبًا مماثلًا لذلك، حتى يوم إنقاذه لثنسيا من الموت، وفقده لقدمه لم يشعر بكم رعب مشابه لما شعر به في وادي الأسود،

لكن كيف لم يمت؟!

تساءل وهو يضع يده أعلى موضع الجرح تلقائيًا دون النظر نحوه، ثم سمع ثلاث دقات متتالية على الباب فسمح للطارق بالدخول؛ لتتحقق أمنيته بأن تكون هي بيلا، كيف تستطيع أن تبدو ساحرة على الدوام هكذا؟! كيف أن مجرد رؤيتها أو التفكير بها يجعلان أوصاله ترتعش وقلبه يخفق بذلك الشكل؟!

لكنه يعذب نفسه بما لن يحدث مطلقًا، تناسى أفكاره، بينما سارت هي نحوه، وهي تحمل شيئًا ما ملفوفًا بقماش حريري وشرعت بالحديث: "كيف تشعر الآن؟!"

مر أسبوعان منذ استيقاظه، زارته بيلا كل يوم؛ لتطمئن حياله أثناء إشراف الحكيم على مساعدته على السير مجددًا، لكنها تهربت دومًا من إخباره بما حدث في المملكتين خلال مدة سباته، وكذلك جذب انتباهه عدم قدوم خاله ميستريو لزيارته مطلقًا.

ابتسم مجيبًا:

"أنا بخير لقد حضر الحكيم صباحًا، وطمأنني، قال: إنني أستطيع السير بمفردي أخيرًا".

لكنها بدت غير مقتنعة:

"هذا رائع يا فين، أنا أيضًا أطمأننت منه حيال صحتك، لم أرد أن أسألك قبل تحسن حالتك الصحية، لكنني عنيت كيف تشعر الآن حيال كل ما حدث، وسباتك لمدة ثلاثة أشهر؟"

في الواقع.. أسوأ ما يكون؛ فهو لا يزال لا يعلم كيف حال

أسرته، وكيف سيؤثر تواجده بعاصمة المملكة الشرقية على وضع والدته، وإلى ما آل حال أخته كيرا، كما أنه صار غريب الهيئة.

هم بقول:" إن كل شيء على ما يرام، لكن بيلا أردفت:

"فين، ليس عليك التظاهر بأنك بخير وأنت لا تشعر بذلك، وليس عليك التحدث حيال الأمر إن لم ترد؛ لطالما كنت منذ صغرنا ذلك الفتى قليل الحديث الذي لا يفصح عما بداخله خوفًا من إثقال كاهل الآخرين".

أعقبت جملتها الأخيرة بابتسامة رقيقة، ثم أكملت:

"لكن إن أردت التحدث في أي وقت حيال ذاك الأمر، أو حيال أي شيء آخر؛ لتعلم إنني سأكون دومًا لجوارك".

أبعد عينيه عنها من فرط إحراجه، وقد شعر أن أكثر ابتسامة غبية قد ظهرت على وجهه.

قل شيئًا! قل شيئًا، إنها تنتظر ردك!

أخذ يكرر بعقله؛ ليجد نفسه ينطق بتوتر: "لقد تحول شعري للون الأبيض، مشابه للون السحب، أليس كذلك؟!"

ليته يسقط في أعمق حفرة داخل الأرض الآن، أحقًا لم يستطع التفكير في جملة أقل حماقة من تلك؟!

"أجل مشابه للسحب، أعتقد أنه جميل الشكل بهذا المظهر".

"حقًّا؟!"

"أجل؛ فهو يذكرني بوالدي، ووالدي هو أوسم رجل رأيته، وبالتالي فأي شخص مشابه له وسيم كذلك"

تحسبه وسيمًا ؟! لحسن حظه أنها أكملت الحديث؛ لأنه شعر أن لسانه قد شُل.

"على أي حال لقد أحضرت لك شيئًا برفقتي، أتمنى أن يعجبك!".

ثم قدمت له الشيء الملفوف بالحرير، فأمسكه مزيلًا الحرير من أعلاه؛ ليعلم ماهيته، كان عكازًا جديدًا بهي المظهر، مزخرفًا، ذا لون بني ونقوش ذهبية، تأمله قليلًا، ثم قال بهدوء:

"أشكرك، بيلا"

"هل تود تجربته؟"

أومأ مبتسمًا لاقتراحها، ثم استند للعكاز وسار بجوارها لخارج الغرفة.

سارا حتى وصلا لحدائق القصر؛ حيث علا صوت الطيور لكونه يومًا مشرقًا لا أمطار به، لن يكذب لم يشعر بالراحة كثيرًا أثناء استعماله لذاك العكاز، فقد كان أطول من السابق بعض الشيء، لكنه قرر أنه سيطلب من أحد في القصر تعديله لاحقًا، بالنسبة للعاصمة الأم والمملكة الغربية، فلن تبدو المملكة الشرقية بهية المظهر للغاية ذلك؛ لأن الطبيعة الجبلية تغزوها، كما أن آبار الحياة بها أقل بصورة كبيرة من الموجودة بالمملكة الغربية، خاصة الموجودة بـ(ليس

الكبرى) لكن القصر وحدائقه لا بأس بهما، أخذ يتساءل للمرة الخمسين، هل تسرع بسؤال بيلا عن إن كانت كيرا قد وصلت العاصمة ذاك اليوم حين استيقظ؟ لم يفكر حينها وأراد الاطمئنان حيال أخته لكنه يخشى أن يكون قد باح بأحد مخططات والدته وبودير؛ ففي النهاية هو لا يعلم بعد ما موقف ميستريو من كون بودير الملك الجديد، ووفاة دومين الغريبة، هم بالسؤال عن خاله ميستريو، لولا أنه رأى ذلك الشخص المألوف يقترب منه، وينحني محييًا إياه:

"سمو الأمير فين، مبارك على عودتك من سباتك العميق".

لم يدر فين كيف يشعر تجاه ذلك الشخص، فمن جهة لا يعتقد فين أنه كان سينجو من وادي الأسود دون عونه، لكن من جهة أخرى عمل ذلك الشخص كجاسوس ضد والدته دورسيرا موهمًا إياها بأنه أكثر أتباعها ولاء، أوضحت بيلا:

"عندما أحضرك الجنود يا فين، أخبرونا أن الفارس ساريو كان الوحيد الذي برفقتك، وأن لولاه لما ظللت حيًا؛ حتى إنقاذ الجنود لكما، وأخبرنا الفارس ساريو أن سبب تواجدكما هناك هو أنه تم اختطافك أثناء سفرك للمملكة الشرقية، وقام هو باقتفاء أثرك محاولًا إنقاذك".

ثم اقتربت من فين، وهمست: "الخطاب الذي تلقيناه من عمتي الملكة دورسيرا تضمن بأنها تشك بكونه خائنًا".

عادت بيلا لموضعها، وهي تنظر لساريو مبتسمة فانحنى الأخير بدوره محييًا إياها، فكر فين قليلًا، ثم أدرك بأنه أخطأ

بالفعل بإفشاء مخطط عودة كيرا للعاصمة، فيكفي حتى ذلك الحد، على الأقل لحين معرفته بوضع خاله ميستريو والمملكة الشرقية من كون بودير الملك.

"الفارس ساريو هو مساعد والدتي الوفي، وبالفعل اختطفني بعض قطاع الطرق، وهربوا بي لوادي الأسود في محاولة يائسة لإعاقة جنود والدتي عن اقتفاء أثري، كادوا ينجحون بفعلتهم تلك، لولا هجوم أسود برية على الجميع، لا أذكر ما حدث بالتحديد لكنني أسترجع لمحات عن انقاذ ساريو لي؛ لذا أشكرك أيها الفارس ساريو؛ إنك لفارس شجاع، وذو ولاء بحق!"

أنهى فين جملته، وهو يمد يده السليمة لمصافحة ساريو الذي بدا متعجبًا قليلًا، لكنه مد يده هو الآخر لمصافحة فين.. الغاية تبرر الوسيلة، أليس كذلك؟!

لقد علمته مجادلاته الطويلة مع والدته ذلك، فحتى إن كان بيده الأدلة والبراهين قد لا يستمع البعض له إطلاقًا؛ لوجودهم في وضع أقوى؛ لذا فقد قرر الوصول لغايته حتى إن تطلب الأمر بعض الخداع، فحتى والدته نفسها قامت بخداعه سابقًا ظنًا منها أنها تحميه بذلك الشكل.

أردف ساريو، وهو ينحني مجددًا:

"أي شيء لسموك أيها الأمير، ولجلالة الملكة دورسيرا!"

أومأ له فين، ثم أشارت بيلا لحارسين واقفين على بُعد بالقدوم، يبدو أن هذين الحارسين كانا برفقة ساريو بالأصل،

ويبدو كذلك من ترديد جملة (الملكة دورسيرا) هنا لأكثر من مرة، أنهم ربما قد اعترفوا بالفعل ببودير كملك للمملكة الشرقية، لازالت الأمور غير واضحة تمامًا، ولا يريد فين أن يخطئ ويقول أي شيء دون قصد مجددًا.

"من فضلكما رافقا الفارس ساريو لغرفته".

انصرف ساريو برفقة الحارسين عقب أمر بيلا.

"عفوًا يا فين، لقد طلب مساعد والدتك ذاك رؤيتك كثيرًا فور علمه باستيقاظك؛ لذا سمحت له بانتظارك في حدائق القصر، هل حقًّا تثق به لتلك الدرجة، حتى رغم اعتقاد عمتي الملكة بأنه خائن؟!"

"لولاه لصرت ميتًا؛ إنني أدين له بحياتي".

بدت نظرة بيلا حيادية، ثم تلتها ابتسامة واسعة.

فجأة شعر فين بنفسه يُدفع للخلف، وجه نظره لما يدفعه؛ ليجد أنه كلب الحداد سكودو يحاول الاستناد للفتى، وهو يهز ذيله ويلهث بسعادة، ربت على ظهر الكلب بينما تحدثت ابنة خاله ضاحكة:

"سكودو كلب محظوظ، فقد أخبرنا الفارس ساريو أنه أسقط جسر خشبي، وكاد يقتل نفسه أثناء تواجدكم بوادي الأسود لكن جنود والدي عثروا عليه أثناء عودتهم، لكن من الغريب عدم عثور الجنود على جثث لأولئك الذين قاموا باختطافك أو حتى على دماء طازجة في الأرجاء تدل على موت أحدهم".

شعر بالتوتر لتعليقها ذاك، لكن لحسن الحظ أتت سيدة أربعينية مسرعة تجاه بيلا متحدثة إليها ومشتتة إياها عن استنتاجها السابق: "سمو الأميرة بيلا، أعذريني لكني لا أستطيع إثناءه عن رأيه".

ظلت بيلا صامتة تستمع فحسب، بينما أكملت السيدة: "لقد أصر أخوكِ سمو الأمير سول العودة لنفس البقعة بحديقة القصر، وحينما رفضنا؛ أخذ يصرخ بقوة.."

"أجل يا سمو الأميرة تمامًا، إننا نشتت انتباهه طوال الوقت، كما أمرتي لكن لا تمر خمس دقائق حتى يبدأ بالصياح، والتوسل طالبًا العودة لنفس البقعة بالحديقة".

"حسنًا أيتها المربية، لا عليك سأتحدث معه، عفوًا عن كم المتاعب التي يسببها أخي سول".

ختمت بيلا حديثها، وأشارت للمربية بالانصراف.

"عفوًا يا فين، يجدر بي الذهاب، انتظرني هنا لن أتآخر".

"هل كل شيء على ما يرام؟ هل تحتاجين مساعدتي؟"

"أشكرك يا فين، لا داعي لأن تقلق نفسك".

ابتسمت نحوه، ثم انصرفت دون إضافة كلمة ورافقها الكلب سكودو، رغم أن فين لم يرد التطفل إلا أنه لم يمنع نفسه باللحاق بها لكن دون جذب انتباهها، سار على إثرها حتى توقف حين رأى سول على بُعد ممدد على جانبه كالنائم على بقعة من الأرض تعلوها شجرة كبيرة نضرة، رأى كذلك قطة ما

تجلس لقرب الفتى كما أن الكلب سكودو ركض نحوه وجلس لجواره، رغم غرابة المظهر -بأن يرى فتى من المفترض أنه أمير ينام ببقعة بحديقة قصره بهذا المظهر- لكن فين لن يكذب لقد بدت تلك البقعة على وجه التحديد ذو مظهر مريح نفسيًا جدًا، أشبه بالمكان الذي يعود إليه جندي بعد حرب دامت لدهور، ويقرر الاستراحة فيه حتى توافيه المنية، ويُدفن بأرضه.

كان هناك أيضًا ثلاث حراس يقفون على بُعد من سول يبدو أنهم مكلفين بإعادته، لكنهم ينتظرون أوامر بيلا التي سارت حتى وقفت بجوار سول الممدد أرضًا، لم يسمع فين ما قالته بيلا لأخيها لكنه رأى سول يتكوم على نفسه أكثر فأكثر، كما لو أنه يحتمي من شيء ما، بيد أن بيلا تحدثت كثيرًا لكن بلا طائل، فالفتى لم يتحرك إنشًا من موضعه، أشارت بيلا للثلاثة حراس الواقفين، فاتجه أحدهم نحو سول وقام بحمله على إحدى كتفيه رغم مقاومة سول.

تعجب فين ما يحدث، خاصة حينما سمع سول يصرخ: "كلا! لا أريد تركه! أريد البقاء برفقته!"

لطالما بدا سول صغير الملامح عوضًا عن كونه من أصغر الأفراد في العائلة فلا تصغره سوى ثنسيا، فحتى الآن وهو كاد يكمل الثالثة عشر يبدو كالطفل، خاصة بعيونه المتورمة دومًا المشابهة للعسل المسكوب تلك.. بيد أن لدى ذلك الفتى دومًا عادة لإفساد هندامه، وشعره البني رغم الجهود الشديدة التي تبذلها المربيات لأجله؛ فهو يميل لممارسات غريبة مثل تربية أي حيوان تقع عيناه عليه أو النوم في الخلاء كما رأى

فين لتوه، في الأغلب لم يظهر سول كثيرًا حتى بين الأسرة الملكية، وحرص والده على إبقائه بعيدًا عن الجميع لا يرونه إلا في مناسبات قليلة، كيوم العرض على المرايا العظيمة مثلًا، وأُشيع أن ذلك بسبب كون سول ذو إعاقة ذهنية ما.

أخذ الفتى يصرخ مرارًا؛ حتى لمح فين ونظر نحوه بذهول، ثم هدأ وأخذ يهز رأسه باستنكار، وبدا حزن جم على وجهه، سار الثلاثة حراس أحدهم يحمل سول لداخل القصر، بينما توجهت بيلا نحو فين:

"أعتذر يا فين على ما رأيت؛ لذلك طلبت منك انتظاري حيثما وقفنا في البداية".

"لا داع للاعتذار، لا أود التطفل لكن ما بال سول؟"

"إنه ليس تطفلًا يا فين فهو ابن خالك، نحن أسرة واحدة".

تنهدت بيلا، ثم أخذت تسرد:

"منذ فترة من الزمن، وسول يصر على القدوم لهذه البقعة من الأرض، يرفض مغادرتها تمامًا، ويتمدد بها كما لو أنها فراش مريح، يرفض تناول الطعام أو مواظبة دروسه، فقط يريد البقاء بذلك المكان بالتحديد، وحينما نرفض أن يظل بهذا الموضع يصرخ كما سمعته منذ ثوان".

"لكن عمن يتحدث؟! ذلك الذي لا يريد تركه؟"

"لا أدري، ربما دفن أحد حيواناته الأليفة بهذا الموضع؛ فأخي مهووس بالحيوانات والطيور، ويتعامل معها كما لو

كانت أطفاله".

صمتت لوهلة، ثم أكملت:

"لا أدري حقًّا يا فين، كل ما أعرفه أنه يكرر أن بهذا الموضع شخصًا أذاه ولكنه عزيز لديه".

***

لم يعد هناك صوت لأي شيء سوى الأمطار المتساقطة بغزارة في أوج الليل، أخذ فين يراقبها وهو ينظر من نافذة الغرفة التي يسكنها الآن، ولوهلة تذكر نافذة غرفته في قصر العاصمة الأم وساحة التدريب ورامي الأسهم الملتف بالأسود، ولكن ما شغل باله حقًّا وأشعره بحنين للماضي هو ذكريات آخر موسم أمطار عهده.

سمع ثلاث طرقات متتالية أعلى باب غرفته، فسمح للطارق بالدخول، وعلم إنها بيلا دون أن يلتفت

"فين، هل أنت على ما يرام؟"

"هل تذكرين آخر موسم أمطار عهدناه يا بيلا؟ حينما كنا جميعنا بالعاصمة الأم، لطالما قضيناه باللعب أو التدرب على المبارزة، أذكر أنني وأدريان خضنا مبارزات لا حصر لها حينها".

"أجل، ودومًا هتفت لك كيرا بضراوة، أتذكر تلك المرة التي كُسرت بها ساق كيرا؟"

ضحك فين, وهو يستلم دفة استئناف القصة: "وكانت تحدث

ابن أحد النبلاء على الفوز ضده قبيل حادثتها.."

ضحكت بيلا برقة مستطردة:"ما فعلته يومها لمساعدتها كان رائعًا".

"ما كان رائعًا بحق أن والدتي لم تقتلنا لإصرارنا على الانتصار بتحدي كيرا".

ابتسم لتلك الذكريات، لكن لم تلبث تلك الابتسامة أن تلاشت سريعًا.

فأين كيرا الآن؟ بل أين هو؟! وأين حال المملكتين والعاصمة الأم بأكملهما؟!

أردفت بيلا بعطف:

"كيرا ستكون على ما يرام، وكل الأوضاع السيئة التي تعاني منها بلادنا ستنقشع، وستصير الأمور على ما يرام".

هل تستطيع قراءة أفكاره؟! لكن هذا ليس بجديد حيالها، فلطالما كانت بهذا الشكل مع الجميع، كما لو أنها تشعرهم بنوع من الراحة حينما لا يستطيعون البوح بما يخفوه بصدورهم.

أومأ مبتسمًا نحوها، وهو يريد السؤال عن مئات الأسئلة فيما يخص أسرته، خاله ميستريو، ووادي الأسود, لكن مجددًا خشى أن يفصح عن أي معلومات ربما ليست في صالح والدته وبودير، عليه الحرص إذن.

"فين، المستشار الأول لوالدي يريد مقابلتك، لقد أتى برفقتي

وهو ينتظر خارج الغرفة، هل لا بأس بذلك؟"

"بالطبع!"

أعقب سريعًا شاعرًا بالحرج؛ لتركه لذلك الرجل ينتظر خارج الغرفة كل ذاك الوقت فقط؛ كي يستطرد بسرد ذكرياته.

اتجهت بيلا نحو الباب سامحة للمستشار بالدخول، بدا رجلًا قوي الجسد، طويلًا، تظهر على ملامحه الجدية، وأضافت لحيته وشاربه الكثيفان المزيد من الجدية لمظهره، شابكًا يده خلف ظهره لمزيد من الرسمية.

"سمو الأمير فين، أنا القائد (أران) المستشار الأول لخالك الأمير ميستريو، لقد استيقظت وصرت على ما يرام! هذا جيد".

أومأ فين بغير فهم، فتحدثت بيلا:

"فين، أدرك أن بعقلك مئات الأسئلة أعتذر عن تهربي من إجابتها سابقًا؛ فقد أردت الاطمئنان أنك صرت على ما يرام أولًا، لكنني جئت برفقة المستشار أران الآن خصيصًا؛ كي نشرح كل شيء".

أعقب المستشار حديثها بمنتهى الموضوعية:

"الأمير ميستريو يوجد الآن بـ(رايفلا) أقرب المدن الواقعة تحت إمرته للعاصمة الأم، فهو يحاول إقامة هدنة مع الملك بودير والملكة دورسيرا اللذين يقومان بدورهما بإقامة هدنة مع الأمير نايلس".

"يحاول والدي إقامة تلك الهدنة؛ كي لا تحدث حرب أهلية قد يموت على إثرها الكثيرون".

"أجل كما قالت الأميرة بيلا، وفي الوقت الراهن قد ترك الأمير ميستريو المملكة الشرقية تحت إمرة الأميرة بيلا"

أخذ فين يستوعب ما يُقال أمامه دون أن ينبس ببنت شفة.

"هناك مشكلتان بالوقت الراهن يا سمو الأمير سنحتاج تعاونك في كليهما!"

بدا ذاك المستشار جديًا تمامًا في كل كلمة يقولها، تحدثت بيلا سريعًا ناظرة للمستشار بحزم:

"كلا، إنها مشكلة واحدة التي سنطلب من فين مساعدتنا في حلها؛ فلن نقحمه في مشاكل أخرى!"

نظر لها المستشار بصرامة لكنه لم يعقب، تساءل فين محاولًا تهدئة ما يبدو على أنه خلاف:

"من فضلكما أخبراني فحسب كيف أستطيع المساعدة؟"

فسر المستشار:

"منذ رحيل الأمير ميستريو، وقد شبت عقبات في سبيلنا لحفظ السلام في المملكة الشرقية: كجماعات تدعى أنهم أتباع (المختار) الذي سيبُعث لتطهير النفوس، إصلاح الأرض وبناء العالم الجديد، يُلقبون بـ(خُدام العائد)، ويستقطبون الشعب لمعاداة الأسرة الحاكمة، كذلك ازدياد السكان في المناطق الشمالية وجلاء الكثيرين من الجنوب بسبب ادعاءات

غريبة عن وحوش ما ظهرت بالمناطق الجنوبية، وبالطبع المشاكل المستمرة بين النبلاء وممثلي عامة الشعب".

لم يفهم فين من حديث المستشار ما الذي بوسعه أن يفعله؛ كي يساعد على إخماد تلك المشاكل.

"هناك اجتماعات مستمرة أقيمها برفقة المستشار أران وباقي مستشاري والدي للعمل على حل تلك الأزمات؛ لذا فطلبي منك يا فين هو: مشاركتك لنا في الاجتماع القادم، والإدلاء برأيك فيما يجدر بنا فعله".

لكن لماذا تطلب منه ذلك؟! منذ متى وآرائه مهمة في حل الأزمات؟!

أضافت بيلا:

"إن لم تكن تمانع.."

هز فين رأسه بسرعة نافيًا

"بالطبع سأحضر الاجتماع القادم"

تهللت أسارير بيلا، وأومأت:

"أشكرك يا فين حقًّا، أنا واثقة أن آراءك ستفيدنا كثيرًا، وسنحافظ سويًا على السلام بهذه المملكة".

ابتسم فين باتساع شاعرًا بالسعادة تغمره لظنها ذاك، قاطعهما المستشار بحزم:

"بخصوص الأمر الآخر!"

تدخلت بيلا: "يكفي ما طلبناه بالفعل!"

لماذا لا تطلب ما تريده فحسب؟ فهو بالتأكيد لن يرفض.

فكر فين قائلًا:

"لا بأس يا بيلا، فليدلي المستشار بمراده".

"سمو الأمير فين، الملكة دورسيرا والدتك تحسب أننا اختطفناك، ورغم محاولات الأمير ميستريو لإبعاد تلك الخاطرة عن بالها إلا أن خطابها الوحيد لنا تضمن بأنها لا تثق بمساعدها الذي أتى برفقتك ولا بنا، ويبدو أنها غير عازمة على إجراء هدنة مع الأمير ميستريو، وتؤخرها حتى تكون جبهة مع الأمير نايلس ضد الأمير ميستريو".

"لكن هذا غير منطقي؛ فوالدتي تريد عمل هدنة مع خالي الأمير نايلس لاستعادة كيرا فلم سترفض إقامة هدنة مع خالي ميستريو لإستع؟"

لم يكمل فين كلمة (لاستعادتي)؛ لأنه لم يعد يفهم أي شيء بخصوص تصرفات والدته بالفعل، منذ محاولتها لخداعه، منذ رؤيته لذاك الخطاب الذي كتبه ساريو ويتضمن احتمالية أنها من قتلت والدها، لكن الأمور غير واضحة تمامًا أمامه؛ ليقرر إن كان ما يقوله ذاك المستشار هو الحقيقة التامة أم لا، إنه في حيرة من أمره

تلت بيلا حديث المستشار بلهجة حزينة:

"كل ما نحتاج منك فعله هو كتابة خطاب لها، بما شهدته

هنا، بأننا لسنا العدو، تم إرسال خطابات لتعلمها بما حدث بالإضافة لمحاولات والدي لكنها لم تصدق، لقد عانيت من جروح بالغة يا فين واستيقظت منذ أسبوعين فحسب ولازلت حالتك لا تسمح بالسفر.. لماذا قد تظن عمتي تلك الظنون بوالدي وأنه قد يختطفك أو يؤذيك وهو يعتبرك ابن له! بل إنه لم يسافر حتى سوى بعد اطمئنانه أنك ستنجو من إصابتك".

"هاك!"

أظهر المستشار أحد يديه، وناول فين خطابًا مطويًا:"إنه الخطاب الوحيد الذي أرسلته الملكة دورسيرا للأمير ميستريو".

طالعه فين سريعًا؛ ليجده تضمن ما قالاه بالفعل، وكتبت والدته به أيضًا أنها لن تثق بميستريو مطلقًا؛ فهو قاتل! ولن يكون لديه مشكلة بقتل أحد أفراد أسرته! وأنه كلما طالت مدة عدم عودة فين لأراضيها بالمملكة الشرقية فسينتهي الأمر بصورة بشعة لميستريو.

طوى الخطاب، وهو يفكر في حديثهما وفيما قرأه لتوه بخط يد والدته، إنه واثق من أنه خطها، ولوهلة أصابه السخط حيالها وتصرفاتها اللاعقلانية، واتهاماتها الشنيعة لخاله ميستريو الذي بالفعل طيلة حياة فين لم يعامله خاله سوى كابن له.

"فين، ليس عليك فعل ذلك إن لم ترد في النهاية، نحن لا نحاول إقلابك ضدها، نريد فقط إعلامها بالحقيقة".

"كلا يا بيلا أنا أتفهم تمامًا، غدًا صباحًا سيكون خطابي جاهزًا!"

ختم حديثه، وهو يناول المستشار الخطاب مجددًا، تبادلت بيلا النظرات مع المستشار الذي لم تزل الجدية من ملامحه للحظة.

"فين، هل انزعجت من محتوى الخطاب؟"

"كلا، أود النوم من فضلكما.."

"بالطبع..".

أومأت بيلا بتفهم ثم خرجت هي والمستشار من الغرفة بهدوء وأُغلق الباب من خلفهما، سار فين حتى مكتب موجود بالغرفة، وجلس خلفه وشرع يكتب:

والدتي العزيزة..

لقد اشتقت لكِ كثيرًا.. أتعلمين لقد تذكرت اليوم موسم الأمطار السابق، وكيف أنني أنا وكيرا خضنا تحديًا في المبارزة رغم إصابتها ولم تغضبي حيالنا.. أتدرين لقد كانت ذكرى لطيفة -أن أراك مبتسمة نحونا- حتى إن كان لمرة واحدة.. قد عشت عمري يا والدتي وأنا أراك غير سعيدة بأي فعل لي، وإن كان ذلك يختلف مع أختيَّ في بعض الأحيان لكن لا بأس، أنا لا أغار منهما يا والدتي لكن لما لم تقتنعي يوما بأي شيء حاولت إخبارك به؟ حتى عندما جلبت لكِ البراهين والأدلة، لقد تمنيت للغاية أن تؤمني بي حقًّا ولو للحظة واحدة، في بعض الأحيان كنت أشعر أن لكِ جانبًا آخر تحاولين إظهاره،

حينما أخبرتني أني أستطيع حماية أختيَّ لكن في لحظة يختفي ذلك الجانب تمامًا، كأنه ندم على إظهار نفسه، لماذا؟ هل أنا مخطئ وفاشل على الدوام بالنسبة لكِ، لهذا الحد يا والدتي؟!

لم يكمل خطابه وقام بتكوميه ورميه أرضًا، ثم شرع بكتابة خطاب جديد .

جلالة الملكة دورسيرا..

لقد استيقظت من سباتي، لكن جروحي تمنعني من التنقل والسفر وقد تأكدت من ذلك بنفسي، أُعامل بصورة حسنة للغاية هنا بالمملكة الشرقية، يجدر بك إقامة هدنة مع سمو الأمير ميستريو؛ كي يعم السلام مجددًا بأراضينا بأكملها، وفي الوقت الحالي أختار المكوث بمكاني، والمساعدة على حفظ السلام بالمملكة الشرقية.

الأمير فين.

***

[4]

بذور مدنسة

إنه يوم جميل للغاية؛ فالشمس على وشك الغروب ونسيم الرياح يدغدغ البشرة بشيء من اللطف، بينما تفوح الأشجار، وثمارها برائحة الخوخ العطرة.

يوم جميل للغاية؛ ففين، كيرا، وثنسيا يلعبون الغميضة على بُعد أمامها، كادت كيرا تلحق بالصغرى، لكن سرعان ما حمل فين ثنسيا أعلى ظهره، وركض بها سريعًا بكلتا قدميه ضاحكًا، وهو يتفادى كيرا التي أخذت تحاول اللحاق بإخوانها، وتتبعتهم بعينيها الصفراوتين.

"لن تمثقينا أب..دًا يا قيرا!"

صاحت ثنسيا ضاحكة بحروف مبعثرة، غير صحيحة بالكامل لكن هذا طبيعي لصغر سنها، شعرت دورسيرا برياح تقشعر بدنها ونظرت في الأفق، فوجدت أن الظلام سيحل.. عليهم العودة للديار، وترك تلك الغابة الخضراء التي لا حدود لها، سمعت ضحكاتهم لكن مع كل خطوة خطتها تجاههم شعرت بازدياد خفوت الشمس، وزيادة قوة الرياح حتى وصلت للنقطة التي اختفت برفقتها الشمس تمامًا، أبعدت عينيها عن أطفالها ناظرة صوب البقعة التي اعتلتها الشمس منذ ثوان؛ لتجدها أحلك ما تكون، صارت الرياح أكثر عنفًا واصطدم شعرها بوجهها بقوة، نظرت مجددًا نحو أطفالها، وهي تمد يدها نحوهم؛ كي يمسكوا بها ليرحلوا من هذا المكان، لكنهم

صاروا مختلفي الهيئة؛ فقد بدوا أكبر سنًا عن ذي قبل، بدت كيرا بعينين مختلفتي اللون، بكفوف محترقة، وذراعين يملؤهما الجروح وملامح خاوية من الحياة، شعرت دورسيرا بقلبها يعتصر لرؤية ابنتها بذاك المظهر، بينما بدا فين شاحبًا ناحلًا بملامح شخص يكبره بعقد كامل، وقدم واحدة وأخرى مبتورة يحل محلها جزء خشبي، ودماء تسيل من جرح غائر ببطنه، يا للهول! بيد أنها على شفا خطوة من الجنون، مدت يد نحو كل منهما محاولة جذبهما لكنها كلما اقتربت ازدادت المسافة بينهم، ازدادت حتى صارت كالمسافة بين المشرق والمغرب.

فكرت بهلع:

"أمسكا بيداي! أمسكا بيدي!"

لكن كيرا أحاطتها ظلال ما بالتدريج، ثم اختفت الظلال وبرفقتها تلاشت ابنتها،كما لو أنها تبخرت، بينما ابنها اقترب منه وحش مهول ضاري أقرب لهيئته الأسد.. صرخت به بقوة أن يبتعد عن ابنها، لكن لم يخرج أي صوت من حنجرتها، وبالنهاية اختفى فين هو الآخر برفقة ذاك الوحش.

سقطت أرضًا جاثية على ركبتيها، وهي تشعر ببلل دموعها على وجنتيها، لم تستطع حتى تمالك أنفاسها، والسيطرة على ألسنة اللهب التي تشتعل بصدرها وتحيلها رمادًا كمدينة منهارة.. عودوا يا أطفالي.

"أمي".

رفعت نظرها لمصدر الصوت؛ لتجدها الصغيرة ثنسيا تمد كفها نحو والدتها؛ لتساعدها على الوقوف فتناولته دورسيرا ووقفت، لكنها شعرت بنحول وضعف يد ثنسيا، تكاد تبدو سوداء، نظرت لوجه ابنتها بصدمة؛ لتجدها باهتة للغاية، وتتحول بشرتها تدريجيا للون آخر، لكن رغم ذلك ابتسمت الصغيرة بحنو لوالدتها، قائلة:

"أنا سأظل برفقتك يا أمي".

"دورسيرا ".

فتحت عينيها، لكنها ولت وجهها عن المتحدث بقدر ما استطاعت

"إنك تنوحين مجددًا أثناء نومك!"

لم تبال بحديث بودير، ومسحت وجهها بيدها سريعًا؛ لتزيل تلك الدموع السخيفة، وأردفت مغادرة فراشها:

"سأذهب لأطمئن حيال ثنسيا".

"ستتجنبين الحديث مجددًا يا دورسيرا؟! كأني لا أدرك أنكِ تستيقظين بهذا الشكل أغلب الأيام".

نظرت نحو الملقب بزوجها لوهلة بعدم مبالاة مردفة باقتضاب:

"أستأذنك بالذهاب للاطمئنان على ابنتي".

أومأ فخرجت من الغرفة متجهة صوب غرفة طفلتها، إنها تكره رؤية أي شخص لها بهذا المظهر الضعيف، وبودير لقربه

منها منذ زواجهما صار يستطيع فعل ذلك وهذا يزيد سخطها تجاهه، للحق منذ زواجها ببودير وقد صارت تمقته؛ لأن جزءًا بداخلها يشعر أنها مجبرة على ذلك رغم أنها من طلبت حدوثه، بدا آنذاك كالحل الوحيد؛ لتبقى متحكمة في مسار الأمور، وتمنع الأسوء من الحدوث، ظنت أن بودير سينساق لما تريد، ولن تكون تابعة له تملي عليه النصائح ولا يستمع لها، كما حدث مع أخاها دومين سابقًا، لكن الأحداث لم تسر إطلاقًا بالشكل الذي أرادته، وما يزيد سخطها حيال زوجها تذكرها أنه قد يكون قاتل أخيها دومين.

انبثق ضوء من النوافذ يشي باقتراب بزوغ النهار رغم ذلك لم يتوقف صوت الأمطار، وصلت لغرفة ابنتها لتجدها مفتوحة، ترتبها خادمة سرعان ما انحنت فور رؤيتها لملكتها:

"الأميرة ثنسيا انصرفت برفقة المربية نحو المقبرة الملكية يا جلالة الملكة".

شعرت دورسيرا بدمائها تغلي، وصمتت لوهلة، وهي تشعر بالرغبة في تهشيم رأس من سمح بحدوث ذلك؛ فقد أكدت سابقًا على بقاء ثنسيا بغرفتها طوال الوقت؛ فما الضمان على عدم وجود شخص أو جاسوس داخل القصر ينتظر هفوة فحسب، ينشغل فيها الجميع عن الصغيرة حتى يختطفها ويستخدمها كأداة ضغط خاصة بعد ما حدث لفين.

"أنا لم أسألك، أكملي عملك فحسب"

تحركت قدمي دورسيرا تلقائيًا مسرعة نحو خارج القصر،

وهي تتأرجح بين الغليان والهلع.. ثنسيا..

هرولت نحو المقابر بخطوات لا تناسب هيئتها وبرودها التي تحرص على إظهارهما دومًا، راودها ذلك الدوار اللعين ودموع حمقاء تجاهد للعبور لمقلتي عينيها.. وصلت أخيرًا، ورأت ابنتها بداخل تلك المقابر المطلية باللون الفضى في كل أرجائها، تنهدت براحة لكنها لم تدرك سبب إصرار تلك الدموع اللعينة على الوصول لعينيها؛ لذا أغلقتهما بشدة مبتلعة إياها، جيد.. جيد.. فابنتها بخير ولم ترحل كإخوانها.

آنذاك فقط، لاحظت كم تسبب المطر والأرض المبتلة في اتساخ رداء نومها الذي نسيت من فرط هلعها حتى تبديله، أصابها الاشمئزاز من تلك الأوساخ وكادت أن تتقيئ، سلطت نظرها على صغيرتها التي تقف على بُعد من امرأة ذات شعر كستنائى تجلس بهدوء أمام أحد قبور الموتى، أليست تلك هي جودي؟!

تساءلت، وهي تنظر نحو ابنتها وجودي، كانتا الاثنتان موليتان ظهورهما لدورسيرا، فلم يلمحاها ولكنها استطاعت سماع صوتهما، رأت ثنسيا تقترب من جودي بخطى بطيئة وتنظر نحوها، ثم تردف بتردد:

"سمو الأميرة جودي، مرحبًا".

نظرت جودي لثنسيا المتحدثة، من الجلي أنها لم تلمحها سابقًا، استطاعت دورسيرا رؤية ملامح جودي قليلًا، بدت شاحبة للغاية، بوجه أكثر نحولًا، يحوي دوائر سوداء واسعة

تحيط بعينها، لا حمرة بوجهها إطلاقًا، بل صارت أشبه بالأموات؛ أذلك بسبب مرضها أم بسبب موت جوزيف؟!

أومأت جودي لثنسيا بملامح خالية من التعبير، ثم عادت بنظرها للقبر الذي لا بُدَّ أنه قبر زوجها.

نظرت ثنسيا أرضًا متحدثة بذات التردد:

"إني آراك تأتين لهنا على الدوام، لطالما أردت المجيئ والتحدث معكِ منذ رأيتكِ للمرة الأولى، كان حينما جئت لزيارة قبر جدي، فقد تُوفي، أخبروني سابقًا أنه رحل للسماء، حسبت أن تلك رحلة ما طويلة لكن الحقيقة أنه تُوفي، ولن يعود مطلقًا".

لم تعقب جودي، وبقيت على حالها، بينما استأنفت الصغيرة:

"لقد أحببته كثيرًا وتوسلت له؛ ليعود لكنه لا يستطيع.. أنتِ أيضًا يا سمو الأميرة تأتين لهذا المكان لزيارة زوجك الذي أحببتيه، أليس كذلك؟"

بيد أن الفتاة تنتظر تأكيدًا لسؤالها، لكن حينما لم تحصده استطردت:

"أخبرني خالي، أعني أبي الجديد بودير، فهو ليس خالي، إنه ابن عم والدتي، وصار الآن زوجها، هذا ما أخبرني به فين، لكن..".

أحقًا يا ثنسيا جودي المنفطرة من الحزن ستهتم لهذا الهراء؟ نوايا الصغيرة جيدة، لكنها ساذجة فحسب..

زفرت ثنسيا باستياء:

"سأفكر بالمسمى الأصح لاحقًا.. المهم الآن، هو أنني حينما سألت أبي الجديد بودير عما يمكنني فعله لإسعادك، أخبرني أنكِ تحبين الأزهار الزرقاء؛ فهو رآها دومًا بحوزتك بالماضي، لهذا أحضرت لكِ هذه..".

أظهرت ثنسيا ما أخفته أسفل ذراعها، كانت زهرة زرقاء، ووضعتها في حجر جودي التي بدا أنها انتبهت بعض الشيء، ابتسمت ثنسيا ابتسامتها الملائكية، لكنها حتمًا غدت أقل اتساعًا عن الماضي.

"أعتذر لتآخرها، لكن المربية أخبرتني بأنها لا توجد بالمملكتين سوى في (ليس الكبرى)؛ لذا فاستغرق مجيئها بعض الوقت، لكن بمجرد وصولها فقد أحضرتها، أيتها الأميرة جودي، هل تبكين؟! ألم تعجبك الزهرة؟! أنا.. أنا أعتذر"

خرجت كلمات متقطعة من جودي بصوت باك:

"كلا.. إنها جميلة للغاية، أشكرك..".

"إذن لماذا تبكين؟!"

تنهدت جودي، وهي تكتم دموعها:

"لأنها تذكرني بشخص ما، بل بأشخاص، اعتادوا على إهدائي إياها، لكنهم لم يعودوا موجودين الآن".

"لا بأس، يمكنك الظن أنهم طلبوا مني جلب الزهرة، وإعطائها لكِ".

"يمكنني الظن بذلك بالفعل، ليتهم لم يعدوني بفعل ذلك بأنفسهم، أتعلمين أكثر شيء مؤلم؟ وعد كاذب يتخلله الكثير من الأمل، ثم يعقبه فقدان كل شيء.. وأنا لم يبق لي أي شيء".

بدت جملتها الأخيرة تقطر ألمًا، لكنها سرعان ما تمالكت نفسها:

"تجاهلي حديثي هذا، ليس عليكِ بفهمه".

ظلت ثنسيا صامتة، بينما أشاحت جودي بوجهها نحو القبر، لكن ثنسيا أردفت بنبرة مفكرة:

"لقد قامت أختي بوعد أخي بأننا لن نفترق، ثم رحلت، ووعدني أخي أنه لن يتركني أبدًا، ثم رحل، والآن تعدني والدتي بأنهما سيعودان، وتمر الأيام ولا يحدث شيء".

ماذا تعني تلك الفتاة؟! إخوانها سيعودان! اللعنة لماذا تفكر ابنتها بذلك الشكل؟! فكرت دورسيرا باستياء

نظرت جودي نحو الصغيرة التي استأنفت:

"صوت ما بداخلي يخبرني أن والدتي لا تخبرني الحقيقة، كما فعل أخي وأختي من قبل، لكن أختي تحب أخي كثيرًا، وأخي يحبني كثيرًا؛ لذا لا بُدَّ أنهما حين قالا ما قالاه سابقًا، فقد أرادا حقًّا حدوثه، لا أدري لمَ لمْ يحدث؟، ربما هما غير قادرين على تحقيقه فحسب، رغم رغبتهم الشديدة بذلك، وهذا يعني أيضًا أن والدتي تريد عودة فين وكيرا بشدة، وتفعل كل ما بوسعها لأجل ذلك! لأن والدتي عطوفة وحنونة، رغم

إزعاجي لها أحيانًا إلا أنها تحاول إسعادي دومًا".

صُدمت دورسيرا.. أهذا ما تظنه ابنتها بها؟! لقد حسبت أنها تمقتها لصراخها الدائم بالصغيرة، لكن ثنسيا لا ترى أيًّا من ذلك، بل تلتمس لوالدتها العذر وعوضًا عن ذلك تلوم نفسها؟!

"كما أنني أعلم أن والدتي تحبنا كثيرًا جدًا بشدة".

فتحت ثنسيا ذراعيها على مصرعيهما للدلالة على الكثرة

"ولا أظن يا سمو الأميرة جودي أن المحب بتلك الكثرة ليريد أن يحزن من يحبه مطلقًا، هذا ما توصلت له بمفردي؛ فالدُمى لم تعد تُجيبني، ولم أعد أود محادثتها على أي حال؛ فهي ليست سوى جماد".

ثنيت ثنسيا جزعها، وجلست لجوار جودي مكملة:"ربما لم تكن كل تلك الوعود حقًّا كاذبة".

ظلت جودي تنظر لثنسيا لوهلة، ثم أعادت نظرها للزهرة التي أهدتها إياها ثنسيا، لكنها سرعان ما ووضعت يدها أعلى جبهتها: "هل أنتِ على ما يرام؟"

"إنه بعض الدوار فحسب، أيمكنك مناداة أحدهم؛ ليرافقني لغرفتي؟"

"لا بأس يمكنني مساعدتكِ".

وقفت ثنسيا سريعًا وساعدت جودي على النهوض، ثم شبكت يدها بيد جودي، وهي تبتسم نحوها، بينما نظرت جودي للصغرى بتعجب ممزوج بأسى: "شكرا لكِ يا ثنسيا".

"لماذا تشكرينني يا سمو الأميرة جودي؟ أعلم أني لا أفصح عن ذلك لكني حقًّا أحبكِ؛ فأنتِ تشبهين والدتي".

زادت دهشة جودي، لماذا يزعج هذا المشهد دورسيرا؟! لماذا رغم ما قالته ثنسيا لتوها تشعر بهذا الغضب بداخلها لرؤيتها طفلتها تبتسم ابتسامتها تلك برفقة امرأة أخرى؟! أهو غضب حقًّا أم حزن يأبى أن يعلن نفسه؟! كما تأبى أن تعلن هي أن أي شخص آخر أحق منها بلقب "والدة".

"أمي؟!"

قاطعت أفكار دورسيرا صوت ابنتها الناظرة نحوها بدهشة:

"جلالة الملكة.."

حيتها جودي بدورها بصورة رسمية، لم تكن العلاقة بين دورسيرا وجودي حسنة أو ربما لم تكن هناك علاقة من الأساس، لكن دورسيرا واثقة أن جودي تملك سخطًا دفينًا نحو دورسيرا لما أصاب جوزيف، فهي تلومها بصورة أو بأخرى، لم ترى دورسيرا الأميرة زرقاء العيون كشخص اجتماعي للغاية منذ عرفتها للمرة الأولى، لكن منذ موت جوزيف وهي بالكاد تتواصل مع أي شخص، تشرد أمام قبر زوجها بالساعات، تتأمله فحسب، حتى بودير لم يستطع إخراجها من تلك الحالة، في الواقع فهو لم يحاول كثيرًا، فقد ركز جهوده على تجهيز الجيش وتوطيد العلاقات برفقة شبه جزيرة لونا، أومأت دورسيرا للأخرى، ثم قررت العودة برفقتهم للقصر.

لم يمر الكثير من الوقت؛ حتى كانت قد تحممت مبدلة

ملابسها لفستان بهي الهيئة، سمعت طرقًا على باب غرفتها فسمحت للطارق بالدخول؛ لتجدها أحد الخادمات تنحني لها مردفةً:

"جلالة الملكة، جلالة الملك يريد أن تأتي لغرفة سمو الأميرة جودي الآن؛ لتلقي الأخبار السعيدة".

بدت السعادة على أسارير الخادمة.

أخبار سعيدة؟! عم تتحدث تلك المخبولة؟

لم تكترث كثيرًا، ووجدت سبيلها للغرفة التي لم تقل فخامة عن غرفة الملك نفسه، بالأثاث الذي يتخلله اللون الذهبي، الستائر الفخمة، والتماثيل الصغيرة المزينة للأرجاء، ظهر أعلى وجه كل من بودير وجودي أسارير مختلفة، وجه الأول حديثه لدورسيرا فور رؤيتها:

"فلتأتِ وتشاركينا سعادة هذا الخبر!"

بدا بودير سعيدًا، بينما جودي كانت مختلفة للغاية عن السابق، كما لو أنها تم إحياؤها بصورة ما، منفرجة القسمات لكن الدهشة تطغى ملامحها، تساءلت دورسيرا بحيادية:

"ما الأمر؟"

"جودي حُبلى".

ابتسامات سعيدة على وجوه الموجودين، جودي المصدومة، الخادمة التي جلبت بعض الطعام لجودي وبودير الذي أجاب زوجته لتوه بسعادة مفرطة، لماذا؟!

بل لماذا يتم اكتشاف حملها في هذا الوقت بالتحديد؟! لقد تُوفي جوزيف منذ قرابة الأربعة أشهر، قد يبدو الأمر منطقيًا، وقد لا يبدو كذلك، أردف بودير وهو بأوج سعادته:

"لا أصدق أنني سأحمل بيديّ طفلًا آخر لجوزيف، بيد أن أخي لم يرحل كليًا".

"طفل جوزيف، أليس كذلك؟!"

نظر بودير نحو دورسيرا باستنكار من سؤالها، بينما تغيرت أسارير جودي السعيدة تدريجيًا لحيرة ممتزجة بالغضب وتساءلت: "ماذا تعنين، جلالة الملكة؟"

ظلت دورسيرا مصوبة نظرتها نحو جودي، بينما تدخل بودير بسخط:

"دورسيرا، فلتدركي جيدًا ما تتفوهين به قبل اللفظ به!"

"من فضلك يا بودير، هذا أمر يخصني أنا، أنا وزوجي الراحل! الذي يبدو أن جلالة الملكة دورسيرا تتهمني بخيانتي له! هل تحسبين يا جلالة الملكة أني لأخون زوجي الذي تُوفي لتوه بفعل أخيكِ؟! ولأجل ماذا؟!"

بدت جودي شديدة الانفعال على عكس طبيعتها:

"هل كان لديكِ يا جلالة الملكة أي فكرة حقيقية عن ماهية جوزيف؟ لا أحسب ذلك، فحتى إن حسبتِ إني شخص خائن لما افترضتِ إني لأخون شخصًا مثله!"

لم تدرك دورسيرا، أيجدر بها تصديق حديث جودي أم إلقائه

عرض الحائط، لم تتأثر فعليًا لكن جزءًا صغيرًا جدًا منها شعر بالخزى، ولم تدرك حتى لماذا؟ أبسبب تدنيسها لذكرى جوزيف بكل مرة تذكر اسمه بها أم بسبب جودي التي فقدت كل شيء ورغم ذلك لم تنجرف بالدفاع عن نفسها، بل بالدفاع عن زوجها، وقد كان رجل صالحًا بالفعل، رغم أن دورسيرا لم تستقطع أي من وقتها؛ لتحزن على موته فقد رأت أن الحزن سيكون بلا معنى فعلي فحسب، وربما ليس حق مباح لها، لكنها لن تنكر أنها حزنت بالفعل، وربما كل ذلك ادعاء من جودي؛ كي تبدو بمظهر الضحية، ويندرج تحت ألاعيب النساء الثعبانية القذرة.

أجابت دورسيرا باقتضاب:

"لقد أسأت فهمي يا سمو الأميرة، أنا واثقة أن طفلك سيجعل جوزيف قرير العين بقبره.. المجاور لقبر أخي الذي تسبب بذلك".

ها هي مجددًا تهين ميتًا بقبره لا ذنب له، أمام أقرب المقربون له بنظرات غير مبالية، بينما ينظران نحوها بحيرة وسخط غير واثقان، أتلك مجاملة أم إهانة واضحة.

لكن ماذا حسبا؟! أنهما سيتكتفان لإهانتها وإهانة أخيها الذي تدور شكوكها حول كون بودير هو قاتله وستصمت فحسب؟ ستصمت؛ لأنه الآن يجدر بها تقمص دور الزوجة المطيعة، الخانعة، الخاضعة؟! لن يحدث حتى إن لمس البشر النجوم بأناملهم المجردة، إن كان الأمر بتلك البساطة لصارت الأخت الخانعة الخاضعة سابقًا، لكن كلا يا بودير، لقد فاض

عرض الحائط، لم تتأثر فعليًا لكن جزءًا صغيرًا جدًا منها شعر بالخزى، ولم تدرك حتى لماذا؟ أبسبب تدنيسها لذكرى جوزيف بكل مرة تذكر اسمه بها أم بسبب جودي التي فقدت كل شيء ورغم ذلك لم تنجرف بالدفاع عن نفسها، بل بالدفاع عن زوجها، وقد كان رجل صالحًا بالفعل، رغم أن دورسيرا لم تستقطع أي من وقتها؛ لتحزن على موته فقد رأت أن الحزن سيكون بلا معنى فعلي فحسب، وربما ليس حق مباح لها، لكنها لن تنكر أنها حزنت بالفعل، وربما كل ذلك ادعاء من جودي؛ كي تبدو بمظهر الضحية، ويندرج تحت ألاعيب النساء الثعبانية القذرة.

أجابت دورسيرا باقتضاب:

"لقد أسأت فهمي يا سمو الأميرة، أنا واثقة أن طفلك سيجعل جوزيف قرير العين بقبره.. المجاور لقبر أخي الذي تسبب بذلك".

ها هي مجددًا تهين ميتًا بقبره لا ذنب له، أمام أقرب المقربون له بنظرات غير مبالية، بينما ينظران نحوها بحيرة وسخط غير واثقان، أتلك مجاملة أم إهانة واضحة.

لكن ماذا حسبا؟! أنهما سيتكتفان لإهانتها وإهانة أخيها الذي تدور شكوكها حول كون بودير هو قاتله وستصمت فحسب؟ ستصمت؛ لأنه الآن يجدر بها تقمص دور الزوجة المطيعة، الخانعة، الخاضعة؟! لن يحدث حتى إن لمس البشر النجوم بأناملهم المجردة، إن كان الأمر بتلك البساطة لصارت الأخت الخانعة الخاضعة سابقًا، لكن كلا يا بودير، لقد فاض

بها الكيل من ذلك الدور السخيف الذي تحاول مجاراته؛ كي تحيله كالخاتم في إصبعها، لكنه يرفض الخضوع بالقدر الكافي فحسب، وقد سئمت هذا الهراء.

ختمت دورسيرا حديثها بنبرة ود متصنعة: "تهانيّ لكِ يا سمو الأميرة".

تحول سخط بودير لابتسامة متحدية، ونظر نحو جودي مردفًا:

"أجل يا جودي، تهانينا لكِ، لكن تهنئتي الحقيقية ستتحقق حينما يشب هذا الطفل، فابن أخي هو ابني! وبه لن ينتهي نسلي ولن أخشى على الملك من بعدي أو على حدوث التفرقة".

اتسعت حدقتي دورسيرا لجزء من الثانية لمحها بودير بنفس نظرته السابقة مكملًا:

"أليس كذلك يا عزيزتي دورسيرا؟! الآن لن نقلق حيال أي شيء في المستقبل كما قلقنا من قبل".

لم تجب دورسيرا، أومأت برأسها بابتسامة لا تكاد تُرى فقط؛ كي لا تشك جودي بكون دورسيرا صارت مُهددة، أيعني ذلك الوغد ما قاله حقًّا؟! أم أنه يهددها فحسب؛ كي تلتزم دور الزوجة المطيعة الذي ضجرت منه؟! محال أن يكون صادقًا بما قاله! لا بُدَّ أنه يكذب؛ ليثير قلقها فحسب؛ فقد وعدها بأن فين سيكون خليفته والملك من بعده، وليس ابن جوزيف الذي ظهر فجأة ذاك! كاد عقلها ينفجر، صداع بشع لا ينفك عن

إصابتها، إنه كالجمر المشتعل الذي لا يتوقف عن التصادم ببعضه، ويكل ركن من أركان رأسها.

***

مع كل حركة تخطيها العربة، برفقة كل نفس يخرج من منخارها، بعدد نظراتها نحو القمر طول هذه الرحلة جالت أفكارها حيال كيرا، هل ستعود ابنتها لها أخيرًا؟! هل ستستطيع احتضانها بقوة؟ هل ستتأمل حتى أصغر القسمات بوجه ابنتها؟!

يبدو ذلك كالحلم الجميل، رغم محاولتها لفعل كل ما أمكنها لتحمي ابنتها، إلا أنه لم يكن كاف، ليس في مواجهة شعبان، ومرايا، ولعنة منذ مئات السنين.

لكن يا كيرا لا تقلقي، فأنا سأفعل كل ما بوسعي؛ كي تكوني آمنة أنتِ وإخوتك، حتى إن خالفت كل القواعد والمبادئ، حتى إن اضطررت للذهاب لحافة الكون ومواجهة أعتى الجبابرة، حتى إن كان الثمن هو حياتي، سأحاول، وسأحاول، وسأحاول، سأخوض كل السبل والوديان، لن ترتخي جفوني حتى أنقذكِ أنتِ وفين، فأنتم سبب محياي، ولا يعنيني شيء سوى أن تكونوا آمنين".

فكرت بذلك، وهي تنظر نحو القمر المضيء في تلك الليلة الخالية من الأمطار، يظهر من خلف زجاج نافذة العربة الخاصة بها أراض خضراء، وزهور حمراء خلابة حتى ظلال الليل لم تستطيع إخفاء وهجها، أو ربما أضواء المصابيح التي يحملها

الحراس السائرين بخيولهم لجوار العربة هي ما تسببت في سطوع تلك المعالم بهذا الشكل، السماء صافية كصفحة المياه الساكنة، إنها ليلة هادئة، ليت عقلها يسوده مثل هذا الهدوء، ولو لثانية واحدة، لكن منذ وفاة أخيها رانل، وقد صارت تلك الفكرة مستحيلة، تنظر من النافذة فترى بيوتًا قريبة من الشارع بها عيون تتلصص على موكب الملك، لكن لا يجرؤ أحد على الخروج، لهذا فشوارع هذه المدينة شديدة الهدوء، مدينة (سينار) الواقعة بين العاصمة الأم وعاصمة المملكة الغربية؛ حيث قرر بودير مقابلة نايلس بها للتفاوض حيال الهدنة وإتمامها، وذلك بقلعة الوالي على المدينة، وبالطبع تم إخبار السكان بالتزام منزلهم ريثما يمر موكب الملك، هذا ليس انطباع جيد لتركه بنفوس الشعب، عدم اختلاط ملكهم بهم، رانل لقال ذلك لكن على عكسها، فكان يهتم بأفراد الشعب جميعهم حقًّا، لكن عندما يتعلق الأمر بها فهي تهتم بصورة أكبر بسيادة الاستقرار والتخلص من الفوضى.

نظرت صوب بودير الجالس قبالتها، لكنه لا ينظر نحوها على عكس طبيعته بدا غارقًا في تفكير عميق، وهو ينظر صوب اللاشيء، عليها حسم الهراء الذي تفوه به حيال طفل جودي.

"بودير.."

لم ينظر لها فنادته مجددًا، لم يشِح نظره عن اللاشيء، لكنه تحدث:

Page ٤٥١ / ١٢١ [4] بذور مدنسة

"صوتكِ رقيق حقًّا، لكنه بارد للغاية، كيف لهذين الاثنين أن يجتمعا بشيء واحد؟"

رقيق وبارد؟! ما هذا الهراء؟

نظر نحوها بودير، وابتسم نصف ابتسامة وظل يتأملها، ثم قرب يده نحوها واضعًا أنامله على إحدى وجنتيها، وهو ينظر نحو عيونها فحسب، أصابت دورسيرا الحيرة لما يفعله، ولكنها أبدت ملامح محايدة، فابتسم مرة أخرى:

"لم تكذبي يا دورسيرا حين قلت أني أدرك ما تخفينه أسفل ملامحك الجامدة ووجهك الفولاذي الذي ترتديه طوال الوقت، لقد أخبرتني بهذا ذلك اليوم الذي طلبتِ به أن نتحد ونتزوج، أتذكرين؟"

"لماذا تسأل حيال ذلك؟"

أبعد بودير أنامله عن وجنتها وعاد لوضعه السابق، بينما لازال يتأملها لكن بملامح محايدة هذه المرة، ثم أجاب:

"أبهرني فحسب كيف أن حقيقة بسيطة كتلك استطاعت التغلب على الكثير من القرارات المنطقية التي وجب اتخاذها سابقًا".

عن أي قرارات يتحدث؟

"ما مقصدك من هذا؟!"

"هذا بغير المهم الآن، أخبريني لماذا أردتِ التحدث؟"

"ما قلته سابقًا حيال طفل جودي، أنت تعلم أن هذا منافٍ

لإتفاقنا الأصلي!"

رمقها بودير بلامبالاة، بينما توقفت العربة وطرق إحدى الحراس بابها لإعلان وصولهم، أذن له بودير بفتح الباب ونزل من العربة، تبعته دورسيرا التي ساعدها إحدى الحراس على النزول.

أمام مدخل القلعة استقبلهم الوالي على المدينة الملقب بالدوق (رومان)، أقرب للسمنة، ذو شعر برتقالي خف كثيرًا من مقدمة رأسه، أنف أفطس، وملابس تزدهر بالزمردات الحمراء المشابهة للون عيونه، ملابسه يتخللها السواد بصورة كبيرة كأغلب الموجودين؛ كنوع من الحداد على روح جوزيف، بالطبع هو ليس حدادًا بقدر ما هو إرضاء للملك.

انحنى الدوق بتوتر لبودير، وكرر الكرة مع دورسيرا مقبلًا يدها:

"جلالة الملك بودير، شرف جليل لي، ولكل قاطني مدينة (سينار)ق.. قدوم جلالتك بنفسك لهنا!"

بدا شديد السرعة بحديثه،كأن وحشًا يطارده، أجاب بودير ببساطة:

"لا بأس، فلتتقف!"

نظر الدوق نحو دورسيرا قائلًا:

"جلالة الملكة دورسيرا، إنه لشرف لنا .. استقبال جلالتك، إن جلالتك آية في الجمال، كما قيل".

"شكرًا لك أيها الدوق، هل أرشدتنا لحيث سيتم عقد الاجتماع؟"

"من دواعي سروري، لقد وصل الأمير نايلس بالفعل، ف..فور نيل راحتكما، س..سأعلم أحد رجالي بإبلاغه فورًا!"

رغم كون الرجل شديد التهذب والرسمية، إلا أن أسلوبه في الإجابة والتوتر الظاهر على وجهه، جعله يبدو كطفل صغير خائف من قول الإجابة الخاطئة أو كمجند جديد يحاول جاهدًا إرضاء قائده، مما رسم شبح ابتسامة على وجه دورسيرا دون عمد.

"لا وقت لهذا الهراء، أبلغه فورًا! ولتجعل أحد جنودك يرشدنا لغرفة الاجتماع!"

كان بودير شديد اللهجة، بينما تعرق الرجل من شدة التوتر هاتفًا:

"أمر، جلالتك!"

كانت القلعة محاطة بممر مائي، اجتازوه عبر جسر مصنوع من الصخر المشابهة لهيئة باقي القلعة؛ حيث البساتين المزينة بالنبات المتسلق ذي البتلات الحمراء، بينما تلألأت الفسقيات المزينة بالتماثيل الذهبية بضوء الشعلات، ساروا لداخل القلعة عبر باب ضخم؛ ليشهدوا البساتين الداخلية والجدران المزخرفة، توجهوا للسلالم مباشرة، لم يصعدوا الكثير منها حتى وصلوا لتلك الغرفة ذات مصابيح معلقة، جدران على هيئة مربعات حمراء ورمادية، نوافذ ذهبية مزينة

بالورود الحمراء، يوجد العديد من تماثيل الزينة بها، أحدها بالطبع لكوراخي وثنسيا، تحوي الغرفة طاولة كبيرة مستطيلة الشكل ذات أطراف مزخرفة ذهبية تزينها الزمردات الحمراء، وستة مقاعد تحيط بها تحتوي نفس الزخرفة والزينة، جلس كل من بودير ودورسيرا، ووقف خلف مقاعدهما بمسافة أربع حراس خاصين ببودير، استطرد بودير ساخرًا:

"ذلك الرجل، أترين كيف كان يتحدث؟"

أجابت دورسيرا بمهنية متجنبة الابتسام من تذكرها لمظهر الرجل:

"إنه يتعامل بتهذب مع ملكه، كما يجدر به".

نظر لها بودير بتعجب متسائلًا:

"أتسمين هذا تهذب؟! لقد أوشك على التبول من الهلع".

نظرت نحوه دورسيرا بدهشة، وحاولت تمالك نفسها، متحدثة:

"بودير لا يجدر بك".

"أقسم لكِ أنه أوشك على التبول".

عند ذلك الحد لم تستطع تمالك نفسها ووضعت يدها أعلى فمها؛ لتخفي ضحكاتها، شاركها بودير الضحك وأكمل متجاهلًا الحراس الواقفين خلفهم: "أؤكد لكِ أن ذلك الدوق لن يبلغنا بشيء مجددًا مطلقًا، وسيبعث مرسالًا لذلك، سيأتي لتوديعنا عند رحيلنا فحسب، وبيده منديل ليمسح قطرات

عرقه".

هزت دورسيرا رأسها، وهي تبتسم وتلف حدقتيها لأعلى باستنكار: "أحب رؤية ضحكتك".

نظرت نحو عيونه الواثقة تلك باستنكار، وهي تهز رأسها مجددًا:

"لقد كنت تقول لتوك دعابة مقززة، والآن تقول هذا؟!"

"لا يهم كونها مقززة، لقد تكفلت بالمهمة وأضحكتك في النهاية، أليس كذلك".

إذن كانت تلك المهمة، لاح شبح ابتسامة على وجه دورسيرا، وهمت بمحادثته مجددًا بأمر طفل جودي، لكن حينها دق الباب وسمح بودير للطارق بالدخول؛ ليدخل أحد حراس الدوق وينحني لهما، ثم يقول:

"جلالة الملك لقد بعثني الدوق رومان لإعلام جلالتك: أن هناك ضيفة من النبلاء، جاءت لزيارة القلعة مؤخرًا، وأن لديها معلومات هامة بخصوص المملكة الغربية، والأمير نايلس".

"ما اسمها وإلى أي أسرة تنتمي؟"

أجاب الحارس ملكه سريعًا:

"لا أعلم، جلالتك، هذا ما بُلغت به".

"إذن احضر لي سيدك؛ ليجيبني".

"أمر جلالتك".

انصرف الحارس، بينما هز بودير رأسه بنصف ابتسامة ناظرًا لدورسيرا: "ألم أخبركِ؟!"

لكن عقل دورسيرا انشغل بهوية تلك المرأة، ولماذا لم يبعث الدوق حارسه بمعلومات كاملة عنها.

"لا يعجبني قلة المعلومات التي أرسل بها هذا الحارس".

"لا تكترثِ لذلك، سيظهر كل شيء الآن".

دق الباب للمرة الثانية، وسمح بودير للطارق بالدخول؛ ليدخل نايلس بهيئته البائسة التي تزداد سنًا كل شهرين بمقدار خمسة أعوام، وبرفقته مستشاره، كان طاعنًا بالسن، برأس أصلع تغزوه بواقي شعيرات بيضاء ولحية نظيفة، يحمل حفنة من المخطوطات والأوراق الملفوفة، الخاصة بالهدنة بالطبع.

حيا نايلس كل من دورسيرا وبودير، ثم جلس ومستشاره على المقعدين المقابلين لهما بعد إذن بودير لهما، تحدث نايلس:

"جلالة الملك، أوضحت الخطابات كل شيء متعلق بالهدنة، وتلك الأوراق تتضمن كل ما اتفقنا حياله، وقبيل الخوض بأي تفاصيل سياسية، عفوًا يا جلالة الملك، أريد طمأنة جلالة الملكة بأن العمل جارٍ بالفعل على نقل الأميرة كيرا للعاصمة الأم حتى إنني بعثت ابني أدريان؛ ليكون برفقة الكتيبة المرافقة لها، وبغضون قرابة الشهر ستكون قد عادت للعاصمة الأم".

أومأت دورسيرا، وقد اطمأن فؤادها بعض الشيء، تسلم مستشار نايلس الآن ضفة الحديث:

"بالنسبة لبنود الهدنة".

لكن قاطعه فتح الباب على مصرعيه دون استئذان هذه المرة، ثم ظهر الدوق الذي بدا أنه سيبلل سرواله حرفيًا من فرط الفزع على ملامحه، وهو يردف بصوت مرتعب للغاية:

"جلالة الملك، لقد طلبت في قدومي!"

لكن ذلك لم يزل حنق دورسيرا في دخوله بهذا الشكل المهين؛ لذا أبدت استهجانها لذلك الفعل:

"كيف تدخل بهذا الشكل دون استئذان؟!"

ركع الرجل بدوره أرضًا، وهو يصيح متوسلًا:

"الغفران، اغفري لي يا ملكتي، اغفروا لي فحسب!"

نظر الجميع للرجل بدهشة شديدة.. كلا، لم يعد الأمر مقتصرًا على تهذب أو خشية مفرطة، هناك شيء ما غير طبيعي، سمعت دورسيرا صوت خطوات تقترب من الباب، فرفعت نظرها من على الرجل لترى القادم، فقط لتنفرج عيونها وفمها بدهشة، اللعنة إنها لم تعد تستطيع الإمساك بلجام ملامحها مؤخرًا، لكنها لوهلة عادت بذاكرتها لسنين طوال سابقة.

ذكريات سريعة أخذت تسود عقلها: مظهر الفتاة وهي تنظر نحو دورسيرا بابتسامة متبلدة المشاعر وترفع يدها لتلمس زجاج العربة التي تجرها الأحصنة في غروب ذلك اليوم على مشارف حديقة القصر التي بدت كئيبة للغاية، حينها تضع

دورسيرا كفها في المكان نفسه ولكن بالجهة المعاكسة من الزجاج، تنظر نحو عيون الفتاة باسمة لكن سرعان ما تنخفض عيونها نحو ساعد الفتاة الذي أغرق بكم مهول من الكدمات، سارت العربة حاملة الفتاة برفقتها مبتعدة عن دورسيرا وباقي الموجودين ولم تخفض الفتاة كفها أبدًا، اختفت تلك الذكرى، وحل محلها ذكرى أخرى، وهي تأمر كل الواقفين بتلك الحديقة بالرحيل.

"عدا أنت أيها الفارس".

قالتها مشيرة لأحدهم، لم يكد يسألها عن السبب فور رحيلهم، حتى انهالت بالصفعات على وجهه، لم تحاول إحصاء عددها حتى، لم تدر بنفسها حتى لم يعد هناك موضع بوجه الرجل لا يشوبه الحمرة الشديدة، كأنه خُلق بذلك اللون، وسالت دماء من وجهه بفعل أظفارها، تحدثت بأهدأ ما يكون لكن لا تذكر لحظة اجتاحها بها غضب مشابه! حتى سابقًا لحظة رؤيتها لجثة أخيها رانل هامدة لم تشعر بهذا القدر من الغضب، لقد عُميت تمامًا بتلك اللحظة، وهي تردف:

"إن لمست شعرة منها مجددًا، فسأكون أنا من سينحر رأسك".

"إنها أوامر والدك الملك!".

وكأنها وقعت حينها إلى الدرك الأسفل من الجحيم، صدمات، صدمات متوالية فحسب..

ذكراها الأخيرة، وهي تشد على يد شخص تستأمنه بشدة

يقف لجواره مراهق في مقتبل العمر، ثم تردف:

"عليك أن تفعل كل ما بوسعك لحمايتها! وعليك أن تقتل ذلك الفارس الموكل بأذيتها!"

وضع الرجل يده على كتف المراهق، وأكد بحزم:

"لا تقلقي يا سمو الأميرة دورسيرا، أنا وولدي نيكول سنفعل كل ما في وسعنا لأجل سمو الأميرة أختك".

"إنستازيا.."

تلاشت ذكريات دورسيرا، وهي تسمع نايلس يكرر اسم أختها الواقفة أمامهم، تلك المرأة لا تشبه أختها التي بلغت من العمر اثنا عشر عامًا، حين رأتها لآخر مرة، وهي تأبى إبعاد كفها عن زجاج النافذة، بينما تبتسم ابتسامة منعدمة الحياة، ربما لهما نفس الوجه، نفس العيون شديدة الحمرة، نفس الشعر المموج الذي طال كثيرًا عن ذي قبل ولم يصفف بشكل سليم، بل تُرك كالثور الهائج، نفس السواد المحيط بفساتينها دومًا منذ صغرها، لكنه بلا شك صار أقل احتشامًا بصورة بارزة، لكن تلك النظرة، إنها لشخص مفعم بالحياة، لكن ليس بصورة جيدة.. لا تستطيع تفسير الأمر، لكنه بدا صادمًا على نحو سيء، خاصة لما سمعته حيال تطورات أختها خلال السنين السابقة.

ابتسمت إنستازيا ابتسامة عريضة، وملست على شعر الدوق الراكع الذي زادت رعشة جسده على نحو ملحوظ وأعقبت: "أرى أنك لم تخبرهم بعد عن هويتي يا أرنبي".

أردف مستشار نايلس بمنتهى السخط: "هذا هراء! أين هم حراس هذا المكان؟!"

ابتسمت إنستازيا نحوه، مردفة:

"ألا تبتسم أبدًا؟ دومًا حانق بهذا الشكل، منذ محاكمة الهجينة القذرة، وحكمكم بالإعدام عليها، وأنت بتلك الملامح المقززة، إنك تثير اشمئزازي".

وكأن أعتى صاعقة من السماء أصابت دورسيرا، التي وقفت وصاحت بدورها: "ماذا؟!"

همت بالتوجه بهلع نحو نايلس، وهي تراه كأقذر صرصار يجدر سحقه، لولا اعتراض بودير لها، الذي منعها بملامح لا تُظهر شيئًا، لم تهتم له دورسيرا وحاولت تجاوزه، وهي تصيح:

"أخبرتني أنها ذهبت لقلعة بالغرب لحمايتها من الجموع الغاضبة، وأنت تخطط لقتلها؟! أيها الخسيس المنحط!"

"لم يصدر الأمر مني يا دورسي".

لم يكمل نايلس إجابته حتى قاطعته دورسيرا صائحة:

"اخرس! لا أريد سماع صوتك! لقد كنت الوحيد الذي أستأمنه حيال ابنتي! أيها الوضيع!"

أحكم بودير قبضتيه على ذراعيها، وهو يمنعها من التوجه لنايلس مردفًا نحوها بملامح جدية هذه المرة:

"كيرا بخير الآن، فأهدئي!"

زادت صدمة دورسيرا، وهي تنظر نحو بودير متسائلة بعدم تصديق: "أكنت تعلم حيال ذلك؟ أجبني أكنت تعلم؟!!"

لم تحصد إجابتها وقاطع الحدث كله دخول شخص آخر يرتدي درعًا ويمسك سيفًا بإحدى يديه، بدا أنه كان يبذل مجهودًا ما من شعره الذي أصابه العرق، ولكنه رغم ذلك بدا واثقًا وغير مبالٍ، أشهر حراس بودير سيوفهم فور رؤيته بهذا المظهر، شعرت دورسيرا أنها قد رأت وجه ذلك الشخص من قبل، لكن اهتزازها بسبب صدمتها لم يساعدها على التذكر كليًا، ضحكت إنستازيا نحو ذلك الفارس برقة مفتعلة وسارت نحوه تاركة الدوق المرتعش، ثم أسندت مرفقها أعلى كتف الفارس، قائلة: "أقدم لكم يدي اليمني: الفارس نيكول".

نيكول.. أليس ذلك هو المراهق ابن الرجل الذي بعثته دورسيرا لحفظ سلامة أنستازيا في المملكة الغربية في الماضي؟!

"اعذروه على عدم مشاركتنا لهذا الحفل منذ البداية، إنه حقًا يدرك أصول التعامل، أليس كذلك يا عزيزي؟!"

تساءلت إنستازيا بنبرة طفولية مكومة إحدى وجنتيه بأناملها، فابتسم نصف ابتسامة لها، ثم أردف:

"اعذروني جلالتكم"

استطردت إنستازيا:

"أجل، فكما ترون القاطنين بهذه القلعة التي لا بأس بها، حقًّا لا يمكنني الإنكار إنها ليست نتنة بقدر كبير؛ أي كون

القاطنين بها لم يدركوا أصول الضيافة إطلاقًا، أليس كذلك يا أرنبي؟"

قامت إنستازيا بشد المتبقي من شعر الدوق بقوة للخلف، فأخذ يكرر بذل:

"أعتذر يا سمو الأميرة، فلتغفري لي!"

"أرنبي، أعلم أني ذات قلب كبير، لكن أخبرني كيف لي بالغفران بعد فعلتك تلك؟! لقد أحزنتني حقًّا".

"لقد رفضت فحسب إخفاء هويتك عن الملك، أنا آسف! أنا آسف!"

"وماذا حيال مشاعري وفؤادي الذي شطرته إربًا؟! هل سيرممه أسفك يا أرنبي؟"

"إنستازيا، لما أنتِ هنا؟"

صاح نايلس، فنظرت نحوه إنستازيا باسمة:

"أووه يا أخي، لا بأس سأجيبك لكن فور ترميمي لفؤادي الذي كسره أرنبي، شاركني حزني يا نايلس، لقد قدمت كل شيء لأرنبي، سمحت له بضيافتي دونًا عن كل السادة الآخرين، سمحت له بتقبيل يدي أثناء انحنائه لتحيتي، سمحت له مرة بتناول الإفطار برفقتي، ولم أترك نمري الجميل -الهول الأسود- يلهو برفقته، وفي النهاية يجرح مشاعري بذلك الشكل ويرفض أمري له؟! لقد حسبت أن بيننا صلة يا أرنبي! ماذا كان يفترض بي بذله أكثر مما بذلته؛ كي لا تفطر فؤداي

بتلك القسوة؟!"

تنهدت بنبرة درامية، ثم أكملت ناظرة لبودير: "شاركني حزني يا ابن عمي، أيها الملك الجليل".

ثم نظرت نحو دورسيرا، وشرعت تضحك بقوة: "أختاه! أنتِ كما أنتِ، ترفضين الذبول، إنكِ لثمرة تأبى التعفن".

تحدثت دورسيرا للمرة الأولى لأختها: "إنستازيا؟ ماذا تفعلين؟"

لم تفهم حقًّا ما يحدث.. أفكارها حيال مصير كيرا شتتها، وكل ما يحدث حقًّا لم يبد مفسرًا، بدا كعبث بلا معنى.

أجابت إنستازيا باستنكار من السؤال: "أذيقه من نفس الكأس، ألا يبدو ذلك واضحًا؟!"

عند ذلك الحد بدأت دموع الدوق تسقط من عيونه، تحدثت إنستازيا: "لا تلعب دور الضحية يا أرنبي!"

ثم لطمت إحدى وجنتيه بغضب، أشار بودير لحراسه بخفض أسلحتهم، ترددوا لكنهم انصاعوا، تقدم نحو إنستازيا التي نظرت له مبتسمة، ثم في لمح البصر سحب بقبضتيه ياقة فستانها، فزع الموجودون بما فيهم هي لكنها سرعان ما ابتسمت، وجه بودير حديثه للدوق:

"لماذا لا تزال راكعًا هنا؟ فلتغرب عن وجهي!"

تسمر الآخر مكانه لثوان، ثم انطلق هاربًا لخارج الغرفة، أخذت إنستازيا بالتلوي بخسة، ثم أردفت بصفاقة:

"بودير، ولكنك زوج أختي".

قبل أن تكمل دفعها بودير بقوة نحو الحائط؛ لترتطم رأسها به بقوة، هم نيكول بالتوجه لها ومساعدتها لكن حراس بودير حاصروه، هرعت دورسيرا نحو إنستازيا التي فقدت اتزانها، وبودير الذي أحكم قبضته حول ياقة فستانها بصورة أعنف مثبتًا إياها نحو الحائط:

"لقد تحملت هراءك بما يكفي أيتها المهرجة الصغيرة! لست معاونكِ المطيع، ولا أحد إخوتكِ الحمقى سأتجاوز عن أفعالكِ لأجل عاطفة لا معنى لها تجاه شمطاء مثلكِ، أنا أتصرف فورًا! ولا يمنعني عن سحقكِ الآن سوى معرفة سبب مجيئكِ!"

حاولت دورسيرا تهدئة بودير، وإبعاده عن أختها: "بودير من فضلك، الأمر لا يستحق كل ذلك!"

أفاقت إنستازيا من صدمتها قليلًا، فابتسمت ابتسامتها العريضة، حاولت دورسيرا جذب أحد ذراعي بودير وإبعادها عن إنستازيا: "بودير، أرجوك اتركها، إنها تتشاغب فحسب".

"اخرسي يا دورسيرا!"

كان صوت بودير جهوري، ومشتعل لدرجة أفزعت دورسيرا، وجعلتها تتراجع قليلًا، أكمل بودير حديثه بموجة من الاشتعال لم تعهدها منه من قبل:

"تلك القذرة فعلت ما لا ندري كهنه برجل ذي وقار ومكانة كذاك؛ لتحوله لذلك الشكل المهين، وتخبريني أنها تتشاغب فحسب؟! تلك الحشرة ليست سوى مختلة تريد إرضاء أهوائها

المقززة! إنها خطرة على المجتمع بأكمله، لكن كل هذا سيتوقف هنا! فأنا لن أرحمك مثلهم!"

ضحكت إنستازيا بقوة بصورة عشوائية مردفة: "لا تلعب مع الحراس من أجلي يا نيكول؛ فأنا يعجبني الوضع كثيرًا".

ثم نظرت لبودير بنظرات هيام، وتحدثت بانبهار: "أووه يا بودير، كيف لم أدرك من قبل، كم أنت رائع!"

نظرت دورسيرا نحوها بتعجب شديد، هل جنت أختها بالفعل كما سمعت من قبل؟

"انطقي، لماذا جئتِ لهنا؟!"

"من يدري ربما أتيت؛ لأربت على رأس أرنبي، ثم التجول به قليلًا في الحديقة؟ فكما قلت لتوك العالم يتألف من حيواناتي الأليفة التي يجب أن أراعيها و..".

"لكشف معلومات مهمة بخصوص الهدنة!"

كان ذلك صوت الفارس المرافق لها، نيكول، وإثر حديثه تبدلت ملامح إنستازيا تمامًا للاستياء، وتمتمت:

"نيكول، أيها الوغد..".

"أعتذر يا أميرتي الجليلة، لكنك ستقتلين نفسك بمماطلتك تلك".

لقد أدرك معاونها الوضع وعواقبه، بينما ظلت هي تحاول استفزاز بودير غير مدركة لقلة تسامحه وصبره، فكرت دورسيرا في حين ابتسمت إنستازيا: "ستلقى عقاب مقاطعتي يا عزيزي

نيكول.."

"لا شك بذلك يا أميرتي الجليلة..".

قاطعهما بودير بحدة: "ما تلك المعلومات؟"

زفرت إنستازيا بضجر:

"رغم إفساد نيكول لخطابي الرائع وشعوري بالخيانة منه الآن، إلا أن الملل قد أصابني، عليك يا جلالة الملك، ويا أختاه جلالة الملكة، أن تدركا شيئين حيال أخينا العزيز نايلس قبل الإقرار بإتمام الهدنة أم لا".

صاح نايلس بانفعال:

"عمَّ تتحدثين؟! لا يمكنكم حقًّا الاستماع لها! ألم تروا جنونها لتوكم، إنها ليست سليمة العقل".

أمر بودير: "فلتفصحي عما لديك!"

"يا جلالة الملك، أنت أدرى مني بقواعد الآداب، خطب كهذا لا يمكن مناقشته بوضعنا هذا، رغم أنه يعجبني، إلا أنه لا يناسب مناقشة متحضرة إطلاقًا".

ها هي تعود لرقتها المفتعلة، ماذا تريد إنستازيا حقًّا؟! لازالت دورسيرا مصدومة مما سمعته حيال كيرا، أخيها وبودير علما ذلك لكن كيرا على ما يرام، تلك الهدنة هي المتسببة في عودة ابنتها، ما الذي قد تقوله إنستازيا؛ ليعدل عن إتمامها؟! وبوضع أختها ذاك هل يمكن تصديقها؟! ربما صدقتها على الفور في البداية؛ لكن لأنها حسبتها أختها التي عهدتها في

الماضي، ولم تكن قد رأت مجونها بعد، لكن هل تريد دورسيرا حقًّا معرفة أي شيء قد يعيق إتمام الهدنة؟ لن يوقفها إلا شيء عظيم للغاية، لكن ماذا قد يكون بتلك الشدة حيال نايلس البائس؟!

أطلق بودير سراح إنستازيا من قبضته، فاتسعت ابتسامتها ومررت يديها بين خصلات شعرها، وهي تموجها حول سبابتها أثناء توجهها للطاولة؛ لتجلس أعلى أحد مقاعدها، ثم نظرت صوب بودير ودورسيرا متسائلة بتعجب:

"ألن تشاركانا يا جلالة الملك والملكة؟"

أردف نايلس بسخط:

"من الأفضل لكِ أن ترحلي يا إنستازيا، فستتسببين بقتل نفسك فحسب".

قهقهت إنستازيا: "أنت تضحكني يا أخي".

عاد كل من دورسيرا وبودير لمقاعدهم، وأشار بودير لنايلس ومستشاره كذلك بالجلوس، نظر الجميع لإنستازيا التي شبكت أصابعها وأبدت نظرة جدية مخالفة لهيئتها السابقة:

"لقد كنت ستتخذ نايلس حليفك أيها الملك إن أتممت هذه الهدنة؛ لذا إن وجدت معلوماتي مفيدة وتمنع فاجعة عظمي عنك، فلتجعلني أنا حليفتك، وسأكرس كل قواي؛ لتحصد ملكك كاملًا!"

استنكر نايلس قولها: "لقد جننتِ! أنتِ حليفة؟!"

بينما أجاب بودير بهدوء: "سيتحدد هذا بعد إفصاحك عما بجعبتك".

استمرت إنستازيا بجديتها:

"يا جلالة الملك، بوسعك حماية محصولك من هجمات اللصوص والحيوانات الضالة، بوسعك بناء قلاع ذات حصون منيعة وأبراج طويلة، لكن كل ذلك لن يفيدك إن أصاب العفن محصولك؛ فثمرة واحدة كفيلة بتدمير محصول بأكمله".

فجأة اختفت جدية إنستازيا، وقهقهت بقوة متسائلة برقاعة:

"ما رأيكم هل أبدو حكيمة كميستريو؟"

أردف المستشار بنفاذ صبر: "هذه إهانة، وصفاقة غير مقبولة، الجلوس لجواركِ على طاولة واحدة!"

بدأ صبر دورسيرا بالنفاذ، أشارت بملامح جامدة للمستشار بأن يخرس، ثم تساءلت بحدة لإنستازيا:

"ما معنى هذا؟!"

"ألم يكن ذلك جليًا؟! معناه أن نايلس هو من قتل والدنا العزيز؟"

"ماذا؟!"

تغيرت معالم بودير تمامًا، بينما صاح نايلس باستنكار: "لقد فقدت عقلك تمامًا! أنا سأقتل والدي؟!"

لم تتفوه دورسيرا بكلمة، وظلت تنظر بعيون وفاه منفرجة

لإنستازيا التي أكملت بنبرة درامية:

"دعني أسرد لكم قصة: في يوم من الأيام ذهب نايلس لوالده الذي أمره أن يحضر له ورقته وريشته؛ ليخط قرارًا بحيازة رسمية للأميرين جوزيف وبودير للمملكة الغربية كليًا، شعر نايلس بأنه يخسر حقه فانقلب لطفل صغير باك".

مددت إنستازيا شفتها السفلى لتدل على الحزن: "لكن الوالد لم يتأثر فقتله نايلس".

ماذا؟! نايلس الضعيف؟! نايلس الذي استأمنه حيال ابنتها؟!

صاح نايلس: "أيتها الشمطاء! إنها تكذب لا تصدقوها!"

لكن قاطع حدة الموقف تحدث بودير، وهو مذهول كأنه أدرك شيئًا:

"الحبر.. قطرات الحبر التي وُجدت على فراش الموت، لقد تساءل جوزيف من قبل حيالها، أنت قتلت عمي؟! قتلته لأنه أراد إعادة حقوقنا لنا؟!"

هم بودير بالانقضاض على نايلس لولا تكملة إنستازيا:

"أوه، لا ترتابوا من تصرفه، فتلك ليست المرة الأولى، فنايلس هو من قتل أخانا رانل من قبل بالسم".

الغرق، هذا هو شعورها، الغرق لأكثر الأعماق حُلكة، إنها مفصولة عن الواقع تمامًا لا تبصر، لا تسمع، لا تشعر رغم أنها تبصر وتسمع وتشعر بكل شيء، تبصر وجه رانل معدوم الحياة حوله فتات الطعام، تشعر بأحشائها التي تود تقيؤ نفسها،

وتسمع صوت بودير وهو يصيح بوحشية لمن.. لا تدري؟! وتلك الجمرات المشتعلة التي تصدم رأسها فتنسفها كليًا، تلمح بودير، وهو يعلو نايلس موجهًا له اللكمات بأقصى ما لديه، بينما يحاول نايلس الدفاع عن نفسه بذراعيه، مستشار نايلس ينظر نحوهما برعب، بينما إنستازيا تضع يدها أعلى بطنها وتقهقه بقوة، حاولت دورسيرا الاستناد للطاولة والتوجه نحوهما، لكن قلة اتزانها جعلتها تصطدم بمقعد وتسقط أرضًا، الصداع اللعين ذاته يطلق نيرانه بكل ركن بعقلها، هُيئ لها أنها لمحت فتات ما بالأرض، فتخيلت وجه رانل على الفور بالزبد الأبيض على فمه، حينها فقط لم تعد تتحمل، وأخذ فمها يخرج كل ما بأحشائها، شعرت بأنها ستعمى من بشاعة الشعور بفمها يُفتح وحده وهو يصب كل مكونات معدتها أرضًا، حتى إنه لم يجد ما يخرجه في النهاية فأخذ يصب دماء حلقها، حينها فحسب توقف القيئ وشعرت بدوار وبشروخ لا تُحصى بحلقها، لكنها تماسكت واتجهت مسرعة نحو بودير ونايلس الذي صار لا موضع بوجهه سليم، إنه كالجثة المهمدة أسفل لكمات بودير، حاولت الاقتراب وجذب ذراع بودير، لكنها لم تدرِ بنفسها سوى وهي تندفع للخلف ممسكة بأنفها الذي بدا كما لو أن عصا خشبية صوبت جهته بقوة، استندت للطاولة، بينما نظر المستشار نحوها، وهو يصيح بقلق:

"جلالة الملكة!"

أزالت يدها من على وجهها الذي صار محتقنًا بشدة، لتجد آثار دم تسيل من منخارها أعلى كفيها، بدا أن بودير قد لاحظ

ذلك، فنظر نحوها بدهشة، وقد استنتج صدمه لها دون عمد، وقف مبتعدًا عن جثة نايلس وصاح آمرًا حراسه، وهو يشير بيده الملطختين بدماء نايلس:

"تحفظوا على هؤلاء الأربعة، وحراسهم!"

كان الأمر حيال إنستازيا ومعاونها، ونايلس ومستشاره، تساءلت إنستازيا بذهول مفتعل:

"جلالة الملك، حسبت أن بيننا اتفاقًا؟"

ليصيح بها: "اخرسي! وإلا أصابك مصير مشابه لأخيكِ!"

ثم أمر أحد حراسه: "احضروا حكيمًا فورًا".

كان ذلك بعد التأكد من إصابة دورسيرا، لكن ما آثار فزعها حقًّا في خضم كل ذلك الجنون: هو رؤيتها لما قد يدمر القشة الأخيرة تمامًا لعودة ابنتها، صاحت بعزم ما فيها: "كلا!"

إثر رؤيتها لنايلس ينهض، ويركض بكل قوته صوب إحدى شرف الغرفة مهشمًا زجاجها من شدة اندفاعه نحوها، ويختفي تمامًا خلفها.

***

[5]
أبصر يا إيليا

لم يمر شهران حتى، وتغير الكثير بالفعل، تلك السفن التي زاد عددها بشكل ملحوظ، الأسلحة الشتى التي يعمل الحدادون على صنعها بصورة متواصلة، حتى هؤلاء القراصنة الأشبه بالحراس الذين صاروا يجعلون مقلب القمامة هذا أكثر تنظيمًا وأقل عشوائية عن ذي قبل، كل ذلك حدث في اللحظة التي تولت بها إيزلا الحكم، إنها لا تتوانَ عن إظهار كم هي تسعى لتغير هذا العفن لهيئة أكثر تنظيمًا بالفعل، لكن بشكل أسرع مما تخيله وبعدم مبالاة غير عادية لكره الكثير من القراصنة للنظام وقلة العشوائية، لكن كما هو متوقع من شعب عشوائي كهذا، فانعدام مبالاتها لسخط فئة من القراصنة جلبت لها دعم فئة أخرى ممن يسيل لعابهم خلف من يتمرد على الآخرين، ويبدو حازمًا وجديًا بقرارته، ظنًا منهم أن ذلك هو المثال الأسمى والأكمل لمن يستحق القيادة، للحق من معلوماته حيالها، ومما رآه فهي بلا شك تستطيع القيادة، لكنها تفتقر بصورة كبيرة للديموقراطية أو حتى للتظاهر بأنها تسعى لها، فحتى في خطاباتها لا تلقي كلمات براقة أو مؤثرة بصورة كبيرة، فقط أن الأوضاع ستتغير شاؤوا أم أبوا وحين يعترض أي شخص، ترفض الاستماع لحديثه وتدعوه لإنهاء ذلك بالعنف، ثم تكسر أحد أضلاعه ويهابها الآخرون، وفي النهاية ترحل برفقة عدد قليل من البحارة والقراصنة التابعين لها، إنها لا تكترث حتى بإحاطة نفسها بالكثيرين لحمياتها،

ففي بعض الأحيان تتجول بمفردها لإصدار الأوامر أو التقصي عن مدى جدية تنفيذ تلك الأوامر، إن لم تحاول تعديل أمر كذاك أو ككلماتها المعدودة ومهاراتها الاجتماعية المنعدمة فهي في خطر محدق.

إن أراد تدميرها الآن لاستخدم تلك الثغرات لكن ليس بعد، عليه الوصول لنقطة ما أولًا، فأعدائه ليسوا هينين، هؤلاء القوم كم هم مضمحلون.. لكن بطريقة ما ظهر من قلب عشوائيتهم شخصان كأفعى ياما وإيزلا؛ ليصيرا منافسيه، إنهما ليسا بالمستحيلين، لكنهما يجلبان حس منافسة يعشقه ويحترمه كثيرًا، خاصة شخص مثل أفعى ياما، لكن لا تتعجل يا ميستريو، فلتركز حيال إيزلا الآن.. وأفعى ياما سيأتي من تلقاء نفسه؛ فشاغلته الكبرى حاليا هي إيزلا.

لكن ذلك لسبب وجيه، فتلك المرأة غامضة للغاية، لطالما لمح التابعين لها يختفون ويظهرون بكيفية مريبة، يأتون دومًا بقوارب محملة بحمولات لا أحد يدري كهنها، ويدخلونها مقر الحكم بهدوء تام، حين حاول أحد القراصنة معرفة ما بتلك الحمولات أوسعوه ضربًا حتى كاد يموت، وحين بدأ الأمر بالتصاعد تلاشى جلب تلك الحمولات تمامًا، لكن لازال القراصنة التابعون لها يرحلون بقوارب بشكل روتيني كما كانوا يفعلون من قبل.. لكن تلك المرة دون العودة بحمولات، حسب ميستريو موعد عودتهم؛ ليجده يتأخر عن السابق بفارق خمسة وأربعين دقيقة، مما يعني أن هناك حلقة مفقودة؛ حيث لازالوا يجلبون الحمولات، وبالتأكيد يوصلونها لمقر الحكم

لكن عبر سبيل مختلف.

أخذت الأفكار تدور ببال ميستريو، بينما الرياح تجعل شعره الأبيض يرتطم بوجهه، لم يهتم حقًّا لذلك الجو البارد أو الغيوم الرمادية المحلقة في الأرجاء برفقة الضباب الكثيف ليضللا الرؤية بشكل لا بأس به، فعليه الاعتياد على كل ذلك لمزيد من الوقت، إنه الجو العام هنا فحسب، شعر ببعض نقاط المطر الضئيلة تبلل أطرافه، وفكر بحال المملكتين، بينما هو يتأمل حذائه الذي لوثته حبات الرمال المبتلة كأن تفكيره كله منصب فيه، لكنه فعليًا استرق النظر لبحارة إيزلا، وهم يرحلون بقواربهم مجددًا على حدا، بينما هو يقف أمام مقر الحكم، ذاك القصر المنحوت بالصخر بهيئة عظيمة تتجلى النوافذ والأبواب عبر أجزائه الأكثر بروزًا.

فجأة أتى أحد أتباع إيزلا، وأشار لميستريو بيديه ليتبعه لداخل المقر، أخيرًا سُمح لميستريو بمقابلتها، من المثير للاهتمام حيال تلك المرأة قدرتها على حيازة تابعين صامتين حرفيًا، فمن ينضم لها عليه أن يقسم ألا يتحدث سوى في مواقف معدودة فحسب، وإذا خالف ذلك يتم قطع لسانه، فلديها فلسفة ما بأن ذلك سيقلل من نسبة الخيانات، كما أنها غير واعية بأهمية الاستماع للآراء المخالفة لها، فهي تسعى لتطبيق قرارها الأوحد فحسب، حتى بعد الاستماع للمستشارين الذين تحوزهم.

رفضت إيزلا مقابلة ميستريو المتمثل في الرسول إيليا لأسباب لم تبديها، لكنه واثق أنها رأت أن هناك أولويات أهم

من مقابلة رسول لأمير سترفض التحالف معه، هذا صحيح تلك المقابلة -بشخصية إيزلا تلك وتفكيرها- ستؤول بلا أدنى شك للرفض، لكنها ستصير الشرارة الفعلية لوصول لميستريو لمراده الأساسي للقدوم لهذا المكان النتن.. وهو تدمير المرايا العظيمة.

ظهر أن حتى أرجاء وردهات هذا القصر تغيرت عن السابق وصارت أكثر تنظيمًا، تم اصطحاب ميستريو لغرفة عادية للغاية لا شيء مميز بها؛ أثاث لا ينبع بأي رفاهية، مكتب خشبي عادي تقبع أعلاه حفنة من المخطوطات والخرائط، بعض الأسلحة منظمة أعلى منضدة ما، بينما إيزلا تجلس لمقعد خلف المكتب ناظرة نحوه، لم تنبس ببنت شفة وظلت تترصده بملامح متجهمة منتظرة منه التحدث، تساءل ميستريو بملامح متصنعة لمسة من اللطف:

"أتسمحين لي أيتها الحاكمة بالدلو بسبب قدومي؟"

هذا صحيح، فإما أن يستخدم الحاكمة أو القرصانة، فلا يدمجهما وبالتأكيد لا يتلفظ باسمها، فتلك ستمثل إهانة بشكل ما لتلك المرأة، أومأت إيزلا.

إنها تريد مضمون الأمر، لكن إن تفوه بمعرفته لما تريد فورًا؛ فستشك بقدرته على قراءتها، وهذا سيجعل أي حديث مستقبلي بينهما موضع شك بالنسبة لها، البعض يكونون أغبياء بتفكيرهم بأن شخصًا مماثلًا في الحديث والهيئة لما يريدونه لهو صدفة قدرية للشخص ذو الذكاء الأسمى الذي سيتفهمهم أخيرًا، ويكون ملاذهم من بؤرة الأغبياء المحيطة

بهم. الذين لا يسمون لتطلعاتهم ولا يفهمونهم، حمقى لا يدركون أن كل ذلك في الغالب عائد لتمثيل متقن ناجم عن معلومات، وقراءة دقيقة للأشخاص الذين يمثلون الهدف المطلوب التقرب منه، لكن ليست تلك المرأة، إنها ليست حمقاء، التظاهر بالغباء معها قليلًا قد يُظهر ميستريو ساذجًا بعض الشيء، لكنه سيشع ضوء لطف خافت في النهاية سيجذبها، فحتى الأسود الضارية بداخلهم بذرة ما تصرخ بنهم منتظرة قطرة لطف فحسب؛ لتروى عطشها، حتى وإن تظاهروا بعكس ذلك.

أردف ميستريو، ولم تستغرقه أفكاره تلك هذه جزء من الثانية: "إنني أُدعى الرسول إيليا، مبعوث من قبل الأمير ميستريو".

قاطعته باقتضاب: "أعلم كل ذلك، أخبرني بعرض أميرك فحسب".

كما توقع تمامًا، إيزلا ألستِ كتابًا مفتوحًا تمامًا كغيرك؟ الفارق الوحيد أن بعض الصفحات لازالت مبهمة، لكنها ستصير ساطعة كالشمس عما قريب.

فكر ميستريو بسخرية مفكرًا أنها ليست بتلك المهارة لمنافسته حتى، لكن لن يستهين بها بعد؛ فكون شخص كأفعى ياما يضعها في اعتباراته لازال يجعلها ذات نفوذ ما قوي.

"إن أميري يطلب التحالف مع جزر راندوس ومساعدته

في استعادة العاصمة الأم والمملكة الغربية، وفي المقابل سيعلن العداء ضد شبه جزيرة لونا، وسيمدكم بما تحتاجون من الجيوش والمؤون".

سترفض!

"عُد لأميرك، وبلغه رفض جزر راندوس لإقامة تحالف".

تظاهر بالاندهاش، ومحاولة التشبث بذلك التحالف الوهمي: "لكن أميري سيزودكم بما تحتاجون إليه".

"انتهى الحديث، بحلول الليل ستكون قد غادرت الجزر"

أنهت حديثها بصيغة الأمر، القادم هو ما تكمن به المجازفة.

"أستسمح منكِ البقاء حتى عصر الغد".

"لقد حصلت على إجابتك بالفعل، إطالة مدة بقائك لن يغيرها".

تنحنح ميستريو مبديًا التردد على أساريره: "إنه رجاء شخصي لا علاقة له بعرض أميري".

وقفت إيزلا، وهي تقترب منه متسائلة بعيون بها بوادر السخط، لا بُدَّ أن ذلك لجعله إياها تخوض حديث زاد عن الكلمتين، أبعد ميستريو عيونه للأرض متظاهرًا بالحرج، ولم يجب فورًا، ثم أردف:

"إنه أمر عائلي".

أعقبت إيزلا بنفاذ صبر:

"استمع، أيًّا كان اسمك، فلتدلِ بما لديك، فلا صبر لي بهذا الهراء! دون ذلك سآمرهم ببعثك لأميرك في هذه اللحظة".

ثم عادت لموضعها الأول خلف المكتب، الآن لا بُدَّ أن يتوقف الغباء والمماطلة، فإن أصدرت قرارها فلن تعدل عنه.

"زوجتي من كبرثا، وهذا يجعل ابنتي على شاكلتها؛ لذا جدر بي أن أعيد رفاتهما للجزيرة بعد موتهما، لذلك توسلت أميري لبعثي بهذه المهمة، ولذلك أيضًا كنت على معرفة مسبقة بكيفية اجتياز الكهف حتى جزيرة (المختارة)، ولقد استطعت الوصول لأحد سكان كبرثا هنا في (المختارة)، لكنه لن يرحل حتى الغد، وطلب مني مقابلته غدًا عصرًا؛ كي أعطيه رفاتهما ليأخذه بحوزته لجزيرتهما، ومن ثم إيداعه نحو أرض البعث بعد ملامسته لموطنهما".

تقاليد غاية في الغرابة، فالأحرى بعث الرفات من أي مكان نحو أرض البعث إن كان هذا هو المكان الذي لا بُدَّ أن يذهب نحوه موتاهم، لكن العادات تقتدي الحرص على ملامسة جثة الميت أو رفاته لوطنه أولًا، ثم تركها للأمواج لتحملها لأرض البعث.

لكن المهم الآن هو أن: رغم صعوبة ملاحظة ذلك إلا أن ملامح المرأة صارت حيادية لجزء لا يُذكر من الثانية.

هيا، أخرجي ذلك الجزء العاطفي، من سنخدع يا إيزلا حتى إن تظاهرت أنك أقوى من الجبابرة فستظل هناك عاطفة قابعة بداخلك، والآن ستحاولين إخفاءها بالمنطق، وبالطبع سيتملكك

بعض الشك.

فكر ميستريو، بينما تحدثت الأخرى: "إنك هنا لما يقارب الشهر والنصف، لماذا لم تقم بذلك من قبل؟"

والآن الرد الذي تريدينه يا إيزلا، الذي سُيظهرني بهيئة النبيل المخلص المصبوغ بمسحة من الحزن، ساذج قليلًا، لكنه ليس مخادعًا، كبداية بالطبع ليس فإلا.

أعقب أفكاره رده:

"لقد أمرني أميري بألا ألتفت لأي شيء سوى بعد موافقة حاكم الجزر بمقابلتي، وهذا لم يحدث سوى اليوم صباحًا، وبعدها مباشرة بحثت عن أي بحار سيرحل نحو كبرثا".

"إنني لا أخالف الأوامر يا إيزلا.. حتى في سبيل شيء مقدس لديكم، كإعادة رفات المهاجرين لجزيرتهم! مكرس نفسي تمامًا لأميري الذي أحسن اختيار أتباعه، لقد تخلل ذلك التصور حيالي للصخرة القابعة بداخلك التي أقسمت أن لا مخلوق سيتخطاها، أليس كذلك يا إيزلا؟ هذا حقًّا مثير للسخرية".

تكررت أفكاره مجددًا في الحين الذي بدت فيه ملامح إيزلا أكثر حيادية هذه المرة، ختمت هذا الحديث:

"حتى عصر الغد فحسب".

ثم أتى أحد أتباعها لاصطحابه للخارج، كم هؤلاء القوم مضحكون حقًّا، كم الأحكام التي يصدرونها على الأموات وتقسيماتها تثير الضحك، فالأموات أعلى الجزيرة يتم رميهم

بالماء؛ ليُسحبوا لأرض البعث، بينما المهاجرون يجب أن يتم حرقهم وإعادة رفاتهم لجزيرتهم؛ لأنهم لا يسمون لأن يعودوا لأرض البعث كجثث كاملة، بينما من ماتوا في الغارات والحرب شيء آخر، وكل تلك معتقدات مقدسة، إن تكبدوا نصف ذلك المجهود مع الأحياء، فربما وصلوا لنصر وحضارة حقيقية، لكن ها هي أحدهم تحاول إنهاء تلك العشوائية، وهذا ليس مبشرًا بالنسبة لمخططاته، لكن لا داعي للقلق؛ فتلك المرأة تتمكن منها العاطفة حقًّا، والدليل على ذلك هو كونها قد وافقت لتوها على شيء ضد التغير الذي لا تنفك عن ذكره، وافقت على شيء راجع للمعتقدات العتيقة، لا لشيء سوى لعاطفتها حيال ابنته المُدعية التي بالتأكيد ذكرتها بابنها بشكل ما، اجلب أكثر الأسود ضراوة وضع في قبالته صورة طفله وسيتحول لحمل وديع، خاصة إن كانت تتخلل كيانه عقدة ذنب ما حيال ذلك الطفل.

والآن نحو الخطوة التالية..

رغم تدربه على ذلك مرارًا، لكنه لن ينكر من بين كل ما جدر به إتقانه قبل اجتياز كهف الجزر بدت تلك كأصعب مهارة، وهي التقاط سمكة اليعسوب، تعوم بالقرب من شواطئ الجزيرة وتجتازها سفرًا للعالم الخارجي، لكنها سريعة للغاية وتنزلق بسهولة فور إمساكها، وحدها صقور القرنان هي القادرة على اقتناصها بلمح البصر، بدأ بالشعور بالسخط وهو واقف بمنتصف الشاطئ، بينما تبلل الأمواج نصفه السفلي بأكمله، الوقت ينقضي ولديه حتى الغد عصرًا فقط، ولفحات الهواء

البارد في الليل الحالك تزعجه، حاول اقتناص سمكة مرت بجواره كصاعقة البرق لكنه فشل، استمر في التحديق للأفق المظلم، بينما باقي حواسه مركزة نحو يديه القابعة أسفل الماء، لن تفيد الرؤية في هذه الحالة فهي شبه معدومة، استشعاره لاقتراب السمكة ورد فعله إزاء ذلك هو الأساس الآن، هذا الظلام يشبه حالة ما تراوده مؤخرًا، ليس تمامًا لكنها قاربت أن تصير بهذه الهيئة، في قلب هذا الظلام استرجع ميستريو ذكرى ما لابنته بعد إظهار تفوقها الذكائي لأحد الحلفاء، وكشفها لمكايد ذلك الحليف ضدهم، ثم تركه يرحل فحسب، شاعرة بالنشوة لانتصارها بتلك المناقشة وفضحها له، لم يكترث ميستريو حتى لتذكر ما قالته على وجه التحديد، كل ما تذكره هو تأمله لذلك المشهد وابتسامة بيلا لذلك الذي حسبته نصرًا، ثم نظرها نحوه وفي عيونها ذلك البريق، إنها تنتظر استحسانًا منه على ما اقترفته لتوها، معدومة الخبرة تلك.

ظل ميستريو ينظر لها بملامح معدومة التعابير، لكن بقرارة نفسه شعر بالإحباط مردفًا:

"لا بُدَّ أن السعادة تغمرك الآن، فقد أرضيت كبرياءك وأظهرت للحليف المزيف كم أنتِ ذكية وكم هو غبي، لكن ما أراه أمامي هي فتاة قليلة الخبرة تتفآخر بذكائها، مهدرةً ما تمتلكه من فرص؛ لتسنح لعدوها باقتناص تلك الفرص لاحقًا".

لاحظ تغير ملامحها بعض الشيء، واختفاء تلك الابتسامة لكنه لم يعبأ، وأكمل:

"بيلا، ربما قد حصدت نصرًا زائفًا في مناقشة كلامية هذه المرة، لكن ما جنتيه حقًّا هو إشباع غرور ساذج لن يفيدك لاحقًا، وأهدرت كل المعلومات التي حوزتيها عن أخطاء ذلك الشخص منبهة إياه إليها، الذي إن كان لديه مثقال ذرة من الذكاء سيتفاداها مستقبلًا، أو أسوأ فقد يستخدمها لصالحه ويسحقك بها!"

أراد إضافة "أنها لا تستحق الثناء" لكنه اختار الصمت وانتقل لأمر آخر، ظل يتأمل الأفق الكاحل أمامه، بينما وعيه يعود للحظة الراهنة، رغم أن ضوء القمر نفسه تخفيه الغيوم إلا أنه لمح بطرف عينه ذلك الظل عديم الوجه يتشكل لجواره متحدثًا:

"آآآه يا أخي، يا له من يوم طويل، بل أيام، أتتخيل أن بعد كل ما وصلت له كل خططك الآن تتوقف على اقتناص سمكة؟! لكني أدرك أنك تدربت على ذلك كثيرًا، وأنك تملك خططًا بديلة في حالة الفشل، وستحقق ما وطأت هذه الأرض لأجله منذ البداية، وجودي الآن ليس منوطًا بهذا إطلاقًا".

"كلا.."

"كنت أعلم، بيلا، أرى أن ما تذكرته لتوك ليست الذكرى الوحيدة التي تطرأ على بالك مؤخرًا، ليس منذ رؤيتك لنظرة ذلك الملقب بـ(البحَّار) لمشهد موت أضحية أفعى ياما، في أي وضع آخر لم تكن لتكترث، لكني أراك تنظر للأفق مشاهدًا به اليوم الذي كاد سول يغرق به، ونظرة بيلا نحوه آنذاك، لكنك ترفض فهم معنى ذلك، لا تنكر الأمر فحتى إن كانت

نظرات بيلا لم تعد تشي بما يختلج كيانها، فأنت الذي ترفض الفهم، فهم ما آل إليه حال ابنتك التي بنت حصونًا وقلاعًا تحاوطها حتى منك، لقد تعلمت درسك لها ذلك اليوم يا أخي، يجدر بك الفخر بها! لكن أتخشى أن ذلك سيحيلها كهذا الأفق القاحل، عديمة التنبؤ بالنسبة لك".

"لقد فهمت.."

بدأ السخط بالتسلل لميستريو للحد الذي سبب تغير ملامحه على غير العادة، سمع الظل يضحك بقوة متحدثًا:

"أصرت أنا حقيقيًا لذلك الحد بالنسبة لك؛ لكي تستاء من معرفتي لكل تلك الحقائق حيالك، وأنك لست مجهولًا بالنسبة لي؟ أووه، كلا، إنك ترفض ذلك! إن عقلك يرفض التفكير بالاستنتاجات الناجمة عن ذكرى بيلا وغرق سول الوشيك!"

تكررت ضحكات الظل بجنون:

"متى كانت آخر مرة رفض عقلك شيئًا يا ميستريو؟! لقد كان ذلك منذ موتي! لم أتخيل أن شيئًا قد يؤثر بك لهذا الحد، أتريدني أن أخبرك بما قد يعنيه تصرف بيلا ذاك؟"

"ارحل.."

"لقد توقعت ذلك، فهذا ليس الوقت المناسب حتى إن تعلق الأمر بطفليك".

لم يكمل الظل جملته، حتى كان ميستريو قد اقتنص السمكة، أخذت تحاول التملص، لكنه أمسكها بعزم مخرجًا

سكينًا صغير الحجم، وأخذ يتحسس بإبهامه أجزاء السمكة حتى توقف عند موضع ما وأحدث أعلاه شقًّا صغيرًا، ثم أخرج من جيب بردائه تلك الملفوفة ضئيلة الحجم للغاية مربوط لها كيس شديد الصغر، يحتوي مسحوقًا لم يظهر لونه، وأقحمهما في الشق الذي أحدثه، ثم أفلت السمكة عائدًا أدراجه نحو الشاطئ.

الآن الانتظار، الانتظار، وهو يتأمل تلك السحب التي تأبى الانقشاع أبدًا، ولا لإظهار حتى جزء بسيط من الشروق، فقط يظهر ضوء ما يُعلم القابع بهذا المكان أن الصباح على وشك الحلول، نظر نحو تلك الأمواج المتلاطمة وحدد أن الرياح الأعتى قادمة من صوبها فظل يجلس بمواجهتها قرابة الربع ساعة؛ كي تجفف الرطوبة التي لازالت تلطخ ملابسه، شعور الملابس الملتصقة على جلده إثر بللها يثير تقززه، من السخافة معرفته باختياره للمكان الأمثل للجلوس -حيثما الرياح أشد ما يكون- وعلمه بشكل تقريبي المدة التي ستستلزمها تلك الرياح لتجفيف ملابسه، ورغم ذلك لازال يأمل حدوث تلك العملية بصورة أسرع، إن ذلك ليس سوى غباء.

سمع خطوات من خلفه، وعلم أن الأمر سيبدأ، تنهد مفكرًا أنه لن يتسنى له الانتظار؛ حتى تجف ملابسه كليًا.

وقف أحدهم لجوار ميستريو تمامًا، بينما ظل الآخر يحدق في الأفق غير آبه

"أنت.."

نظر ميستريو جهة ذلك الصوت الفظ؛ ليجده رجلًا متوسط العمر، يرتدي ملابس بحارة، يبدو على ملامحه الخشونة ومنقوش أعلى رسغه وشم جزيرة ياما، لكن ميستريو لم يحتج رؤية ذلك؛ ليعرف هوية الرجل، أكمل الرجل بنفس الصوت الفظ:

"اتبعني ولا تفتح فمك!"

ظل ميستريو ينظر نحوه بملامح صبغها بقليل من الدهشة، ثم وقف ونفض الرمال عن أسماله، متحركًا خلف ذلك الرجل.

لم يمر الكثير من الوقت، حتى وصل لمبنى ضخم منحوت بالصخر، وصعد عدة سلالم به حتى وصل لغرفة واسعة تحوي العديد من الأثاث البهي المزخرف والسجاد الفخم، والعديد من الطاولات التي يقبع أعلاها قوارير لا يعلم ماهيتها، بينما أفعى ياما يجلس لأريكة مريحة وخلفه غانية تدلك كتفيه، عند رؤيته لميستريو أظهر نصف ابتسامة وأشار للمرأة بالانصراف، ثم أردف بنبرة ضاحكة يغزوها الكثير من الترحاب:

"العظيم إيليا، إنني حقًّا سعيد لقدومك".

ثم وقف مقتربا من ميستريو واضعًا كفه أعلى كتف الأخير بقوة كدلالة على الترحيب، انحنى ميستريو الذي لم يلفت نظره بكل هذا المكان حقًّا سوى قبعة الأفعى وما يقبع أسفلها، ما هي خدعتك أيها الأفعى حيال تلك الحية التي تبقيها أعلى رأسك دومًا؟ تلك القبعة التي يرتديها، النقوش أعلاها ذات لمعة مطفية عن السابقة، من المستحيل أن لون المعدن

النفيس الذي يستعمله قد خفت بتلك السرعة، لا بُدَّ أنها قبعة أخرى من مادة أخرى؟ ليخفف حمل ذلك القفص على رأسه؟ إنه كاذب إذن! تلك الحية لا توجد دومًا أعلى رأسه، ليس سوى عند خروجه فحسب، الأمر أكثر منطقية الآن، فحتى من يدعى أنه شب مع الأفاعي يحتاج للراحة منهم من آن لآخر.. أليس كذلك يا أفعى ياما؟!

تساءل ميستريو بعقله، بينما حدق أفعى ياما بوشوم ميستريو وهيئته الكلية:

"مظهرك مميز أيها العظيم إيليا.. بالنسبة للرسول، تلك الوشوم والعين البيضاء، لقد عاهدت في حياتي الكثير من الرسل، لا أتذكر مطلقًا أن أيًّا منهم كان لديه عين عمياء أو مقدس لمعتقداته لدرجة رسم كمية الوشوم تلك أعلى ذراعيه، أكل الرسل بمملكتيك ذو مظهر مشابه؟"

هل يشكك بكون ميستريو رسولًا الآن؟ بالطبع لا بُدَّ أن يبغى أفعى ياما أولًا: معرفة طبيعة الشخص الذي يريد تجنيده ضد خصومه، والمتمثلين حاليًا بـ(إيزلا).

"إنني من قبائل الميلينا، أعدادنا ليست كبيرة ويعيش أغلبنا بالقرب من حدود غابة الظل، إننا في تدني مستمر لتجنيد الغالبية ليصيروا من المسوسين الموكلين بلمس الحجر الموجود أمام المرايا العظيمة وترجمة أوامرها، لطالما كانت تلك وظيفة أجدادنا؛ لأنهم من القلائل الناجيين من حرب (الدمار والأشباح) -أكبر الحروب التي خضناها ضد إخوة الظل-، ثم بعدها استوطن أجدادي الأراضي المجاورة لغابة

الظل، واستطاعوا خطوها والعودة أحياء، ومنذ ذلك الحين وكل جيل جديد لا بُدَّ أن يُوشم بهذه الوشوم التي قيل أنها تمثل تقديس لأجدادنا -المسوسين الأوائل-".

"يبدو أنكم ذو شعبية ومكانة مقدسة".

"ليس كليًا، وليس بشكل معدوم أيضًا، أغلب الشعبين لا يعرفون الكثير عنا ويهابوننا، الكثير منهم يرونا كالمجاذيب الذين تعرضوا للسحر وعاشوا، إننا نمثل أهمية لهم لكننا خطرون بنفس الوقت".

"ألا يكفي أنكم تحوزون سلطة غير مطلقة؟! فأنتم تملكون القوة الكافية؛ لتغيير كل شيء بالنسبة للشعبين إن تفوهتم فحسب بمعلومة خاطئة حيال تعليمات المرايا".

"لكننا جزء من الشعبين أيها القرصان، إن أصابهم بلاء فسيحل علينا أيضًا، كما أننا ننشأ بالكثير من العيوب الخُلقية كتلك العين البيضاء، والكثير منا يُولد مجذوب بالفعل، ذلك هو ثمن قدرة كتلك على ما أحسب".

"منظور جيد للأمور، لكن حتى إن كنتم جزءًا من الشعبين، بقدرتكم هذه كان بإمكانكم حكم تلك اليابسة".

إنه محق، الأمر ليس بتلك البساطة بالطبع، لكن بقدرة تلك القبائل لاستطاعوا فيما مضى-حينما كانت أعدادهم أكبر- تحسين وضعهم بالنسبة للحكم، بالطبع حاول بعضهم على مدار العهود فعل ذلك، لكن الأمر يبوء بالفشل دومًا، لقد كان هناك دومًا خطب ما بهم، كأنهم جسد خاوٍ من الروح،

كموتى سائرون، أقل من أصابه الضرر بدا كما لو أن روحه أصابها الشيخوخة الشديدة، كل ذلك لم يخولهم للإمساك بمنصب حكمي لمدة طويلة، بالإضافة لصمتهم الشديد وانعدام المهارات الاجتماعية لديهم التي لربما استطاعت دحض مكاره فئة كبيرة من الشعبين تجاههم.

سار أفعى ياما حتى أريكته، وجلس بأريحية مشيرًا لميستريو بالجلوس:

"أتساءل يا إيليا: لماذا لازالت هنا؟ ألم تحصل على رفضك من القرصانة إيزلا بالفعل؟"

ها قد بدأ الحديث الجدي، فكر ميستريو، بينما هو يجلس مجيبًا بهدوء:

"لقد طلبت من القرصانة الإمداد في بقائي حتى عصر اليوم".

قهقه أفعى ياما مردفًا:

"ولكنك تعلم أنها لن توافق على إتمام التحالف مع أميرك، حتى إن بقيت لثلاثة أشهر أخرى. القرصانة إيزلا تتوخى حذرها للغاية؛ فهي لن تتعاون مع أمير لأسرة عاشت حياتها بأكملها متحالفة مع شبه جزيرة لونا، لكنك تعلم ذلك بالفعل، أنت وأميرك".

أبدى ميستريو الحيرة: "سيدي، أستمحيك عذرًا، لماذا تحسب؟"

لكن أفعى ياما قاطعه بملل:

"لماذا لا تدخل في خضم الأمر فورًا أيها الرسول؟! إن كان أميرك يريد التعامل معي مباشرة كان بوسعه إيجاد طريقة أسهل من تدريب رسول مسكين مثلك كيفية التقاط سمكة اليعسوب، أمر كهذا لاستغرقك ثماني أشهر على أقل تقدير، تنتظر وتنتظر وتبعث برسالة وهمية لأميرك من أحد الشواطئ التي يتردد عليها بحارتي بشكل كبير، ألا تدرك، كم الوقت الذي خسرته بفعل ذلك؟"

فتح ميستريو عينيه على مصرعيهما مظهرًا الدهشة الشديدة، بينما ترددت بعقله ضحكات لا تخفت، بل تزيد حدة، أيها الأفعى لقد وقعت في الشرك، والآن على ميستريو الإفصاح عن باقي خطته؛ لأن ذلك ما حدده منذ البداية: التعاون برفقة الأفعى؛ لأنه هو من سيوصله للسبب الأساسي الذي خطا لأجله رمال تلك الجزر.

تظاهر ميستريو بالهدوء، وأبعد عينيه عن الأفعى لوهلة مظهرًا التوتر بهما، أبدى تردده قليلًا، ثم أردف:

"كان علي مقابلة القرصانة إيزلا أولًا، كان علي أن أعلق بذاكرتها بصورة ما، لأحوز ثقتها لاحقًا".

أسند أفعى ياما ذقنه لقبضته مبتسمًا بسخرية، بينما أكمل ميستريو:

"لأن ذلك هو السبيل الوحيد لأحوز ثقتك، ولأتمم التحالف الذي يبغاه أميري برفقتك".

وقف أفعى ياما ضاحكًا، ثم صفق:

"يا لها من إجابة مثالية، لكنني لست واثقًا إن كان يجدر بي التحالف برفقة أمير يطلع معاونيه على تفاصيل المهام بذلك الوضوح".

بالطبع كان ذلك هو سبب تظاهر الأفعى بالغباء؛ لتعقيد ميستريو درب وصوله للأفعى أثناء بداية الحديث، لقد رأى الصورة واضحة من الوهلة الأولى، لكن أراد معرفة إن كان الأمير ميستريو يعلم معاونيه بتفاصيل مهماتهم أم يبقيهم عميانًا، في وضع آخر لكان الحل الوحيد هنا هو أن يفصح ميستريو عن هويته الحقيقية؛ لكي يصل لهدفه، لكن في الواقع ما حدث هو بالتحديد ما أراده، ليصل لحقيقية تدمير المرايا عبر ذلك الملقب بأفعى ياما، هناك سبب خلف اختيار ميستريو لهيئة شخص، مثل إيليا من قبائل الميلينا الذين يندرج منهم أغلب المسوسين، وليس رسولًا عاديًا رغم أن هيئة إيليا ستجذب الشكوك له، كما حدث من قبل مع الأفعى، لكن اقترب وقت إفصاحه للسبب الحقيقي لبعث الأمير ميستريو للرسول إيليا سليل الممسوسين.

"للحق يا سيدي إنني حالة استثنائية، لقد بُعثت لهذا المكان؛ لأتم غرضين وليس غرضًا واحدًا، إنهما مرتبطين، وأي خطوة خاطئة بإحداهما ستدمر الأخرى؛ لهذا جدر بي معرفة كل خطوة بالتحديد ورؤية الصورة واضحة، ولهذا بعث أميري برسول غريب الهيئة بالنسبة للرسل الآخرين، لكنه من قبيلة الميلينا، ولهذا أصر على أن يتم تحالفه برفقتك أنت سواء

صرت الحاكم أم لا!"

لوهلة تبدلت معالم أفعى ياما للتعجب الكلي، أمر كذلك لن يطرأ على شخص مثله سوى في حالة الصدمة الشديدة، إنه فعلا لم يتوقع ذلك.

ابتسم الأفعى، وضحك بدون صوت: "أمير من مملكتي النصف الشمالي من قارة أثرا..".

ثم أومأ كأنه يردف: الآن صارت الأمور منطقية، إنه سيوافق الآن بصورة بدائية على التحالف، فعقله بدأ بالتفكير أنه لا يجدر به الاستهانة بشخص يعرف أمرًا كهذا حيال المرايا العظيمة.

ظلت نصف ابتسامة على وجه الأفعى، لكن نبرته بدت أكثر جدية:

"سأقبل بالتحالف، لكن كما عرفت أنت وأميرك من قبل ما شرطي للقبول فيجدر بكما تحقيقه بأسرع ما يكون؛ كي يحصل أميرك على الإجابات التي يبغيها بخصوص المرايا العظيمة".

أومأ ميستريو بتفهم، بينما اختفت الابتسامة من على وجه أفعى ياما، وظهر السخط بصوته:

"اسمعني جيدًا.. إن كان بقدرة أميرك معرفة شيء حيال المرايا العظمى كهذا الذي لمحت له لتوك، فهو يستطيع التوصل لما تخفيه ابنة الزنا إيزلا تلك، وما قد يحيلها للخصم الذي يقف كالشوكة بحلقي، ولكي تفعل ذلك عليك كسب

ثقتها كليًا!"

إيزلا! ما ذلك الذي تخفيه ليقلق شخص كأفعى ياما بذلك الشكل؟! في الواقع عدم توصل ميستريو له حتى الآن رغم توصله لكل شيء تقريبًا يقلقه بدوره قليلًا، أجاب ميستريو بهدوء:

"أنا أتفهم ذلك".

قهقه أفعى ياما مجددًا: "تعجبني ثقتك، لكن ثق بي لا يجدر بك الاستهانة بها!"

لم يجب ميستريو، بينما تساءل أفعى ياما:

"إذن أخبرني أيها العظيم إيليا، هل أنت مستعد للمجازفة بخسران حياتك؛ لتحوز ثقتها؟!"

***

"الحدث إن صار اليوم، أيها العظيم إيليا فستصبح مجزرة بحق، لن يخرج منها الفرد سوى ميتًا أو غير مصدقًا أنه عاش ليوم آخر، لكن هذا ليس بجديد على الجزر".

"هل خططت لذلك اليوم، بينما نحن نتحدث فحسب يا سيدي؟"

"إنه سيحدث بك أو بدونك يا إيليا لأتخلص من أحد أعدائي، لكن يمكنك إستغلاله قبيل موعد رحيلك لكسب ثقة إيزلا، فقط اتفاقنا الآن سيحدد: هل سيتم اليوم أم لا".

"أصدر القرار لرجالك يا سيدي!"

"يا إيليا.. لازال بإمكانك أن ترحل عصرًا،كما أخبرت القبطانة إيزلا".

لازال بإمكانه إتمام الاتفاق أو محاولة العودة والموت غرقًا بمعنى أصح، فطالما أفعى ياما أطلعه على جزء من مخططاته، فلا سبيل أمامه سوى تنفيذها أو الموت، ولكن الأفعى بالطبع لن يسرد ذلك علنًا.

فكر ميستريو، بينما هو يسير متوجهًا للممر الذي يربط بداية الجزيرة بالكهف، وهو يسترجع حديثه الأخير برفقة أفعى ياما، يرى رجال إيزلا الأشبه بالجنود في الأنحاء يشرفون على بناء السفن، يرى بعض الباعة الجائلين ينادون بشراء أسماكهم، وبعض البحارة يجلسون متسامرين وهم يثملون ويبصقون أرضًا، رائحة السمك النتنة تنتشر بكل مكان، وعلى عكس الأيام السابقة، فالشمس تحارب لإزاحة السحب جانبًا والسطوع، فجأة ودون أي إنذار وقعت حاويات الباعة دون عمد أو هذا ما ظهر؛ لتنتشر بكل صوب وأوب مخترقة صفوف الجنود الذين حينما اقترب بعضهم منها، ليساعدوا على إعادتها شُطرت إربًا في اللحظة ذاتها، ووثب من كل منها قرصان مفتول البنية؛ ليشطر عنق الجندي -غير المستعد لأمر كهذا- إربًا، ثم أخذوا ينتشرون بعد إلحاق الضرر بعدد لا بأس به من قراصنة إيزلا المحاوطين بحدود جزيرة (المختارة)، وبدأوا بسحب أي شخص يرونه من شعره، ثم ينحرون عنقه، لم يستطع المتبقون من بحارة إيزلا لم شتات ما يحدث، ففي لمح البصر هاجمهم القراصنة الذين كانوا يثملون منذ ثوان، وهيئتهم

بدت كأنهم أكثر المخلوقات إتزانًا وصحة، أخذ الموجودون بالشوارع يهرعون يمينًا ويسارًا، فجأة دوى إنفجار بمبنى ما لم يدري ميستريو -الذي تخفى خلف أحد الجدران- تفسيره، لا بُدَّ أنها أسلحة للقراصنة من نوع ما مشابه لمدافع سفنهم، تبع ذلك عدة إنفجارات أخرى ذات صوت يصم، ورأى ميستريو إثره أشلاء أفراد من بدا أنهم كانوا بتلك المباني تتطاير في الهواء، وتناثر فتات صخور المباني في الأنحاء، وفي خضم كل ذلك سمع ميستريو صوت جهوري:

"إيزلا!"

كان ذلك هونج بنصفه العلوي عارٍ كالعادة لكنه ملطخ بالدماء، ويسير شاهرًا سيفه وأحد خنجريه، بينما ألسنة الغضب تندلع من وجهه، بدا حرفيًا كالمسخ السفاح، وحاول الكل تجنبه والابتعاد عن طريقه، لكنه لمح شخصًا متأثرًا بفعل الإنفجار يحاول من بين جروحه الغائرة الاستناد للحائط والابتعاد فشطر هونج جانب ذلك الشخص لنصفين في ثوان، ثم سحق رأسه بحذائه التي انفجرت كقنينة ضخمة من الدماء، ميستريو عادة لا يتأثر لكن ذلك المنظر صعقه بالفعل، أخذ معاونو هونج يدخلون المباني ويرمون من بها من النوافذ، بينما صرخاتهم تتردد بأذن ميستريو، وخاصة صياح النساء اللاتي أخذن يقاومن بضراوة القراصنة الذين سحبوهن من شعورهن في الشوارع أرضًا مقترفين غايتهم الدنيئة بهن، ثم ينحرن أعناقهن، ظل ميستريو متخفٍ بموضعه، وهو يرى كل ذلك، وفي لحظة راوده الشك عن كل ما يقوم به.

"إيزلا! أيتها العاهرة!"

أعاده صوت هونج الجهوري لِوعْيِه، وتذكر أنّ كل هذا لحدث به أو بدونه، إنه ليس سوى أداة فحسب وسيستغل ذلك في سبيل تحقيق هدفه، لقد اقترف في سبيله أهوالًا بالفعل. إنها آثام تجعل نهايته هي عقر الجحيم بلا أدنى شك، لكن في سبيل الهدف الأعظم، لا بُدَّ من تضحيات، لا بُدَّ أن يلغي إنسانيته تمامًا، وهؤلاء القوم هم -في النهاية- حثالة، إنهم وباء آخر يغزو الأرض، ويدمر فيها بجهلهم وعشوائيتهم، حشرات لا قيمة لها تفترض أنه يجب أن يكون لها نفوذ ومكانة كسواها، فلتحترق إذن تلك البذور الدنسة في الجحيم.

حينما لمح سير هونج وبحارته صوب مقر الحكم، وابتعادهم عن المنطقة خرج من مكانه، وسار بسرعة وحذر وهو ينظر في الاتجاهات؛ لكي يتجنب ملاقاة أي من قراصنة هونج، كانت الأرض غارقة بالدماء والجثث متناثرة بالأرجاء أو حتى أشلاء لا معالم لها، عبر ميستريو بعض الطرق محاولًا تجنب بحارة هونج قدر المستطاع، استند لحائط أحد المباني وأخذ يسير بسرعة معتدلة لجواره، سمع صوت امرأة تصرخ وقرصان يصيح بها من داخل المبنى لكن ما جذب انتباهه حقًّا هو صوت طفل باك، استند لحافة الجدار، وهو متأهب لوجهة الصوت التي أخذت تقترب من المخرج المجاور للحائط الذي يستند له، ثم رأى بابًا يُفتح على مصرعيه وتُدفع منه امرأة للخارج، ارتطم كيانها بالأرض لتزيد جروحها البالغة، لكنها رغم ذلك احتضنت بقوة بأحد ذراعيها طفلًا رضيعًا، وأمسكت

بيدها الأخرى خنجرًا داميًا، وظهر على وجهها نظرة من على استعداد للموت في هذه اللحظة، خرج قرصان ما ارتسم على وجهه الشر وبصفق ناظرًا لها أرضًا، ثم مسح دمًا ما يسيل من جرح غائر بكتفه:

"أتجرؤين على جرحي يا قطعة الخراء؟!"

ظلت المرأة تشهر الخنجر أمامها، وملامحها تصرخ بأنها لن تتوانى عن قتله، لكن رغم ذلك لمح ميستريو رعشة بيدها، أهي بسبب جروحها الجمّة أم أنها حقًّا خائفة؟!

"أعطيني هذا الطفل!".

صاح الرجل فلم تجبه وبصقت، فزمجر الرجل وهو يهجم عليها، بينما أخذت تلوح هي بالسكين بعزم ما فيها وكادت تصيبه لكنه أمسك رسغها بشدة بإحدى يديه وقام بتسديد لكمة لوجهها بيده الأخرى، مما أسقطها أرضًا وهي تئن وسقط الخنجر من يدها، أفلتت يدها الرضيع الباكي بعض الشيء من شدة الألم على ما يبدو، فقد طرشت دماء على وجهها من منخارها، أمسك الرجل بالرضيع والخنجر، وهم بطعنه به، ولكنها سرعان ما هجمت على ظهره وأخذت تحاول خنقه بلف ساعديها بإحكام حول عنقه وعض أذنه بعزم ما فيها، صاح الرجل وأسقط الخنجر والرضيع الذي ازداد نواحًا، حاول القرصان إبعاد المرأة عنه بشتى الطرق حتى استطاع إسقاطها أرضًا، ثم انهال عليها بالركلات، بينما صرخت هي بقوة إثر ذلك، وحين بدا أن قواها قد خارت تماما توجه للرضيع مجددًا، لكنها أمسكت بإحدى قدميه مزمجرة بألم:

"كلا، أيها النجس.. طفلي.. كلا".

كل ذلك الوقت ميستريو يراقب ذلك متجنبًا أي تدخل، لكن ذلك المظهر ذكره بمشهد مماثل، تلك الجثة المهمدة ذات الوجه المشوه بلا أدنى معالم تصطبغ هيئتها بلونين على التحديد، نفس اللونين الذين ذكراه بمظهر إيزلا عند خروجها من الماء نحو أرض البعث، التصق ذلك الوجه معدوم الملامح بعيونه، بينما يدوي بأذنه صوت الرضيع الباك بأذنه في هذه اللحظة، أخذت مشاهدًا تتسارع بمخيلته، وهو يسمع صراخ المرأة:

"طفلي.. كلا!"

حينها أدرك أنه لن يستطيع فحسب، ورأى ظل أخيه رانل عديم الوجه يقف بالقرب من الرجل، وهو يضحك بقوة متسائلًا بسخرية: "لا إنسانية، أليس كذلك يا أخي؟!"

عاد من هلاوسه التي لم تتعد الثوان للمشهد الحالي، وهو يرى الرجل يركل وجه المرأة ويتجه نحو الرضيع؛ ليدهسه، لا يذكر ميستريو متى سار بأسرع ما لديه ملتقطًا الخنجر من على الأرض، ومقحمًا إياه بعنق القرصان الذي استحال كتفه لالتفات القرصان نحو ميستريو بتلك الثانية، ثم صراخ القرصان من الألم أثناء دفعه لميستريو أرضًا، وهو يركله جانب الأخير بأعتى ما لديه ليئن ميستريو من جانبه الذي بدا أنه مُزق تمامًا،، ثم استل القرصان سيفه مقدمًا على الانهيال به على ميستريو لولا سقوطه أرضًا إثر صدمة عنيفة؛ ليرى ميستريو

أنها المرأة وبيدها حجر ملطخ بالدم من الأحجار التي أسقطها تفجر بعض المباني، رمت الحجر سريعًا بجوار رأس القرصان الذي سال منه الدماء، وانحنت حاملة رضيعها، تبادلت النظرات مع ميستريو قبل أخذها لطفلها وركضها مبتعدة، بينما أكمل هو السير لاتجاه مقر الحكم ممسكًا بجانبه محاولًا تخفيف أثر الركلات، انتصبت المباني بالصخر تسودها مشاهد ما بعد الفوضى من دمار وبعض الجثث الطريحة أرضًا، بينما معابر الماء تتخلل الشوارع حتى قلت باقترابه من مقر الحكم، حيثما رأي هونج يقف أمام رجاله بمسافة لا بأس بها من مقر الحكم، وهو يصيح:

"إيزلاااا! أيتها الداعرة! لاقيني الآن سننهى حسابنا القديم!"

وقف أمامهم على بُعد بحارة إيزلا بملامح لا تشي بشيء، وبعد ثوان سارت إيزلا حتى وقفت أمامهم بوجه جامد

"أهؤلاء من سيحمونكِ أيتها العاهرة؟!"

إنه محق عددهم ضئيل مقارنة بأعداد بحارة هونج، لا بُدَّ أنها أرسلت الباقي للم شتات الأوضاع، فكر ميستريو من بين لهاثه، لم تتحدث إيزلا، بل نظرت للجثث التي تسبب بها هونج وبحارته والمباني المدمر بعضها من حولها، لم تتغير نظراتها، بل أخرجت سيفها سريعًا، لكن ذلك استلزمها مدة تزيد عن المرة السابقة حينما قاتلت بسيفها، لم تتعد الثوان لكن لا بُدَّ أنها فعلت شيئًا ما مختلف، ثم صدمت نصل السيف بالأرض بقوة؛ لتلتئم أجزاؤه كالسابق

"ألن تقولي شيئًا أيتها العاهرة؟! أم أنكِ قطعت لسانكِ، كما تفعلين مع مساعديكِ؟!"

أعقبت إيزلا بكل هدوء:

"التغيير لن يطول الجميع، ليس فورًا.. لكن إن كنت ستقف عائقًا بطريقي، فلا حل سوى قتلك!"

"لقد كدت تحظين بالفرصة سابقًا أيتها الحشرة، لكنك قمت بسحر شبيه بقاطن ياما قطعة الخراء تلك، لكن هذه المرة ستكون رأسك أشلاء أسفل حذائي قبل هذا!"

نظرت إيزلا للجانب موجهة حديثها للبحارة خاصتها:

"لا تتدخلوا للقبض على معاونيه أو قتلهم سوى بعد انتهائي منه".

اشتعل الغضب أعلى وجه هونج، ولكن قبيل التحدث أشهر أحد معاونيه سيفه متوجهًا لإيزلا، وهو يصرخ بحنق: "كيف تجرؤين أيتها العاهرة؟!"

ولكن قبيل خطوه لخطوة أخرى سقط على ركبتيه صارخًا من أثر السيف الذي أقحمه هونج بساقه:

"كيف تجروء أنت على تخطيك لي؟!"

زمجر هونج، وهو يشد شعر البحَّار للخلف، هم البحَّار بالتأسف لكن هونج دفعه سريعًا للخلف مصدرًا أمره:

"ارموه لأسماك الشيطان؛ ليعلم أي حقير يقف هنا ما سيحل به عند تخطي القرصان هونج!"

صاح بجملته الأخيرة، وهو يضرب بقبضتيه أعلى صدره، ثم بصق وهو ينظر بسخط لإيزلا التي لم تتغير ملامحها إطلاقًا، ياللهول تلك المرأة كفيلة بأن يُكتب عنها مراجع في البرود، لمح ميستريو علويات المباني المجاورة؛ ليجدها قد امتلأت بقراصنة متلهفين لرؤية المشهد القادم، بعضهم جلب مشروبه الخاص حتى، وبدا آخرون يتراهنون من سيكسب بالمواجهة القادمة، إن الأمر برمته ليس سوى لعبة مقامرة بالنسبة لهم، لا فارق بالجثث المتناثرة، لا فارق بالسيدات التي عُذبن، ثم ذُبحن، لا فارق بالفوضى العارمة التي حلت والمباني التي دُمرت، فالأمر في النهاية ليس إلا محض دعابة بالنسبة لهم يشاهدونها كمسرحية هزلية، غير مباليين بما حدث، ولا بما سيحدث طالما العرض مثير للاهتمام، كاد ميستريو يستنكر ذلك كالعادة، ويتساءل عن كيفية نجاة قوم كهؤلاء كل تلك السنوات؟! كيف انفصلوا عن شبه جزيرة لونا من الأساس بكم عشوائيتهم تلك؟!

لكنه لوهلة أدرك أن ذلك قد يكون حيثما تكمن قوتهم، فكر بهذا وهو يشعر أن الوقت قد تباطئ، وهو ينظر لهؤلاء أعلى البنايات، وهم يضحكون ويبصقون، هؤلاء قوم لا عزيز لديهم حرفيًا، ربما رغبة دفينة أو ماضٍ أليم يقبع داخل كل فرد بشكل خاص، لكن بالمجمل فهم سيندفعون للحرب، التدمير، والنهب في اليوم الأول سيموت البعض منهم، ويُعذب آخرون من طرف العدو، ربما ينفعلون قليلًا، لكنهم سيعودون لمخيمهم ليلًا ليثملوا ويتسامروا، كأن شيئًا لم يحدث، ويعودوا في

اليوم التالي للقتال بشكل أقوى، وكأنهم بُعثوا من جديد دون آلام البارحة، دون ألم الفقد، دون مناجاة أنفسهم عن هدف ما يقومون به، بل سيقومون به فحسب؛ فهم خُلقوا لأجل ذلك، لأجل مشاهدة العرض والمشاركة به، لكنهم كيفوا أنفسهم أن غرض ذلك سيكون الاستمتاع فحسب وليس التأثر أبدًا، الموت نفسه لا يعني لهم شيئًا، ربما فحسب الغضب الذي يدفعهم للأمام ليسحقوا كل شيء، والشهوة التي تحيل أعدادهم لجيش من حشرات الحقل القادر على إفنائه تمامًا.

رأى ميستريو أفعى ياما يجلس بأريحية أعلى مقعد وسط القراصنة، وهو يبتسم بسخرية جهة كل من إيزلا وهونج، وفجأة عاد الزمن لسرعته، وربما أسرع وهو يرى قذيفتين ينطلقان صوب بعضهما، فجأة بدا هونج أسرع وأشرس من قبل، وهو لا يترك منفذ حركة حتى لإيزلا بهجمات في لمح البصر، بكل شيء ممكن.. أسلحته، قدمه حتى رأسه، أخذت إيزلا بصد كل ذلك، ولم يدر ميستريو ما حدث، لكنه رأى إيزلا تندفع للخلف فجأة، لا يدري إن كان استنتاج ميستريو صحيحًا، ولكنه يظن أنها حاولت التدحرج بعيدًا عن هونج لكنه أصاب ذقنها بركبته، ثم بعدها أثناء تشتتها لجزء من الثانية أصابها بشكل ما؛ لتندفع للخلف بهذا الشكل، لم يكمل ميستريو تفكيره الذي لم يتجاوز الثانية حين رأى هونج يلوح بسيفه في وجه إيزلا التي سحبت رداءها عليها بشكل غريب، كأنه سيلتف حولها كاملة، أقحم هونج سيفه بها؛ ليجد أن لا أثر لها سوى ردائها القابع أرضًا، رآها ميستريو الآن تقف على مسافة ليست ببعيدة عن هونج بملابس البحارة التي ترتديها أسفل ردائه ذاك

التي أظهرت إصابة إحدى كتفيها لدرجة كسر إحدى عظامه التي ظهرت غير متناسقة الهيئة، اللعنة، إنها لم تصدر أنينًا حتى! فكر ميستريو بصدمة، كذلك صعقته شراسة هونج التي تفوقت على الحيوانات الضارية نفسها، لكن لا وقت الآن لصدماته تلك فقد تفقده القتال كله، قبيل إدراك هونج لموضع إيزلا، هجمت هي بسيفها الذي حملته بذراعها السليمة فحسب لتصيب ساقه، حاول هونج تفادى ذلك سريعًا، لكن السيف سرعان ما تحول لهيئته غير المتماسكة والتف حول ساق هونج كالثعبان، وأخذت أجزاؤه تضغط على ساق قاطن كبرثا كالخطاطيف.

سحبت إيزلا السيف سريعًا، فكاد يشطر ساق هونج نصفين، لولا تخليه عن خنجريه لحظيًا، وإحكام قبضته على الفور حول أجزاء السيف غير الملفوفة حول ساقه وسحبها بكل قوته غير آبه بالدماء التي تسيل من قضتيه بسبب إحكامه على أجزاء السيف، لكنه اعتمد على حقيقة أن اعتماد إيزلا على ذراع واحد سيحيل قوة سحبها أضعف من قدرته وهذا بالفعل ما حدث، فالسيف سُحب من قبضة إيزلا، ولم تستطع التشبث به فتركته مستلة خنجرًا آخر من أعلى ملابسها بيدها السليمة، بينما هونج يحاول تحرير قدمه من السيف اندفعت هي نحوه بخنجرها لكنه استعاد خنجريه، وأخذ بصد ضرباتها بسرعة مقررًا ترك السيف ملفوفًا حول قدمه، وهو يحاول الإطاحة بإيزلا التي ولجزء من الثانية أثناء محاولتها للالتفاف استطاع التمكن من كتفها المكسور بأن يدوي بضربة عنيفة أعلى كتفها كادت تشطره إربًا، لولا إفلاتها قبيل ذلك متدحرجة للخلف، وبتلك

المرة ظهرت لمحة من الألم على وجهها بسبب كتفها الذي انبثقت منه الدماء بغزارة، ظلت تقف بموضعها لما لم يكمل ثانية، وهي تلتقط أنفاسها، بينما هونج لم يترك لها فرصة فقد انقض بخنجريه نحوها، لكن ظهرت بوادر ألم على وجهه أخذت في الازدياد حتى توقف قبيل الوصول لها بخطوات, وقد أصابت الرعشة أطرافه وهو متخشب مكانه، ثم أخذ يلعن نحو قدميه:

"أيتها الداعرة تحركي!"، ثم نظر لإيزلا بصدمة، والهول يخرج من فمه الغاضب:

"بماذا أصبتِ قدمي أيتها العاهرة؟!"

لكنها ظلت متجهمة الملامح، لا بُدَّ أن سمًا ما يسبب الشلل أصاب أوصاله لهذا استغرق الأمر إيزلا وقتًا أطول لإخراج السيف هذه المرة؛ كي تدهن سيفها بالسم، اقتربت إيزلا من هونج وبيدها خنجرها، وبتلك الثانية أُطلق سهمان من الأسطح نحو الرابح للتخلص منه، وهي: إيزلا، بدا كأن الوقت تباطأ مجددًا، اللعنة، تلك هي لحظته فهي ستستطيع صدَّ واحدٍ فقط بإصابتها تلك، لم يفكر ميستريو لثانية أخرى، وركض أثناء صدها لأحد السهمين بخنجرها في تلك الثانية بعد عرقلتها للسهم بخنجرها قام هو بدفع جانبها الذي يحوي كتفها المصاب؛ لتندفع قليلًا، بينما يصيب السهم الآخر ظهره على بُعد إنشات فحسب من قلبه، ويسقط أرضًا لكن قبيل ذلك تكون هي قد رمت خنجرها؛ ليخترق عنق الرامي الذي أصابه ليسقط الأخير بدوره أرضًا، ثم رصدت بعيونها الرامي الآخر،

والشرر ينبع من ملامحها الجامدة، وعندما رأى الرامي ذلك، وإشارتها برأسها لقراصنتها بإمساكه ركض هاربًا، تقدمت نحو هونج الذي لازال متخشبًا بموضعه بل إن لسانه نفسه بدا أثقل من القدرة على الحديث، وأخرجت قرطها الذي غير معلوم هل استعادته أم بدلته، ثم نحرت به عنق هونج لتصعد روحه للسماء تلك المرة، تناثرت الدماء لتلوث وجهها وملابسها، تعالت الأصوات القراصنة بعضها بمباركتها، وبعضها عن كون تلك مبارزة غير عادلة؛ لتدخل ميستريو، بينما وضعت هي يدها السليمة على جبهتها متمتمة:

"الكثير من الضجيج.."

أخذ ميستريو يتأمل كل شيء، وهو ملقى أرضًا على بطنه بذلك السهم المخترق لظهره مفكرًا أن هذا هو الثمن لبداية نيل ثقتها، صاحت إيزلا: "صمتًا!"

فهدأت أغلب الأصوات ملتفتتةً لها، أكملت بصوت عالٍ:

"من سيقف عائقًا بطريقي سأقتله! من سيخرب نظامي سأقتله! أمامكم خياران: القبول بالتغيير أو الموت!"

مهارات خطابية مبهرة.. فكر ميستريو بسخرية عن كم افتقار إيزلا لأي دافع؛ ليحمس تلك الحشود في لحظة كهذه قد تصير ملحمية بالنسبة لها ولمسارها بعد انتصار مهيب لها كهذا، لكنها تخلت عن كل هذا لتحظى بالصمت الذي تبغاه وتسرد حقيقة خططها بمنتهى الوضوح لجميع الموجودين دون أدنى تزيين أو مراوغة للكلمات، غدا ميستريو غير قادر على ترجمة

الكلمات بشكل واضح وشعر بجفونه تحارب؛ كي تسقط وبوعيه ينجرف بعيدًا، آخر ما رآه هو إيزلا تلمحه، ثم تردف:

"احضروا هذه الجثة لمقر الحكم".

***

يعوم ببطء بعدما انتظر للوقت المناسب، ربما يعترض طريقه أحد الأضحيتين لكنه جهز نفسه جيدًا للقادم، عليه أن يصير الأضحية التي يختارها البحر للنجاة، لكنه أثناء عومه رأى شيئًا غريبًا للغاية.. ذلك البحّار كان يقف أعلى الجزء الأيمن للأرض اليابسة المحيطة للمياه.. دون قيود، يحمل شعلة وقد استرجع قبعته، أخذ وضع القرفصاء متأملًا ببرود الرجل الأربعيني، وهو يجاهد بكل ما أؤتي من قوة؛ كي لا يفقد أنفاسه وتخور طاقته تمامًا، كمية البرود على ملامح البحّار بدت كما لو كان يجلس في عشاء ممل، ولوهلة تبدلت ملامحه للدهشة قليلًا بالتزامن مع تبدل هيئته كليًا، لقد صار يحمل وجهًا وهيئة بيلا، لكن دهشتها سرعان ما خفتت وتحولت للملامح الباردة الأولى، اتسعت عيون ميستريو بصدمة، بينما انتقلت عيونه لموضع الغارق؛ ليرى سول ظل ميستريو يتأمل كل ذلك بدون أي ملامح، وهو يحاول استيعاب كيف أن بيلا صارت بذلك الموضع وسول بذاك؟! كيف للأدوار أن تكون بتلك الهيئة؟! هذا ما لم يستطع عقله ترجمته.

تردد صوت ظل أخيه لجواره هامسًا: "ابصر.."

"ابصر يا أخي ما ترفض رؤيته.."

"ابصر بالحقيقة.."

"ابصر.."

شعر بجفنه يُفتح رغمًا عنه، وبلهب يضوي أمامه: "ابصر يا إيليا"

تردد صوت أنثوي بعض الشيء لأذنيه، بينما فتح عينه الأخرى قليلًا؛ ليستوعب الأرجاء من حوله، غرفة ما لم يجذب انتباهه بها الكثير، ليس بها الكثير على أي حال؛ بعض الأوراق المتناثرة بشكل عشوائي مقزز في الأرجاء، مدفئة ما متوسطة الحجم بأحد الجدران، أرفف خشبية تحوي قوارير مختلفة الأحجام والألوان، ونافذة مفتوحة على مصرعيها؛ لتؤكد أن التوقيت ليلًا، اتضحت الألوان والأشكال أمامه بصورة أكبر؛ ليميز الشخص الذي يقف أمامه، إنها تلك الطبيبة التي ضمدت له جرح ساقه سابقًا بعد اختيار البحر له كالأضحية التي ستنجو وقبيل قذف البحّار له في قارب؛ ليرحل نحو أرض البعث بالإجبار، كانت تربط قماشًا كثيفًا حول عينها اليسري، كما ظهرت العديد من الكدمات على كل من وجهها وساعديها، قربت اللهب من عينه مجددًا؛ حتى شعر أن العمى سيصيبه فأغلق عينه تلقائيًا.

"يبدو أنك بدأت تبصر أخيرًا.."

أجل يمكنها وضع الشمعة بمواجهة عيونه ليعمى تمامًا، يا لها من خرقاء! حتى الأطباء هنا أغبياء، أي طبيب يتصرف بهذا الشكل الأهوج؟! تساءل باستنكار وسخط، ثم تنهد.

رآها تتجه لأحد الأرفف الخشبية ممررة أناملها عبر القوارير، ثم انتقت إحداهن، بدأ يدرك وضعه بصورة أكبر، فيبدو أنه مستلقٍ على بطنه أعلى ما يشبه الفراش، لكنه قاسٍ كالحجر، اقتربت منه الطبيبة وحنيت جزعها مقربة القارورة من فمه.

"عليك بشرب هذا!"

لم يجادلها كثيرًا، وبلع السائل الذي بدا طعمه كخليط من البيض النيئ وروث الخنازير، كاد يستفرغ كل ما بمعدته لكن تلك الخرقاء سرعان ما أحكمت غلق فمه بقبضتها، مردفة:

"ليس لدينا الكثير منه، وعليك بابتلاعه إن أردت النجاة".

حاول تجنب التفكير بمذاقه، وتشتيت انتباهه بأي شيء آخر، ولوهلة ساعدته الخرقاء بذلك بتحدثها حين حاول إبعاد قبضتها عن فمه، لكنها أحكمتها بصورة أكبر:

"إذا أردت التقيؤ فلتفعل، لكنك ستبتلع قيئك، فكما أخبرتك ليس لدينا الكثير من هذا الترياق".

حاول إبعاد نظره صوب النافذة؛ كي لا يفضح كم ازدرائه لها ولقومها.

"من الغريب كيف ينجو سائح مثلك أيها العظيم إيليا، مما من المحال أن ينجو منه سائح آخر في جزرنا هذه، لم أحسب أن على مدار حياتنا بأكملها سنرى سائحًا واحدًا حتى، يبدو أن نجاتك بشكل مستمر تلك معتمدة بصورة كبيرة على.."

الحظ، القدر، مباركة الأمواج واختيار البحر لك.

توقع الإجابة مسبقًا قبل سردها لها، لكنها أكملت:

"خطة محكمة، وتدريب شاق لا يتخلله ثغرة.."

ماذا؟! استعجب جملتها، بينما أكملت مبتسمة:

"لقد أجاد أميرك اختيار معاونيه، أحسب أن تحالف (جزر راندوس) معه لن يكون أسوأ فكرة بالوجود".

ظل ينظر نحوها، وهو يحاول استيعاب أن مواطنًا آخر بهذه الجزر دون عن أفعى ياما وإيزلا قادر على استعمال رأسه، والتفكير حقًّا، تركت فمه، مردفة: "جيد لقد ابتلعت السائل بالفعل".

ثم سارت نحو مكتب خشبي يعلوه العديد من الأوراق المتناثرة بشكل مستفز، وهمت بكتابة شيء فوق أحد تلك الأوراق: "اعتد على الفوضى مدة تواجدك بهذه الغرفة، فلا يمكنني التركيز بدونها".

هل هناك المزيد يفكرون بطريقة قد تكون مشابهة بزوبعة الوحل تلك؟!

تساءل، وهو يعدل وضعه للجلوس وينظر من النافذة، ثم قرر أن تلك بلاهة فلا شك أن هناك خطبًا ما، وجد نفسه تلقائيًا يستفسر: "حسبتك ستقولين أن هذا بسبب اختيار البحر لي".

قهقهت الطبيبة متسائلة: "لماذا؟ أذاك ما أردت سماعه؟"

تركت ما بيدها، واتجهت نحوه متسائلة مجددًا:

"وحتى إن أخبرتك ذلك، هل لصدقتني؟ أم كنت ستفكر، آه،

بالتأكيد.. المعتقدات السخيفة الخاصة بقاطني الجزر مجددًا، ثم ستهز رأسك متفهمًا".

اتجهت نحو ظهره؛ لتفحص جرحه.

"لا تقرأيني أيها ال...، إن أردت قراءة أحدهم، فليكن إيليا وليس ميستريو"

فكر ميستريو بسخط، ثم أخذ يعيد كل أفعاله برأسه؛ ليستنتج ما الذي قد يكون اقترفه؛ ليجعل امرأة لم تتعد كلماته معاها الثوان تتوقعه بذلك الشكل المهين لكل إجراءاته للوقاية من هذا، بل والأخطر: هل يوجد الكثيرون مثلها هنا؟ تساءل ببعض الريبة لكنها سرعان ما سألته:

"هل تشعر بألم هنا؟"

وهي تضع يدها بموضع قريب من جرحه فأومأ، كررت فعلها ذلك عدة مرات أخرى، وأجاب هو بشعوره، لكنه آنذاك قرر أنه سيحاول تجنبها حتى يرحل من الجزر بقدر الإمكان، سيحاول التقليل من خطر التعرض لإصابات جديدة، وإذا حدثت إصابة ما سيتكفل هو بعلاجها أو سيلجأ لأي شخص آخر، دومًا سيراقب الأماكن من حوله للتأكد أنها لا تترصده، هو بالفعل يفعل ذلك، وخاصة لتجنب الملقب بالبحار الذي لا شك سيلقاه مجددًا، لكن للاحتراس أيضًا، هذه المرة سيضيفها لقائمة الذين قد يترصدوه و..

"لقد انتهيت! جرحك تحسن عن ذي قبل".

لا بُدَّ أن ما أصاب عينها، وسبب كل تلك الكدمات كان

بسبب المجزرة السابقة، فجأة وجد نفسه لا إراديا يسأل: "ما الذي أصاب..؟"

ثم أشار بسبابته لأحد عيونه؛ لتفهم مقصده، قهقهت مجيبة:

"هؤلاء البحارة الداعرون، يتشاجرون مخربين موانئهم، وقاتلين إخوانهم فقط؛ ليخمدوا لهيب الكبر بداخلهم، إنها طبيعتهم فحسب، لقد أصيبت في الشغب، أحسب أن تلك العين فقدت القدرة على الإبصار كليًا".

ثم هزت كتفيها بمعنى (أي يكن)، إنه يكره أن يشعر أنه مخطئ، وطريقة تفكيرها تلك تزعجه حقًّا، لكن عليه إظهار التعاطف لوضعها، أردف: "أنا آسف لما أصابك".

هزت رأسها باستنكار:

"إنه ليس بالخطب المهم، ليس بقدر فقدان كلا أخواي بسبب شغب مشابه لهذا منذ عامين، لذلك أحسب أن القرصانة إيزلا هي الأمثل للحكم؛ فهي تحاول خلق نظام حقيقي".

لم تكمل جملتها حتى فُتح الباب، ودخلت إيزلا بذراع وكتف مربوطين ليلتئم كسرها، تأملت ميستريو بملامحها الباردة، ثم سألت:

"كيف حال جرحه؟"

أجابت الطبيبة: "لم يلتئم كليًا، لكنه أفضل عن ذي قبل".

"حسنًا، فلتنصرفي".

أومأت الطبيبة، وسارت للخارج مغلقة الباب خلفها، سارت

إيزلا نحوه بخطى ثابتة، وحين اقتربت منه بمسافة لا بأس بها بدأت بالتحدث باقتضاب:

"لا معنى للحديث الفارغ يا إيليا؛ لذا دون البدء بمقدمة "أقدر صنيعك وإنقاذك لي" لما لا تخبرني بالحقيقة فحسب".

"أي حقيقة؟!"

لم يدرك ميستريو كيف حدث ذلك، لكنه وجد نفسه في لمح مدفوع نحو المكتب الخشبي، بينما نصل خنجر إيزلا خلفه مصوبًا نحو جرحه تمامًا: "الحقيقة فحسب يا إيليا"

توتر ميستريو:

"أيتها القرصانة، أيًّا كان ما تحسبين أني فعلته.. لا بُدَّ أنك".

وعلى ذلك النحو كأن صاعقة اخترقت ظهره لتوها، أحشائه تشتعل كالبركان فحسب، صاح وهو يشعر بدماء الجرح تسيل أعلى جلد السليم، تلك الملعونة اخترقت بخنجرها جرحه الذي التئم نسبيًا لتوه.

"أكره أن أخوض محادثات كتلك يا إيليا لكن حركة بسيطة لليسار، وسأخترق قلبك، اطلعني فحسب على الحقيقة! اطلعني على اتفاقك مع أفعى ياما!"

اهتزت أسنان ميستريو التي أخذت تجز على بعضها من الألم، خرجت الكلمات من فمه كالهمسات المرتعشة:

"لقد.. ج..جندني لأصير جاسو..س"

"جيد جدًا يا إيليا، والآن أخبرني هل تريد أن تعيش؟"

أومأ شاعرًا بكل جزء به يصرخ من الألم؛ لتجيب هي:

"هاك ما ستفعله.."

مرت الأيام كما قالت، التئم الجرح مجددًا، وصار قادرًا على الخروج والمشي كما قالت، توجه لمقر أفعى ياما، واستقبله حراس موجهين إياه لغرفة الأفعى، نظر كل من ميستريو والأفعى لبعضهما، وابتسم الأخير بدوره، بينما تحدث ميستريو:

"لقد تم الأمر، إنها الآن تحسب أنها جندتني لأصير جاسوسها أثناء عملي جاسوس لديك، نجحت الخطة".

***

[6]

جنة الأرض

سماء صافية كالبحر، بلا سحابة واحدة حتى، فقط شمس ساطعة ربما للحد المحرق وطيور تحلق مغردة بسعادة لانزياح غمامة أمطار الليلة السابقة، تلك الأرض غريبة بحق فحتى أجواؤها عشوائية غير مستقرة البتة، فتارة أمطار أشبه بالسيول التي ستقتلع الأشجار من جذورها وتارة أخرى ينافس صفاؤها صفاء منطقة ساحلية، يتهافت الجميع للاستمتاع بجوها، لكن حتى بتواجد حرارة الشمس تلك لازال هناك صقيع كافٍ لجعل أوصالها ترتعد، أحكمت ليليس ذلك الشال خمري اللون حول ذراعيها بصورة أكبر، جعل ذلك القائد الملقب بـ(رداو) أحد جنوده يجلبه لها برفقة رداء آخر أرجواني يتخلله، كم لا بأس به من السواد، وكذلك حذاء طويل يقي أغلب ساقيها من بلل الأمطار، عوضًا عن السابق الذي أصابه اهتراء كافٍ؛ ليسرب الماء لأصابع قدميها، لا تدري، لماذا فعل ذلك، ربما بدت هيئتها سيئة للغاية حين قابلها، وجدر أن تبدو بهيئة أفضل إن كانت ستقابل الملك والملكة عند نهاية رحلتهم تلك، هي حقًّا لا تكترث لكل ذلك، ربما هو أفضل بكثير من قبل، ربما تمنت بداخلها أن تحصل على ما تستطيع به ربط شعرها بجديلة واحدة عوضًا عن محاولتها ربطها دون شيء التي تنجم عنها تفككه وتركه حرًا في النهاية، لكن في النهاية كل ما أرادته حقًّا هو الوصول للمعلم ران.

فكرت مراقبة جنود الفارس رادو يستعدون لمغادرة تلك

المزرعة، بدت شديدة الخضرة بأشجار يتخللها الأحمر والزهري وأرض لازالت رطوبة الأمطار السابقة تغطيها، هناك كلاب تجري في الأرجاء فرحة فحسب، ويتخلل أذنها صوت دجاجات وديوك تصيح، تلك ثالث مرة يتوقفون فيها بسبب الأمطار طالبين الملجأ من أصحاب مزارع أو حانات بالطريق، لقد أخبرت الفارس رادو بكل ما تذكره حيال العالِم ران وأنقاض مقر الحالمين، رغم أن الفارس رادو أكد أنهم بحثوا عن العالِم ران بكل مكان قد يطأه إذا أراد الرحيل نحو شبه جزيرة لونا دون فائدة، حضور ذلك الفارس سبب لها هيبة مخيفة؛ فقد حسب أنها تخدعه في البداية وتخفي الحقيقة عما أصاب المعلم ران، لكنها استنتجت فيما بعد أنه صدقها نظرًا لحالتها.

"ليس منطقيًا إطلاقًا أن تظلي ثلاثة أشهر فاقدة للوعي دون أي عناية ولا تتوفي، بل على العكس تُشفى قدمك التي سردتِ أنها كُسرت قبيل ذلك".

تلك جملته المستمرة التي تدرك أنها تدفعه للشك بها حتى إن أرثى على هيئتها، ولن تكذب هي ليست حتى بموضعه ولا تستوعب كيف حدث ذلك؟! كيف صارت قدمها سليمة؟ كيف ظلت حية؟!

تساءلت ناظرة جهة شخص مر أمامها فجأة، إنه المعلم ران ينظر نحوها بابتسامته الباعثة للأمان تلك، ثم يلتفت محدثًا شخصًا آخر، لترى أنه ليس سوى جندي تابع لرادو يحادث جنديًا آخر، ليست تلك المرة الأولى التي ترى وجهه بأي

شخص تلمحه، أحيانًا حتى تحسب أنها ترى وجهه بالسحب البيضاء، بأوراق الأشجار، ربما بخدوش عشوائية أعلى أي جدار، كيف يصيغ عقلها ملامحه بكل شيء تراه، أين أنت أيها المعلم؟! أستختفي بلا أي أثر مثل والدتي؟! دون حتى كلمات أخيرة؟!

ليتها تطمئن فحسب أنه على ما يرام، فكرت شاعرة بالدموع تتجمع بمقلتيها لكنها سرعان ما تماسكت، كلا، هناك أمل، أمسكت بالقلادة التي أعطاها إياها بقوة، إن المعلم موجود بمكان ما، ربما لم يخبرها، ربما رحل دون أي كلمات لكنها تثق به؛ ربما كان هذا ضد إرادته وربما يحتاج للمساعدة؛ لذا عوضًا عن النواح والغرق بتساؤلات لا تنتهي، عليها أن تجده وتطمئن حياله!

حزمت نصاب أفكارها وسارت مندفعة؛ لتجد الفارس رادو، جالت المزرعة ناظرة يمنة ويسرة، كادت تتعثر بضعة مرات بإحدى الأفراخ الراكضة.

"أيتها الشمطاوات!"

لمحت زوجة مالك المزرعة تصيح، وهي تركض في الأفق محاولة اللحاق بهن، وابنها المراهق يركض خلفها بتوتر، وهو يجر صندوقًا خشبيًا متوسط الحجم خلفه محاولًا مساعدتها "عدن يا منعدمات الحياء!"

"أمي إنهن لن يعودن لكِ بهذا الشكل".

كادت دجاجة أخرى تصطدم بليليس، فسمعت زوجة مالك

المزرعة تصيح: "امسكيها!"

فأمسكت بها ليليس بفزع، أخذت الدجاجة ترفرف جناحيها محاولة الإفلات، نقنقت الدجاجة بقوة وكاد منقارها يتمكن من أنف ليليس، لكن قبيل ذلك أمسكها الفتى من جناحيها واضعًا إياه داخل الصندوق الخشبي بسرعة، ثم أغلق بابه.

"دجاجاتي! دجاجاتي!"

أخذت المرأة تصيح، وهي تجري في إثرهن، تحدث الفتى لاهثًا: "أشكرك حقًّا، أعتذر لكن والدتي.."

"لقد أمسكت إحداهن! تبقى ثلاثة، هلما ساعداني!"

رددت المرأة، وهي تقذف بالدجاجة لابنها الذي تلقفها بهلع ووضعها سريعًا في الصندوق

"هيا!"

صرخت المرأة بعزم ما بها، ففزع كل من ليليس والفتى وركضا في اتجاه الدجاج.

"أنا أعتذر"

أردف الفتى بتوتر، بينما هزت ليليس رأسها مجيبة بنفس التوتر: "لا بأس"

رأت ليليس إحدى الدجاجات أمامها، فحاولت إمساكها إلا أنها فزعت حين سمعت المرأة تصرخ مجددًا، وهي تركض نحو ابنها حاملة دجاجة أخرى: "وجدتها!"

ثم نظرت نحو ليليس بهلع شديد صارخة: "يسارك! نحو يسارك يا فتاة! لا تفقديها!"

شعرت ليليس أن المرأة ستفقد صوتها تمامًا بصراخها غير المبرر ذلك، لكنها انصاعت راكضة خلف الدجاجة محاولة ألا تتعثر بفعل الطين، سبقتها الدجاجة بدرجة شنيعة حتى لم تدرك ليليس لأي مسافة ركضت حتى صعدت أعلى ذلك التل العشبي الصغير، وكادت تجتازه لكنها حين وقفت أعلاه نظرت لما بعده بعيون وفم واسع

ما هذا؟! كيف أن هذا ممكن؟!

قلعة تشغل أراضي وأراضي ناصعة البياض، ذات أبراج عالية دائرية الهيئة مشابهة لتلك التي رأتها برسومات لمباني مدينة العلم والعلماء بشبه جزيرة لونا، هُيئ لها أن النقوش أعلى أسوار القلعة حقيقية.. ككيان منفصل حتى الأسوار ذاتها، هناك فسقيات ماء بأطوال تشابه أطوال الأبراج، تكون مظهرًا لولبي للماء الساقط منها شبيه بشرائط الزينة في الأعياد، كل ذلك بدا محاطًا بسلاسل من الأشجار العالية البديعة الممتزجة بألوان لا تُعد من البتلات الحمراء والوردية، أخذ الهواء يهزها حتى طار بعضها في الأرجاء وسقط بعضها أمام ليليس التي انحنت وأمسكت بتلة زهرية بيدها، لكن حينما وقفت وفتحت كفها وجدتها باتت رمادًا طار سريعًا بفعل الهواء، نظرت نحو القلعة، فلم تر سوى أرضًا خاوية بها أنقاض بالكاد تظهر للعيان.

هل قد فقدت عقلها تمامًا؟ لكن ما رأته بدا حقيقيًّا للغاية،

تكاد تقسم أنها لاستطاعت لمسه بأناملها.

ماذا حل بها؟ منذ استيقاظها وكل شيء بات غير منطقي.. غير مقترن بأي حقائق يقبلها العقل، هل تواجدها الآن في حد ذاته بعد كل ما حدث بأنقاض مقر الحالمين، وغياب وعيها تماما دون أي رعاية لمدة ثلاثة أشهر حقيقة يقبلها العقل؟!

"لا يجدر بكل شيء أن يكون منطقيًا؛ ليصير حقيقيًا".

أردف أحدهم مقتربًا منها؛ لتجده ذلك الساحر ذا الشعر الأزرق، غريب الهيئة ممسكًا بالدجاجة، وهو يسير باتجاهها، ظل هو ورفيقه الآخر يسافران برفقتها هي والفارس رادو؛ حيث يبدو أنهما أخبرا الفارس بمعلومات ما يرى لأجلها أهمية مجيئهما أو يتركهما يسافران برفقته كرد خدمة لكونهما دلاه على مكان ليليس، لا تدري حقًّا. كل ما تعلمه أنه حينما سألها عنهما لم تنبث ببنت شفة عن سماعها حديثهما بأنهما ساحران، لا تعلم إن أخبراه بذلك أم لا، لكن لا تظن، فالسحر هو عدو النصف الشمالي من قارة أثرا، ولا تدري لِمَ لمْ تخبر الفارس حقًّا بهويتهما؟ ربما شعرت أنها مدينة لهما لإنقاذهما لها لأكثر من مرة، وربما أرادت تجنب المشاكل، واختارت الصمت كالعادة.

لماذا تفوه بجملة كتلك؟ هل كان يقرأ أفكارها؟!

"عفوًا، أنا لا أفهم ما ترمي إليه يا سيدي".

أشار الساحر نحو الأنقاض التي لا معالم فعلية لها متحدثًا:

"بهذا الموضع حيثما نرى أرضًا خاوية، أُشيع أن أعلاها

Page ٤٥١ / ١٨٩ [6] جنة الأرض

وُجدت قلعة من أجمل القلاع على وجه البرية، حتى أن المياه كانت تسقط أعلاها بأشكال أشبه بشرائط الزينة الملونة، ذات أبراج بيضاء عالية وأسوار من الأشجار الطويلة الملونة التي تجعلها تبدو كجنة فعلية على الأرض، قيل أن قديمًا ربما قبل الألف عام كان أحد حكام إخوة الظل يقدس الحالمين بصورة مفرطة؛ فأراد تشييد أعظم تحفة فنية لأجلهم، فشيد تلك القلعة التي استغرق بناؤها ما يقارب الخمسين عامًا، برغم عظمة القلعة إلا أن الحالمين رفضوا آنذاك ترك موضعهم الأصلي، لكن لإبداء العرفان لجهود الحاكم ختموا أسوار القلعة بنقوش سحرية، وصارت الموضع الذي يترعرع به الأطفال الذين لديهم فرصة كبيرة بأن يصيروا حالمين، فكما تعلمين أن ليس كل الأطفال الذين استطاعوا التنبؤ أو كانوا من نسل الحالمين بالفعل شبوا حتى النهاية على هذا الدرب؛ فكثيرًا منهم حينما تخلله الصفات البشرية الدميمة على حد قول الكتب، توقفت مقدرته على أن يغدو حالمًا، ربما شخص تراوده بعض الأحلام من آن لآخر لأحداث مستقبلية، لكن ليس حالمًا بشكل خالص لينضم للحالمين، أي كان قيل ان عند تأكد أن من شبوا في هذه القلعة قد وصلوا للصورة الأسمى التي تخولهم؛ ليصيروا حالمين، حينها فحسب انضموا لباقي الحالمين بمقرهم الأصلي، والباقون ساعدوهم بطرق أخرى؛ سواء بالإمدادات الغذائية أو بعملهم كرسل للحالمين أو محاربين لحمايتهم، في النهاية لا أثر لقلعة مثل هذه، وتحول جزء من الأراضي المحيطة بها لمزرعة؛ حيث يربون الدجاج".

رفع الساحر الدجاجة لإثبات وجهة نظره، واستأنف:

"لا شيء متبقٍ منها سوى أنقاض لا معالم لها، بينما أنقاض مقر الحالمين السابقة لازالت قائمة بصورة شبه كلية، رغم بنائها -حسب المراجع- قبيل هذه القلعة بقرون، لا يبدو ذلك منطقيًا.. لكن رغم هذا فهو حقيقي".

تعجبت ليليس حديثه؛ فهي لم تسمع من قبل مطلقًا عن هذه القلعة، علمت بالفعل من قراءتها الصعوبة الشديدة للانضمام للحالمين، وعدم تخلي البعض عنهم رغم الفشل في تحقيق هذا، حلم الانضمام لهم وعوضًا عن ذلك يخدمون الحالمين بسبل أخرى؛ كحمايتهم أو إمدادهم بالأغذية لكن تلك القلعة، وكيف رأتها بهذا الوصف فعلًا منذ ثوان، بدا الأمر مرعبًا.

"معذرة يا سيدي، أنا لم أقرأ سابقًا أي شيء حيال تلك القلعة".

"وغالبًا لن تجدي أي كتاب يتحدث عنها، ربما سطران غير واضحين كليًا، إنها -كأشياء أخرى كثيرة- شبه مطموسة من التاريخ، عدا بعض القصص الشعبية بالمناطق المجاورة للمزرعة لن تجدي معلومات واضحة عنها".

تعجبت ليليس، فكيف له أن وصفها بتلك الدقة؟ أذاك بسبب كونه ساحر؟!

أجاب الرجل عن تساؤلاتها سريعًا:

"لا تتعجبي فقد رأيتها مثلك، الفارق بيننا أني رأيتها بالأحلام العميقة فحسب".

نظرت له بعيون واسعة، ولم تدري بما تجيب، ففعليًا هو لم يجب على تساؤلاتها بقدر ما أضاف لها، ابتسم لها مردفًا: "كنتِ تبحثين عن قائد الجيش رادو، أعتقد أنني رأيته بالقرب من الساقية، اذهبي إليه وأنهي تساؤلاتك معه، ثم يمكنك لقائي أنا ورفيقي بعد ذلك أثناء استئناف الرحلة نحو العاصمة الأم؛ لتنهي تساؤلاتك معنا، هناك الكثير لنتحدث حياله، لا تقلقي حيال الدجاجة أنا سأعيدها".

هم بالرحيل، لكنه توقف وعلى وجهه نفس الابتسامة، وختم حديثه:

"وبالمناسبة اسمي هو سيليك، لا داعي للرسميات هذه، أراك لاحقًا يا ليليس".

ثم ابتعد ملوحًا لها، نظرت مجددًا لمكان القلعة؛ لتجد الأنقاض كما هي لم تتبدل، كادت تغرق بأفكارها مجددًا لولا تذكرها للأهم: إيجاد المعلم ران.

هرولت متجهة للساقية، فرأت الفارس يخاطب اثنين من جنوده، بهيئته التي تصيبها بالرهبة، فهو يبدو شبيه بهؤلاء الذين يستطيعون القيام بما يشاؤون وقتما يشاؤون، ودون أي تحذيرات حتى، ويبدو أن منصبه يخوله لفعل ذلك؛ فلا أحد يستطيع إيقافه سوى الملك نفسه.

كومت قبضتيها محاولة التماسك، فتذكرها لاستجوابه الأخير لها أصابها بالخوف، فعليًا لم يؤذها لكن نظراته ووقفته أمام مقعدها، بينما هي تدلي بما لديها، أشعرها بأنه طويل للغاية،

ذو عيون لا ترمش، شعرت بالضحالة والصغر للغاية مقارنة به، فقد بدا كالكيان الأسود الطويل القادر على سحقها في لمح البصر.

تنهدت متناسية ذلك، وتحركت نحوه محاولة التحدث، وعيونها مصوبة لعيونه:

"معذرة، أيها القائد".

كادت تخفض نظرها مجددًا بمجرد التفاته لها، لكنها تحاملت على نفسها، فهي بمفردها الآن، ولن يحميها أحد، فلا تبدي ضعفها على الأقل.

"أود معرفة إن توصلتم لأي شيء.. بخصوص العالِم ران؟"

أجاب باقتضاب: "كلا"

هم بالرحيل، لكن ليليس تساءلت مجددًا، لكن بصوت أكثر قلقًا تلك المرة:

"ما معنى (كلا)؟ لا بُدَّ أنكم توصلتم لشيء حياله، لقد استمر البحث طويلًا".

بدت نظراته الثابتة مجددًا، مما أدخل بعض الخوف لكيان ليليس.

"وهل ستعلميننا أنتِ، كيف تسير الأمور يا فتاة؟"

"لم أقصد..، أنا فحسب.."

"أنتِ فحسب المتبقية أمامي، من رحلة خاضها اثنان،

والثاني لا وجود له بأي مكان، أنتِ فحسب التي أستطيع استجوابها فيما حدث، تختلقين التراهات والأكاذيب، في حين أننا لم نجد أي أثر لوحوش أو عظام جثث بذلك المكان كما ادعيت".

شعرت ليليس بالهلع، وحاولت تبريء نفسها: "أقسم أن هذا ما حدث".

رفع الفارس رادو سبابته أمام فمه إشارة لها بأن تخرس؛ فصمتت.

"يبدو أن المتبقي أمامي اعتقالك بتهمة الكذب، التستر على الحقيقة، إخفاء العالِم ران أو قتله".

هزت رأسها نافية وهلعها يزداد تارة فتارة، استمرت نظراته الجامدة التي أجبرتها في نهاية الأمر على النظر أرضًا، وهي تتوقع أن ينادي جنوده بأي لحظة، لكنها هدأت قليلًا حين رفعت نظرها ووجدته يسير مبتعدًا دون الالتفات لها.

هل حقًّا وارد أنها تسببت باختفاء؟! لم تستطع حتى إكمال تساؤلها، وشعرت بدموعها تتجمع بمقتليها.

كل شيء منذ استيقاظها.. يبدو منعدم المنطق، والآن جُل ما تتذكره تم نفيه، لماذا تقف هي هنا وليس المعلم؟! كيف نجت؟! بل هل وجودها حتى بهذا المكان الآن حقيقي؟!

إنها لازالت بهيئتها، فكرت متحسسة وجنتها، تسمع، فهي تستطيع سماع نقنقة الدجاجات وصهيل الأحصنة، تشم، فهي تشم عبق الزهور منذ خطوها لتلك المزرعة، تشعر، فقد

استشعرت الملمس الخشبي فور وضعها أناملها أعلى أحد أجزاء الساقية، ترى، فهي تستطيع استيعاب ذلك الفضاء الشاسع أمامها، وترجمته لصور بمخيلتها، وحتى هذان العصفوران اللذان يطيران بالأفق.. تستطيع رؤيتهما.

كل الدلائل تشير لوجودها ككيان حي، لكن لماذا هناك دلائل أخرى تناقض كل هذا؟!

كل الدروب تقود لوجهة مجهولة، وحتى نقطة البداية رمادية، لا معالم لها، إنها ضائعة.

أيها المعلم ران أين أنت؟!

أرجوك عد!

***

البرد اللعين مجددًا، البرد والظلام سوى بعض المشاعل في الطريق.

تسير بذلك الشارع محكمة قبضتيها على ذراعيها محاولة حماية نفسها من لفحات البرد، ترى العديد من أصحاب المحلات يصرخون ببعضهم بإغلاق المحلات، والتوجه للبيوت مباشرة.

مرت بجوار محل حُلى، سمعت شخص يصيح به: "جدي، فلنظل هنا لحين انتهاء الأمطار، فالشوارع مكتظة بالماء".

ثم تم إحكام غلق الأبواب من الداخل، تشعر أنها رأت ذلك المكان من قبل، ربما.

لم تنهِ تساءلها، حتى سمعت شيئًا يسقط منكسرًا، سارت نحو مصدر الصوت؛ لتجده أصيص أزهار يحوي براعم زهور زرقاء، لم يسعف ضوء المشاعل المارة المحدودين الراكضين في الأرجاء، لكن بالنسبة لها فقد شعرت بضوء متوهج، وحين نظرت نحو السماء رأت ما يشبه شعاع ضوء سماوي متصل من مكان ما في الأفق، بدا بعيدًا للغاية، لكن الطرف الآخر منه ظهر متلويًا، يشير لموضع قريب، اتبعته ليليس وصوت الأمطار يتردد بأذنها، سارت بشوارع عدة، بينما الأمطار تتزايد فحسب، الكثير من الأرصفة الطوبية، وحاويات الزهور الزرقاء، وقفت بجوار أحد المنازل حين وجدت أن الشعاع توقف لدى حائط مسدود، سمعت شخصًا يتأوه، بينما تردد صوت باك آخر من المنزل:

"تماسكي يا بنيتي العزيزة، فور انقشاع الغيوم وانقطاع المطر سأعيدك للمشفى، أعتذر لكِ.. أردت أن تقضي برفقتي أنا وأباكِ أمسية لطيفة بعيدًا عن أجواء المرض الأزرق، أعتذر لكِ لإخراجكِ من المشفى، تماسكي، أرجوكِ".

لكن التأوهات استمرت بل وتحولت لنواح، تجاهلتها ليليس متوجهة للجدار الذي يختفي خلفه شعاع الضوء وبطريقة ما استطاعت تجاوزه؛ لتجد نفسها بمكان مظلم ذي سلالم كثيرة مظلمة، ذات جوانب تؤدي لهاوية لا ملامح لها، بدا النزول منها أمرًا خطرًا، لكن حينما اجتازت أول درجات، ظهر أن الأمر ليس بتلك الخطورة، خاصة بكونها خفيفة للغاية، عند نهاية الدرج رأت ممرات عدة تقود لزنازين فارغة، لا توجد أي

إضاءة، لكن ضوء الشعاع الشديد ساعدها على تمييز ماهية المكان، يبدو كسجن سري من نوع ما.

سمعت صوتًا من أحد الممرات، واتجهت نحوه ببطء، فهو المكان نفسه الذي يتجه الشعاع نحوه.

"من المدهش أن شخصًا مثلك لم يقابلني مطلقًا من قبل، واستطاع معرفة كل تلك الأمور عني، أعلم أنه قد تم القبض علي، ومعاقبتي بتنظيف هذا المكان يوميًا في الساعات التي لا أكون محبوسًا فيها، لكن إن حسبت أني أستطيع الهروب وبطريقة ما، أستطيع كذلك التسلل لهنا وتهريبك، أحقًا تحسب أني سأساعد ساحرًا؟!"

وقفت ليليس في بداية الممر ناظرة نحو ذلك المتحدث نحو زنزانة ينتهي عندها الشعاع، كان بجواره ممسحة وأدوات تنظيف أخرى، أبدى الضوء ملامح المتحدث الذي كان فتى نحيفًا، معتدل الطول، بشعر قرمزي مبعثر وعيون بنفس اللون، ووجه ملطخ بآثار كدمات زرقاء وأرجوانية، لحظة ذلك الشخص.

"نصيحة وأمنية.. لقد سردت نصيحتك بالفعل يا صاحب الرائحة النتنة، ومن المفترض أن أثق أنك ستحقق أمنيتي بعد تهريبي لك؟ بالطبع لن تجيب، وستظل صامتًا كالأموات".

بصق الفتى جانبًا باستياء:

"أترى ذلك أيها النتن لقد لطخت الأرض التي مسحتها طوال النهار بسببك".

ذلك الصوت.. فُزعت لسماع طرق صخب على باب حديدي ما.

نظر الفتى نحو مصدر الصوت، ولملم أشياءه متحدثًا للمرة الأخيرة: "الحارس أتى، أراك غدًا يا جليس الأموات"،

ثم تحرك نحو مخرج الممر الذي تقف به ليليس، فاختبأت، وهي ترى ملامحه بوضوح أكثر، وتتذكر لمحة من الماضي لنفس الفتى يهرع مسقطًا حقيبتها، بينما يصرخ به حارس:

"أنت يا فتي توقف مكانك حالًا!"

ثم تنظر أرضًا؛ لترى أجزاء مرآة والدتها مهشمة تُظهر وجهها عدة مرات.. لكن لحظة.. هذا ليس وجهها! بدا كما لو كانت تعيش بداخل الذكرى، وتستطيع تمعن النظر لتلك الأجزاء وللانعكاس الموجود بها الذي أظهر امرأة عجوزًا بشعر أبيض طويل وعيونًا رمادية ساكنة، أصاب الفزع ليليس، واستدارت لتبعد عينيها عن الانعكاس، لكنها لوهلة عادت لنفس السجن المظلم، وحين التفت رأت ما جمد الدماء بعروقها، وأعاد البرد لسائر أوصالها حتى كاد يحولها لكتلة ثلجية ساحقًا الحياة منها تمامًا، رأت ما ينتهى الضوء لديه يقف أمامها، بدا الشعاع كحبل سري يخرج من جانبه، بشعر طويل لم يبدي أدنى جزء من ملامحه، وتفوه بصوت موجود وغير موجود، يتكرر بكل ركن، بل ربما ينبع من داخلها، ويدور بأدق أدق أوصالها:

"لقد وجدتني".

وانقشع الغطاء المخفي لوجهه، وحينها سُحقت الحياة بداخلها بالفعل، فقد رأت الموت بنفسه متجسدًا أمامها..

استنشقت ليليس كمية أكثر من قدرتها على الهواء منتفضة من موضعها، وهي ترتجف بقوة، بينما تسيل دموعها لا إراديًا، وعلى وجهها تعبير لم تعهده مطلقًا، تكومت حول نفسها، وهي لاتزال تنتفض بشدة إثر ذلك الكابوس البشع، أحكمت غطاءها حولها، وتشبثت بإحدى أركان الخيمة التي لا ترى معالمها من فرط الظلام لكن صوت الأمطار بالخارج لازال يتردد بأذنيها، إنه أقل حتمًا من ذي قبل، لكن هذا لا يخفف وطأة ما رأته لتوها.

كان هناك ضوء خفيف يشع من موضع قريب منها، لكنها لم تلتفت له، وظلت فحسب تتذكر وجه ذلك.. الكيان.

"قلادتك تشع مجددًا".

انتفضت لسماع ذلك الصوت، وتلفتت لجميع الاتجاهات؛ لتحدد مصدره، سمعت خطوات تقترب جالبة معالم شخص لمجال الرؤية: "لا تقلقي، إنه أنا سيليك".

ذلك الساحر مجددًا، بدأ بإثارة ارتيابها حقًّا..سألت بتوتر:

"كيف؟! كيف اجتزت الحراس ووصلت لخيمتي؟!"

"هذا بغير المهم، المهم هو تلك".

قالها مشيرًا نحو عنق ليليس، فخفضت نظرها مدركة مصدر الضوء الوحيد بالخيمة وهي قلادتها، لكنها سرعان ما خفتت،

وعادت صدئة.

"تعالي برفقتي".

"الحراس لن يتركوني أتحرك في ساعة كهذه، سيعتقدون أني سأهرب!"

"لا تقلقي".

وقبل أن تعلق رأته يبتعد ويخرج من الخيمة، سارت ببطء في إثره متنهدة، وهي تزيح القماش الذي يفصلها عن الخارج، لكنها استعجبت حين لم ترَ أي حراس مجاورين لخيمتها، بل هناك حارسان مستلقيان لجوار شجرة دون أي حراك، نظرت نحو الساحر، وسألته بهلع: "هل قتلتهما؟!"

"وهل من الأدب أن أقتل جنود الفارس الذي استضافني؟ لصرت حينها معدوم التربية".

ابتسم نصف ابتسامة، وأكمل: "إنهم يغطون بنوم عميق، ربما يبولوا سراويلهم فحسب بفعل رطوبة الأرض، لكن أكثر من ذلك لن يصيبهم أذى، هيا".

أنهى حديثه مشيرًا لها باتباعه، ألقت نظرة أخيرة على الحارسين، ثم سارت خلفه، خلال الأرض الموحلة والمخيم المعتم والأشجار والصخور المجاورة بكل مكان، فقد كان مكان يحتوي كلاهما هو الأنسب لحمايتهم من الأمطار بعد مغادرتهم للمزرعة؛ فالأراضي جميعها بلا استثناء تبدو رطبة حتى بهذا المسار الذي يُعتبر أكثرهم ارتفاعًا؛ لذا فهو الأقل ضررًا، فحسب ما سمعته المسارات الأخرى أكثر انبساطًا

وأكثر عرضة؛ لأن يغمرها الماء في هذه الأيام، رغم تفضيل الجميع المملكة الغربية لخصوبتها ونضارتها إلا أن موسم الأمطار يحيل كل ذلك خرابًا، ويجعل المملكة الشرقية رغم كونها قاحلة تبدو كالملاذ الآمن، وعجباه لحال هذه الحياة تبدل حال الأفراد والبلاد في غمضة عين، فها هي تلك الهجينة كانت يومًا أميرة يتمنى الجميع نيل رضاها، والآن هي وحش يريد الجميع قتلها، وها هي بلاد المملكة الغربية التي يراها الجميع كجنة الخلد؛ ما تلبث بالتحول لجحيم يفر منه الجميع بفعل بعض المياه، وسط تلك الأفكار تخيلت لكيف كان الحال إن انهى المعلم مهمة مقر الحالمين تلك، وغادرت برفقته لمدينة العلم والعلماء (هيلانتا) بشبه جزيرة لونا، تخيلت أنها تعاونه على إيجاد مخطوطة بمكتبه، بينما نيران الشعلات تلحف الأجواء بالدفء، وينسل عبق أشجار التوت من النافذة التي تُظهر ضوء البدر، ثم يضاحكها المعلم بأن في ظل هذه الأجواء الأكثر صفاء وهدوءًا، تغمر الأمطار قارة (أثرا) حيثما خاضوا مهمتهما منذ عدة شهور، فتبتسم بدورها شاعرة بالامتنان؛ لأنهما لا يُقسيان ذلك، ولأنها لازالت لجواره.

تمسكت ليليس بتلك الخيالات، بينما هي تسير لأسفل التل القابع أعلاه المخيم، تحاوط ذراعيها بقبضتيها محاولة التمسك بأي ذرة ممكنة من الدفء في الوقت الذي تبللت فيه كل ملابسها وشعرها بالماء، مع كل حركة تصدمها الرياح مزيدة ارتجافها، تحركا حتى ضفة النهر التي تحوي جسر ما منهار، خطا سيليك لأعلى الجزء الذي لازال قائمًا من الجسر، بينما هي لم تدرك ماذا يفعل وشعرت بجسدها ينتفض من

البرد، لم تتبعه لحيثما وقف أعلى الجسر، بينما تساءل هو نحوها:

"لماذا لا تأتين؟"

"ذلك الجسر محطم، إنه غير آمن".

ركل الساحر أحد أسوار الجسر التي لازالت قائمة عدة مرات، ثم أكد ضاحكًا:

"إنه سليم تمامًا، لقد كان جسر صخريًّا، ليس عليك القلق".

ترددت بمطاوعته، وتنهدت متسائلةً:

"لما نحن هنا من الأساس؟"

"أريد أن أعلمك، لكنك تخشين الخطو أعلى الجسر".

رفع كفيه كدلالة على قلة الحيلة، لوهلة تذكرت ليليس الفتى ثعبان البحر، وتذكرت نصائح المعلم بعدم الثقة بالآخرين.

"أعلم أنك خائفة يا ليليس، وأنتِ محقة بحرصك، إنني أحتاج أن أريك، لا أن أخبرك، إن أخبرتك فلن تصدقيني حتى بدت الدلائل واضحة أمامك، كما حدث عند رؤيتنا لأنقاض القلعة، إنني أبغي مساعدتك يا ليليس، أن تعثري على إجابة لتلك الأسئلة التي تؤرقك، ربما تعثري حتى على العالِم ران".

اتسعت عيون ليليس مبتلعة ريقها، أكمل الآخر:

"ولا يمكنني فعل ذلك إن لم تثقي بي".

نظرت أرضًا، وهي تتساءل: أيجدر بها الثقة به أم لا، لكن

كل التردد تلاشى، حينما استرجعت حديثه بإمكانية العثور على المعلم ران، سارت نحوه حتى توقفت أمامه، ابتسم مردفًا:

"لم يكن الأمر شديد الصعوبة، أليس كذلك؟"

"كيف لك بمساعدتي على إيجاد المعلم ران؟"

قهقه مقربًا أنامله من جبهتها، همت بالابتعاد لكنها أجبرت نفسها على الثبات، لوهلة لم ترى سوى كفه أمام عيونها وظل الوضع بذلك الشكل لمدة نصف دقيقة، ثم أزاح يده، فرأت المظهر من حولها مختلفًا تمامًا، رأت شمسًا تشرق محيطة الفضاء باللون القرمزي، امتلأت ضفة النهر بالخضرة والأشجار الكثيفة العالية، ترى الآن عصفورين يحلقان بالأرجاء، حتى السور كان كاملًا سليمًا، مصنوعًا من صخر أبيض متين، ناصع البياض، تزينه بعض الأعشاب الطحلبية، لا وحل، لا أمطار، لا ظلام، كيف أن هذا ممكن؟!

سارت نحو اليابسة شاهرة فاهها متأملة كل شيء بصدمة..

"هل نحن بالجنة؟!"

"كل الأماكن في هذا العالم كانت جنة بزمن ما، لكن البشر كفيلين بتدمير كل ذلك".

نظرت نحوه، وقد استوعبت وجوده لتوها

"لقد بدا المكان مختلفًا للغاية منذ ثوان، والجسر.."

أشارت نحو الجسر المتين، ثم هزت رأسها باستنكار متسائلة:

"هل نحن بنفس الموضع؟! أين نحن؟"

"نحن بذكرى.. ذكرى جميلة لهذا المكان"

"ذكرى؟!"

بدأت ليليس بالإفاقة من صدمتها، واستشعار أن أوصالها لازالت تشعر البرد والرطوبة، رغم شمس الأفق، حتى صوت المطر لازال يتردد بأذنها، رفعت يدها فوجدت جلدها مجعد من البلل، فتساءلت:

"إننا نحلم، أليس كذلك؟"

"بلى، إننا في حلم جميل، سيزول عما قريب"

"هل من الممكن أن يصير الشخص واعيًا بكونه يحلم أثناء حلمه؟"

"على الأغلب لا، هناك البعض يخالفون ذلك لأسباب جمة.."

عاد للجسر مجددًا متجاوزًا إياه، وعابرًا للضفة الأخرى فتبعته ليليس، امتلأت الضفة الأخرى بالأشجار بشكل كثيف للغاية، أكمل حديثه:

"منذ سبعمائة عام وُجدت المرايا واختفى برفقتها الحالمين، لقد أجادوا سحر الأحلام بشكل يفوق الوصف، استطاعت أرواحهم التجول بأي مكان وزمان، من الماضي وعبر الحاضر وصولًا للمستقبل، بالطبع لم يكونوا جميعهم بتلك القدرة الفائقة، تم تقسيمهم لفئات، كل فئة مختصة بزمن ومكان

معين، حاول الكثيرون الالتحاق بهم فقد كان ذلك أسمى شيء حينها، لكنه كان الأكثر صعوبة؛ لذا أعدادهم أخذت في التناقص.. لكن لحسن حظهم أن شعبهم الأصلي إخوة الظل كانوا من ذوي الأعمار الطويلة، وسحر الحالمين ساعدهم على الشفاء والمعيشة لفترة أطول.. منذ فنائهم لم يستطع أحد حقًّا استخدام سحرهم، حتى قرر أحد السحرة السادة منذ مئة عام إيجاد أصول لذلك السحر وإعادة تعليمه في ممالك السحر، لم يكن الأمر سهلًا في البداية، فلا يوجد أي بداية قد ينطلق منها، كما أن العداء بين نصفي قارة أثرا الشمالي؛ حيث تقبع مملكتنا الشعب الأحمر والأصفر والجنوبي؛ حيث تقبع ممالك السحر لم يساعده على البحث بأنقاض مقر الحالمين عن أي إجابات".

استمعت ليليس لحديثه باهتمام، لكنها لاحظت شيئًا غريبًا، الشمس لا تزال كما هي، لماذا لم تستمر في الشروق حتى تستطع كليًا؟!

"كاد ذلك الساحر العظيم يفقد آماله تمامًا ويتخلى عن فكرته، حتى حل يوم طلب في رؤيته غريب أُشيع في وصفه أنه يرتدي السواد، ويخفي ملامحه خلف غطاء رأس أسود، وبطريقة ما -لا نفهمها حتى الآن- علم الساحر العظيم أصول سحر الأحلام، وبحلول اليوم التالي أراد الساحر العظيم مكافأة الغريب، لكنه ولى تمامًا، كما لو أنه انقشع برفقة الهواء، ومنذ ذلك الحين وأخذ سحر الأحلام بالانتشار في ممالك السحر، بالطبع ليس بنفس قوة أنواع السحر الأخرى، ولا بنفس قوته

حين استخدمه الحالمون؛ فالحالمون وُلدوا به وخصالهم تزيده، لكن سحرة ممالك السحر يستخدمونه لأهوائهم، لم يحب الكثيرون تعلمه حقًّا، فقد بدا صعبًا وغير مجدٍ".

"لكنك أنت تعلمته.."

نظر نحوها وابتسم، ثم تأمل السماء من حولهما:

"وإن عدت بالزمن لمئات المرات فسأظل أفعل ذلك للأبد، إنه أفضل هبة بالوجود، يمكنني جوب العالم بأكمله دون التحرك قيد أنملة، يمكنني رؤية عجائب لا يمكنني حتى وصفها، أراها كما بدت حقًّا وليس كما تناقلتها آلاف الأقلام التي زورت وغيرت الحقائق، إنها هبة لم يكن مقدرًا للجميع اقتناصها، وحين يصير ذلك ممكننًا أيًّا كان مقدار صعوبته، أحقًّا سأتخلى عنه فحسب؟"

"إذن لهذا تستطيع الوعي أثناء الحلم؛ لأنك تعلمت ذلك مسبقًا؟"

"طوال محياي"

همت بسؤاله، لماذا هي إذن تستطيع فعل ذلك، لكنه ابتسم ضاحكًا، وهو ينظر جهة الجسر متمتًا:

"هذا المكان جميل حقًّا، لم أحسبك قادرة على هذا".

استعجبت السؤال، لكن قبل السؤال حيال أي شيء، لمحت انعكاس وجهها بالماء؛ لترى تلك السيدة ذات الشعر الأبيض مجددًا، ففزعت بعض الشيء؛ لتشعر برياح تصطدم بهما،

تساءل سيليك:

"وشمس لا تشرق كليًا، تُرى ما دلالة ذلك؟"

هزت ليليس رأسها بتوتر مجيبة: "لا أدري إن حلمك هذا به أشياء لا تفسير لها".

ابتسم مجددًا "إذن لهذا هبت الرياح، أنتِ متوترة.."

استعجبت حديثه: "ماذا تعني؟"

"ليليس، إننا بحلمك أنتِ"

ماذا؟! لم تسرد استفسارها، فقد استيقظت فجأة؛ لتجد نفسها بمفردها أعلى الجسر المحطم، بينما الظلام والأمطار يحاوطانها، ولم تجد الوقت للاستيعاب حتى استيقظت مرة أخرى؛ لتجد نفسها لا تزال بخيمتها وحدها، اختفى صوت المطر تمامًا، بينما ضوء خافت يعبر للخيمة عبر المنفذ لها، أخذت أنفاسها محاولة فهم كل ما حدث، ظلت بمكانها لوهلة، فقد حسبت أنها قد تستيقظ مجددًا، لكن ذلك لم يحدث، وقفت مزيحة الغطاء عنها وخرجت من الخيمة؛ لتجد الأرض الموحلة وسماء تحمل بواقي لسحب كثيفة، خلفها شمس تحاول الإشراق، مر بجوارها حارس آمرًا: "لا تتجولي بعيدًا يا فتاة".

ثم تحرك مبتعدًا، أرادت إيجاد سيليك، لكن جذب انتباهها صوت ما بالقرب من خيمتها، لم تحدد ما هيته تمامًا، لكنها اقتربت منه محاولة تجميع شعرها المبعثر، إنه رفيق سيليك، اسمه إيفان على ما تظن، لم يكن مثل سيليك بالتأكيد، بدا أقل

احتكاكًا بالآخرين وأكثر حدة وصرامة،كان يتمرن على الرماية بالقوس مصوبًا أسهمه نحو دائرة تصويب مغروزة أرضًا بالقرب من الأشجار.

"آمل أنك رأيت أحلامًا في جمالي".

نظرت لمصدر الصوت؛ لتجده سيليك يقترب منها بنصف ابتسامته المعتادة، بدا متأنقًا لا تشوبه شائبة كعادته، كيف يفعل ذلك؟ ألا يستيقظ البشر بجفون منتفخة، وشعر مبعثر وربما حتى بلعاب متدلٍ من فمهم؟!

كيف يبدو دومًا كأنه خرج لتوه من أحد تلك الصالونات التي تحيل أبشع الفتيات لفاتنات أحيائهن؟!

تساءلت الفتاة بارتياب:

"حين سرنا لفرع النهر.. هل كنا نحلم؟"

"أجل".

"إذن لماذا؟"

لكن قبل أن تكمل سؤالها جذب انتباهها قوة ودقة رمي السهم الذي أطلقه إيفان، نظرت نحوه فرأت يده تقبض على قوسه بحزم، بدا منفعلًا، لكن دون إظهار ذلك على معالم وجهه، لم يبادلها النظر، بينما سيليك لم ينظر لرفيقه من الأساس، وابتسم لها مردفًا:

"لمَ لا نذهب لمكان أكثر هدوء؟"

ألقت نظرة أخيرة على إيفان، ثم سارت لجوار الآخر حتى

استند لشجرة مقطوعة أرضًا.

"هل هو بخير؟ رفيقك".

"أجل، لا تكترثِي له، إنه قاتل للبهجة فحسب، أتعلمين هؤلاء البشر الذين لا يبتسمون أبدًا، ويبدون دومًا كأنهم على وشك إلقاء خطبة عصماء؟ أجل إنه أحدهم".

لم تعلق ليليس، فأكمل سريعًا:

"أجل أعلم ما ستقولين، بالفعل لقد تحملته كثيرًا، أعلم أنك ستخبرينني أن يكفي حتى هذا الحد".

هزت رأسها نافية: "لكني لم أقل شيئًا".

لكنه قاطعها بنبرة درامية:

"لكنه رجل صالح، فلا بأس إذن إذا كانت تلك التضحية التي سأخوضها -تحمل كل ذلك الملل والخطب العصماء- فسأفعل ذلك، لا بأس ليس عليكِ القلق حيالي".

ثم أومأ لها متفهمًا، ولكنها لم تكترث حيال أي شيء مما سرده، فكرت وهي تبتسم غير مدركة لما يجدر فعله عدا ذلك، تساءلت:

"حين كنا داخل الحلم، قلتَ: "لهذا هبت الرياح، أنتِ متوترة"، حين أخبرتك أن الحلم به أشياء غريبة، ما معنى قولك ذاك؟"

"بيئة الحلم تتشكل حسب الحالم، ولا أعني بذلك المكان أو الزمن، بل أعني أنها قد تكون قاحلة أو مثمرة، مضيئة أو

Page ٤٥١ / ٢٠٩ [6] جنة الأرض

مظلمة، كنتِ هادئة تمامًا، لكن حينما بدأتِ بالتوتر، بدأت الرياح بالهبوب وبالأجواء بالتغير للأبرد".

"حسب الحالم؟ أتعني أن الحالم هو من يختار ذلك؟"

"ليس تمامًا.. ففي البداية تتشكل حسب انفعالاته، أفكاره أو حتى آخر ذكرياته قبيل الحلم".

تذكرت ليليس أن آخر ذكراها قبيل حلمها كان المعلم، ألهذا ظهر حلمها بتلك الهيئة؟ أتخيل إيجاده يبعث بكيانها شعور متمثل بهيئة مماثلة؛ لذلك الحلم ونضارته؟!

تساءلت: متذكرة جمال بيئة ذلك الحلم كما لو كانت تراها أمامها، لكن لماذا لم تشرق الشمس كاملًا؟

أكمل الساحر:

"بعد فترة يصبح الحالم أكثر تركيزًا على انفعالاته، وبالتالي أكثر قدرة على تشكيل بيئة الحلم الخاصة به"

"ما بال الشمس بذلك الحلم؟ لماذا لم تشرق حتى النهاية أبدًا؟"

ضحك الساحر مجيبًا:

"أنتِ وحدكِ من سيعرف شيئًا كهذا، يمكنني استنباط بعض الأشياء من أحلام الآخرين، لكن ليس أصغر التفاصيل كتلك، من يدر ربما جزء ما بداخلك يعلم أن الشمس التي ستنير أرضًا أشبه بالجنة كتلك لن تشرق كاملة أبدًا؟"

أخذت تفكر فيما قد يعنيه ذلك، لكنها كرهت تلك الأفكار؛

لذا أزاحتهم بأسرع تساؤل جال عقلها:

"لماذا أصررت أن أقف على الجسر؟!"

"هناك أماكن تشع طاقة دونًا عن أماكن أخرى، تلك الأماكن تتمثل بصورة أكبر في المواضع التي تحتوي معالم أثرية، وقعت بها حروب قديمة، أو أنقاض لمباني أو أشياء كانت مشيدة سابقًا، إنها تطلق طاقة تساعد رؤية الأحلام والوعي بها بصورة أكبر، بمرور الوقت والتدريب يصبح الأمر أسهل بأي مكان، لكن لأدخل بحلمك وأجعلك قادرة على تكوينه، جدر بي نقلك لمكان كهذا، والأقرب لموضع مخيمنا كان ذلك الجسر".

أخذت تستوعب كل ما أخبرها به، ثم تساءلت:

"ولماذا لم نتجه لهناك مباشرة بهيئتنا المادية دون أن نحلم بذلك؟ لحظة ذاك الحلم الذي توجهنا به للجسر، هل كان حلمك أنت؟"

صمت قليلًا، ثم أجاب باسمًا: "لا أرى شخصًا ثالث برفقتنا".

لكن بيئة ذلك الحلم، الأمطار البرد، والظلام الكاحل، تلك هي البيئة التي كونها بدون عمد أو حتى بعمد؟!

تساءلت، وهي تحاول التفكير بمعنى ذلك: لكن لوهلة خطر ببالها سؤالًا مختلفًا تمامًا، سألته دون أن تنظر له:

"سيليك.. إن كنت أنت عشت أغلب حياتك محاولًا تعلم

سحر الأحلام، ولهذا أنت قادر على ممارسته، فلماذا أنا قادرة على فعل ذلك؟!"

نظرت نحوه، وهي تشعر بأنها ترى ذلك الدرب المادي أمامها منعدم الوجهة مجددًا، تساءلت مجددًا:

"وكيف علمت أني قادرة على فعل ذلك؟! أخبرني".

شعرت بصوتها يعلو، بينما هو يرمقها بابتسامته التي لا تتحول أبدًا:

"عن لماذا لم نتجه للجسر بهيئتنا المادية فذلك؛ لأني أردت اختبار قدراتك على الوعي أثناء الأحلام، وكم طبقة من الأحلام تستطيعين الوعي خلالها، وكذلك أردت خوض أكبر قدر من الأحلام".

همت بالسؤال بنفاذ صبر: "ولكن ماذا عن كيفية ممارستي لسحر الأحل؟"

لكنه قاطعها:

"وأما عن إجابة سؤاليكِ الآخرين، فهما مرتبطان بسبب رغبتي بخوض أحلام لا تُعد برفقتك".

تعجبت، بينما أكمل حديثه بابتسامته التي لا تُمحى أبدًا، ومظهره الذي يبدو كبطل خيالي خرج من أسطورة ما:

"لا تقلقي لن أطلب يدك للزواج، وأخبرك أن القدر جمعنا لنغير العالم، سأطلب منك فحسب أن تسيري لجواري".

سار فتبعته بتردد في البداية، رأته يجتاز كل الأشجار

الموجودة أمامهم، زادت مقدار خطواتها حتى سارت بمحاذاته تمامًا، نظر نحوها، وابتسم: "في عالم يمكننا رؤيته بأسره دون التحرك إنشًا واحدًا".

بعد عبورهم لغابة الأشجار الكثيفة انتهى بهم المطاف أعلى أرضًا رملية تحيطها الأمواج العاتية من كل الاتجاهات، ينتصب أعلى رمالها كهف عظيم كالجبل الشامخ، ظهرت غيوم هائجة بالسماء تنذر بأمواج كفيلة بإغراق اليابسة بأكملها، سارت ليليس برفقة سيليك بعيون متسعة للغاية، لجوار الكهف تناثرت العديد من الجثث، لكنهما أكملا مساراهما عبر الكهف بسلاسة أمواج الماء حتى برغم ظلامه الدامس فقط؛ ليشهدا خلفه كمًا لا يُحصى من الأحجار الزرقاء المضيئة، سارا لخارج الكهف؛ لتزداد دهشة وهي تشهد جزيرة عُظمى نحتت مبانيها بصخر المرتفعات المحيطة بها، بينما تخللت أرجاءها المياه حيثما أخذت تعبر القوارب، بمعبر صخري شاسع الارتفاع يبدو بلا هوة لا بُدَّ أن يعبره المرء؛ كي يستطيع الخطو أعلى أرضها.

تقدمت، ولم تلمح حتى أنها صارت تسير بمفردها حتى وجدت المعبر فجأة استحال للظلام الحالك، تجاوزت عتمته حتى النور؛ لتجد نفسها بالمخيم مجددًا، ولم يكن ذلك المعبر شيء سوى خيمتها، جذب انتباهها صوت ما بالقرب من خيمتها، لم تحدد ماهيته تمامًا، لكنها اقتربت منه محاولة تجميع شعرها المبعثر، إنه رفيق سيليك، اسمه إيفان على ما تظن، لم يكن مثل سيليك بالتأكيد، بدا أقل احتكاكًا بالآخرين،

وأكثر حدة وصرامة.

كان يتمرن على الرماية بالقوس مصوبًا أسهمه نحو دائرة تصويب مغروزة أرضًا بالقرب من الأشجار، لكن سرعان ما ظهر سيليك من العدم باسمًا أمامها، وأشار لها بكفه بالسير لجواره، فتبعته وابتعدا سويًا:

"معًا يا ليليس، سنخطو أنحاء حلمتِ فحسب برؤيتها".

أردف، وهو يسير برفقتها نحو معبر تزينه أوراق الأشجار، وتخفي ما خلفه، أزاحها سامحًا لها ولنفسه بالعبور؛ لترى تلك الأبراج البيضاء العالية والشوارع التي تتزين جميعها بأشجار التوت، جميعها مرصوفة بأحجار بيضاء لامعة تشبه العقيق، وبين أرصفتها توجد ممرات مائية بفسقيات مرصعة باللآلئ خلابة المظهر، ظهرت أعلام شبه جزيرة لونا بكل مكان، ومكتباتها المنتشرة حتى بأصغر ممراتها، لكن أعظمها كانت التي تقف أمامها الآن، بضخامتها وهولها، لم تحسب أبدًا أنها ستراها، تنفست ليليس بقوة، وهي تنظر لذلك الصرح الهائل دائري الشكل، يعلوه زخرفة لمئات الكتب والأسماء، ونقش أعلاه بدقة وجه الإمبراطور الذي أقامه في عهده.

"هيلانتا مدينة العلم والعلماء".

تحدث الساحر، لكنها أومأت فحسب، وهي لازالت تنظر للمبني الهائل أمامها بانبهار، نظر للمبنى، وأوشك أن يكمل: "وتلك.."

لكنها قاطعته دون أن تدرك:

"مكتبة هيلانتا العظمى، شُيدت من 500 عام، تحوي 2 مليون كتاب و170 ألف مخطوطة، حين شُن هجوم مفاجئ من قبل جزر راندوس من قبل على شبه الجزيرة، وكاد القراصنة يغزون المدينة، لجأ السكان لهذا الصرح واختبأوا به، لم يستطيع القراصنة تخطي جدرانه، احتمى به السكان ما يقارب الأسبوع حتى أتى المداد، وتم سحق القراصنة، ومنذ ذلك الحين وهو أشبه بالمكان المقدس لشبه جزيرة لونا بأكملها".

صعد بضع درجات نحو المبنى، ثم أردف: "أتسمحين لي؟"

نظرت نحوه؛ لتجده يمد يده نحوها، ترددت قليلًا، لكنها مدت كفها أعلى كفه، فأمسكها ليساعدها على الصعود، فكرت أنها لم تحتج حقًّا لذلك، بدا تصرفه كمبالغة بعض الشيء، لكنها لن تكذب أنها شعرت بوجهها يسخن قليلًا، وببعض التقلبات بمعدتها، ظل ممسكًا بيدها أثناء دخولهما للصرح، وحينها شعرت أن الجو مفعم بنسيم لطيف، مفعم بحياة دافئة لم تعهدها من قبل، بدا المدخل مظلم، لكنها لم تخف واجتازته؛ لتجد نفسها تعبر لخارج خيمتها في المخيم الخاص بالفارس رادو مجددًا، سارت بالاتجاه نفسه من قبل أن تسمع الصوت الذي جذب انتباهها في كل المرات السابقة؛ لترى إيفان يمارس الرماية بالهيئة والموضع أنفسهما، في لحظة ظهر سيليك أمامها ومد ذراعه لها، تعجبت قليلًا، لكنها في النهاية شبكت يدها بذراعه على قليل من الاستحياء، سارت برفقته مبتعدة، وهي تسمع صوته العذب يردف:

"سويًا سنصل لأراضي لم يطئها أحد من قبل".

ووقف أمام منحدر صخري تعترض أحد حوافه صخرة ضخمة، لكنه أزاحها بسهولة؛ لينكشف من خلفها مدخلًا لقلب ذلك المنحدر، انحنى لها وأشار لها بالدخول أولًا، ابتسمت ليليس بخجل من لفتته تلك، ثم دخلت واجتازت ذلك الممر؛ لترى ما وراءه.. أراض كاملة، وجبال لم تر في طولها جميعها من الثلج، وليس الثلج الأبيض، بل ذاك الذي تستطيع رؤية انعكاسها به، جبال كاملة شاهقة الأطوال منه، لمحت صورتها غريبة في إحداهم، لكنها حين اقتربت؛ لتتمعن الرؤية سمعت صوت كسر ما، فنظرت لأسفل؛ لتجد الجليد أسفلها يتشقق، لم تجد وقتًا حتى للتفكير أو الفزع، ففي لمح البصر وجدت نفسها سقطت أسفل الماء، لكنه لم يبد باردًا أو مخيفًا حتى، بل صافيًا ومضويًا للغاية، وجدت سيليك لجوارها يبتسم لها فابتسمت بدورها، أشار لها باتباعه فأخذت تسبح برفقته، وهي تنظر لأعلى من حين لآخر؛ لترى الجليد قد تكون أعلاهما مجددًا، لكن سيليك لم يبد مهتمًا لذلك، أخذ يعوم فحسب نحو الأفق المضيء بابتسامة شاسعة أعلى وجهه، كيف لشخص أن يكون بكل تلك الروعة؟! إنه كالنور المشع.. فكرت ليليس متأملة إياه باندهاش، نظر نحوها بابتسامته المنيرة مجددًا، لكن ضوء الأفق كان ساطعًا للغاية؛ مما أرغمها على إغلاق عينيها، لكن حين فتحتها وجدت نفسها أعلى جبل شاهق ينسدل منه شلال بهي المظهر، مد لها سيليك كفه ليساعدها على الوقوف فتلقفتها، ثم وجهها للجهة الأخرى، وهي ترى مدينة عظيمة شاسعة الاتساع بأكملها تحت عيونها، تمتلئ بالمنازل المنظمة باحترافية شديدة دامجة بين

لوني الأحمر والأصفر، الشوارع المرصوفة والفسقيات البهية، يظهر خلفهم قصر عظيم آية في الجمال على بُعد في الأفق، إنه قصر العاصمة الأم -لقد رأته من قبل-، بينما فرع نهر شديد العذوبة يمر بجوار حدود المدينة، ويزين كل ذلك خلفية لسماء اصطبغت بالأرجواني والأزرق، ورذاذ من الوردي في مشهد أقرب للوحة فنية رسمها أبرع فنان بالوجود، بدا لها من مكانها هذا أنها مطلعة على الكون بأسره.. هزت رأسها باستنكار، وهي غير قادرة على تصديق أن هناك شيئًا بهذا الجمال، جذبها سيليك من يدها نحو الحافة مردفًا بعيون لامعة:

"أريدك أن تثقي بي ولا تقلقي!"

"ماذا؟!"

"فقط ثقي بي!"

ثم قفز من فوق الحافة جاذبًا إياها، أحكمت غلق عينيها وهمت بالصراخ، لكنها سرعان ما فتحت عينيها، حينما شعرت أنها لم تسقط، صارت فارهة الفاه، وهي ترى نفسها تطفو في السماء بين السحب، بينما العالم كله أسفلها، الشوارع والمباني والأراضي، تراهم وهي تُسحب بسرعة معتدلة للأمام لا للأسفل، أخذت تشهق وتزفر بقوة وهي غير مصدقة لكل ما يحدث، رأت سيليك لجوارها يبتسم نحو الأمام فحسب، وهو مغلق عينيه بمنتهى الاسترخاء، شعرت برعشة بسيطة بأطرافها، لكنها مدت يديها لجوارها ببطء مغلقة عينيها، وعلى وجهها أوسع ابتسامة، ثم ألقت نفسها كأنها تسقط على فراش دافئ، تلقفها الهواء من أسفلها، وظلت على تلك الهيئة

بعض الوقت هي تشعر بسعادة لم تحسب أن لها مثيلًا بالكون، فتحت عيونها فرأت السحب أعلاها، لفت كيانها ليصير وجهها لأسفل فرأت الأراضي المثمرة أسفلها وبيوت العاصمة الأم، ثم القصر أمامها فاتخذت هيئة الوقوف وهي تقترب لأسواره وأبراجه، رأت سيليك يقف على النقطة الأكثر بروزًا لأحد أبراج القصر بقدم واحدة، بينما يفرد الأخرى للجانب كأنه يقدم عرضًا استعراضيًا ما بالسيرك، وضحك نحوها فضحكت له بصوت عالٍ، ثم اعتلت بقدميها أحد الممرات التي تصل بين الأبراج العلوية، وأخذت تجري أعلاه بسرعة وهي تضحك بصوت عالٍ، تضحك كما لم تضحك من قبل مطلقًا، تضحك حتى تؤلمها وجنتيها وتتجمع دموعها بمقلتيها، وصلت لنهاية الممر وصعدت منه أعلى حافة البرج المقابل له، ثم قفزت من أعلاه وضحكاتها تزداد علوًا، وهي تنظر للعالم من أعلى، صاحت من بين ضحكاتها بأعلى ما لديها:

"هذا أجمل شيء بالوجود!"

ياللهول هل يوجد سعادة مماثلة لما تشعر به الآن؟! هل حسبت أنها قد تسعد بهذا القدر من قبل؟ تلاشت ضحكاتها، وظلت ابتسامتها لكنها شعرت بدموع تتجمع بمقلتيها؛ لتذكر شعورها بالماضي وكل ذكرياته.

"ألم أخبرك أنها أفضل هبة بالوجود".

أومأت نحوه، بدا أنه لاحظ ملامحها، فأردف:

"إن لحظات السعادة في هذا العالم قليلة يا ليليس؛ لذا

فحين نجدها علينا اقتناصها، ونسيان الماضي.. ولو لوهلة".

تأملته بملامح محايدة مفكرة فيما قال، ثم أومأت له مبتسمة، أخذت تتأمل المباني والأراضي أسفلها مفكرة:

"أيها المعلم ليتك كنت برفقتي الآن، ليتك رأيت كل هذا الإعجاز، لقد كنت محقًا، حين رأيت أن حضارة الحالمين كانت بتلك العظمة، وتلك القيمة التي دفعتك لتكبد كل ذلك العناء للوصول لها، لا شيء في الحياة.. بل في الوجود بأكمله يوازي جمال الشعور الذي أشعره الآن، أن استطيع الذهاب لكل وأي مكان، بأي زمن، أن أستطيع مخالفة كل قوانين الطبيعة، في لحظة أنا كالهواء أنساب لأي مكان، ولحظة أخرى أنا كقطرة الماء أستطيع التدفق حتى الأعماق، أنا في كل الأماكن، وكل الأزمنة بكل الحالات، وذلك دون أن أتحرك خطوة واحدة، أتلك أيها المعلم عظمة أن يغدو المرء حالمًا ؟! رغم الأعباء التي وقعت على كاهلهم، إلا أنهم حظوا بهبة لا تُقدر بكنوز الأرض كلها، ألهذا كان من الصعب للغاية أن يصير الشخص حالمًا في عهدهم؛ لأنه ليس أي شخص سيحسن استعمال هبة كهذه؟! أتظن أيها المعلم إني لاستحققتها؟!

تساءلت، وهي على وشك ازدراء كيانها، شاعرة بالوجود يصير أكثر كحالة، فجأة تخيلت وجه المعلم ببالها، وهو يبتسم نحوها بملامحه المريحة مردفًا: "أنتِ ذكية، وقوية، وعطوفة يا ليليس، أحسب أنكِ لاستحققتها".

"حقًّا؟!"

تساءلت شاعرة بالشمس تزيح الغيوم مجددًا:

"هذا من منظوري أنا، وحتى إن رفضوا فتبًا لهم، سيظل لكِ مكانًا لجواري كمساعدتي للأبد".

ضحكت ليليس لحديثه، فجأة سمعت سيليك يسألها: "أكنتِ تقولين شيئاَ؟"

هزت رأسها نافية، والابتسامة لا تفارق وجهها، بينما آخر فكرة تلوح بخيالها:

"سأخبرك بكل شيء حين ألقاك أيها المعلم، أعدك".

***

كم من الأحلام والأماكن سافرت إليها برفقة سيليك؟!

لم تعد حتى تحصيهم أو ربما لم تعد تدرك الزمن الحقيقي الذي تتواجد به، فكل ما تراه أحلام فحسب، لكنها لم تكترث، فهذا العالم والتواجد لجواره أفعماها بسعادة عمرها بأكمله.. لوهلة شعرت أنها عاشت دهرًا بأكمله بالفعل، تسافر عبر البلاد والأراضي، الماضي والحاضر والمستقبل برفقته، فهو غريب مر كالغفوة؛ ليهديها عمرًا جديدًا تجوب به جنة الأرض لجواره.

لكن في ذلك الحلم بالتحديد حين فتحت عينيها، لم تر سوى الظلمة الشديدة والأمطار التي لا تتوقف، بينما قبع أمامها على مسافة لا بأس بها تلك الأنقاض العظيمة، أنقاض مقر الحالمين تقع مجددًا أمام مرآها، لكن بتلك المرة لم تظهر

بديعة أو مبهرة، بل مهيبة ومظلمة، كما لو أن اسمها الحقيقي هو "أنقاض الفانين"، تحركت ليليس وسط الأمطار الغزيرة، وهي تلمح ضوء ما يضوي عن قرب، أصابها التوتر، فتساءلت:

"لماذا أتينا هنا؟"

ابتسم كعادته رغم أنها لم تستطع رؤيته جيدًا بفعل الظلام، لكن ملامحه بدت مخالفة قليلًا لطبيعته، كان أقل إشراقًا وأكثر عبوسًا، أردف بصوت أقل حفاوة:

"أتذكرين حينما سألتني عن كيفية ممارستكِ لهذا السحر، وكيف علمت أنك بقدرتكِ تلك؟"

أومأت، والارتياب قد أصابها.

"ألم تراودك رؤى أو أحلام غير مفهومة قبيل مقابلتك لي حتى، قد تكون لكِ ذكرى بها، لكنها دومًا انتهت بأحداث لا تمت لكِ بصلة؟"

أومأت مجددًا.

"ألم تشكي لوهلة أن الخطب ليس بالأحداث، بل بكِ أنتِ؟!"

"ماذا تعني؟"

"أنت لستِ مَن تحسبين أنكِ تكونين.. أنتِ لستِ ليليس مساعدة العالِم ران!"

ضيقت عيونها، وهي لم تستوعب حرفًا واحدًا مما قاله، بينما أكمل هو:

"ليس كليًا، فأنتِ جزئيًا روح ليليس، لكنكِ تحملين كيانًا آخر بحوزتكِ، كل ما يبقيكِ حية هي طاقة ذلك الكيان لتحقيق هدفه، ولكنكِ لا تستطيعين رؤية الهدف والصورة كاملة؛ لأن جزءًا من الحقيقة مرتبط بهويتكِ السابقة، وإذا كُشفت لكِ تلك الحقيقة قد تدمركِ تمامًا، وتجعلك حبيسة لهذه الأحلام ولواقع وهمي من خلقكِ للأبد، لهذا لا يكشف لكِ الكيان الصورة كاملة، ولهذا تشعرين أن كل شيء غريب وغير منطقي، فإن أطلق الكيان العنان لكِ بمعرفة كل شيء، قد يُحبس برفقتك في عالم خيالي من صنعكِ تهربين فيه من واقعك السرمدي، وبالتالي لن يستطيع الكيان تحقيق الهدف الذي بُعث لأجله، ولهذا جئت لهنا؛ لأساعدك على الفهم والتعلم؛ لتستطيعي مواجهة الحقيقة".

هزت رأسها مستنكرة كل ذلك، فهي ترفض تصديق أي من هذا، رأته يبتسم لها ابتسامته المعهودة، لكن ذلك أوغل سروب من طيور الحزن بداخلها، وقد بدأ الصقيع يتخلل لأطرافها، لمحت على بُعد ما جمد الدماء بعروقها. ذاك الكيان الأسود معدوم الملامح يحفه السواد عدا من عينين تشر دمًا، وفم شديد الوسع، شعر غزير يصل حتى الأرض، ومخالب أشبه بالسكاكين، تنبع من أصابع شديدة الطول لأطراف لم يبد حقًّا أهي قدم أم ذراع؟ فقط التحمت بذلك الجسد بشكل غير متسق تمامًا، همت بتحذير سيليك، لكنه تحدث بهدوء:

"لكل شيء شقان يا ليليس -حتى الأحلام- وأخشى أنك لا بُدَّ أن تري الجانب المظلم الآن".

ثم التفت باتجاه الضوء الأخضر الخافت، فاستعجبت فعله ملتفتةً بدورها للضوء الذي لمحته من قبل

"آراك لاحقًا يا ليليس، علنا نتقابل مجددًا على الأرض الصلبة".

كانت تلك آخر جملة أردفها، وهي تفتح عينها على مصرعيهما لرؤيتها لمصدر الضوء المشع، ثم تغمر الدموع عينيها، وقد بدا أن سمًا قد بُخ بقلبها أحال إياها لرماد طار برفقة الرياح، ولم يعد لها أي وجود، غريب مر كالغفوة، لكنه في النهاية لم يكن سوى حلم فانٍ، فتحت عينيها؛ لترى تلك العلوية القماشية أعلاها، إنها علوية الخيمة، لازالت تلك الدموع بمقلتيها تسيل لجانبي وجهها حتى أذنيها لا إراديًا دون توقف، بينما لازالت هي شاردة للعلوية بعيون واسعة، أكل ما خاضته برفقته كان حلمًا فحسب؟ لقد علمت ذلك جيدًا.. علمت ذلك،

"إذن لماذا هذا الحزن لقد علمت أن عند لحظة ما ستستيقظين.. ربما لم أرد الاستيقاظ مطلقًا".

رددت بعقلها، بينما دموعها تزداد، وتضع كفيها أعلى وجهها مخفية دموعها، وصوت نواحها يبدأ في العلو، مر بعض الوقت وهي بتلك الحالة، حاولت الوقوف، التماسك، والتغلب على تلك الدموع لكن بمجرد تذكرها لجملة سيليك الأخيرة، وللمشهد الذي رأته حين التفتت للضوء الأخضر الخافت شرعت بالبكاء والانهيار مجددًا، وهي تكرر ببالها:

جنة الأرض [6] ٢٢٣ / ٤٥١ Page

"أنتِ تعرفين كل شيء، السبل كلها بمخيلتك لكنك لا تريدين إزالة الغمامة التي تغشيها؛ لأنك ترفضين الاعتراف بما يقبع خلفها".

- كلا هذا غير صحيح..

- أنتِ تثيرين تقززي، كيف لشخص أن يكون بذلك الغباء؟! بذلك الضعف؟! لا أدري كيف رأى المعلم ران أي شيء بكِ؟! إنكِ لم تحاولي حتى إيجاده، وترفضين حتى مواجهة الحقيقة؛ كي تسهلي تلك المهمة.

- هذا غير صحيح، إني أريد إيجاده أكثر من أي شيء.

أخذت تفكر بهلع:

- حقًّا؟! إذن لماذا ترفضين مواجهة الحقيقة؟! أم لأنك أجبن من ذلك؟!

هزت ليليس رأسها، ونظرت لنفسها التي تقف بجوارها، وعلى وجهها أعتى نظرات الازدراء.

- لقد توقف ذلك منذ فترة، لماذا مجددًا؟!

=لماذا عدت أزورك؟! لماذا تسمعينني مجددًا؟! إنكِ بالفعل مثيرة للشفقة.. أحقًا حسبتِ أن ببعض الكلمات اللطيفة من فم العالِم ران سأرحل؟! أحسبت أن ببعض العطف المزيف الذي منحه إياكِ يمكنني أن تفصليني عن كيانك لهيئة مادية أخرى؟! استيقظي أيتها المعتوهة! إنه لم يحبك كابنته أبدًا! أنتِ لم تعنِ شيئًا له! كيف لكِ أن تجرؤي حتى بتمني حياة

كتلك؟! إنكِ قذارة تستحق القذارة المماثلة لها! تستحقين أن يحتقرك الآخرون ويدعسوك! إنكِ لم ولن تستحقي حياة جيدة مطلقًا!

صاحت ليليس بأعتى ما بها بجنون:

- توقفي! لماذا تفعلين ذلك بي؟! بماذا آذيتك؟! لماذا تؤذيني بهذا الشكل؟! لماذا؟!

ثم انهارت تمامًا، وأخذت تبكي بصوتٍ عالٍ:

- "ابكي، ابكي كالأطفال.. فهذا كل ما أنتِ قادرة على فعله، تحسبين أنكِ لم تؤذيني؟! يكفي كوني أنتِ، ليس هناك أذية أبشع من تلك!"

لم تدرِ كم من الوقت ظلت بتلك الخيمة محتضنة ركبتيها ودافنة رأسها بهما، لم تدر متى استطاعت الاستناد لقدميها والخروج من تلك الخيمة، لم تلتفت لأي شيء، ربما فحسب لذلك الطائر في الأفق، وتساءلت: إلى أين رحل رفيقه؟

سارت تلقائيًا للموضع الذي لطالما سمعت جهته صوت تدريبات الرماية، لكن تلك المرة لم تجد إيفان يتدرب، بل كان يجمع الأسهم من على دائرة التصويب، نظرت حولها متفحصة المكان عن تواجد سيليك لكن لا أثر له، قررت التوجه لإيفان؛ لتسأله عن سيليك، ترددت قليلًا لهيئة ذلك الشخص الصارمة، لكنها في النهاية اقتربت منه ببطء، متسائلة ببعض التوتر:

"معذرة، أيمكنك أن تدلني على مكان سيليك".

لم يلتفت لها، وأكمل جمع الأسهم، لكنه في النهاية أجاب:

"لا يمكنني فعل ذلك".

"ليس عليك اصطحابي، يمكنك إخباري بمكانه فحسب".

"لا يمكنني فعل ذلك؛ لأنه رحل".

***

[7]

بيلا

إنها تلك البقعة الخصبة مجددًا بصخورها الواحدة والخمسين مستطيلة الشكل شاهقة الطول تمتد على مساحة واسعة..

الظلام يغطي الأنحاء، بينما يتردد صوت غناء ورقص جماعة من الملتفين بالأسمال السوداء من رؤوسهم لأخمص قدميهم، وأثناء تردد صوت الأمطار والرعد الذي أصم الأرض بأكملها، أخذت كلمات غير مفهومة تعلو كأنها قادمة من بُعد آخر، لكن أشد الكلمات انبعثت من شخص أعور:

"لا تخافوا يا إخواني، إنها الطريقة الوحيدة للتخلص من المرايا!"

اشتد عنفوان الرعد، ومجون الموجودين بجرحهم لأنفسهم ونثر الدماء أرضًا خلال رقاصتهم المتصاعدة كاللهيب

"فليحضر القائدان العظيمان روخو وأمار!"

صياح، صياح، ثم ما زلزل كيان الجميع، بدا ذلك الصوت كالبركان المنفجر من أعمق ثغرة بالأرض؛ ليغطي البراري كلها، اقتربت تلك الظلال الضخمة حتى اتضحت ملامح مرعبة لوحوش هي أشبه بالأسود، تجلى الهول على الواقفين وأخذوا بالتشبث ببعضهم بمحاولة يائسة للابتعاد عن تلك الوحوش التي حاوطتهم من كل صوب، لكن لم يكد صوت

الزئير المشيب للأفئدة يدوي مجددًا، حتى انقضت الوحوش على الموجودين بسرعة تنافس اندفاع صواعق البرق، علت صرخات قادمة من عقر الجحيم لهؤلاء الأشخاص، بينما يتم تمزيق أشلائهم وتناولهم أحياء، وقف الأعور مراقبًا كل ذلك، ولم يصبه أدنى مكروه، بينما لاحت ابتسامة على شفتيه وردد:

"لأجل أي تغيير عظيم لا بُدَّ من تضحيات، وتضحيتكم ستكون هي البداية للعالم الجديد!"

وصلت الصرخات لذروتها حتى غدت أعلى من وجل الرعد ذاته، لكنها سرعان ما أُخمدت كالنار التي لا تترك خلفها سوى الرماد، وقد كان ذاك الرماد هو الدماء التي أغرقت الأرض، وتخللتها حتى وصلت لجذور نباتاتها غير النامية بعد وروتها، تناثرت الأشلاء والأطراف الممزقة إربًا والأجساد التي تدلت أحشائها للخارج في الأرجاء، عم الهدوء عبر نسمات الرياح بالرغم من صوت المطر والرعد المتكررين، حتى لم يعد يظهر أن مجزرة تمت هنا للتو، اقتربت الوحوش بأفواهها التي يسيل منها الدماء من الشخص الأعور ببطء، فاتسعت ابتسامته وظهرت لمعة النصر بعينه، لكنهم سرعان ما التفتوا لأنحاء متفرقة، وتحولت ملامحه في جزء من الثانية للصدمة الكلية، ثم اختلطت بالانكسار التام، وسقط جاثيًا على ركبتيه، وهو يتمتم بغير تصديق:

"لا يمكن! لقد فعلت كل شيء! لقد قدمت كل شيء! لقد قدمت التضحية، وقتلت كل من أعرف!"

صاح باستنكار يشوبه الكثير من الخذلان:

"تلك القوة جدر أن تكون ملكي! لقد استحققتها؛ لأنتقم من الشعبين اللذين نبذاني يوما!"

فجأة! ظهرت قيود حديدية سوداء من الأرض التفت بإحكام حول رسغيه المسندين أرضًا، نظر لهما وزاد صوته الهلع علوًا:

"أنا لست من إخوة الظل! أنا من الشعبين، وتلك قوة أجدادي القدماء!"

أخذت القيود تزداد إحكامًا حول رسغيه وتسحبه أرضًا، صرخ بجنون:

"كلا! لن أصير سجينكم حتى يحل آخر مكاني! تلك قوة أجدادي! أنا لست هجينًا! أنا من الشعبين!"

حاول التملص لكن ذلك لم يجدِ، رفع رأسه للسماء صارخًا من بين ملامحه التي أخذت تتبدل لهيئة أخرى غريبة، وقف فين أمام كل تلك المشاهد غير مستوعب لما يحدث، فجأة استدارت الأسود موحدة وجهتها مجددًا عائدة أدراجها، لكن هذه المرة في الاتجاه المقابل للأعور، في اتجاه فين، نظر لهم فين بغير فهم، ثم نظر أمامه للأعور، وهو يراه ينظر لفين بصدمة تتحول لغضب شديد، تلك المرة تحول الأعور للبركان الأعنف ثورانًا، وهو يصرخ لفين: "كان يفترض بالعائد أن يكون هجينًا آخر، وليس شخصًا من الشعبين! لم أفنِ عمري حتى تنال أنت تلك القوة!"

في تلك اللحظة انقض الرجل بسرعة الريح نحو فين، وقد تبدل كليًا لأرعب شيء لمحته عينا فين، لذلك الوحش جبار

الحجم المشابه للأسد بعين صفراء، وأخرى غير موجودة تحل مكانها ندبة طويلة، اندفع نحو الفتى زأرًا، كالصاعقة فاتحًا فمه المشابه للثقب الأسود ذي الأنصال الكفيلة بتهشيم قرية بأكملها، فتح فين عيونه مستيقظًا، وهو يحاول استنشاق أي قدر من الهواء، لكن لا شيء يصل لرئتيه، أخذت أطرافه تنتفض بشدة ووضع كفه أعلى حلقه محاولًا الوصول لأي ذرة هواء، شعر بالعالم يتمدد من حوله ساحبًا كل الهواء برفقته لأبعد نقطة بالسماء، اكتظت عيناه بالماء، صارت الموجودات من حوله رمادية وغير واضحة، وازدادت حبيبات العرق أعلى جبينه مع دوران عينيه برفقة رأسه باحثة عن الهواء بأي صوب، ازداد الماء بعيونه وهو يشعر أن كل الأنفاس بداخله تُسحب، وبالكاد يحصل على أي منها، حتى شعر بحلقه يضيق رويدًا رويدًا، ونبضات قلبه تزداد بشكل مروع، بدأ بالسعال بقوة طالبًا أي غيث، حاول الوقوف والتوجه لأي مكان بعيد، لكنه تعرقل ساقطًا أرضًا، فاستند لأقرب شيء لجواره، ونظر لأعلى؛ ليرى الكون بأسره تبدل من حوله متحولًا، لذلك الأسد الأعور الضخم ينظر نحوه بعينه الصفراء الواحدة، ثم يفتح فمه ساحبًا فين لداخله وساحبًا برفقته كل الهواء، كأن فين صار يطفو الآن بالكون الشاسع الذي حُرم أعلاه الهواء للأبدية.

أخذ صدى بعيد يتردد بفراغ عقله

طرق، طرق

"فين! فين! في.."

إنه يبتعد ويخفت تدريجيًا، فيبدو أن وعيه سيتلاشي تمامًا

Page ٤٥١ / ٢٣٠ [7] سلا

في هذه الأغوار، فكر مغمضًا عينيه، لكن لم تمر ثوان حتى فُتح باب الغرفة، وتحدثت الفتاة الساحرة له:

"فين، أعتذر على التطفل في ساعة كهذه لكن".

لكنها صمتت لوهلة، واتسعت حدقتيها متسائلة بقلق:

"هل أنت بخير؟ مظهرك.."

أجاب فين الذي فتح لها الباب لتوه متصنعًا الابتسامة عبر ملامحه التي لا بُدَّ أنها تبدو كارثية:

"لا تقلقي يا بيلا، أنا بخير، إنه بعض الأرق فحسب.."

"لكن فين، عيناك حمراوتان تماما، وجهك باهت للغاية، حتى فمك كالشخص الغارق".

شعر فين بمقلتيه تجذبان الماء لهما مجددًا، وبالرعشة لازالت تفرض نفسها على أوصاله، لكن لا يمكن أن يظهر بتلك الحالة المثيرة للشفقة أمام أي شخص، خاصة بيلا، أخفى فين يده المعطوبة خلف الباب، وخفض وجهه أرضًا مرغمًا نفسه على زيادة اتساع ابتسامته، والحفاظ على تماسك صوته:

"أنا بخير يا بيلا، لا داع للقلق"

يا لا السخافة، بدا صوته مبحوحًا للغاية، لم تجب بيلا لكنه لمحها تنظر ليده المستندة للعكاز، فأدرك حينها كم أن رعشة يده جلية للعين، سحقًا له!

لعن نفسه بداخله، ثم حاول تشتيت انتباهها: "هل تحتاجينني

Page ٤٥١ / ٢٣١ [7] سلا

بأمر ما؟!"

لم تجب فورًا، وأخذت تنظر نحوه بقلق، لكنها سرعان ما تنهدت مردفة:

"أجل، نحتاجك في غرفة الاجتماعات الآن!"

أومأ وطلب منها بضعة ثوان؛ ليلحق بها فأومأت بتفهم وانصرفت، تأكد هو من رحيلها تمامًا حتى اختفى خلف الباب، وقد زادت رعشته التي حاول كبحها بكل ما استطاع، زادت أنفاسها وأغمض عينيه، وهو يكرر بباله:

"أهدأ، أهدأ، اهدأ!".

تماسك متوجهًا لغرفة الاجتماعات تلك، فور رؤيته فتح له أحد الحارسين المجاورين للقاعة الباب الخشبي المزين ببروزات معدنية، مر عبره لقاعة الاجتماعات الواسعة التي تنتصفها طاولة عظمى لخريطة العالم وتزين جدرانها -التي يسودها البني المنقوش- لوحات جدارية لبعض المعارك، بينما على أطرافها توجد بعض التماثيل الذهبية لأعلام هذه البلاد، بالقرب من طاولة طويلة تتجمع حولها بعض المقاعد الفخمة، وقفت هناك بيلا لأحد واجهات الطاولة -التي تحوي خريطة العالم- بجديلتها الضخمة وهيئتها البهية حتى في هذه الساعة المتآخرة، وأمام أحد الواجهات الأخرى وقف المستشار أران، جدي الهيئة دومًا، يعقد ذراعيه خلف جسده، وهو يبدي ملامح جامدة مستمعًا لمستشار آخر، يتصف بقدر أكبر من المرونة والسماحة قابله فين عدة مرات سابقة، ذو هيئة طويلة

وممتلئة بعض الشيء، لكنه يهتم بمظهره وهندامه حتى يبدو أنه ملك أحيانًا، تميزه أيضًا عيونه الضيقة وشارباه المرفوعان دومًا لأعلى، يُدعى المستشار بيسبور، وهو المختص بتمثيل الأمير ميستريو اجتماعيًا، على عكس المستشار أران المسئول بتمثيل القوة والتفكير العسكري، أخذ المستشار بيسبور يكمل حديثه حيال ما لم يفهمه فين كليًا:

"علينا تصدير صورة للشعب أننا بصفه، بضعة حوادث لجنود باسلين مخصصين لحماية الشعب من غارات جماعة (خُدام العائد)، ستفي بالغرض، سنقوم بتشييد جنازات مهيبة لهؤلاء الأبطال في مواكب تنفطر لها القلوب، خاصة إن أفنى جندي حياته في إنقاذ طفلة، أو ضحى بعمره؛ لكي تعيش أم ورضيعها، وحينها ستخطو الأميرة بيلا بجنازات هؤلاء الجنود متحدثة عن تضحياتهم العظيمة، وعن كيف أن واجب الجنود بأمر من الأسرة الملكية هو تكريس حياتهم للدفاع عن الشعب وحفظه، وكم أن جماعة (خُدام العائد) يخالفون كل ما ينادون به، وهم يتسببون بمقتل الأطفال، بينما جنود الأسرة الملكية يدفعون حياتهم لمنع ذلك، الأطفال علينا التركيز على الأطفال! فذلك أكثر ما يؤثر بالبشر حقًا، لا شخص ولا حتى منعدم الرحمة سيشهد حادثًا به طفل، وسيمرره مرور الكرام".

خُدام العائد.. تلك الجماعة التي ظهرت فجأة من اللاشيء مطالبة بعودة المختار الذي سيخلص الأرض من المرايا، ومن كل الدنس الذي انتشر بالبر والبحر، ويبني العالم الجديد، أخذت أعدادها بالانتشار بصورة سريعة للغاية مقارنة بفترة

بدء ظهورها القريبة، ليس هذا فقط، بل بدءوا بمعاداة الأسرة الملكية، ونشر الأكاذيب حيالها وتلفيق التهم لها، بالإضافة للصعوبة الشديدة للقبض على أفراد تلك الجماعة فهم دومًا متخفون، ينتشرون عبر الجموع كظلال سوداء ما تلبث أن تصل إليها حتى تنقشع كالدخان.

علق المستشار أران:

"خُدام العائد لا يستهدفون الأطفال البتة، وضح اقتراحك بصورة أكبر"

"أيها المستشار أران من أخبرك أننا سننتظرهم لفعل أي شيء؟! نحن من سنتسبب في الحوادث، ونلفقها لهم! حينها سيدرك الشعب مدى خطورتهم".

تساءلت بيلا باستنكار:

"أتعني أننا لافتعال تلك الحوادث سنعرض أطفالًا وأسر حقيقية للخطر؟!"

"سمو الأميرة، لا مفر من الخسائر الجانبية، فلابد من بعض الشهداء من العامة، حينها ومع بسالة الجنود، وخطابك المتأثر للغاية سيسخط الشعب كليًا حيال خُدام العائد ويروا سموك كالمنقذة".

لم يستطع فين الصمت لمدة أطول حيال ما يقال فقاطع المستشار قائلًا:

"أنت تخطط لقتل أشخاص بالفعل؟! أطفال؟! هذا جنون!

هذا ضد ما نقيم هذا الاجتماع لغرضه من الأساس، وهو حماية الشعب والحفاظ على أحوال المملكة الشرقية!"

ثم سلط نظرة على كل منهم بغير تصديق خاصة بيلا ، أجاب المستشار بيسبور:

"الأمور ليست بالمثالية التي تبغيها يا سمو الأمير، لقد بدأ الوضع بالتأزم، وهناك اجتماعات كثيرة، صارت تُقام بالخفاء لاستقطاب معاونين لخُدام العائد؛ ليخربوا وينشروا الفوضى، أتدري حتى سبب اجتماعنا في هذه الساعة المتأخرة؟! لقد شب حريق مفاجئ في المحكمة بمنتصف الليل ودُمر جزء لا بأس به منها من قبل معاونيهم، لقد استطاع جنودنا إخماد الحريق منذ وقت قليل للغاية، أتعتقد إن لم نقم بقلب الشعب ضدهم وضد معاونيهم ونبذهم كليًا سنستطيع القضاء عليهم؟! أم أن نتغاضى عن ذلك، ونتركهم ينتشرون كالعفن حتى يهددوا أمن البلاد بصورة جدية؟!"

اندهش فين مما سمعه لتوه، ولم يملك إجابة حقيقية، لكن الحل ليس باستعمال أبرياء ككبش فداء، لا بُدَّ أن هناك حل آخر. .تحدثت بيلا بندم:

"كلا، أيها المستشار بيسبور، إن الأمير فين محق.. لا يمكننا قتل أشخاص أبرياء من العامة أو حتى من الجنود! الأجدر إذا فقدنا جنودنا أن يكون على ساحة المعركة أمام عدو حقيقي لا بأيدنا نحن!"

تسللت بعض السعادة لفين لسماعه قولها؛ فهو كان واثقًا

أنها لن تلجأ لتلك الأساليب القذرة، أكملت بيلا، وهي تهز رأسها باستنكار:

"ما لا أفهمه حقًّا هو الظهور المفاجئ لتلك الجماعة، وانتشارها بهذه السرعة، إنه أمر غير طبيعي!"

"ليقضوا على أي محاولة للاستقرار تحاولين إقامتها في المملكة الشرقية".

توجه الجميع بأنظارهم للمستشار أران الذي أكمل تفسيره:

"مؤخرًا هناك صراع بين أعمامك حيال المملكة الغربية، ولا أحد يلتفت للمملكة الشرقية كثيرًا، الأمير ميستريو غير متواجد، والطفلان هما من يمسكان بزمام الحكم ذلك بالتزامن مع الأحداث القريبة غير الواضحة حيال الجنوب، وادعاء البعض سماع أصوات وحوش، وكثرة الهجرة منه نحو الشمال بالإضافة لإهمال الحكام للجنوب وبلاده، بات من السهل انخراط أشخاص مجهولي الهوية للسفر من الجنوب للشمال دون أن يتم كشفهم، بالنسبة الأكبر هؤلاء الأشخاص من مكان آخر غير المملكتين، مكان يرفض أن يتم الاستقرار بأي جزء من النصف الشمالي من قارة (أثرا)، والمملكة الغربية في صراع بالفعل، لا قلق حيالها، لكن المملكة الشرقية هي الخطرة الآن، وإذا تم تركها قد تزدهر ويتدمر السبيل للفوضى الكلية، وبالنهاية لا قلق حقيقي فالواصية في الوقت الراهن هي فتاة لم تتجاوز السابعة عشر! أي خبرة أو حنكة ستحوزتها؛ لتجاوز مشاكل المملكة الحقيقية!"

Page ٤٥١ / ٢٣٦ [7] بيلا

أنهى المستشار حديثه ناظرًا لبيلا بحدة، إنه حقًّا يهينها دون أدنى اكتراث البتة لكونها أميرته!

تحدثت بيلا بحيادية غير مظهرة أن الكلام أزعجها لكن لا بُدَّ أنه فعل:

"لن نلجأ للحل العسكري أيها المستشار أران، هذا ضد كل ما بناه والدي، لن أسمح بأن يتم القبض على الأشخاص بشكل عشوائي لمجرد الاشتباه بكونهم قد يكونوا متواطئين برفقة خُدام العائد، لن أفرض غرامات وحظر تجول بداية من ساعة محددة، لن يتسبب ذلك سوى في سخط الشعب حيالنا، وانضمامه لصفوف خُدام العائد في أقرب فرصة تسنح له بذلك للتخلص مننا -نحن الجبابرة الذين نبطش به-!"

أجابها بانفعال:

"لن يفعل الشعب ذلك؛ لأن الخوف سيتملكه! سيعرفون جيدًا ما الذي سيصيبهم، وسيصيب عائلاتهم إن فعلوا ذلك!"

"الخوف إن ردعهم مرة فلن يردعهم الأخرى! وإن أخضع البعض فسيحول آخرين لمتمردين! هناك قوة أعظم وهي: الثقة، الإيمان.. إن ظن الشعب أن الحاكم قد استحققهما فسيكرس نفسه بالكامل له".

صاح المستشار أران:

"أنا لن أخذ نصائحي من طفلة! لقد كانت الغلطة الأكبر لوالدك هو ظنه بأنكِ جديرة بمنصب حساس كهذا!"

ثم سار نحو المخرج ودفع الباب بعنف خلفه، عم الصمت قليلًا، ولمح فين الاهتزاز على معالم بيلا، لكنها تمالكت نفسها مبدية الحيادية، شعر بالغضب يتملكه كليًا، وبأنه يريد تهشيم رأس المستشار ذاك، كما أن لمحة من الذنب حاوطته؛ لأن الفرصة لم تتسنى له بمساندة بيلا.

تحدث المستشار بيسبور:

"أخشى يا سمو الأميرة أن علينا إيجاد حل واضح بحلول الغد، أو سيكون علينا الاستقرار على أحد الحلول التي تم اقتراحها، للحفاظ على سلامة المملكة الشرقية بأي ثمن".

***

تهتز وريقات تلك الأشجار أمامه بفعل الرياح التي لامست أوصاله برقة متناهية أثناء جلوسه أعلى تلك الأريكة المنحوتة من الصخر مطلة على أغلب بساتين القصر المهيب القابع خلفه بارتفاع شاسع.

كل ما يفكرون به لا بُدَّ أن يضر الشعب بأي صورة، يدرك ضرورة ذلك عاجلًا أم آجلًا، لا يمكن حماية كل الأطراف، ولا إمكانية لنجاة الجميع، لكن هل ذلك يعطي لأي شخص الأحقية باختيار من يعيش، ومن يموت؟ من يُقمع كليًا، ومن يحظى بحُرية ظاهرية؟ وهل غرضهم الأساسي من كل ذلك هو الشعب حقًّا أم الحفاظ على نفوذهم؟

تساءل فين متأملًا الأفق من أمامه، لكنه بالواقع لم يره، فقد تخدر عقله تمامًا وسُحب لمكان آخر، وكل ما رآه أمامه

في تلك اللحظة هي بيلا يحيطها كون رمادي لا تظهر سوى ملامحها المهتزة إثر توبيخها ومحاولتها للتماسك، أخذ لهيب بركاني يزداد بداخله، وهو يراها بتلك الهيئة ويتذكر حديث ذلك المستشار لها، جدر به تهشيم أوصال ذلك المستشار بأكملها في تلك اللحظة، ملامحها تلك تبعث بهالة سوداء بصميمه تنتشر لباقي أركانه كالمرض الأزرق.

عليه أن يجد حلًا لأجل الشعب، ولأجل بيلا..

"سأجد سبيلًا يا بيلا!"

ردد برأسه دون أن ينبس ببنت شفاه، شعر بقطرات الماء الخافتة أعلى يده وشعره، فتلاشت صورة بيلا والكون السرمدي، وعاد للواقع من حوله الذي صار أكثر قتامة، نظر لأعلى؛ ليرى السحب غطت كل شيء وبدأت بالتمهيد للإعلان عن غزوها للسماء، ازدادت القطرات على ملابس فين ويديه وشعره، وبدأ عبق رائحة المطر أعلى العشب بالتسلل لأنفه، لم يتحرك على الفور، وأخذ يتساءل عن أحوال أختيه وهو ينظر للسماء.

المطر يذكره بهما، خاصة بكيرا.. أين هي، وكيف حالها؟ تُرى هل عادت للعاصمة؟ هل هي سالمة الآن؟

يرجو ذلك من صميمه، حينها ستكون الأوضاع في نصابها الصحيح، فذلك ما جدر به أن يحدث من البداية: أن يرحل هو لا هي، علها الآن تجد السلام الذي تستحقه لجوار والدتهم، بعيدًا عن العنصرية ومحاولات الاغتيال، وكل ما اضطرت

للتعرض له في سن يافعة كتلك.

وثنسيا يرجو ألا تظن أنه نقض عهده لها برحيله، حقًّا لا يهم.. المهم هو أن تكون سعيدة وبخير، ووالدتهم كذلك يرجو أن تستطيع مجابهة الأوضاع التي اختارتها، يتمنى فحسب أن تبعث خطابًا له؛ لتطمئنه على أختيه؛ فلا شيء يصل وإمكانية الحصول على معلومة من العاصمة الأم باتت من المستحيلات العظمى بعد تولي بودير للحكم؛ لكن إن أكد ذلك على شيء، فهو يؤكد على أنه ملك جيد، وسيستطيع حمايتهم واسترداد المملكة الغربية من خالهم نايلس الذي صُدم به فين حين علم حقيقة ما اقترفه من جرائم بحق عائلته.

هم بالانصراف حين شعر بقطرات المطر تزداد، لكنه توقف حين لمح شيئًا أثار انتباهه، فقد رأى من يتلصص من خلف أحد الجدران الخارجية للقصر، ثم يركض بأسرع ما لديه؛ ليختبئ خلف شجرة، ويكرر الكرة مع شجرة أخرى حتى يصل لتلك الشجرة الكبيرة التي تحاوطها بقعة كبيرة من الأرض الخالية من أي شيء سوى العشب، لكنها تبدو مريحة نفسيًا للرائي، تمعن فين للراكض الذي استند بدوره للشجرة، وظل يتأمل الأرض أسفله بأسى؛ ليكتشف أن متأمل الأرض ذاك هو سول ابن خاله، استند فين لعكازه متجهًا للفتى محاولًا عدم الانزلاق بالطين أعلى الأرض الرطبة، أثناء ذلك لمح الفتى يستند لركبتيه مقربًا إياهما من صدره، بينما أخذ البلل يلوثه، لكنه لم يكترث وظل ينظر نحو التربة بأسى لا يمكن للكلمات وصفه.

توقف فين بالقرب منه لكن الفتى لم يدرك حتى تواجد فين

الذي أردف بدوره:

"سول، ما الذي تفعله بالخارج بهذا الوقت؟"

لم يلتفت له الفتى، بل أبعد ركبتيه عنه ومرر كفه أعلى التربة بجواره، ثم أدار وجهه بهدوء حتى رأى فين حينها فقط، نظر نحو الأعرج بوجل كأنه أدرك وجوده لتوه، لكن إيماءاته سرعان ما تبدلت للهدوء، تحدث فين مجددًا مشككًا في قدرات سول العقلية بصورة جدية:

"سول، عليك الرحيل من هنا؛ فالمطر سيشتد!".

أخذت الأمطار بالانهمار بالفعل بغزارة حتى شوشت الرؤية أمام فين قليلًا، وتردد صوتها بقوة، أجاب الفتى بصوت هادئ: "لا أستطيع الرحيل يا فين، لا أستطيع تركه".

تساءل فين:

"عمن تتحدث؟!"

"عن الموجود بهذه التربة"

ربما تم دفن حيوان أليف لسول بالفعل في هذه التربة، ولهذا فالفتى متأثر للغاية، حاول فين إبداء التعاطف:

"أعتذر لخسارتك يا سول، لا بُدَّ أنه بمكان أفضل الآن، أثق بأنه لأراداك أن تستمر بحياتك، وتترك هذه البقعة".

احتدت الأمطار مغرقة شعر فين كليًا وأزعجه ذلك، خاصة بالرياح القوية التي أحالت البلل أعلى جسده ورأسه لصقيع مولدًا للقشعريرة، على الرغم من ذلك لم يرد ترك الفتى بتلك

الأجواء، استطرد سول:

"إنه ليس أفضل الآن؛ لذا في الوقت الراهن تحديدًا لا أستطيع تركه؛ فهو لم يتركني، لقد ضحى بحياته لأجلي رغم مقدار الأذى الذي تسبب لي به".

ضحى بحياته لأجل سول؟! تساءل فين: "سول، من دُفن بهذه التربة؟"

"إنه شخص آذاني، لكنه عزيز لقلبي".

لم يستوعب فين أي شيء سوى أن الفتى حقًّا متأثر، أكمل الفتى متسائلًا لفين بصوت بالكاد يظهر من الأمطار: "ألم تخبرك بيلا بذلك؟!"

لم يجب فين، وتذكر قول بيلا السابق أن لا علم لها بالمدفون هنا، لكن الفتى لم يترك له مجالًا للتفكير، فاستأنف: "إنها من دفنته بهذا الموضع".

اتسعت عينا فين، وهو لازال يكرر بداخله أن لا بُدَّ الفتى مضطربًا بصورة ما، قرر العودة لداخل القصر، وإبلاغ أحدهم بشأن الفتى، لكنه لم يكد يستدير؛ حتى أعقب سول:

"فلتحذر يا فين؛ فهناك وحش على هيئة أسد أعور يتربص بك".

تخشب فين بموضعه غير مصدق لما سمعه لتوه، أراد أن يُعاد الحديث على مسمعه مجددًا، فكيف لأي شخص بالوجود العلم بما يجول خاطر فين منذ واد الأسود؛ فحتى ساريو الذي

رافقه لا يعرف، لا يمكن أن يعرف أي شخص بالوجود إلا إذا غدا قارئ أفكار بسبيل ما.

رمق فين سول بصدمة، وهو يسأله: "ماذا قلت لتوك؟"

تردد سول نادمًا لوهلة، ثم أجاب: "بيلا هي من أخبرتني بذلك!"

هز فين رأسه باستنكار: "كيف لبيلا بمعرفة ذلك؟!"

"لا أعرف، إنها تعلم الكثير من الأشياء التي لا يتوجب عليها معرفتها، بشكل غير مفهوم، لكنها تحفظ كثيرًا منها بعقلها ولا تدلي بها، لقد سمعتها بالمصادفة تتحدث حيال أمرك هذا مع شخص لم ألمحه".

نظر سول بوجل خلف فين، فلف الأخير رأسه؛ ليرى حارسًا يأتي بضراوة جهتهم، ظهر على سول التوتر، وهمس بصوت منخفض:

"فين، أرجوك لا تخبرها إني أخبرتك بأي شيء!"

"لمَ أنت خائف بهذا الشكل؟"

"أنت لا تعرف بيلا.."

عند ذلك الحد كان الحارس قد وقف أمامهم، ونظر سول نحوه بخوف شديد، ولم ينبس ببنت شفة واستند للشجرة ليقف، ثم انصرف برفقة الحارس الذي لم تظهر ملامحه من خلف خوذته، لم يبد سوى أنه ضخم الجثة، استمر فين بالنظر للفتى المبتعد برفقة الحارس بغير فهم، لماذا يقول سول ذلك

الكلام؟ هل بيلا تخفي شيئًا ما؟! هل تُخيف أخاها بشكل ما؛ ليصير مرعوبًا منها بذلك الشكل؟! هذا غير ممكن، إن الفتى مضطرب عقليًا، ليس فإلا، لكن كيف علم بأمر الوحش الأعور؟!

هذا ما قد يحيل كل أفكار فين وقناعاته رأسًا على عقب، فور علمه بالإجابة.

تذكر حلمه المتكرر.. الملثمين بالأسود، الغناء، الرقصات، الأمطار، الدماء، وصوت الرعد يتكرر، بينما الأعور يصيح:

"إن قام إخوة الظل بمحاربتنا بسحر المرايا فسنفنيه بسحر أجدادنا القدماء، وهذا ليس من المحرمات!"

وصوت الرعد يزداد مع تعالي صياح الأعور:

"سيتذكرنا شعبنا بتدميرنا للمرايا، وليس باستخدامنا المبرر للسحر، فلا تذعروا إخواني!".

فجأة جذب انتباه فين صوت الرعد الفعلي بمكان وقوفه أثناء اتساع عيناه وفمه، وترددت كلمة واحدة بمخيلته عند استيعابه الحل لمشكلة جماعة خُدام العائد: "السحر".

لم يكترث فين لهيئته المبللة من رأسه لأخمص قدميه أو حتى للرطوبة أعلى قدمه الخشبية وعكازه التي قد تتسبب في انزلاقه، وربما خسارته لساقه المتبقية، أخذ يستند لعكازه متحركًا بأسرع ما لديه للمكان الذي أُبلغ بوجود بيلا به، مر عبر الردهات ملطخًا السجاد المزركش بالطين الملتصق بحذائه، وحينما لمحته بعض الخدمات نظر لهن دون التوقف

مبديًا الندم، وهو يردف: "أعتذر عن هذه الفوضى!"

نظرن له بتعجب، لكنه أكمل هرولته لموضع بيلا، الذي رآها تقف بقاعة كبيرة تحوي مدفئة عملاقة مرصعة بالجواهر الصفراء، يعتلي أرضها فراء الدب الذي لازالت رأسه متصلة به مكشرة عن أنياب لم تعد خطرة، بينما الحائط يعلوه مربعات متداخلة اللون بكلا اللونين الأخضر والبني المشابه للأثاث الفخم بالقاعة والطاولات ذات النقوش الذهبية تعلو بعضها شمعدان يتداخل ألوانه بين الذهبي والنحاسي، لم يعبأ فين بباقي التفاصيل فقد أدار منظاره لبيلا الواقفة بكامل رونقها بالقرب من المدفئة التي يشتعل لهبها وتعلو منها لفحات النار، بينما يتردد صوت تهشم الحطب بداخلها، تتردد صوت بيلا متحدثة لأحد المربيات:

"علينا الإكثار من دروس التطريز، والغناء ستكون مفيدة للغاية لسليلات النبلاء".

"أمرك يا سمو الأميرة".

ابتسمت بيلا بلطف للمربية، وهي تضع يدها برقة أعلى ساعد الأخرى دلالة على الامتنان، تحرك فين نحوهما بعد استناده على إطار المدخل لمدة لا تتعد الثواني، شهقت المربية لرؤيته، بينما استدارت بيلا؛ لترى سبب هلع المربية أثناء هتفه بلهفة: "بيلا!"

اندهشت بيلا متسائلة: "فين.. هل أنت بخير؟"

"بيلا! لقد خطرت لي فكرة!"

هزت رأسها بغير استيعاب، بينما قاطعتهم المربية:

"سمو الأمير، أأجلب لك بعض الأرشفة والملابس الجديدة؟!"

لكن لم يبد أنه سمعها، وظل ينظر لبيلا مؤكدًا:

"هناك حل لخطر خُدام العائد بدون ضحايا أو حكم عسكري".

"كيف؟!"

تنحنح فين مردفًا: "في البداية اعتذر على تلويث فراء الدب البيضاء".

هزت رأسها باسمة: "لا بأس.."

أكمل فين بثقة: "ثانيًا يجدر بنا إخطار المستشارين وإقامة اجتماع الآن!"

لم تمر دقائق حتى اجتمعت بيلا بالمستشارين بقاعة الاجتماعات، ولحق بهم فين عقب تبديل ثيابه، دخل القاعة؛ ليجد المستشار بيسبور يقف بحيادية وعلى وجهه ابتسامة يكاد يقسم فين أنها عكس ما يعتمر فؤاده، بينما المستشار أران عقد ذراعيه أمامه بلامبالاة، ولم يتكبد عناء محاولة إخفاء استهانته بكل من فين وبيلا ، بيلا على صعيد آخر نظرت لفين بتأهب لما سيدلي به رغم مثابرتها للظهور هادئة إلا أنها الوحيدة التي ظهر أخذها لحديثه على محمل الجدية عكس هذين المستشارين اللذين يثق بأنهما لا يرياه سوى طفل معدوم

الخبرة يفسد حال المملكة، وخططهما على وجه التحديد لادعائه للمثالية من وجهة نظرهما.

"أجل، فعدم التضحية بأبرياء لا ذنب لهم سواء من جنود أو مواطنين هي مثالية هذه الأيام".

خطر بباله بسخرية

سار نحوهم مستندًا لعكازه، ولازال يشعر ببلل الأمطار برأسه، لكنه لم يأبه، وتحدث:

"المستشار بيسبور، المستشار أران، بيلا.. أدرك أن بحلول الغد لا بُدَّ من الوصول لحل نهائي بخصوص جماعة خُدام العائد، ومن الجلي أنه ليس لدينا حل سليم".

قاطعه المستشار أران بحدة:

"لا حلول لدينا تقول؟! كلا أيها الأمير الصغير، لإمساك الأميرة بيلا بمقاليد الحكم، فهي ترفض كل الحلول لهراء لم أسمع به من قبل في حياتي!"

تعمد إهانة فين هذه المرة بدعوته بـ(الصغير)؛ أي الذي لا يفهم شيئًا، لكن هذا لم يزعج فين بقدر انزعاجه من تقليل المستشار من شأن بيلا مجددًا، هم فين بالإجابة لكن بيلا تحدثت قبيل ذلك:

"أيها المستشار أران، من فضلك! نحن لسنا هنا للجدال أو لتحديد من الصائب والمخطئ، نحن هنا لنصل لحل قاطع!"

أجابها أران بازدراء واضح:

"إنك لا تحاولين الوصول لحل، فقط تريدين حفظ صورة زائفة حيالك أنتِ ووالدك! الجواد لا ينصاع لمن يدلله، بل لمن يحكم لجامه، ولا أرى منكِ سوى محاولتكِ المستميتة للتخفي برداء الود الذي بحق لا يبديكِ سوى مترددة ليست على أي استعداد للمخاطرة!"

"أنا لست مترددة!"

لكن قبيل إتمامها لجملتها تدخل المستشار بيسبور بجدية:

"سمو الأميرة بيلا، أيها المستشار أران، من فضلكما! لا نريد انتهاء الاجتماع بخلاف كسابقه! أيها المستشار أران إن الأميرة بيلا تحاول بكل جهدها منذ رحيل سمو الأمير ميستريو، هذا جلي، لكن أيضًا اعذريني يا سمو الأميرة، إن المستشار أران محق بقدر كبير، أنكِ وسمو الأمير فين لا تودان أخذ أي مخاطرات، وهذا مستحيل إن أردت حفظ النظام والأمن لجماعة! ما بالك بحكم مملكة بأكملها؟ لن تحدث نتائج عظيمة دون تضحيات أعظم، ولن تشتعل النار إلا بوجود أخشاب؛ لتكون فتيل الاشتعال لها، وبوجودك في منصب ضخم كهذا، ستجدين مئات الأعداء والمتآمرين الذين يتربصون بكِ، ويسعون لاقتناص أي فرصة أو ثغرة لتدميركِ، وتدمير كل ما بناه والدكِ، ولن يكون الود حينها سلاحًا كافيًا بالنسبة لكِ، آسف لكن إن لم تتصدي لهم بسوط القوة أو بأسلحة مشابهة لأسلحتهم فستخسرين كل شيء في غمضة عين!"

لن يكذب فين، رغم مقته لهذا الرجل، وأساليبه الثعبانية إلا أن حديثه يشتمل على كثير من الصحة، أخذت معالم بيلا

بالتبدل، لكن فين قرر الأمر عند هذا الحد، فاستطرد:

"ولهذا طلبت الاجتماع اليوم أيها المستشار بيسبور".

نظر الجميع نحوه، بينما أكمل ساندًا يده المعطوبة للطاولة بالمنتصف:

"إننا سنختم بهذا الاجتماع المسألة برمتها".

أراد إضافة جملة شبيهة بـ(مع احترامي لحلولكما أيها المستشاران)، لكنه حقًّا لا يحترمهما؛ جملة كتلك لن تكون سوى نوع من النفاق غير الطارئ الآن؛ لذا آثر عدم لفظها، واستأنف:

"لقد قلت لتوك أيها المستشار بيسبور أننا لكي لا نخسر كل شيء بوسعنا استعمال أسلحة مشابهة لهم، وتلك بالفعل كانت إستراتيجيتك حين اقترحت قتل الجنود، والأطفال سابقًا، وإلصاق الجرائم بجماعة خُدام العائد؛ لذا أنا اقترح الآن إستراتيجية مشابهة لكن دون تكبد خسائر".

تساءل المستشار بيسبور ببوادر سخرية: "وكيف ذلك؟"

لم يعبأ فين باستهزاء الأخير وافصح عما بجعبته:

"باستخدام الحجة التي لا يختلف موقف اثنان بالنبذ والكراهية التامة حيالها بهذه الأرض، باستخدام حجة السحر!"

ظهرت قليل من الدهشة على كل من بيسبور وبيلا، وحتى معالم أران تغيرت من الهجوم للتفكير حيال ما قاله فين الذي أكمل بدوره متسائلًا:

"أيها المستشار أران لقد استنتجت في الاجتماع السابق أن ظهور خُدام العائد بهذا الشكل المفاجئ لهو بسبب إهمال الجنوب، وإمكانية انخراط البعض في السفر برحلات غير شرعية من الجنوب للشمال".

لم يجب المستشار، وظل يرمق فين بعيون ضيقة لاستيعاب الصورة الكاملة، وجه فين تساؤله للمستشار بيسبور هذه المرة:

"أخبرني أيها المستشار بيسبور، من يوجد بالجنوب ولديه الإمكانية للتخطيط لكل هذا منذ فترة طويلة دون أن ندري؟ من في الجنوب لطالما كنا بعداء برفقته؟ من بالجنوب سيرى أن حال المملكتين الآن الأنسب لنصب شباكه حوالهما، بل والتوغل لصميمهما ناثرًا عفنه بالأرجاء، حتى إذا حلت نهاية الخلافات برمتها في المملكتين تكون قد حُوصرت بالفعل بحباله من شتى الاتجاهات؟"

هز المستشار أران رأسه بانزعاج متمتمًا:

"ممالك السحر القذرة، كنت واثق.."

انفرجت أسارير المستشار بيسبور، وكأنه صار على علم بما يضمره عقل فين الذي أفصح عنه فور ذلك موجهًا حديثه للمستشار أران بعيون ثابتة؛ كي يشعر من أمامه أن فين سيخترق روحه، كما تم تعليمه يومًا:

"لا داع للقلق أيها المستشار أران، ليس عليك تكبد عناء التفكير بحل لأمرهم؛ فهويتهم وحدها ستكون هي السبيل لبتر

تواجدهم كليًا بأراضينا، بالتروي أحيانا حكمة أيها المستشار".

لم يعبأ فين حقًا باستهزاء المستشار أران السابق حياله، لم يهتم سوى لأمرين: عزم الرجل لفرض حله الديكتاتوري وإهانته لبيلا لرفضها لذلك، وحين يكون للأمر علاقة بها أو بأي شخص يكترث فين لأمره لن يعود لدور الشخص العاجز مكتوف الأيادي مجددًا، اقترب المستشار أران من فين ناظرًا نحوه بتعال:

"هل ستعطيني نصائح بالحياة الآن يا الفتى؟"

أخذت خاطرة تتردد ببال فين:

"لا تشيح بنظرك، لا ترمش؛ حتى يشعر من أمامك أنك تستطيع سحقهم بنظرة عيونك فحسب"

أجاب محاكيًا هيئة الملامح تلك:

"كلا، أيها المستشار لكن يبدو أنك سهوت عن تلك النصيحة بالتحديد؛ فأردت تذكيرك بها لتعلم لماذا آثرتها سمو الأميرة بيلا".

استمر المستشار أران بالنظر لفين بتعال، ويقسم الأخير أن لولا مكانته كأمير لربما أذاه المستشار حقًا، لكن ليحاول إنه ليس بذاك الغباء، أكمل فين وهو لازال ينظر للمستشار بنظراته السابقة: "كل ما علينا فعله لإفناء تلك الجماعة للأبد هو نشر حقيقتهم -سحرة أتوا من ممالك السحر ليخربوا المملكة-"

أومأ المستشار بيسبور ضاحكا: "سينتشر ذلك كالنار

بالهشيم".

نظر الجميع نحوه، وتنفس فين الصعداء شاعرًا أنه أزاح من على كاهله الهيئة التي رسمها منذ ثوان على وجهه لانقطاع التواصل البصري بينه وبين المستشار أران أخيرًا.

استأنف المستشار بيسبور مصفقًا لفين:

"استنتاج مذهل أيها الأمير! أتدري ما سيجعله أعظم وسيكون الشوكة التي تقضم ظهرهم كليًا؟! ادعاء أن العائد الذين ينادون بظهوره ليس سوى الطفل الذي تتنبأ المرايا بأنه سيفني شعبنا يومًا، وأنهم يريدون إعادة السحر وتدمير أرضنا بالاستعانة بذلك الطفل الهجين! وبظهور أميرة هجينة مؤخرًا ستنقلب الأمور تماما لصالحنا!"

صُعق فين لكيفية انقلاب الأمر بإقحام أخته بذلك الشأن، لم يكد يفصح عن ذلك حتى سمع المستشار بيسبور يكمل:

"أتعلم إن أوجدنا نحن مختار خاص بنا، وأشعنا أنه سيكون المخلص من جماعة خُدام العائد السحرة، ومختارهم الذي عاد ليلعن الأرض، لن نمتلك دعم الشعب فحسب، بل سنمتلك طائفة مؤمنة بالمختار الخاص بنا؛ لنحركهم كالدمى بكامل إرادتهم في أي اتجاه نبتغيه!"

هز فين رأسه باستنكار ونظر نحو بيلا؛ ليرى رد فعلها على كل ذلك، فلم ير سوى التأمل التام لأحد أركان الطاولة، أهي حقًا تفكر بذلك الحل ولا ترفضه فورًا؟!

لم يصدق ما يراه، اقترب المستشار بيسبور، وبدا أنه انتبه

لملامح فين فتحدث:

"بالطبع يا سمو الأمير لن نحول ذلك لخطب شخصي؛ فنحن لن نؤذي سمو الأميرة أختك بأي شكل، سنستخدم الأمر كإشاعة فقط لتدمير خُدام العائد".

لن يؤذوها؟! كيف وهم يلصقون تهمة كتلك بها؟ ألا يكفي كراهية الشعب بالفعل حيالها، ومحاولة قتلها واغتيالها التي كانت الدافع الأساسي له لخوض رحلته لوادي الأسود من الأساس لإيجاد حل لها؟!

هم بشرح كل ذلك، لكن المستشار بيسبور ختم حديثه ضاغطًا على كلماته:

"وكما قلت سابقًا يا سمو الأمير: كل الحلول الأخرى تتضمن قتل أبرياء، فأيهما أقل وطأة بمنظورك: إلصاق إشاعة بشخص ما.. لن تلبث بعض الوقت حتى تزول؟ أم التكبد في وفيات لأشخاص لا ذنب لهم؟"

***

على مدار الأيام التالية لم ير فين سوى المشهد ذاته بكل خطب بيلا بأرجاء العاصمة، دومًا تقف وسط الحشود بالشوارع ذات الأرصفة الصخرية والمنازل متباينة الأحجام، بالأزقة ذات الأرض غير المستوية التي تغرقها برك الوحل، وتنتشر بها البيوت المتلاصقة، بالميادين الواسعة المزينة بالأشجار المقلمة والشرائط الصفراء وفسقيات الماء الفآخرة.

باختلاف الأماكن والأوقات كانت الفتاة نفسها بفساتينها

Page ٤٥١ / ٢٥٣ [7] بيلا

البراقة، جديلتها مصففة على الدوام ببراعة، بينما تتخلل بعض الكريستلات الصفراء خصلاتها، دوما بدا التأثر بملامحها الساحرة، في كل مرة أتقنت نبرات الصوت المناسبة لكل جملة، وكل استنكار وكل تساؤل، وكل مرة أنهت خطبتها بما شطر فؤاده إربًا، وهو حتى لا يدر من منهما المحق؟ هل هي حقًّا معذورة وهذا هو الحل الوحيد؟! هل هو حقًّا جدير بالمعاونة بالحكم إن كان غير قادر على تنحية مشاعره جانبًا؟ لكن هذا كله غير مهم، فالعائلة هي الأهم من أي شيء، وهذا يعني أن أختيه يحلان في المقام الأول.

رآها هذه المرة تنتصف ميدان العازفين، سُمي بهذا؛ لأنه المقر الأكبر لاجتماع العازفين من كافة أنحاء البلاد بتوقيت محدد وهو هذه الأيام، وقد استغلت بيلا ذلك لإدراج عمل مسرحي بعد خطبتها الكاملة يوضح حقيقة جماعة خُدام العائد، وما يحاولون اقترافه بحق المملكتين، صعدت بيلا درجات المنصة التي شُيد بجوارها الديكور الخاص بالمسرحية، لكن الستار لم يُفتح بعد، فور صعودها انهمرت كافة تعبيرات الحب والامتنان الخالصين لها من الحشود؛ فهي محبوبة المملكة الشرقية، نظر فين نحوها، وهو يجلس في الدرجات الأولى برفقة كل من المستشار أران وبيسبور يجاورهم عدد ضئيل من النبلاء رفيعي الشأن للغاية، بينما يحاوطهم الحراس لحمايتهم، في درجات أبعد جلس الأهم فالأقل أهمية، من شدة الازدحام وقف الكثيرون، كان أغلبهم من العامة بالطبع، لكن بيلا حرصت أن يجلس قدرًا لا بأس به من العامة كذلك؛ كي تظهر مراعاتها لكافة طبقات الشعب، شرعت بيلا بالتحدث:

"يا شعب النصف الشمالي من أثرا العظيم، أبناء موحدنا (كوراخي) وبانية حضارتنا (ثنسيا)، شعبنا منذ قديم الأزل تعرض لمآسٍ تزلزل جبالًا: إخوة الظل، لعنة المرايا، المرض الأزرق، نابذي الوحدة، لكن رغم كل ذلك تماسكنا بقوة وبأس أجدادنا التي ورثناها، بعزيمتكم أنتم لحفظ هذه الأرض، أرضنا جميعا من أصغر طفل -لازال جنين برحم والدته- حتى أكبر شيخ عتيد رسم الزمن آثاره على ملامحه، كابدنا من الأهوال ما لم يكابده أي شعب آخر، وحاربنا كل ذلك؛ لتنشرق الشمس أعلى جبل المرايا ليوم آخر. كل أم خسرت طفلها جراء المرض الأزرق، كل فتى وفتاة أُجبروا على الافتراق عن عائلاتهم وخوض حياة غريبة لما يقارب العقدين، كل تلك التضحيات ليست هباء، إنها لن تُنسى، لأنها هي من صنعتنا! أتعلمون ما أنتم؟! أنتم ناجون، أنتم محاربون!"

بدا العزم الشديد، والتأثر بصوتها أثناء نطقها لماهيتهم التي سرعان ما حولت الحشود لحالة من التأثر والأعين التي تفيض بالدموع، ثم التصفيق الحار لبيلا وذكرها بأروع الألقاب، أكملت بيلا متحاملة على نفسها؛ كي لا تنغمس تماما بتأثرها:

"الحظ لم يكن دومًا حليفنا، طالت الانقسامات مملكتينا مؤخرًا، وعانى الشعب من الهجرة وتزعزع الاستقرار، والعائلة الملكية من الاغتيالات والمؤامرات، لكننا رغم ذلك صمدنا، وواجهنا كل ذلك كالشجرة الشامخة التي لا تهتز أمام أعتى العواصف وذلك لتماسك غصونها وفروعها، ذلك لأننا شعب واحد، كيان واحد! ولن تطولنا الفرقة كما بغى إخوة الظل يومًا،

ممارسو السحر، نابذو الوحدة هؤلاء، الذين لا يتوانى أتباعهم حتى اليوم عن محاولة هدم كل ما بناه (كوارخي) و(ثنسيا) ونسلهم من بعدهم؛ لذا أنا أؤكد اليوم على حقيقة هؤلاء الملقبين بـ(خُدام العائد)، هؤلاء السحرة الذي أتوا من ممالك السحر؛ كي يستغلوا ما تكابده المملكتين ليتسللوا لصفوفنا ويحاولوا تفريقنا، مناديين بالمختار الخاص بهم إثر معرفتهم لإظهار المرايا لروح أحد الأطفال أنها هجينة، جاؤوا لينادوا بظهور قائدهم الهجين؛ كي يثأروا بمعاونته لإخوة الظل، كي يستخدموا سحرهم ليبيدونا جميعًا، لم يكفيهم ما حل بنا من لعنة المرايا! والآن عاد خلفاء إخوة الظل متمثلين بتلك الجماعة؛ ليدمروا أرضنا ويحيلوا زرعها خرابًا، ليقتلوا أطفالنا ويسبوا نساءنا! لكننا لن نسمح لهم بفعل ذلك! ومهما حاولوا تدمير عزمنا، أو تدبير المكائد لنا أو التسلل كالجراد لأرضينا، لن نسمح لهم بتفرقينا! سنطردهم ونعيد المجد لبلادنا، كما فعلنا يومًا بعزم (كوارخي) ومباركة (ثنسيا)! لأننا شعب واحد! كيان واحد!"

تزلزل الميدان كله بالهتافات والصراخ المحيي لبيلا، والتوعد لإخوة الظل واتباعهم من الخونة والزنادقة، نزلت بيلا من على المنصة والتأثر بدا على معالمها، بينما الجمهور لازال يحيها بشدة، توقف ذلك حينما بدأ العازفون كلها بضرب طبولهم وأوتارهم بعزم تتخلله انسيابية شديدة، أضافت أصوات الأبواق حماسة للسمفونية الحزينة التي بدأ بها عازفوا القيتارات، لكن سرعان ما اندمج ذلك كله مكونًا ما يشبه لوحة من الألوان التي تبدو غير متناسقة في البداية لكن بمجرد الانغماس

Page ٤٥١ / ٢٥٦ [7] بيلا

بتفاصيلها تسحبك لعالم آخر كليًا، كصحن لم تعهده بحياتك لكن بمجرد ملامسة لسانك له تتساءل عن الكيفية التي اجتمعت بها تلك المكونات المختلفة لتخلق تحفة فنية لن يختلف اثنان من الذواقة حيالها، استمر العزف الذي أشعل الوهج بأفئدة الموجودين لحد الذروة، حينها فحسب انزاح الستار ليكشف عن بدأ المسرحية، وقف بعض الملثمين أمام مراية كبيرة الحجم مشابهة في تصميمها للمرايا العظيمة، أخذ هؤلاء الملثمون يتحاورون بحديث ينم عن كيف أنهم اندسوا من بلاد أخرى لهذا المكان، كيف أنهم ليسوا سوى البداية لتنظيم بأكمله يريد إحالة هذه الأرض خرابًا، ونشر السحر والأوبئة بها، وإحياء المسوخ الذين لا يجرؤ أحدًا على نطق أسمائهم، ولكن هذا جلُّه لن يتم إلا بظهور من تنبأت المرايا بقدرته على إفناء هذه البلاد وعرقها بأسره، فجأة اختفى هؤلاء القوم لتحت الأرض، وأخذت الأدخنة تتصاعد بالأرجاء، بينما ظهر مجموعة من الأطفال أمام تلك المراية وأخذوا يلمسونها تباعًا، ثم يسيرون مبتعدين حتى ظهرت بينهم فتاة بشعر أسود وعيون صفراء وهمت بلمس المرآة، عند ذلك الحد لم يستطع فين متابعة أي شيء وتوقف مبتعدًا، وجد بعض الحراس يتبعونه لتوفير الأمان من الحشود، نظر لمرة أخيرة نحو أحداث المسرحية؛ ليجد الفتاة قد تحولت إحدى عينيها للون الأحمر، لكنها بدت واثقة غير مبالية، مبتسمة بتحد مبالغ به كأنها حظت بنصر ما، على السباب والأصوات الغاضبة نحوها، بينما ظهر الملثمون أنفسهم وأخذوا يباركون نصر ظهور مختارهم وهم يحاوطونها، ويضعون تاج من العقيق

على رأسها، بينما أخذت أساريرها بالانفراج، لم يتذكر فين حينها سوى هيئة أخته يوم العرض على المرايا، لم يتذكر سوى صدمتها والخوف الجلي بعيونها، والبحث عن أي ملاذ حتى تشبثت بنظرتها به، وماذا حل بأخته بعدها.. أين هي الآن وماذا أصابها باللحظة الراهنة؟ هل صارت حقًّا مختارة أم وحيدة تائهة تحاول إيجاد سبيلها لعائلتها عبر دروب تزدحم بمسوخ لن يتوانون لحظة عن قتلها؟! تلك الفتاة بالساحة لا تشبه أخته البتة، إنها بالفعل مسرحية؛ فهي لن تمثل سوى الصورة التي لا بُدَّ، وأن ترتسم بالعقول حتى لهؤلاء الذين عهدوا الحقيقة برمتها، أليس كذلك يا سمو الأميرة بيلا؟!

تساءل شاعرًا بالسخط والخذلان الشديد تلاهما الانكسار التام

لم يمر الكثير من الوقت حتى كان يجلس لتلك الأريكة الصخرية مجددًا بإحدى حدائق القصر متأملًا الشجرة العملاقة التي تبدو كأكثر الأماكن راحة بالوجود، بدأت الغيوم بالتجمع في الأفق تشي باقتراب أمسية أخرى من الأمطار الغزيرة.

ها قد عاد لموضعه كما لو أنه لم يتحرك إنشًا، البارحة يرى أخته وهي توصف بأقبح الألقاب لكونها هجينة ولا يستطيع فعل شيء، واليوم يرى الأمر برمته يتكرر بهيئة مختلفة ولازال لا يستطيع فعل شيء، يذكر كم طلب من بيلا بكل السبل ألا تفعل ذلك، لكنها لم تتوان عن ذكر حجج لا حصر لها لضرورة تلك الشائعات حتى وإن كانت ترفضها، دومًا كانت تعيد الخيار بين استغلال إشاعة كتلك سرعان ما ستُنسى أو ستضطر

لتكبد خسائر بشرية، وأنه هو من بدأ باقتراح السحر برمته، بالطبع ففين لم يكن سوى أداة ما، وبالنهاية لم يشكل أكثر ما رفضه أي أهمية -وهو تعريض أحبته للخطر- فكر بانكسار شديد.

في المرة الأولى الذي سمع بها خطبتها وذكرها للهجين، لم تسعفه قدمه وهم لا شعوريًا بالتوجه نحوها، ونفي ذلك فقط؛ ليجد يد المستشار بيسبور أعلى كتفه، وهو يذكره بالخيار ذاته.

هل بيلا معذورة بما فعلته؟!

تساءل؛ لتسطع الإجابة فورًا بذهنه: حتى إن كانت معذورة فهو ليس كذلك!

شعر بمن يجلس بجواره أعلى تلك الأريكة الحجرية، لكنه لم يهتم لهوية الجالس حتى انسل لأذنه:

"ألم أخبرك أنك لا تعرف بيلا.."

كان ذلك سول، لكن فين ظل يتأمل الشجرة، ثم تساءل سآخرًا:

"تترك بقعتك المفضلة؛ كي تثبت لي انتصارك بمحادثة كلامية فحسب؟"

"كلا، أنا.."

لكن فين قاطعه ببوادر حزن:

"ربما لديها أسبابها الضرورية لفعل ما اقترفته.."

عم الصمت، لكن فجأة كسره سول متسائلًا بذهول شديد:

"ذاك الذي تشعر به نحوها، أهو إعجاب؟ حب؟ لماذا دومًا يحيل الناس لمغيبين؟!"

نظر فين نحو الفتى بعيون واسعة، لكنه لم يجب بل تساءل:

"من أين لك بهذا الكلام؟!"

اتسعت عيون سول فوق اتساعها؛ حتى بدا أنها ستقفز خارجًا، وأحكم قبضتي يديه متحاشيًا نظرات فين، ثم أجاب بتوتر:

"لقد أخبرتني.."

"من؟ بيلا؟!"

"أجل، أخبرتني أنك تحبها وأنك ستفعل أي شيء في سبيل ذلك الحب، وأرتني العديد من قصص الحب التي أحالت أطرافها لدمى بأيدى محبيهم".

بيلا تعلم بشعوره نحوها؟! تعجب فين، لكنه سرعان ما استوعب كم أن هذا جلي بتصرفاته ونظراته، لكن ما الذي تعنيه كلمات سول؟ أهي تستغل حب فين؟! هذا محال!

ظل يرمق سول الذي أخذ بدوره يتأمل الشجرة في الأفق، فشاركه فين ذلك بعد سؤاله بهدوء:

"سول، أخبرني ما تبغيه من كل ما تفوهت به لتوك؟ ما خاتمة هذا الحديث؟"

"عليك بالرحيل! أنت لست آمنًا هنا!"

نظر فين بتعجب للفتى الذي استطرد بدوره سريعًا:

"ذلك الجاسوس الذي أتى برفقتك من وادي الأسود، ما كان اسمه؟"

ساريو؟! تساءل فين.. لكن كيف لسول العلم بكون ساريو جاسوسًا؟!

فلا مخلوق يعرف بذلك سوى فين.. هل بيلا تعلم وأخبرت سول؟! لكن كيف ستمرر أي معلومة بسهولة لأخيها الذي لا ينفك عن ذكر كم المعلومات التي تخبرها به؟! ثم لماذا لم تكن لتخبر فين باكتشافها ذاك، حتى حينما تظاهر فين أمامها بثقته المطلقة بأن ساريو فارس ذا ولاء كبير، ألم تكن لترد أن تحذر فين على الأقل؛ ليأخذ حذره من ذاك الذي تأكدت أنه جاسوس؟! لقد أحكمت حبال الحيرة قبضاتها حول رأسه، استأنف سول: "الجاسوس.. يجب أن ترى شيئًا ما حياله، الليلة بعد العشية لاقني بالممر المقابل لغرفتك".

لم يكد فين يستفسر منه حتى وجد الفتى انكمش بموضعه، وبدت عليه أمارات الوجل، وحين نظر صوبما توجهت عيون الفتى رأى الحارس متفحل الجثة الذي منع الفتى دومًا من السكون للشجرة يقترب منهما، ودون أي كلمة فور وقوفه أمامهما، انصرف سول برفقته، تاركًا فين لجمر أسئلته الذي لا ينضب.

مر الوقت بطيئًا كسلحفاة بأرذل العمر تحاول تحقيق حلم

الشباب بجوب العالم بأكمله، كل ثانية تبدو كدهر كامل، وهو ينتظر ليعرف عما يتحدث الفتى.

ربما هو معتوه فحسب كما أشيع عنه، ربما لم يجدر بفين بالالتفات لحديثه منذ البداية، لكن رغم ذلك هناك أسئلة كثيرة حيال كلمات سول لا بُدَّ لفين أن يجد تفسيرًا حيال معرفة بيلا عنها، كما جزم الفتى.

حينما حل الميعاد الذي أخبره به سول، خرج من غرفته وأخذ ينظر عبر الممر، لم يوجد أحد فقد كان التوقيت متآخر نسبيًا، لم يرَ سوى السجاد البني المطرز والمشاعل التي قررت أن تكسر الصمت في حضرة عتمة الليل، وتجليه بقدر ما، لكن رغم ذلك نشر ظلاله وهيبته بالأرجاء، سار فين مستندًا لعكازه للموضع الذي أشار له سول سابقًا، رغم عدم رؤيته له إلا أن صوت المطر فرض تواجده بصداه عبر ثنايا الجدران الصخرية، وقف الفتى متنهدًا، وهو يتلفت يمنة ويسرة من آن لآخر، وقد اعتراه شعور أنه بإحدى قصص الرعب التي كانت تحكيها لهم المربية في الماضي على أضواء الشموع ليلًا.

غاب بأفكاره؛ حتى وجد ظلًا يقترب لتتضح معالم الكيان الممثل له بوقوفه أمام فين تمامًا، وتسائله دون أي مقدمات بعيون وجلة: "إنك تعتقد أني معتوه ولا يجدر بك الانسياق خلف حديثي، أليس كذلك؟!"

هيئة الفتى دومًا أغرب ما يكون، فحتى إن أراد سول إبعاد تهمة الجنون عنه ربما عليه إخفاء مظهره المرتعب أو المندهش هذا طوال الوقت، هز فين رأسه قائلًا:

"هذا غير مهم، فلتريني ما جعلتني انتظر لأجله فحسب".

أشار سول لأحد الاتجاهات؛ ليسير فين متجاهلًا تخلف سول عنه، الذي كسر الصمت فجأة:

"لست مخطئًا باعتقادك حيالي؛ فأنا أبله ذو علة عقلية، لا يمكنك الثقة بأي حرف أقوله".

نظر فين بدهشة للفتى الذي بدأ الحزن بتخلل نظرته الوجلة.

أي أبله سيقول كلامًا مشابهًا؟! إن الأبله بحق هو من يحسب كل الآخرين هم الحمقى، وهو الوحيد الذي يحمل قدرًا من العقل وسطهم.

هناك أمر ما حيال سول، لم يشهده فين من قبل مطلقًا أو ربما لأنه فعليًا لم يختلط هو أو غيره بسول عن قرب مطلقًا، استأنف سول مبررًا، وهو يومئ بعيون واسعة:

"لكن عليك تصديقي؛ لأن بيلا هي من أخبرتني بما على وشك الحدوث؛ وكلمات بيلا لا تخطئ مطلقًا".

أومأ فين متبعًا الفتى، وهو لازال لا يفهم شيئًا، حتى وصلا لباب أحد الغرف، ففتحها سول بهدوء متلصصًا لما يقبع خلفها، ثم دخل فتبعه فين نحو تلك الغرفة التي تشبه أغلب غرف القصر، سجاد فخم، جدران بجداريات بهية، مكتب وبعض قطع الأثاث الفخم، لكن سول سرعان ما اتجه صوب باب آخر موجود بأحد الجدران وفتحه؛ ليرى فين أنه مخزن ما؛ حيث ظهر خلفه رفوفًا تحمل العديد من المخطوطات والكتب

وبعض القوارير بسوائل مجهولة الهوية، أشار سول بهلع لفين بالدخول لذلك المكان الضيق برفقته، رغم حيرة الأخير إلا أنه سار للمخزن ذاك، همس سول بوجل شديد: "أغلق الباب!".

تنهد فين، وقد مل ذلك الهراء لكنه جاراه وأغلق الباب من خلفه، بينما ظلا واقفين لعدة دقائق بلا أي فعل. شعر فين بهم أنه حقًّا غبي لانسياقه خلف الفتى، لكن لم تمر ثوان أخرى حتى صعقهما صوت الباب الأصلي للغرفة يُفتح واستطاعا عبر شق بسيط بأحد أطراف باب المخزن رؤية بيلا، وعلى بُعد خطوات تبعها ساريو بابتسامته السمجة، ثم أغلق الحراس الباب تاركين إياهما بمفردهما، ظل ساريو ينظر بتحد لبيلا التي ولته ظهرها لكنها سرعان ما استدارت متسائلة، وهي تبتسم:

"أصررت على هذا اللقاء للغاية يا ساريو، ما هو سر هذا الإصرار العجيب؟!"

ضحك ساريو سآخرًا:

"سمو الأميرة، نحن شركاء من فترة طويلة، أحقًّا ليس جليًا لما اصررت على هذا اللقاء؟!"

شركاء؟! تساءل فين بصدمة

"لقد حوزت كل ما طلبته يا ساريو، ألازالت تريد المزيد؟!"

هز ساريو رأسه باستنكار:

"هذا كان لقاء تلاعبي بخالاتك والتجسس لصالح والدك،

ربما حتى جلبي للأمير الذي لا أفهم حتى الآن، كيف تركتِ خطاب يدينني يقع بيده بتلك البساطة رغم اتفاقنا المسبق؟"

ماذا؟! هل ما يراه فين، ما يسمعه، ليس أكثر من ضلالات ما؟!

حاولت بيلا تبرئ نفسها:

"أخبرتك من قبل الخطاب الذي ابتزك به فين كان مزيف! أنت فحسب من وقعت بشركه وصدقته!"

"هذا ليس صلب الأمر".

اقترب ساريو من بيلا مكملًا بجدية:

"المغزى هنا أن كل ما سبق من مهمات كان شيئًا، وما عرفته حيال سموك مؤخرًا شيئًا آخر، إنه ليزلزل كيان المملكتين؛ ليهد كل ما سعى له والدك، حين يدركون أن الأميرة بيلا هي من".

قاطعته بيلا بسخط: "ماذا تريد؟"

تساءل بسخريته المعهودة:

"ماذا أريد؟! أوه يا سمو الأميرة، وماذا قد يريد أي شخص؛ ليصمت حيال معلومة كتلك، معلومة إن بعتها لأي شخص سأجنى من خلفها أكوامًا من العملات الذهبية، وليس حتى لشخص غريب".

صمت لوهلة، ثم تساءل مجددًا:

"ربما سأفكر حتى ببيعها لوالدك.. أيعلم بتلك المعلومة يا

سمو الأميرة؟! أيعلم حقًّا بأي شيء تقومين به؟!"

احتدت نظرة بيلا مجيبة: "كل ما أفعله.. أفعله لوالدي".

اتسعت ابتسامة ساريو:

"لكنه لا يعلم أي شيء حيال أفعال سموك تلك.. تُرى أكان سيقبلها؟!"

"ماذا تريد؟!"

"وماذا قد يريد شخص مثلي خسر منصبًا مهمًا لدى المرأة التي صارت ملكة؛ لأن خطتك لجلب ابنها تطلبت التضحية بي".

استأنف ساريو باستياء:

"أخبريني يا سمو الأميرة، كيف صار شعورك إن أخسرك شخص منصبك، وكل ما تملكين فقط؛ ليخدع آخر بخوض طريق ما بكامل إرادته".

أكمل ساريو متحدثًا بأسلوب مشابه لأسلوب بيلا:

"فين، لننقذ أختك.. فين، أعرف كتاب ما سيساعدك.. آوه صحيح ذلك الكتاب لا يتكلم عن شيء سوى وادي الأسود الذي يوجد -بالمصادفة الشديدة- بالمملكة الشرقية.. فين، مساعد عمتي جاسوس، عليك بفضحه أو من يدري يا فين ربما يقودك تفكيرك لاستغلال الجاسوس؛ ليوصلك لضالتك التي وجهت "(أنا الأميرة بيلا) تفكيرك لها منذ البداية"

ثم عاد لأسلوبه العادي مستأنفًا:

"أخت فين الملعونة، مكان للقضاء على اللعنة، بطل مغوار، لكنه يحتاج مساعدة برحلته، وخائن.. يا لها من لوحة فنية لم تفعلي شيئًا سوى أنك سلمتِ كل عناصرها لابن عمتك الذي انساق خلفها كالأبله!"

صفق ساريو بحرارة، وبعيونه ظهر السخط رغم ابتسامته، كل ذلك الوقت شعر فين أنه يراقب مسرحية أخرى ليس فإلا، كل ما بها ليس سوى ممثل يهذي بالكلام.. لكن.. هل..

لم يستطع حتى ربط جملة واحدة بعقله، شعر فحسب أن جبلًا جليديًا انهار فوق رأسه، جبلًا ذا حواف ثلجية حادة كالسكين تشطر حتى أدنى أجزاء جسده، فجأة تحول لأشلاء متناثرة أرضًا تحيل الأرضية لبحيرات من الدماء.. رغم ذلك لازالت الحياة تضوي داخله بنور لا يكاد يُرى، حياة لا هدف لها سوى جعله يستمر برؤية تلك المسرحية الهزلية التي لا تبعث أي نوع من الضحك، فقط تزيد سحقها لأشلائه المبعثرة بالفعل، يا لها من مسرحية سخيفة..

أكمل ساريو بسخط شديد:

"ثم تخبريني: يا ساريو افقد كل ما تملك، ودع طفل يبتزك، وبعد أن كنت معاونًا للأميرة دورسيرا التي يكاد المرء يحلم بنيل رضاها فحسب.. تحول لخائن سيرغب الجميع بقتله.. كلا يا سمو الأميرة بيلا! ما أريده ليس بضعة عملات أو حتى ترقية عديمة القيمة.. أريد أن أصير سيدًا لإحدى مدن الساحل!"

فغرت بيلا فاهها: "ماذا؟!"

"ماذا سموك؟! أليس ذلك مناسبًا لمقامي؛ أن أصير سيدًا، ولي قصر وخدم وزوجة من بنات النبلاء؟ أتعلمين.. أنتم أطفال الآمراء وُلدتم؛ لتجدوا كل شيء -قد يحلم به المرء يومًا- دون طلبه حتى، لكن أمثالي مهما شقوا دربهم لن يحظوا سوى بنظرة الاحتقار التي أقسم أنها تحت ظرف آخر لارتسمت على وجهك إثر سماع طلبي. لكنني أدركت الأحجية أيها الأميرة، أمثالي لن يصلوا مطلقًا بشق طريقهم والاجتهاد، لن يصلوا سوى بالتسلق على مناصب جلالتكم، بالمداهنة، والأعظم من ذلك جله: بالفضائح".

ختم ساريو حديثه باقترابه من أذن بيلا، كما لو أنه يهمس بها رغم أن صوته كان مسموعًا، ظلت بيلا تنظر بصمت نحو ساريو، وتدريجيًا ارتسمت ابتسامة على وجهها، فسمع فين صوتًا مكتومًا ينم عن الخوف يصدر من سول الواقف لجواره.

تحدثت بيلا:

"أنك محق يا ساريو، لطالما كنت خير المعاون، إنها لقسوة مني عدم تنصيبك سيد من قبل".

رمقها ساريو ببعض الشك، لكنها سرعان ما علقت حيال ذلك:

"أدرك ما يراودك الآن من مشاعر الحيرة، لكنك تستحق، لأجل كل ما فعلته لأجلي وولائك لي".

اقتربت منه بيلا، وأمسكت بيده ورفعتها نحوها وربتت

أعلاها خاتمة حديثها:

"فلتطلب من الحراس استدعاء المستشار بيسبور من فضلك، ولتبلغه بإحضار وثائق مدينة آشين".

نفذ ساريو الأمر وعاد بعد ذلك، وبدا الحياد على أساريره، وابتلع جوفه ناظرًا لبيلا التي أشاحت بوجهها عنه، واستندت للمكتب الخشبي، فأردف:

"سمو الأميرة، أرجو ألا توجد ضغائن بيننا؛ فأنا لم أفعل ذلك سوى لرثائي الشديد لما وصل إليه حالي، وأريدك أن تثقي أنني سأظل بعونك دومًا".

استجمعت بيلا أنفاسها واستدارت ببطء وابتسمت مومئة، لم تمر ثوان حتى طُرق الباب، وسمحت بيلا للطارق بالدخول، فدخل من خلفه المستشار بيسبور، وبحوزته سبعة من الحراس الذين لم يتمهلوا لثانية واحدة حتى كبلوا ساريو الذي لم يكد يستوعب ما يحدث، صاح ساريو:

"ماذا تفعلون؟! أكانت تلك خدعة؟!"

أنهى تساءله ناظرًا بسخط لبيلا التي ظلت صامتة، بينما توجه نحوها المستشار بيسبور مردفًا:

"جئت على الفور كما طلبتِ يا أميرتي".

"أشكرك أيها المستشار بيسبور، فلتنصرف من فضلك".

نفذ المستشار الأمر بعد تبادل النظرات بينها وبين ساريو، فجأة تبدلت نظرات بيلا نحو ساريو لنظرات الاحتقار التي

تحدث عنها من قبل، فابتسم معقبًا:

"حسنًا، أنتِ تفوزين.. لن أجادل بأنني أحظو للقوة كثيرًا، سأعود خادمًا ألعق الأحذية مجددًا".

سادت الدهشة وجه بيلا مجيبة:

"ساريو.. لقد قلتها بنفسك، أنت تعلم كل شيء حيالي، حتى ما لا يعلمه والدي".

صارت ملامح بيلا أكثر هدوءًا الآن، بينما سادت الدهشة أسارير ساريو تلاها الهلع:

"سمو الأميرة، لا تتسرعي! لن تجدي خادمًا مخلصًا مثلي مهما جوبتِ البلاد فإنني لأفعل أي شيء لأجلك!"

اقتربت بيلا بتأثر من ساريو، وضمت وجنتيه بين كفيها برقة متحدثة بصدمة:

"ساريو، أحقًا تحسب أن مقدارك لدي هو "خادم"؟! أنت أكثر قيمة من ذلك، لقد كنت يديّ، عينيّ، أذنيَّ.. أتحسب أن ما أوشك على خوضه سهل بالنسبة لي؟! إنني أتمزق إربًا بالتفكير في الخاطرة فحسب".

ظهر الخوف جليًا بعيون ساريو، بينما ابتعدت بيلا وقد أوشكت على البكاء، ولكنها أستأنفت حديثها مسترجعة ذكرى ما:

"في يوم ما قمت بنفس الفعل الذي اقترفته أنت الآن يا ساريو، زهوت بذاتي لتفوقي على منافسي وتغلبي عليه

بمناقشة كلامية، حسبت والدي سيكون سعيدًا لذلك، لكنه أخبرني أن ما فعلته هو ما سيدمرني تمامًا لاحقًا، وأنني فعليًا لم أتفوق سوى بالحصول على نشوة لحظية".

اتسعت عيناي ساريو، وهز رأسه مبديًا أشد إمارات الندم:

"سموك، أنا آسف! لقد كانت غلطة، غلطة سأكرس حياتي بأكملها للتكفير عنها!"

هزت بيلا رأسها، وبدأت دموعها تنساب، حاولت مسحها منتحبة:

"أنا من أسف يا ساريو، لكن لا بُدَّ من ذلك، إنه ليس لأجلي، لو كان كذلك لغفرت عنك على الفور، إنه لأجل والدي!"

بدأ ساريو ينتحب بنفسه، وهو يردد جملًا بسرعة بطريقة غير منسقة:

"أتوسل لك سموك، لقد فعلت كل شيء لأجلك.. تجسست على أميرتي دورسيرا! أخبرتكِ برحلة العالِم ران لمقر الحالمين! وكلت قاتلًا من جماعة الزهرة الدامية لقتله! خسرت منصبي! أحضرت ابن عمتكِ حتى أراضيك! أتوسل لكِ لا تفعلي ذلك!"

هزت رأسها خافضة وجهها أرضًا مغمضة لعيونها، ثم فتحتهما ومن بين دموعها أشارت للحارس الذي استل خنجره موجهًا إياه صوب عنق ساريو.

"بيلا، أرجوكِ".

لم يكمل ساريو توسله حتى كانت عنقه قد نُحرت بالفعل،

آخذةً بطرش دمائها، بينما أصدر صوت حشرجة وهو يخر أرضًا صريعًا في دمائه إثر ترك الحراس له، ونظراته لم تهتز عن بيلا التي تأملته بهدوء..هذا كابوس!

تكررت خاطرة فين لكنه لم يهم بالتفكير بأي شيء آخر حتى سمع صوت ارتطام من خلفه تسبب بسقوط قارورة أرضًا وتهشم زجاجها، نظر صوب الصوت فوجد سول هو المتسبب بذلك دون عمد لذعره الشديد، لكن لم تمر ثوان حتى فُتح الباب المخفي لهما على مصرعيه بفعل أحد الحراس.

***

[8]

انهيار

جالسة بموضعها أخذت تستمع لتلك القصة التي دامت لدقائق طوال، تسرد بها جاسوسة لإنستازيا تفاصيل الواقعة التي فضحت بها سيلين نايلس بأحد الليالي بالقصر ساردة، كيف أنه هو من قتل والده وأخاه، بعد الكثير من التفاصيل عديمة القيمة قاطع بودير الجاسوسة:

"أهناك أي إضافة مفيدة ستدلين بها؟ أم أنها تفاصيل أخرى لا قيمة لها كأغلب قصتك تلك".

رغم تذبذب دورسيرا من الخبر حتى الآن، ومن هروب نايلس وما قد يترتب عليه بعدم عودة كيرا إلا أنها بالفعل لم تحتمل كمية التفاصيل التي ذكرتها تلك الجاسوسة بقصتها لذلك أردفت:

"أتفق، كان بمقدورك اختصار القصة برمتها لجملتين فحسب، ولا تصدعي رؤوسنا".

كانت دورسيرا تجلس بغرفة الاجتماعات الآن بالمقعد المجاور لمقعد الملك الذي صار يجلس بودير الآن أعلاه.. منذ بضعة شهور فحسب، كان دومين هو من يجلس أعلاه.. دومين الذي رأى أنها خانته، ثم قُتل دون أن تدر هوية القاتل، لكم من أشياء جسيمة قد تتغير في غضون أيام.

فالبارحة جلست لجوار أخيها، والآن تجلس لجوار الذي قد

يحمل هوية قاتله.. يا لا السخرية!

فكرت ناظرة للجاسوسة الواقفة لجوار إنستازيا الجالسة أمامهما تعلو وجهها ابتسامة سخرية واسعة لا تفارقها مطلقًا.. لا تدري دورسيرا سببها حقًّا، ولم تحمل حتى وقتًا للحنق؛ فهي حتى الآن لا تزال لا تصدق.. أن نايلس الذي أودعت به قليل من ثقتها ببعث ابنتها برفقته هو قاتل أبيهم، بل وأخيهم رانل.. شطرت تلك الخاطرة قلبها لنصفين، رغم كل شيء تصدق به، رغم تأكدها بعدم إمكانية الثقة بمن لُقبوا بإخوتها؛ ظل هناك جزء ضئيل يأمل فحسب أن تكون مخطئة ولو مقدار ذرة تجاه نواياهم، لكن كل مدى يتضح لها أنهم ليسوا فحسب كما حسبت، بل أبشع من ذلك؛ دومين الذي لا مشكلة لديه بنفي ابنتها وبخلق عداوة برفقة جوزيف سابقًا فقط؛ ليحوز زوجته، ميستريو الذي خدع ابنها فين لاستغلاله ضدها والتلاعب به كالدمية؛ ليرسل ابنها لها خطابه السابق الذي بعث الكثير من الحزن لفؤادها، والآن نايلس الذي ظنت أنه الوحيد الذي لم يطله دنس الشيطان لكن اتضح أنه قتل أبيها وأخيها رانل الذي لو ظل حي لما طالتهم كل تلك المصائب، رانل الذي شكت كل تلك السنوات أن قاتله هو ميستريو.. لكنها ليست مخطئة فربما تآمرا معًا لقتل أخيها!

لم تستغرق أفكار دورسيرا ثوان كانت إنستازيا أجابت فيهم:

"آووه، يا لا بلاهتي.. نسيت إخبار جاسوستي العزيزة اختصار قصتها لجملة واحدة لأنكما تملان سريعًا، ولا تعشقان الاستماع للمهزلة مفصلة مثلي".

صاح بودير بالحراس ليأتوا، ثم آمرهم:

"خذوا تلك الجاسوسة للزنازين، احرصوا على محاكمتها لكن لا تفصلوا رأسها عن جسدها حتى تشهد بكلامها كله عن نايلس في تجمع أمام الشعب!"

ظهر الرعب على أسارير الجاسوسة، بينما تلاشت ابتسامة إنستازيا قليلًا، ولن تكذب دورسيرا ذُهلت من قرار بودير الشديد هذا، نظرت الجاسوسة بهلع نحو إنستازيا، بينما الحراس على وشك اقتيادها لرحلتها الدموية مردفة باستغاثة: "أميرتي؟!"

لكن البسمة سرعان ما عادت لإنستازيا، ورفعت كفيها بقلة حيلة معقبة:

"ملكنا شديد بقرارته يا عزيزتي، وماذا عساي أنا أن أفعل؟"

أخذت الشابة تُجذب للخارج، وهي تردد: "أميرتي، أرجوكِ، افعلي شيئًا!"

لكن إنستازيا لوحت بيدها للشابة بملل دون حتى النظر لها قائلة:

"وادعًا يا عزيزتي، لقد كان وقتًا سعيدًا برفقتكِ".

وبمجرد خروج الشابة من الغرفة، وغلق الباب زفرت إنستازيا متمتمة:

"يا الهي، ألا يمكنها الموت بهدوء؟!"

ثم ابتسمت نحو دورسيرا وبودير مضيفة:

"جميعهم مزعجون! ألا تتفق يا جلالة الملك؟!"

من تلك التي تراها دورسيرا أمامها؟! أيعقل أن تلك هي نفسها التي ربتها دورسيرا يومًا أم أنها ليست سوى روحين مختلفتين سكنتا الجسد ذاته؟!

ظل بودير ينظر بصمت لإنستازيا، ثم تحدث بجدية:

"ستدلين بكل ما تعرفينه حيال أخيك وخططه، مستشاريه، أعوانه، الجنود الذين بحوزته، والجيش الذي جلبه من القارة المتجمدة!"

رفعت إنستازيا كفيها متصنعة البراءة:

"لقد أخبرتكما كل شيء بالفعل، ولم تصدقاني حتى جلبت جاسوستي تلك لتدلي بالوقائع بنفسها"، ثم أكملت

بابتسامة واسعة:

"ثم أحسب أنك على اطلاع مسبق عن كل هذا جلالتك، وإلا كيف تأكدت أنك ستستطيع النجاح بخطتك سابقًا لإقصاء دومين عن الملك بتلك السهولة؟"

أيتها الحمقاء.. خطر ببال دورسيرا أن بودير لن يحتمل انعدام تأدب إنستازيا هذا كثيرًا.

أكمل بودير متجاهلًا حديثها:

"ستفعلين ذلك وستدلين بكل شيء تخفينه! وإلا اعتبري نفسك ستفقدين رأسكِ كأخيك تمامًا!"

صُعقت دورسيرا ولم تدر كليًا لما.. ربما أرادت التأكد أولًا من أن نايلس هو المتسبب بالجرائم التي أدان بها، رغم أن بصميمها يتردد صوت يؤكد لها ذلك بكل يقين، لكن تلك مجزرة: أولًا دومين، ثم الآن نايلس، وربما لتعقبه إنستازيا. إن تنصيب بودير ملكًا لم يحقق لها أيًّا من أهدافها! لم يعد كيرا، بل والأعتى أن فين كذلك رحل وصار بحوذة ميستريو، والآن ينوي ذبح إخوتها الواحد تلو الآخر؟!

"الأكبر فمن يليه.. فمن يليه، لن ينتهى الأمر حتى تمتلئ الأراضي بأنهار من الدماء، لن ينتهى الأمر حتى تتحول النفوس النبيلة لجثث ملقاة على ضفاف تلك الأنهار، لن ينتهى الأمر حتى ترتجف الأرواح المتبقية رعبًا من حضرة الموت الجاثم".

ترددت تلك الجملة ببالها، وخطر لها أن كل ما تفعله لمنع تلك الأحداث لا يؤدي لشيء سوى لإثباتها، قاطعت دورسيرا كل ذلك العبث بصوت جامد:

"كلا!"

نظر نحوها كل من بودير بنظراته الجدية، وإنستازيا بملامحها الساخرة؛ لتكمل نحو بودير:

"من المحال الاستناد لحديث امرأة نحن نعلم ببساطة أنها جاسوسة ستفعل أو ستقول أي شيء لخدمة سيدتها!"

قهقهت إنستازيا معقبة:

"أجل لقد رشوت الفتاة؛ لتدلي بهذا الحديث، لقد ضبطوني

متلبسة بالجرم".

ثم رفعت يديها بدرامية متظاهرة بالاستسلام.

لم ترد دورسيرا قلب الطاولة في مواجهة أختها، لكنها علمت ما يدور ببال بودير الآن خلف نظراته الجامدة تلك، إنه يدري جيدًا ما تحاول الوصول إليه وحماية إخوتها، وتأكيد تلك الفكرة بباله لن يؤدي لشيء سوى إقرار أنها من حاولت تهريب دومين سابقًا، الأمر الذي يشك به بودير بالفعل، وبالتالي عدم قدرته على الثقة بها وضرب كل أهدافها عرض الحائط، لذلك عليها نفي أفكاره تلك! إن أرادت الحفاظ على إنستازيا ونايلس حتى تنظر لعيونه، وتتأكد أنه من قتل رانل وأباها، ثم تبصق بوجهه، وتدرك حينها إن كان القتل أنسب له أم العذاب الأبدي، أخفت دورسيرا مشاعرها، وارتدت قناع البرود ناظرة لإنستازيا، وتحدثت:

"منذ أن أتيت يا إنستازيا، وأنتِ لا تفعلين شيئًا سوى العبث والسخرية، أخبريني لما يجدر بنا أخذ كلامكِ حتى على محمل الجد إذا كنتِ أنتِ لا تستطيعين أن تكوني جادة بجملة واحدة تدلين بها؟!"

رفعت إنستازيا إحدى حاجبيها وهزت كتفيها بمعنى "أيًا يكن" مستطردة بدهشة شديدة لعدم علمهم الإجابة:

"هذا لأنكم مملين يا أختاه.. أتحسبين أن هذا المظهر القاسي الذي تتصنعيه سيُخفي هويتك، ويعطيكِ القوة والهيبة؟!"

قهقهت إنستازيا مكملة:

"أنا لم اتصنع أبدًا تلك الهيئة ومعاونيني يتضرعون بنهاية كل يوم؛ كي لا أحولهم لجثث متعفنة بحلول اليوم التالي، ورغم ذلك لا يفكرون البتة بمخالفتي أو التآمر من خلف ظهري، وها أنا مبتسمة مشرقة".

ضحكت إنستازيا مظهرة أسنانها، ونظرت لبودير متسائلة بقلة حياء:

"هل جلالتك رأيت سابقًا ضحكة أكثر إثارة من تلك؟!"

شبكت دورسيرا أصابعها، وأجابت دون ترك مجال لحديث أي شخص سواها:

"إذن أخبريني لماذا أتيت تطلبين التحالف برفقتنا؟! إن كنتِ تملكين المعاونين، السلطة والقوة، لم أنتِ موجودة هنا الآن تستجدين الملك ليتعطف ويفكر بإقامة تحالفه معكِ أنتِ؟!"

كادت إنستازيا تجيب، لكن دورسيرا قاطعتها متسائلة بحدة:

"وبأي شيء ستفيدنا؟ وماذا تملكين حتى؟! سوى حفنة معاونين ليس لديكِ أي مشكلة بالتخلي عنهم؛ كي تبقين بمفردك بالنهاية بدون أي نفوذ، ربما بعض الفضائح غير المؤكدة كذلك لتجذبي اهتمامنا بها؟ دون هذا.. ماذا بحوزتك؟! هل لديكِ جيش كنايلس؟ هل لديكِ أراض؟! هل لديكِ شبكة معلومات؟!"

صمتت دورسيرا لثواني، لكنها مجددًا قاطعت إجابة إنستازيا

التي حاولت الحفاظ على ملامحها المعتادة، لكن دورسيرا الآن ستكسر تلك الملامح، وتلك الرعناء كليًا:

"كلا، أنتِ لا تملكين شيئًا! ليس سوى لقب واهٍ لا تملكين من خلفه أي شيء؛ فقد أصدر والدنا قبيل وفاته فرمانًا ينص بالمنع التام لحوزتك أي شيء!"

ظلت ملامح إنستازيا، كما هي بابتسامتها، لكن خلف عيونها ظهرت نيران تشتعل، رأتها دورسيرا جيدة وعلمت أنها ستبلغ ذروة بطش أختها تمامًا، الآن وهي تقترب بجذعها قليلًا من الطاولة خاتمة بنبرة أشبه بسهام من الجليد المصقول:

"أنتِ لا شيء! ليس بدون حمايتنا لكِ! علمتِ ذلك جيدًا؛ لذلك جئت تعرضين هذا التحالف السخيف متوقعة أن نصغي لكِ، وبدون دليل حقيقي لنخسر أهم حليف لنا؟! يا لكِ من جريئة!"

عم الصمت قليلًا، ولمحت دورسيرا بطرف عيونها بودير يرمقها بنظرات لم تفهم كهنها؛ لتظاهرها بتركيز اهتمامها على إنستازيا التي ظلت مبتسمة كما هي، ثم انطلقت بموجة ضحك عاتية:

"وماذا تقترح ملكتنا المبجلة لتصدق الفضائح التي جئت أستجدي بها عطف جلالتكم؟"

جاوبت دورسيرا بكلمة واحدة: "أدريان.."

"عفوًا؟!"

"لقد سردت جاسوستك تلك بقصتها أن الأمير أدريان شهد ذلك الحدث الذي تفوهت فيه سيلين بما يدين نايلس، وأدريان أمير؛ لذا فشهادته ستكون محل ثقة، وليس كشهادة جاسوستك!"

ترددت ضحكات إنستازيا متمتمة:

"الطبقية في أوج اشتعالها"، ثم تحدثت بصوت مسموع:

"إن كان الأمر خاص بكونه أمير، فيؤسفني سرد الأخبار السيئة: فهو لم يعد كذلك، سيلين سحبت منه هذا اللقب، احذروا لماذا؟ ألا؛ لأنه قتل شخصًا ما؟ نهب أرضًا ما؟ اعتدى على فتاة ما؟"

رددت سؤالها الأخير ناظرة لبودير بطرف عينها سآخرة من الإثم الذي اقترفه، وتسبب بمقاطعة جوزيف له سابقًا، ثم أجابت على سؤالها باستهزاء جديد:

"كلا؛ لأنه حاول مساعدة ابنتك الهجينة!"

سخطت دورسيرا لذكر ابنتها بذلك الشكل المشين، لكن أختها أعطتها تماما ما أرادت دون أن تعي، نظرت دورسيرا نحو بودير مفسرة:

"وهذا يؤكد أن الفتى لن يتخذ صف عائلته؛ ليتستر على تلك الجرائم إن كانت حقيقية؛ فهو لن يضمر لهم سوى الحقد".

لم يجب بودير، وظل يرمقها بنظرات جامدة، فأكملت دورسيرا بنبرة محايدة:

"جلالة الملك، إن أردنا استرجاع أراضي المملكتين؛ فعلينا ضمان المملكة الغربية أولًا؛ إنها تحوي آبار الحياة و(ليس الكبرى)؛ حيث كل ما بنيتماه أنت وجوزيف، الأطفال الذين يتدربون لتأسيس كتائب جديدة حين يبلغون السن المناسب تحت إشراف قواد جيشك، كل جهود جوزيف لعلاج المرض الأزرق، علينا المحافظة على ذلك، وأنت تدرك أن أراضي المملكة الغربية بطبيعتها المنبسطة ستسهل شن هجوم على (ليس الكبرى)، بينما الأراضي التي نحوذها في المملكة الشرقية محاطة بأماكن ذات طبيعة جبلية ستصعب شن هجمات عليها، بالإضافة للمشاكل الغارقة بها المملكة الشرقية، خاصة تلك الجماعة الملقبة بخُدام العائد؛ لذلك فحين ننشغل باستعادة المملكة الغربية لن يلتفتوا لنا أو يحاولوا تنفيذ مكيدة ما".

لن تكذب حيال خوفها الجم بشأن فين، لكن في النهاية هو بقصر محاط بحراس، وميستريو ليس غبيًّا كنايلس ليقود فين لمصير مشابه للذي كادت تقتاد تلك القذرة الملقبة بسيلين ابنتها نحوه، بينما كيرا هائمة بمملكة تسعى بأكملها لقتلها، لكن ما طمأن فؤاد دورسيرا قليلًا هو ذلك الخطاب الذي تلقته قريبًا من شخص يدعي أنه أدريان، وأنه استطاع تهريب كيرا وإخفائها لدى عائلة من العامة دون العلم بهويتها، لكنه يطلب التحالف معهم والانضمام للجيش الخاص ببودير، وحتى تفيق كيرا -مما لم يُذكر حقًّا كهنه- ينتظر إجابة من دورسيرا؛ لذلك على دورسيرا الحرص قدر المستطاع على تجنب تفاقم الأمور -التي قد وصلت لذروتها بالفعل منذ بطش بودير بنايلس-

لحرب، لكن لا بُدَّ أن تعود كيرا أولًا سالمة!

بدا التفكير على ملامح بودير، ثم أمر أحد الحراس بجلب الرسولين اللذين سرعان ما حضرا؛ ليملي عليهما بودير:

"سترحلان نحو المملكة الغربية، وستبلغان نايلس رسالة مفادها: "إما أن يأتي منكس الرأس معلنًا تنازله عن كل ما يملك؛ حتى يتم إصدار حكم في الجرائم الموجهة نحوه، ويدلي ابنه أدريان بشهادته أو يحفر قبره بيده من الآن!"

أومأ الرسولان، وانحنيا، فأشار لهما بودير بالانصراف، فنظرت نحوهما إنستازيا، وسادت على وجهها نظرة عدم رضا، ثم تساءلت: "وكيف ستحصلان على الفتى ليدلي بشهادته؟!"

أجاب بودير الذي علم بشأن خطاب أدريان لدورسيرا مسبقًا:

"هذا ليس من شأنك، التزمي حدودك في هذا المكان، وربما لن أسجنك أو أسوء".

ثم وقف بودير؛ لينصرف فوقفت دورسيرا بدورها احترامًا لمكانته، ونظرت لإنستازيا التي أبدت الملل، ثم وقفت هي الأخرى، توجه بودير نحو الباب وتبعته دورسيرا، لكنه استدار قبيل الخروج مردفًا لدورسيرا:

"امسكي لجام المخبولة؛ فصبري على وشك النفاذ".

أومأت له، ثم انصرف وبقيت هي متنهدة، ثم استدارت؛ لتجد إنستازيا قد جلست مجددًا، فتوجهت دورسيرا نحوها مردفة بسخط:

"إن أردت النجاة هنا؛ فاعرفي من يحوز القوة، واحرصي على عدم معاداته! بودير لن يتحمل سخافاتك لوقت طويل".

التفت إنستازيا لدورسيرا مستندة برأسها لأحد حواف المقعد، وهي تعقب:

"ورغم ذلك تزوجته!"

"قد كان الخيار الوحيد لمواجهة تبعات أفعال دومين! هذا ما أجنيه فحسب من خلف رؤوسكم، تعبثون وتخطئون، ثم أضطر أنا لتحمل العواقب".

"لم يطلب منكِ أحد هذه التضحية الجليلة".

"أتحسبين أني سأرى كل هذا العبث وأقف صامتة فحسب؟! أراكم تدمرون كل شيء، وتقودون أنفسكم، وغيركم للهلاك، ولا أتحرك قيد أنملة؟! أنتِ معتوهة إذن بلا شك إن اعتقدتِ أنني الشخص الذي لن يتدخل ويحوزته السوط إن استلزم الأمر!"

اقتربت دورسيرا من مقعد أختها محكمة عباراتها:

"فلتتأدبي، وكُفي عن خلق عداء برفقة بودير، إن كانت المملكة الغربية لم تكن كفيلة بتعليمك الأدب فسأجبرك أنا على تعلمه من جديد!"

عمَّ الصمت قليلًا، ثم قاطعته إنستازيا: "إنكِ حقًّا لثمرة تأبى التعفن يا أختاه".

كادت دورسيرا تلقن إنستازيا درسًا جديدًا، وترد حيال صفاقة

هذا التشبيه المتكرر، لولا أن الباب دق فسمحت دورسيرا للطارق بالدخول؛ لتجده أحد الحراس ينحني لها، ثم يدلي برسمية:

"جلالة الملكة، لقد تحفظنا على الجنود الذين طلبتِ القبض عليهم، وقد تم جلبهم توًا لزنازين القصر!"

الملاعين.. فكرت دورسيرا متذكرة هؤلاء الجنود الذين بعثتهم برفقة رحلة العالِم ران ذاك، وكل ما فعلوه هو بعث رسالة تتضمن هراء حيال قُوَى شريرة ما تمكنت من عالم الحضارات ذاك، وأنهم ينتظرون فقط أمرها بإتباع أثر العالم وقتله، لكن حين بعثت لهم أمرًا رسميًا بالعودة والخضوع للمحاكمة لفشلهم في مهمتهم بالعودة بالعالم، وبحوزته ما طلبته منه فروا هاربين، وانقطعت أخبارهم تمامًا، الأغبياء، لم يفعلوا شيئًا سوى إثبات الجرم نحوهم هم، ولكن ليست هي من سيترك أمرًا كهذا؛ لينجلي برفقة الرياح حتى وإن استلزمها سنين حتى تجلبهم وها هم تم سحلهم حتى قدمها.

همت بالانصراف والدماء تغلي بأوصالها، لكنها تذكرت تواجد إنستازيا، وأنها لم تعطها قواعد محددة أو تفرض عليها رقابة حتى الآن، ولا يمكنها الاطمئنان لتركها دون حفنة من الجنود لمنع أختها من اقتراف أي جرم، وبالتالي اقتيادها نحو المقصلة، نظرت لإنستازيا بطرف عيونها آمرةً:

"أنتِ، تعالي برفقتي!"

لم تهتم لنظرات إنستازيا الساخرة، لم تهتم؛ لأنها بعد بضعة

خطوات من سيرها شعرت بخطوات إنستازيا خلفها، لم تكد تتجاوز أحد الممرات حتى وجدت المربية الخاصة بابنتها ثنسيا تهرع لدورسيرا وتنحني محيية إياها، ثم تهتف: "جلالة الملكة!"

التفتت لها دورسيرا، وقد أصابها بعض التوتر، لكنها لم تظهره:

"ما الأمر؟!"

أخذت المربية تلهث، ثم أجابت:

"الأميرة جودي تطلب محادثة جلالتك بشأن خطب ما طارئ حيال سمو الأميرة ثنسيا".

بدأ الوجل بالتسلل لفؤاد دورسيرا، وتسألت:

"خطب طارئ؟! هل ثنسيا على ما يرام؟"

"إنها كذلك، جلالتك! لقد كانت برفقة الأميرة جودي فحسب، ثم طلبت مني الأميرة جودي إبلاغك بالحضور على وجه السرعة".

تنفست دورسيرا الصعداء، ثم كررت سؤالها:

"ثنسيا على ما يرام؟"

أومأت المربية:

"أجل جلالتك، لكن الأميرة جودي".

قاطعتها دورسيرا، وهي تلتفت عنها:

"أخبري الأميرة جودي أن تحضر هي لتبلغني ما الأمر حين أكون غير منشغلة، والآن اذهبي وأرعي أميرتك!"

تحركت دورسيرا نحو الزنازين وفي أثرها إنستازيا، ذلك المكان النتن الذي حُبس به بودير يومًا، رأت دورسيرا الخونة مكبلين أرضًا أعلى أرضية الزنازين الصخرية الملوثة بالطين، بينما تركض أعلاها الحشرات الزاحفة من آن لآخر، شعرت أنها تكاد تتقيئ بسبب ذلك المنظر، ليس الآن فحسب بل حينما رأت خلاف دومين برفقة جوزيف وبودير الذي نجم عنه موت جوزيف، وبعدها حينما رأت بودير وهو يبتزها، بينما هو يقف خلف قضبان تلك الزنازين، يا لا جبروته آنذاك.. يقف خلف زنزانة حاملًا مقاليد القوة، بينما تبدو هي ظاهريًا حرة، لكنها أبعد ما تكون عن ذلك، كم اختلف اليوم عن البارحة!، أشخاص وُجدوا هنا كحكام صاروا وليمة الآن للديدان، ومسجونًا صار ملكًا يأمر وينهى دون أي قوة تستطيع إمساك لجامه وهوجه.

لم يكن المنشقان خلف القضبان، بل بالساحة التي تطل عليها الزنازين، يحيط بهم أربعة جنود على أتم الاستعداد لاستلال سيوفهم وطعنها بأي من يعلن الغدر، تقدمت دورسيرا منهما لاعنة تلك الرائحة العفنة المحيطة بقالب القمامة ذاك، وأمرت الجنود بالابتعاد عنهما ليلبوا أمرها على الفور، كان كلا المنشقين ينكسان رأسهما بينما أحدهما الذي بدا أقصر في الهيئة حاول اختلاس النظر نحو دورسيرا، لكنه سرعان ما نكس رأسه مجددًا بمجرد رؤيته لملامحها، تحدثت دورسيرا

بهدوء:

"ارفعا رأسيكما".

انصعا بخزي، فتساءلت دورسيرا بهدوء:

"هل خنتماني؟!"

أسرع إحدهما بالرد الجازم:

"كلا، جلالتك! لا نستطيع حتى التفكير بذلك".

تجاهلت ما قاله ذلك الصعلوك لتوه وكررت سؤالها:

"هل خنتما ملكتكما؟!"

هم الذي تحدث من قبل بالنفي، لكن دورسيرا لم تترك له مجالًا، مردفة:

"كف عن نواح العاهرات هذا! وأخبرني ماذا حدث؛ كي تخونا ملكتكما، وتتهربا من المحاكمة التي تم استدعائكما للمثول بها؟!"

أجاب مذعورًا:

"أقسم لجلالتك أنني أقول الحقيقة! لقد تمكنت قوة آثمة من ممارس الشعوذة والزندقة مُدعي العلم ذلك، وهربنا على إثرها، ولم نمتثل للمحاكمة لخوفنا الجم".

شعرت أن هذا الهراء يصيبها بتقزز وغثيان غير عادي؛ فليفرغوا ما بجعبتهم فحسب، ولا يزيدوا الطنين برأسها؛ فمصيرهم قد حُسم بالفعل.

تسلل لأذن دورسيرا صوت أختها محادثة شخص ما -أحد الحراس على ما يبدو-:

"عفوا يا عزيزي، سأستعير منك هذا لوهلة، أو يمكنك إعطائه لي كهدية، لأميرتك العزيزة".

ثم ضحكت ضحكة رقيعة، بينما هي تقف مترنحة قليلًا وبيدها خنجر ما، يبدو أنه ما أخذته من الحارس، ملست بسبابتها أعلى نصله، وهي تبتسم بسعادة مفرطة، ثم نظرت لدورسيرا مردفة: "اتركِ لي الدفة يا أختاه!"

تعجبت دورسيرا، لكنها تركت إنستازيا تقترب من المنشقين، ثم جثت بدورها على ركبتيها مستندة للأرض؛ لتصير بنفس مستواهما، ابتسمت نحو أقصرهما -المتحدث بكثرة-، ثم وضعت أنامل يدها التي لا تمسك بالخنجر أسفل ذقنه لترفع رأسه وتتأمل ملامحه مبتسمة، بدا التوتر على الرجل لكن ذلك لم يطل بل تردد صراخه إثر تصويب إنستازيا لنصل الخنجر ليخترق ساعده، ثم جره نحو كفه ليمزق لحم ذراعه بشكل طولي، انتفض الرجل من موضعه صارخًا، بينما دماؤه تسيل بضراوة، توترت دورسيرا لما رأته، ولم تمض ثوان حتى سحبت إنستازيا خنجرها من لحمه بلمح البصر فازداد صراخه، لكن إنستازيا لم تترك له فرصة حتى؛ لينهي صراخه فقد صوبت فورًا النصل لإحدى وركيه مكررة تقنية سحب الخنجر بشكل طولي، لكن في تلك المرة نحو ركبته، صرخ الرجل حد البكاء، وهو ينوح بصوت مفعم بالألم:

"سأعترف! سأعترف بكل شيء! أنا من فعلتها! بحق كل ما

هو عزيز لديكِ توقفي!"

نظرت له إنستازيا متظاهرةَ التعجب متسائلة بنبرة درامية:

"تعترف؟! تعترف حيال ماذا؟! أنا لم أسألك بعد عن أي شيء".

ارتعش صوت الرجل، ولازال الألم يغزوه:

"سأجيب! سأجيب حيال أي سؤال".

نظرت له إنستازيا وقد تملكها الحزن، ثم تلاه سخرية شديدة، وهي تسحب الخنجر من أشلائه مجددًا؛ لينتفض صارخًا، ثم تعقب:

"وأي امرئ ذو أخلاق سينتظر أميرته المبجلة تسأل حتى يجيبها؟!"

أخذ ينوح الآخر:

"أنا آسف!"

ربتت إنستازيا على كتفه بتفهم متحدثة:

"لا بأس يا عزيزي، أخبرني فحسب ماذا حدث؟!"

"لقد.. لقد كان هذا العالم يريد الوصول.. لمقر.. الحا.. الحالمين.."

"توقف عن الحديث! لقد تذكرت لتوي أني لا أمقت أكثر من هؤلاء الذين يتسببون بمللي".

ثم فُزعت دورسيرا لما فعلته إنستازيا بالرجل للحد الذي

تسبب في فنجلة عيونها وفغر فاهها، كان صوت عويله هذه المرة في أوج تألمه، بينما الدماء تتناثر وتسيل بقسوة من وجهه الذي شوهته إنستازيا لتوها لكن مع عدم قتله، تجاهلته وتجاهلت تأوه العالي ملتفتةً لرفيقه الذي نظر صوبهما بهلع تام، تحركت إنستازيا لتصير بمواجهته ونظرت نحوه مبتسمة، أخذ صدى نواح الأول يتكرر فنظرت إنستازيا صوبه بسخط مردفة:

"إن لم تلتزم الصمت فسيزور أحد أطرافك قبره عن قُرب".

أغلق الأول فمه ناكسًا رأسه، وهو يرتعش برعب، بينما الدموع تسيل من عينه غير المشوهة بغزارة، عاودت النظر للآخر الذي ظل يرمقها بعيون مفزوعة، ثم تحدث دون أي إنذار بسرعة شديدة:

"لقد تآمرنا أنا ورفيقي لترك العالِم ران ومساعدته في الدرب القاحل لخوفنا من الحالمين وسحرهم، أخذنا أفراسنا، وكنا سنأخذ الفرس المتبقي لهم والعربة المحملة بالمؤن، لكن كان بها مشكلة ما، وحين كاد حارس ما يكشفنا بالإضافة لظهور ذئاب بمنطقة تخييمنا، امتطينا أحصنتنا ولوذنا بالهرب! واتفقنا على إخبار الملكة بأكذوبة القوى التي تملكت عالم الحضارات علها تصدقنا وتتركنا!"

سخطت دورسيرا حيال ما سمعته، وأرادت صب غضبها جله على هؤلاء الحمقى فلولا غباؤهم لكان هذا العالم بحوزتها الآن، ومعه ما طلبته، فأردفت بسخط:

"أيها الحمقى!"

ثم تساءلت سريعًا: "وماذا عن الحارسين الآخرين؟"

أجاب السجين بلمح البصر:

"أحدهم ذهب لقضاء حاجته فلم نستطع إخباره، والآخر حين أخبرناه أظهر ولاءه للعالم ران، وكاد يمنعنا؛ لذا فررنا هاربين بمجرد سهوه عنا للحظة".

أرادت دورسيرا تمزيق أعناقهم، لكن جذبها من ذلك كله قدوم أحد الحراس من السلالم العلوية للزنازين متجهًا نحوها، وهو يردف:

"جلالة الملكة، الملك يطلب حضورك للضرورة القصوى!"

شعرت بالقلق، لكن ذلك لم يطفئ نيران حقدها كليًا حيال هذين الجندين المنشقين، قالت آمرةً الحراس:

"أودعهما بالسجن المنعزل!"

نظرت إنستازيا صوب الرجل الجاثي قبالتها، وهو لازال يرتعد بنظرة وجل على عينيه نحوها، فربتت على وجنته ببعض العنف مردفة: "فتى جيد".

وقبيل وقوفها التفتت للآخر مستطردة بضحك:

"إذا سنحت لك فرصة أخرى للنظر في المرآة، فلتتذكر أن الأميرة إنستازيا هي من فعلت بك هذا".

ظل منكس الرأس ينتفض من الرعب، وهو يكتم لسانه بشتى

الطرق عن الصراخ من فرط الألم، غادرت دورسيرا وتبعتها إنستازيا، تبعت دورسيرا الحارس لحيثما من المفترض أن بودير يوجد لكن الرعشة أصابت أساريرها حين وجدت أنها تتجه لغرفة ثنسيا، ووجدت بابها مفتوحًا على مصرعيه، ثم رأت بالداخل كل من ثنسيا جالسة على فراشها بنظرة متجهمة، ولجوارها جودي التي لمحت دورسيرا بِأسى، بينما بودير كان يقف لجوار الحكيم الملكي، ويأمره بالانصراف؛ لينظر الحكيم لدورسيرا محييًا إياها، ثم يجتازها سريعًا، نظرت دورسيرا لعيون بودير وفيهما رأت ما أملت ألا تراه، وللمرة الأولى منذ أمد سحيق تشعر أن دموعها تجاهد لتجد سبيلها للخارج فور رؤيتها لتلك البقعة الزرقاء أعلى ساعد ابنتها الأيمن.

***

"بودير يجب أن أذهب!"

"أفهم هذا، لكنني لن أسمح لكِ بذلك!"

"ألا تكترث لكل ما بناه جوزيف؟! ألا تكترث لولائه المطلق لعلاج المرض الأزرق؟ أتريد أن يضيع كل ذلك هباء؟! أتريد أن نفقد ثنسيا لذلك المرض أيضًا؟!"

للمرة الأولى تشعر دورسيرا أنها أبعد ما يكون عن المشاركة بمحادثة -من البادي أنها مهمة كهذه-، خاصة لتضمنها مصير أحد أطفالها، لكنها تلك المرة لم تستطع ارتداء ملامحها الجامدة أو حتى أن تنبس ببنت شفة؛ لم يخطر ببالها أيًّا

من ذلك، حتى نقاش جودي وبودير المحتد أمامها بقاعة الاجتماعات تتابعه، كأنها تجلس بعيدًا، بينما تراهما يتحدثان على بُعد منها يشمل الكون بِأسْرِه، تتردد صدى كلماتهما بعقلها وتفهمها لكنها لا تشعر بأي شيء، للمرة الأولى هي مشاهدة فحسب من الداخل والخارج، وكأنها قد سقطت أسفل المحيط، وأنفاسها أوشكت على الخمود تماما، لكنها لا تطلب أي مساعدة؛ فقط تراقب ذلك المشهد على سطح المياه بجدال بودير وجودي.

تحدث بودير:

"إنكِ مريضة، وحُبلى وذهابك سيعرضك للخطر فحسب! لقد ازدادت آثار المرض عليكِ مؤخرًا بالفعل، أتحسبين إن كان جوزيف هنا لأراد ذلك؟ لقد فقد كل شيء؛ لأنه رفض التخلي عن أي منا!"

حاولت جودي تبرير موقفها:

"في غمامة الانقسام الحادث والصراع بينك وبين نايلس وميستربو، أتحسب أن الموجودين بـ(ليس الكبرى) سيكترثون حقًّا لمواصلة السعي لإيجاد علاج؟! أتحسب أن أي شخص عدا جوزيف اكترث حقًّا؟! لا بُدَّ أن أذهب.. مرضي أو حملي لن يغيرا حقيقة أن ذلك ما أراده جوزيف وطفلي من قبله: إيجاد علاج لذلك الوباء؛ لذلك هذا ما يجب أن أكرس نفسي لأجله! هذا ما يجب أن تنتهي عليه حياتي!"

"ذهابك يا جودي لن يغير شيئًا؛ في النهاية أنتِ لست

Page ٤٥١ / ٢٩٤ [8] انهيار

حكيمة أو عالمة! سأصدر أوامري باستئناف البحث عن علاج، وسينتهي الأمر!"

"قد لا أكون كذلك يا بودير؛ لكني أعلم حيال ذلك المرض أكثر من أي شخص، لقد رأيت طفلي يعاني منه سنين طويلة، رأيت ما رآه جوزيف لما يقرب العشر سنوات حيال ذلك المرض، أحمله بين طياتي الآن، كما أنني.. أعلم ما لم يطلع عليه جوزيف أحد، ما قد يُفني ذلك المرض".

"في تلك الحالة أطلعيني عليه؛ لنجد علاجًا، لكن طلبك بالذهاب لـ(ليس الكبرى) لهو أمر مرفوض!"

"لا يمكنك فعل هذا!"

"بلى، إنني أفعله للحفاظ عليكِ!"

حتى ذلك الحد لم تستطع دورسيرا الاستماع لجدالهم وصوتهم العالي لمزيد من الوقت، توقفت شاعرة أنها إن ظلت بموضعها لوهلة أخرى ستترنح بمكانها حرفيًا، وجهت تساؤلها لبودير:

"أطلب من جلالتك الإذن بالانصراف".

قال شيئًا يشي بموافقته، وبعدها لم تنتبه حقًّا لأي كلمات أخرى، فقط وجدت قدماها تستاقها على غير عادة سيطرتها هي على كيانها لا العكس، سارت بالممرات وبيد أن بضعة حراس أو خدمات وجهوا لها التحية، هذه المرة لم تتجاهلهم؛ لأنها لم تهتم، بل لأنها لم تستوعب أي شيء فحسب.. ذلك حتى وصلت غرفتها فاتحة بابها غير مكترثة لكونها أغلقته

أم لا، سارت بخطوات بطيئة وهي لا تدري لأين تريد حقًّا الذهاب، لكنها لوهلة استدارت ليمينها لتلمح نفسها بتلك المرآة الكبيرة بغرفتها، اقتربت منها بغير اتزان متأملة هيئتها، نظرت بتعجب لعيونها وفمها المنفرجين، ولتلك اللمعة التي تزداد كل آن بالانعكاس البادي لصورتها، ذلك الصداع اللعين إنه يتسلل لعقلها كأسراب من الحشرات التي تقضي على الأخضر واليابس، وبرفقته تنخفض قدرتها على الرؤية بوضوح رويدًا، رويدًا.. وسعت عيونها، وهي تقترب بجزعها لصورتها في المرآة وتستند للطاولة الموجودة أسفلها، ازدادت اللمعة بعيونها حد إسقاطها لقطرات بللت وجنتيها، وحين تأملت نفسها بصورة أوضح شعرت أنها ستفرغ كل ما بمعدتها.

لقد فشلت.. مجددًا، كل ما فعلته.. كان بلا جدوى.. فشل تلو الآخر تلو الآخر، والأمر لا يزداد إلا سوءًا، كل ما فعلته لأجل الحفاظ على أبنائها، بماذا أفاد؟! وأين هم الآن؟! أين كيرا؟! أين فين؟! والآن ثنسيا.

يا لها من لعنة أن تحب شخصًا بذلك القدر، فقط لتخسره بكل محاولة لإبقائه لجوارك.

ولماذا وُجدت مشاعر كتلك من الأساس بعالم كهذا؛ حيث الطبيعي تحول الشقيق لعدو؛ حيث المعتاد هو فراق طفلك الذي لم يكد يبلغ لما قد يقارب العقدين أو حتى توديعه عالمًا أنه سيموت أمامك ببطء وستشهد كل لحظة بذلك، وتقف كالمتفرج فحسب دون أن تملك حقًّا أي شيء لتفعله، أجل إن تلك المشاعر لعنة.. لعنة خُلقت لتسحق من ينبض فؤاده بها،

Page ٤٥١ / ٢٩٦ [8] انهيار

ولا تتركه سوى وهو رفات بقبره، فحتى إن ذهب كل شيء، فهي المرآة نحو الماضي، نحو الحلم الذي سُلبت منه الحياة عنوة. هي ما تنبض الذكريات بها لتغرقنا بسيل من الأسى والحسرة.. لماذا؟! لماذا لم يصبها هي المرض الأزرق؟! لماذا صغيرتها؟! ثنسيا إنها.. صغيرة للغاية، عطوفة للغاية؛ إنها ليست مثل دورسيرا، إنها تستحق الحياة!

لكنها فشلت مجددًا!

شعرت بقلبها يضخ سمًّا بشرايينها، بينما هي توجه كفها لا إراديًا بعزم ما فيها نحو زجاج المرآة؛ ليتهشم إربًا، بينما تنفجر الدماء من رسغها، احترقت يدها بالألم بينما الدماء تنبجس منها بقوة، لكن للحظة بدا أنه تم تخديرها وإغماؤها عن كل ذلك، نظرت لانعكاسها بأشلاء المرآة المدمرة وعلى وجهها ظهرت ابتسامة بسيطة تشي بالسخرية، وتكرر ببالها خاطرة واحدة:

"استسلمي فحسب..".

شعرت أنها أسفل الماء مجددًا، لكن تلك المرة على أعماق سحيقة، لم يكد يظهر النور حتى، لا شيء سوى الدماء الصاعدة من جرح يدها، فلتغمض عينها فحسب، وتتوقف عن المقاومة، فكل شيء مدمر.

خطفت نظرة أخيرة نحو السطح، وبدا أمامها شيئًا باديًا للجدال السابق بين جودي وبودير، لكنه كان أهدأ وهذا المقابل لجودي، إنها ثنسيا، أخذ الصوت يتعالى ببطء بأذني دورسيرا

التي كانت أشبه بالأصم الذي عادت له حاسة السمع، بينما ابنتها تردد:

"لكن ذلك يعني أيضًا أن والدتي تريد عودة فينن وكيرا بشدة، وتفعل كل ما بوسعها لأجل ذلك؛ لأن والدتي عطوفة وحنونة، رغم إزعاجي لها أحيانًا إلا أنها تحاول إسعادي دومًا".

صغيرتها.. ملاكها.. أحقًا ستترك ذاك المرض؛ ليفتك بها بذلك الشكل؟!

تساءلت وثنسيا تتحدث مجددًا: "كما أنني أعلم أن والدتي تحبنا كثيرًا جدًا بشدة".

أهذا حتى خيار.. التنفس ليوم آخر، وهي تعلم أن ابنتها ستموت، ولا تبذل كل ما تملك، بل حياتها منعًا لذلك؟! حتى إن بدت كل السبل مغلقة، حتى وإن انطفأت كل الشموع، وبدا أن لا شيء أمامها سوى منحدر صخري لحافة تطل على الموت بنفسه، فإن كان ذلك الثمن لسلامة أطفالها فسترمي نفسها بها باحثة عن بذرة أمل فحسب، ولطالما قلوب أطفالها لازالت تنبض بالحياة فالاستسلام ليس خيارًا.

"قفي، وكفي عن نواح العاهرات ذاك؛ فالاستسلام خُلق للضعفاء، وأنتِ ليست ضعيفة، أنتِ أعتى من الجبال نفسها!".

رددت بعقلها، وهي تنظر مجددًا لأجزاء المرآة المهشمة، لكن تلك المرة بعيون تؤكد أفكارها، تعالى صوتها في نداء إحدى الخادمات التي فور مجيئها تجلى الذعر على وجهها،

Page ٤٥١ / ٢٩٨ [8] انهيار

وهي تنظر لأثر الدماء التي لوثت الأرضية، وكونت ما يشبه البركة الصغيرة على الطاولة المواجهة لدورسيرا، همت بالفزع لكن دورسيرا قبيل ذلك أمرتها بجدية:

"اعثري لي على الأميرة جودي، واستدعي الحكيم فورًا!"

لم يمر الكثير من الوقت حتى كانت دورسيرا واقفة أمام ذاك القبر شابكة كفيها، وبدت تلك كإحدى المرَّات القليلة التي لم تتمسك بها بنظرات الجدية، وهي تنظر لذلك الاسم المنقوش أعلى القبر.. اسم "رانل"، تأملته والحزن يغمر أوصالها، ذلك حينما سمعت تلك الخطوات بداخل المقبرة الملكية تتجه صوبها، لم يوجد الكثير من الضوء عدا ذلك النابع من الشمعدان الذي جلبته برفقتها وتركته للجوار، لكنها لم تحتاجه لمعرفة الآتية التي وقفت لجوارها متأملة القبر أيضًا، وهي تعلق:

"يدك كانت على ما يرام هذا الصباح".

لم تهتم دورسيرا بالنظر ليدها الملفوفة بالأقمشة، لكن الأخرى تساءلت على غرة:

"طلبتِ مقابلتي هنا بالتحديد، لماذا؟"

"لأعلم منكِ ماهية شعور الأم حينما يُصاب طفلها بالمرض الأزرق، لتواسيني بحزني".

التفت لها جودي ببعض الدهشة، وأردفت: "أعتذر لما أصاب ثنسيا".

لم تترك دورسيرا مجالًا لجودي بسرد ترهاتها فقاطعتها:

"هذا ما ستقولينه حينما يسألكِ بودير، لماذا وددت مقابلتكِ: أنني أحتاج المواساة من شخص يعلم ماهية شعوري".

بدت الحيرة على جودي، لكنها أومأت متفهمة في النهاية، أكملت دورسيرا بلسان يستصعب ما هي على وشك قوله: "وأنا من أعتذر لكِ.. عن حديثي سابقًا عنكِ وعن.. جوزيف".

"هل تودين الوصول لشيء من خلف كل ذلك يا جلالة الملكة، إن كان هذا هو صلب الأمر، فيمكنك إخباري بالأمر مباشرة دون تصنع الود قبيلها".

شعرت دورسيرا ببعض الألم بصدرها، وهي تجيب بهدوء غير متصنعة لأي ملامح:

"إنني أريد التوصل لشيء ما.. أنتِ محقة، لكنني لا أتصنع الود؛ فأنا لا أملك تلك القدرة، لقد عنيت كلامي؛ فإن كنتِ امرأة سيئة لحاولتِ بسط نفوذكِ باستخدام الطفل الذي تحملينه برحمكِ، بل ربما لحاولتِ الزواج ببودير ليشب ابنكِ الملك بالفعل، لو كنتِ امرأة سيئة لما كنتِ ستكونين بجوار ابنتي المريضة حينما لم أكن أنا -والدتها- حتى بجوارها، بل وستصرين بعد ذلك على خوض رحلة ل(ليس الكبرى) رغم سوء حالتكِ الصحية؛ كي تتمسكي بأمل واهٍ؛ لإنقاذ طفلتي، إن كنتِ امرأة سيئة لتركتِ أمرًا كهذا ليصيبني بالجنون ريثما تحوذين أنتِ كل شيء".

"أنا لم أرد فعل ذلك لأجلكِ بل لأجل ثنسيا، ولأجل جوزيف،

ولا تقلقي يا جلالة الملكة لن أحاول سرقة مكانكِ؛ فالموتى لا يعبئون بهذه الحياة كثيرًا؛ إنهم يرون رفاقهم على الضفة الأخرى، ويدركون أن الحياة تلك -بصرعاتها وغوغائها وملذاتها- ليست سوى جسر لمكان آخر، ومهما التفتت لما أعلى ذلك الجسر من مسرات في النهاية، ستجد أنه انتهى، ولم يعنِ أي شيء حقًّا لكن البشر دومًا ينسون أن الحقيقة الأوحد بهذه الحياة هي أنها- ككل شيء آخر- تنتهي، لكنني أتذكر تلك الحقيقة جيدًا، ولا أصبو لشيء سوى ألا أطيل الانتظار حتى أكون بالضفة الأخرى بجوار زوجي وطفلي".

ابتلعت دورسيرا جوفها، ولوهلة شعرت أن أحدًا ما غيرها أصاب بحديثه، تنهدت مستطردة:

"إنكِ محقة.. تلك الحياة برمتها ليست سوى عذاب، والصالحون أمثالكِ أنتِ وجوزيف أنقى من البقاء بها، أنا حقًّا أعني ذلك؛ فأنتِ جيدة، أنتِ لست مثلي، وجوزيف..-باستثناء أخي رانل-لا أظن إنني عهدت رجلًا نبيلًا آخر سوى جوزيف".

تساءلت جودي بهدوء:

"أكنتِ تضمرين له المشاعر؟"

لم تجب دورسيرا فورًا، ثم تحدثت: "لا تقلقي، أنا لم أضمر له المشاعر؛ فأنا..".

صمتت دورسيرا لفترة طويلة حتى بدا أن جودي راودها فضول حقيقي عن إجابة دورسيرا التي استؤنفت أخيرًا:

"أنا لا أستطيع أن أضمر له المشاعر له أو لبودير، ليس..

بعد ما تسببت به لهما في الماضي.. ".

قاومت دورسيرا ترددها نادر الحدوث ذاك، وحاولت اختزال كلماتها لأقل قدر ممكن، تلك الكلمات التي أخذت ببعث ذكرى ما حاولت دفنها بأعمق مكان بداخلها.

تساءلت جودي بحيرة: "عم تتحدثين؟ أنا لا أفهم".

"هذا ليس بالمهم، فبعض الأمور يجب أن تظل بداخلنا للأبد، حتى تندثر برفقتنا في القبور".

كانت تلك إحدى المرات القليلة للغاية التي تحدثت فيها دورسيرا بما يجول خاطرها حقًّا دون أدنى تصنع، لكنها أدركت أن عليها التوجه للخطب الحقيقي، قائلة:

"لكن المهم الآن، وما أردت مقابلتك لأجله".

قاطعتها جودي:

"أعلم ما تريدينه.. تريدني أن أعود ل(ليس الكبرى) لمحاولة إيجاد علاج للمرض الأزرق، أليس كذلك؟"

تنهدت دورسيرا، وأومأت متسائلة: "ما هو قولكِ إذن؟"

"أوافق، لكن كيف ستدبرين لرحيلي ضد أوامر بودير؟"

"سأتدبر الأمر".

"سيتسبب ذلك لكِ بمشاكل جمة مع بودير".

استعادت دورسيرا وجهها الجامد معقبة:

"لا يهم، لا شيء يهم الآن، عدا إيجاد علاج للمرض الأزرق!"

تنهدت جودي، وأومأت متفهمة

***

سارت عبر الردهات يرافقها هذان الحارسان لقاعة الاجتماعات تلك التي لم تعد تطيق مظهرها، مر أسبوعان منذ اتفاقها مع جودي وتهريبها لها البارحة، وعلمت دورسيرا ما سيصيبها جراء مساعدتها لجودي على الرحيل، لكنها لم تعد تكترث؛ ليصيبها ما يصبها لكنها لن تخسر الابنة الوحيدة المتبقية برفقتها.

دخلت غرفة الاجتماعات، وأغلق الحارسان الباب خلفها، بينما ترى بودير يجلس أعلى مقعده بصندوق معتدل الحجم كبير نسبيًا قابعًا أمامه أعلى الطاولة، كانت نظرات بودير نحوها هادئة للغاية.

لكن للأسف فاهتزازها السابق بالإضافة لقلة الإضاءة - عدا من بعض الشمعدان- لم يساعداها على قراءة عيونه.

تحدث بودير بنفس هدوئه متسائلًا:

"ألا تودين معرفة مستجداتنا مع الهدنة برفقة أخيكِ؟"

تعجبت قوله لهدنة مجددًا، رغم قرارته الأخيرة، لكن تفكيرها لم يطل حتى صُعقت به يدفع الصندوق بإحدى يديه؛ ليسقط أرضًا مسقطًا برفقته ما احتواه؛ لترى هذين الرأسين المقطوعين يتتحرجان أرضًا أمامها، حاولت رغم دهشتها تكهن هويتهما لكن بودير لم يدع لها فرصة:

"إنهما الرسولان اللذان تم بعثهما لأخيكِ، وهذا هو رده".

لم تصدق دورسيرا، من المحال أن يقوم نايلس بذلك؛ فهو ليس الشخص المخول لفعل كهذا، حتى بكل ما اقترفه!

هزت رأسها باستنكار: "هناك شيء خاطئ؛ نايلس أضعف من ذلك".

قاطعها بودير قبيل ختمها لجملتها، وهو يقف متجهًا صوبها، ثم أكمل عنها بحدة:

"نايلس أضعف من ذلك، وميستربو متلاعب قليلًا، لكنه سيخضع، ودومين أرعن لكن يمكن توجيهه، أما إنستازيا فهي تعبث فحسب، أليس كذلك؟"

استمعت دورسيرا لحديثه المستهزئ لها، لكنها لم تستطع التظاهر بالقوة ليس هذه المرة، ليس بعد خطب ثنسيا، لكن بودير صاح بصوت جنوني: "أليس كذلك؟"

اهتزت دورسيرا بعض الشيء، ولم تعد تدرك ما هذا الوهن الذي أصابها، بينما هز بودير رأسه مستنكرًا بمزيد من الاستهزاء:

"تدعين معرفة كل شيء، تتصرفين كالخبيرة المطلعة على نوايا البشر ولا تخطئين مطلقًا، لكن في الواقع أنتِ لا تعرفين أي شيء! لا تعرفين حقيقة إخوتكِ ولا تعرفين حقيقتي؛ فقد حسبتِ أن بخدعة واهية كادعاء حبكِ لي سأقع بشركك، وسأصير الدمية التي تلفين حبالها حول أناملكِ، حبكِ الذي لم يظهر سوى عند تعرقل الأمور كليًا أمامكِ بفعل سطوتي أنا،

كم غريب حبكِ هذا!، ثم يحدث ما توقعته تمامًا: يتم تهريب أخيكِ بعدها فورًا. بفعلكِ. هذا بالطبع بعد معرفتي ببعثك لعالم لمقر الحالمين، ومخالفة النواهي- نفس الإثم الذي وجهتموه لأخي؛ لتجردوه من كل شيء- لكن لا بأس بالطبع إذا اقترفتِه أنت (جلالة الملكة دورسيرا)، وبالتأكيد يجدر بي تفهم الأمر ومساعدتك للَمِ شتات الأمر".

بدأت عيونه تلتهب بالتوعد، وهو يكمل:

"وأعلم قتل أخيكِ الحقير لعمي؛ لأنه أراد إعادة جزء من حقوقنا لي أنا وجوزيف، ثم تصرين على عدم قتله إلا بعد إيجاد دليل، وأوافق -أنا الأبله-؛ كي تستطيعي جلالتك فيما بعد تهريبه كما فعلتِ مع دومين، أليس ذلك ما آلت إليه الأمور؟!"

حاولت دورسيرا هز رأسها نافية: "كلا..".

لكنه لم يترك لها فرصة، وصاح مجددًا بجنون:

"لا تقاطعيني! هذا هو رد أخيكِ البريء، انظري له جيدًا!"

أشار بودير لرأس الرسولين، وهز رأسه مستنكرًا:

"ثم بعد كل تهاوني حيال أفعالك، تخالفين أوامري مرسلة جودي ل(ليس الكبرى)، رغم رفضي التام لذلك، فأخبريني أي كذبة ستدلين بها الآن؛ لتبعدي التهمة عنكِ؟!"

تمالكت دورسيرا بعض الشيء مقررة أنها لن تكون تلك الخانعة أمام لهيبه ذلك:

"لن أدلي بأي أكذوبة؛ فأنا بالفعل من أرسلتها! لأجل إيجاد

علاج للمرض الذي يفتك بهذه الأرض! لكن أخبرني أنت ما هي أكذوبتك لتهمة قتل دومين؟!"

زمجر بودير، وهو يدفع أحد المقاعد بكل قوته بحدة؛ لينكسر إربًا صائحًا:

"ألديك الجراءة بعد كل ما اقترفته بتوجيه التُّهم لي أنا؟!"

ثم اقترب منها للغاية محكمًا قبضته حول ساعدها، كما لو كان يعتصرها للحد الذي آلمها، لكنها لم تظهر ذلك، ثم تساءل بجنون:

"ثم أتحسبينني قذرًا مثلكم؟! سأذبح "قاتل أخي" تحت أستار الظلام، وليس بمرأى من الخلق أجمعين؟! أنتِ وإخوتكِ لستم سوى حفنة من العفن الذي يصر على نشر قذاراته بكل مكان لأجل أن يحصد مصالحه فحسب! حسبتك مختلفة عنهم لكنكِ أسوء منهم؛ فحينما يصل بكِ الحال لبعث امرأة بتلك الحالة الصحية، وحُبلى في خضم النزاع الذي طال الأرض الآن فقط؛ كي تتخلصي من تهديد طفلها -الذي لازال برحمها- لكِ؛ فهذا لا يعني سوى أنكِ منبع القذارة نفسها!"

حاولت دورسيرا تحرير ساعدها الذي بدا أنه سيُكسر كليًا، وقد بدأ اللهيب في تملكها هي الأخرى:

"لا تتظاهر بالاهتمام حقًّا حيال جودي؛ فكلانا يعلم جيدًا أنك لا تحرص على بقائها لخوفك الشديد حيالها، بل لخوفك حيال الوضع مع شبه جزيرة لونا، وما قد يتسبب به رحيلها من زعزعة التحالف!"

"حتى إن صح ذلك، فهي أهم بالنسبة لي؛ لكونها أرملة أخي جوزيف، فأنا لست قذرًا مثلكم!"

عند ذلك الحد كانت دورسيرا قد حررت ساعدها الذي احمر بشدة، متسائلة بازدراء يتخلله الكثير من الغضب: "أتُرى تلك الندبة على جبهتك لديك أخرى مثلها بصدرك؟"

أشارت لموضع بصدره، واستأنفت:

"أتذكر لماذا حوزتها أيها الملك الشريف؟! لا تدعي الفضيلة يا بودير، لقد كدت تغتصب امرأة متزوجة لمجرد كونها تشبهني، ثم قتلت زوجها حين دافع عنها، لا تحسبني غافلة عن سبب مقاطعة جوزيف لك ولوالدي كل تلك السنين، لا يهمني تداعيك المغفرة وتوقفك عن أن تكون زير نساء بعد تلك الحادثة، ما فعلته أنت ووالدي نقطة سوداء ستظل تطاردك طوال حياتك! إنه ذنب لا يُغتفر!"

تساءل بغلٍ:

"علمتِ ذلك؟ وتزوجتني بالنهاية".

"أجل، فيبدو أننا مناسبان لبعضنا للغاية؛ فكلانا منبع للقذارة!"

في غضون الثواني التالية احترقت وجنتها بعد علو صوت تلك الصفعة، لم تهتم دورسيرا بإمساك وجنتها التي لطمها بودير لتوه، وظلت واقفة بشموخ كما هي رغم شعورها غير العادي بالمهانة، لم يترك لها بودير فرصة بالتوجه برأسها نحوه حتى؛ ليصدر أمره لها بصوت أهدأ عن ذي سابق، لكنه لم يخلُ

كليًا من الغضب:

"غدًا سأرحل نحو الغرب لسحق أخيكِ، وستأتين برفقتي؛ لتكوني تحت الأنظار، ويتوقف وهمك بأنكِ تحوذين أي سلطة!"

صُعقت دورسيرا وهي تتكهن أن بداية حرب مع نايلس قد تتطلب شهورًا قد تضطر فيها الابتعاد عن ثنسيا المريضة، وأيضًا من ستثق به عدا نفسها لاستئناف اتفاقها مع أدريان لإعادة كيرا؛ فبترحالها المستمر بين المعسكرات بسبب الحرب -التي عزم بودير على خوضها لتوه- سيستحيل عليها متابعة أحوال كيرا واسترجاعها، وهذا ينطبق أيضًا على وضع فين، فهل ستتركه كل تلك المدة أسيرًا لدى ميستريو.. لا تدري ما يصيبه بتلك الأرض؟!

هزت دورسيرا رأسها، وقد زالت حدتها قليلًا:

"بودير، أدرك أنني اقترفت الكثير من الآثام، فلتعاقبني كما شئت، جردني من كل أملاكي، ضع عنقي أسفل المقصلة، أي شيء تراه صائبًا، لكن أطلب منك ألا تصطحبني برفقتك، دعني أطمئن حيال سلامة أطفالي أولًا، ثم سآتي أنا بنفسي، سأستل سيفًا وأحارب برفقة جيشك إن أردت لكن من فضلك لا تجعلني أترك أطفالي، وهم بتلك الأوضاع".

سادت الحدة معالم بودير، وهو يستطرد:

"أمامكِ حتى الغد!"

ختم حديثه وانصرف، تاركًا إياها ليأسها، ومعرفتها أن لا مفر

من تركها لأطفالها.

***

علمت إنها لا تملك سوى سويعات لتوديع طفلتها، لكن رغم ذلك كان هناك شخص أخير لا بُدَّ من رؤيته قبيل ثنسيا، توجهت لتلك الردهة ممسكة بتلك الملفوفة وهي بصحبة الحارسين اللذين أخذا بمرافقتها بكل مكان منذ قرار بودير الأخير، توقفت عند رؤيتها لسمراء الشعر تقف مستندة لإحدى النوافذ المفتوحة المطلة على المدينة، بينما بيدها شيء ما، أمرت الحارسين بالوقوف بعيدًا، هما بالاعتراض في البداية لولا توعدها لهما إن لم ينفذا الأمر؛ فانصاعا في النهاية، ووقفا على مبعدة، بينما اقتربت دورسيرا من أختها التي تحدثت بدورها، وهي لازالت تتأمل المدينة:

"حينما أتيت لهنا تحدثتِ عن كوني لا أملك قوة فعلية، انظري لحالكِ الآن يا أختاه، إن ما تمرين به لهو أمر مشين".

أنهت إنستازيا جملتها بسخرية، وهي تلتف نحو دورسيرا التي لم تتكبد عناء محاولة الانزعاج أو الجدال حتى مع تلك المخبولة التي ظهر أنها تمسك لزهرة ما حمراء بين أناملها لُفت حولها ورقة ما أشبه بالرسالة، أردفت دورسيرا بجدية:

"هناك ما أحتاجه منكِ".

تساءلت إنستازيا ساخرة:

"آووه، الآن تأتين لتطلبي مساعدتي؟! ما الأمر إذن.. أتريدني أن أقتل زوجكِ؟"

"هناك اتفاق سري بيني وبين أدريان لإعادة كيرا، وأريدك أن تتسلمي الخطابات التي يبعثها".

"ماذا؟! أهذا هو سر جزمك بأنكِ ستصلين للفتى ليُدلي بشهادته؟"

تجاهلت دورسيرا مقاطعة أختها لها مكملة:

"آخر ما علمته هو أنهم بمدينة ما على ضواحي الحدود الغربية، وقد بعثت خطابي الأخير منذ قليل؛ ليصل لأدريان، ويخبره أن يتوجه نحو ليس الكبرى، فالحرب التي سيخوضها بودير ضد نايلس لن تجعل الأراضي المتواجد بها الآن آمنة، لذلك فأريدك أن تستأنفي الوضع مع أدريان على لساني وهاك".

ناولت دورسيرا الملفوفة التي بحوزتها لإنستازيا، موضحة:

"تلك الملفوفة تحتوي على ما يجدر بكِ فعله -لإعادة كيرا- باختلاف الأوضاع التي ستؤول لها الحرب".

قلبت إنستازيا الملفوفة بين أناملها، ثم قدمتها لدورسيرا مردفة بملل:

"أعتذر يا أختاه؛ فلن أتقمص دور المربية هنا، لم تنتهِ الأمور لأفضل حال، حينما فعلت من قبل، ولا أظنني سأمكث بهذا القصر كثيرًا حتى بكم الحراس الذين وكلتموهم لإبقائي حبيسة، أووه، أعني آمنة، فلدي أمر ما لأقوم به".

أنهت إنستازيا جملتها، وهي تعبث بالزهرة بأناملها حتى

تعمدت جرح إصبعها بجذر الزهرة؛ لتقطر بعضًا من دمائها على الزهرة ملوثة إياها، رغم ما قد يعنيه ذلك إلا أن دورسيرا تجاهلته مردفة بسخط، وهي ترفض أخذ الملفوفة من إنستازيا:

"اسمعي، أنا لا أهتم لأي كان ما تفعلينه! فلتقتلي من تريدين، وتعبثي كما وددت! أنا لا أكترث! لكن أطلب منكِ أمرًا واحدًا فحسب، وأنا في غاية السخط للحال الذي اضطرني لفعل ذلك! لكن برغم كل ما عهدته منكِ مؤخرًا، لا يمكنني الثقة إلا بكِ حينما يتعلق الخطب بأمر كالذي بين يديكِ الآن".

وجهت دورسيرا نظرها للملفوفة؛ لتحاكي إنستازيا فعلها، ثم تعيد يدها التي تحمل الملفوفة لجانبها بنصف ابتسامة سآخرة، وعيون مفكرة، وهي تردف:

"إنكِ حقًّا لثمرة تأبى التعفن يا أختاه".

لم تهتم دورسيرا لمزيد من الحديث، وتركت إنستازيا متوجهة نحو غرفة ثنسيا، اجتازت بابها؛ لتجد الصغيرة قابعة أعلى أحد المقاعد بهدوء تام، وهي تفرك أصابع يديها ببعضهما، نظرت لها دورسيرا بفؤاد يضخ ألمًا، لفكرة أن تلك قد تكون أحد آخر أيام الصغيرة برفقتها، أعقبت متجاهلة شعورها ذاك:

"تجلسين صامتة؟! ليست تلك عادتك!"

لكن ثنسيا ابتسمت حين رأت والدتها، وتوجهت نحوها محتضنة جزعها، فاحتضنتها دورسيرا بدورها، بينما الفتاة تتحدث بهدوء:

"حضنكِ يا أمي دافئ للغاية، لا أشعر مطلقًا بدفء مماثل

عند احتضاني لأي شخص آخر، لا أجد سوى البرد، وحده، حضنك الذي يشبه الشمس الساطعة في يوم قارص البرودة، أهناك سحر ما به يا أمي؟!"

لم تدرِ دورسيرا بما تجيب فقط لاحت ابتسامة على وجهها، وهمت بعض الدموع بإيجاد سبيلها لمقلتيها، لكنها منعتهم.. عليها الصمود، لا يمكن أن تترك هذا الضعف يصيبها لأجل ثنسيا وإخوتها، أخذت الأفكار تصيبها كوابل من السهام، وهي تتذكر مدى صعوبة إيجاد علاج للمرض، لكن عليها ألَّا تفقد الأمل.

ابتعدت عن ثنسيا، ثم استندت لركبتيها أرضًا؛ لتصير بنفس طول الصغيرة، وابتسمت نحوها ممررةً أناملها عبر وجنة الصغيرة، وخصلات شعرها الأشقر، ثم تنهدت مردفة:

"احرصي جيدًا على صحتكِ حتى أعود".

كانت الصغيرة تعلم بالفعل خبر رحيل والدتها برفقة بودير، لكن يبدو أنها لم تصدقه كليًا؛ لذا فقد بدأت قسماتها بالتبدل، والدموع بمغادرة مقلتيها، وهي تتساءل بحزن شديد:

"أنتِ أيضًا يا أمي؟! أنتِ أيضًا سترحلين تاركة إياي؟!"

هزت دورسيرا رأسها: "أقسم لكِ يا عزيزتي أنني مجبرة على فعل ذلك!"

أومأت ثنسيا، والدموع لازالت تسيل أعلى وجنتيها، ثم بدا الحزم بصوت دورسيرا:

"لكنني أقسم لكِ بأنني سأعود! سأعود لأجلكِ يا ثنسيا!"

أومأت ثنسيا مجددًا.

"ثنسيا، عليكِ بتصديقي هذه المرة! ولا أريد أن أرى هذه الدموع بعيونكِ، لا بُدَّ أن تكوني أقوى، أنتِ لست بفتاة ضعيفة، عليكِ بالمواجهة يا ثنسيا لا الهرب ولا البكاء، أعلم إنكِ لازالتِ صغيرة، لكننا لا نعلم ما الذي يحمله الغد؛ فقد تكونين أنتِ من ستعيدين لم شمل إخوتك".

تساءلت ثنسيا بعدم تصديق: "أنا؟!"

"أجل، أنتِ لذلك لا بُدَّ أنْ تكوني قوية لأجلكِ ولأجلهم، ولأجلي؛ فأنا أحتاج لقوتكِ يا ثنسيا.."

مسحت الصغيرة دموعها سريعًا محتضنة والدتها مجددًا، وهي تردد:

"لا بأس يا أمي، أنا لجواركِ، وسأكون قوية لأجلكِ، ولأجل إخوتي، ولأجلي..".

أحكمت دورسيرا ذراعيها حول ابنتها مغلقة عيونها شاعرة أنها تريد أن تستمر هذه اللحظة للأبد، لكن بدا أن لحظات أخرى مرت حتى خطت نحو تلك العربة التي تجرها الأحصنة بإحدى حدائق القصر، بينما ابنتها تقف لجوار المربية ناظرة بحزنٍ جمٍّ نحْوَ والدتها التي سرعان ما ولجت للعربة، وراقبت صغيرتها أثناء رحيلهم، وهي تبعد وتبعد حتى تفنى تمامًا من منظار والدتها.

***

[9]

العالم الجديد

سار عبر الممرات الصخرية التي تتخللها المياه، وهو يلف نفسه برداء أسود زاد من إخفائه في عتمة الليل، تلك التي لم يوجد بها سوى حفنة من القراصنة السكارى مُلقين لأي ركن وقد فقدوا وعيهم من فرط الشراب، أو أخذوا يترنحوا، ثملِينَ مُلوِّحِينَ بسيوفهم، تجاهل ذلك وعبر لأحد الشواطئ قافزًا بمياهه سريعًا، وأخذ بالعوم نحو الأعماق، أحرق الماء الأجاج عينيه وأنفه لكن استمر بالسباحة بأعتى ما لديه ذلك حتى انتشلته ذراع ما من الماء نحو قارب شعر بملمس خشبه أسفل يديه، مسح ميستريو الماء من على وجهه وهو يرمق ذلك القرصان ذا الوجه المتخشب الذي أظهره ضوء المصباح الخفيف، جدف القرصان بهما عبر ضباب الليل القاحل نحو مدخل لمقر الحكم مواجه لموجات المياه، أوقف القرصان القارب بالقرب من باب معدني بصخر القصر يعلو الماء بمسافة لا بأس بها، ثم فتحه بمفتاح بحوزته، أشار لميستريو بالدخول دون النبس ببنت شفة؛ فبالطبع هو أبكم باختياره ككل معاوني إيزلا، نفذ ميستريو الأمر وسار لداخل المعبر الذي تبعه إليه القرصان فور إحكامه لغلق الباب المعدني من خلفهما، سارا منبطحي الرأس حتى وصلا لنهاية المعبر؛ حيث السقف أعلاهم يسمح لهم بالوقوف بشكل طبيعي، وقفا فيما يشبه غرفة التخزين، فتح القرصان باب الغرفة المعدني وتبعه ميستريو لخارجها، ثم أحكم القرصان أيضًا غلق الباب من

خلفهما، وحينها ساروا بممرات القصر الحجرية لحيثما أرشد القرصان ميستريو لغرفة قيادة إيزلا التي فور رؤيتها لميستريو، أشارت للقرصان بالانصراف ناظرة لميستريو المبتل تمامًا بماء البحر، منتظرة منه المطلوب بنفاذ صبر، فأخرج الأخير من أحد جيوبه قطعة من الجلد الرقيق الملفوفة بإحكام حول شيء ما، وناولها إياها.. فتحتها بنظرتها الجامدة؛ لترى حفنة من الأوراق خلفها، أحال الجلد بينها وبين البلل، شعر ميستريو بوغزة بموضع إصابته السابق بظهره، لكنه تجاهله بينما إيزلا تتمعن بالأوراق التي تحملها، ثم أعقبت باقتضاب:

"استحققت الثقة، فكل المعلومات سليمة..".

بالطبع استحق الثقة فقد أتاها لتوه بكل المعلومات التي تخص أفعى ياما؛ أسطوله، بحارته، حلفاؤه، كل شيء.

نظرت له إيزلا، وهي تلف قطعة الجلد حول الأوراق بحكمة مجددًا، ثم تضعها أسفل ردائها الواسع لتختفي برفقة كم الأسلحة التي تقبع أسفله، تساءلت بحزم:

"هل تؤكد استحقاق أميرك للثقة هو الآخر؟"

"أجل، أيتها الحاكمة".

صمتت لثوانٍ، ثم أمرته:

"اتبعني!"

سارت للخارج دون انتظار أي ردة فعل منه، فتبعها سريعًا، مرًّا بالكثير من الردهات حتى وقفت أمام جدار صخري صلب

يبرز منه العديد من الصخور، قبيل خوض أي شيء آخر استطردت إيزلا:

"لتعلم أنك بعد هذه النقطة لن يصير لك مكان بجزر راندوس، وستغادر فورًا لأميرك؛ لتبلغيه أنني أوافق على التحالف!"

تهللت أسارير ميستريو، لكنه بالتأكيد لم يظهر ذلك، وأجاب:

"علم وطاعة".

لم تلتفت إيزلا له، وأخذت بالضغط أعلى الصخور البارزة بنمط ما، حاول ميستريو حفظه لكنه كان معقدًا للغاية كذلك فسرعتها كانت فائقة، كما لو أنها تحفظه عن ظهر قلب، بعد ضغطتها الأخيرة أُزيحت الأحجار للجانبين تاركة ممرًا ضئيلًا بالمنتصف، فتجاوزته إيزلا وتبعها ميستريو عبر منحدر صخري طويل للغاية شديد الانزلاق، أُجبر الأخير على الاستناد لبروزات بالحائط؛ كي لا ينزلق من أعلى المنحدر وتُكسر ضلوعه، بينما تحركت إيزلا بمنتهى السلاسة كما لو أن قدميها مثبتتان بغراء للأرض، لكن للحقيقة بدت أبطأ، وأكثر حرصًا أثناء خوضها لخطواتها التي أظهرتها المشاعل العتيقة المعلقة على الجدران، استمر نزولهم لمدة طويلة حتى بدأ نفاذ الصبر يتملك عقل ميستريو.. ذلك حتى لاح ضوء ما بالأفق الذي يوصل له نهاية المنحدر، ضوء مشابه للذي رآه بالكهف، هبطت إيزلا لنهاية المنحدر بينما تبعها هو بعد برهة لمكان واسع جدًا ربما بحجم القصر نفسه، يضوي بالأحجار الزرقاء ويتخلله المئات من الأبواب التي تقود لأماكن أخرى، المكان

نفسه امتلأ بالبحارة والمحاربين بشتي الألوان الذين أخذوا يتدربون على أنواع شتي من القتال، وآخرون كانوا يتحدثون بجدية وهم يسلمون مخططات ما لبعضهم، كما أن عددًا من الحدادين وُجد أيضًا بالمكان، وهم يطرقون على الأسلحة المختلفة بمطارقهم، المكان اقرب لمعسكر حربي لكن على بقعة صخرية شديدة الوسع، لكن أشكال هؤلاء الجنود.. إن بعضهم تطغى عليه سمات الشعبين الأحمر والأصفر، وآخرين يقسم ميستريو أنهم من قاطني شبه جزيرة لونا.

للمرة الأولى حقًا.. لم يستوعب القابع أمامه، ونظر لإيزلا منتظرًا تفسيرًا، فتحدثت بدورها:

"أخبر مولاك: أن بسط نفوذ كامل على شبه جزيرة لونا هو ما أبتغيه لإتمام هذا التحالف، وبالمقابل سيكون بحوزته أسطول من ثلاثمائة ألف سفينة، وخمسمائة ألف محارب!"

صُعق رغم إخفائه لذلك، خمسمائة ألف محارب! لكنها تقود بحارة بالكاد يكملوا المئة ألف، كيف؟!

لكن نقاط بدأت بالترابط بعقله سريعًا مكونة صورة ما:

خمسمائة ألف محارب تحوزهم، أربعمائة ألف عدو قتلتهم بعد موت طفلها.

ذكرها أثناء مراسم الأضحية، وهي تردف:

"أنا لا أهتم إن كان من أهل الجزر أو لا أو إن كان حتى قرد، إن أقبل على تضحية كتلك، وكانت حياته معدومة القيمة لذلك الحد له ولأميره؛ فليصير هو أضحيتي!"

ثم كلماتها الأخرى: "سواء صرت الحاكمة أم لا، سواء أعجبكم أم لا؛ فسأغير الأوضاع بالجزر!"

وجملتها التي وجهتها لهونج لتبدي سبب امتناعها عن قتله في البداية:

"لأنك لست عدوي أيها الداعر!"

إن البشر يدلون بحقيقتهم حتى بأصغر الكلمات التي تغادر أفواههم، ورغم تناقض تلك المرأة ظاهريًا في البداية إلا أن تلك القاعدة لم تستثنيها؛ فقد اتضحت الصورة الآن:

إيزلا لم تقتل أربعمائة ألف شخص بعد موت طفلها، بل جندتهم في الخفاء، ومن الجلي أنها منذ ذلك الحين، وهي تظن أن لكل حياة قيمة ما، وترفض إهدارها إلا للضرورة القصوى كما فعلت مع هونج.

لقد كونت واحدًا من أعتى الأساطيل؛ لهذا يخشاها الأفعى بشدة، لكن كيف لم تقتلهم من البداية؟! أليست تلك حقيقتها؟! سفاحة من بني أرض يسودها الهمج والعشوائية.. كيف خطر ببالها أي شيء عدا ذبح من أمامها؟!

نظر نحوها متعطشًا للإجابة، ومنذ سنين طويلة يدلي حقًّا بما يسكن باله متسائلًا:

"لماذا؟!"

بادلته النظر، ولم تزُل الحدة من عيونها، وهي تجيب:

"لم تبعث الأمواج أحدًا كبذرة دنسة، نحن من جرعناها ذلك

الدنس، تأكدت من ذلك يوم مرآي لطفلي يُقتل أمامي، بعد ذبحي لقاتليه وإعادة المشهد برأسي لمئات المرات، عرفت حينها أن لو طفلًا غريبًا ارتكب بقومي ما ارتكبه طفلي بهؤلاء القوم لقطعته إربًا، لا أحد يُبعث كقاتل، بل يغدو قاتلًا".

هذا هراء! فكر بسخط، فلا أهداف كبيرة تحقق دون تضحيات أكبر، وإن فكر القوم بأسلوبها ذاك فلن يتحرك أي شخص مقدار إنشًا للأمام، الإبادة العشوائية التي يقوم بها قومها لهي مثيرة للغثيان، لكن نزعتها للسلام الكوني تلك هي غاية في السذاجة والسطحية.

تحدث ميستريو محاولًا كتم سخطه:

"لكن لا بُدَّ أن ما فعله طفلك كان لصالح قومك، وكيف ستحصدون نصرًا دون تضحيات؟"

ظهر الانفعال بنبرة القرصانة:

"ولماذا هو لديه الحق بفعل ما فعله، ثم ينالني الغضب لأنهم ارتكبوا بحقه نفس الجرم؟! ألأنه طفلي؟! أم لأنه شب ليجد أمه وقومه بأكملهم يرتكبون المجازر فغدا مثلهم، كلا، لقد تقززت من كلمة (تضحيات)، تضحيات ليتفوق قوم على آخرين، ثم تضحيات أخرى لتصارع أبناء القوم نفسه، حتى تغدو الأراضي جرداء من جنس البشر في سبيل التضحيات لأجل جنس البشر! كلا، سيحل التغيير! وسأبني بيديّ العالم الجديد!"

تخشب لسان ميستريو، ولم يدري بما يفكر، هل حقًّا بدأ شك

العالم الجديد [9] ٣٢٠ / ٤٥١ Page

يراوده حيال أفعاله بسبب كلمات امرأة كتلك؟! هل حقًّا أخذ بالتساؤل إن كانت معتقداته لازالت صحيحة أم أن تلك المرأة خسفت بها الأرض لتوها؟! تساءل والجنون يقف على أعتاب بابه، لكنها منافقة فكيف تقول مثل هذا الكلام بعد طلبها لبسط نفوذها على شبه جزيرة لونا؟

استأنفت المرأة أمامه:

"بلغ الأمر لأميرك!"

ثم أشارت لمن في الجوار ليأتي بلمح البصر بحاران، ويعصبان وجهه كليًا على غرة ساحبين إياه بقوة لمكان لا يدريه، تعثرت خطواته وأدرك أنه يُساق بذلك الشكل المهين؛ كي لا يعلم مخارج هذا المكان الأخرى، ظل يُجر كالسجين المعمي من قبل البحارين بِخُطى غير متزنة؛ حتى شعر برطوبة رياح ما تصيب أطرافه، وسمع صوت شيء يُقذف بالماء، وفجأة تلاشت الأرض من أسفل قدميه حين دفعه أحدهم على غرة؛ ليصطدم بملمس خشبي خدش ثنايا جلده مسببًا تقرحها، حاول تعديل نفسه لكن سمع صوتًا وثب بجواره، ثم من يمسك العصابة على وجهه بعنف كدلالة على عدم إزالتها، فاكتفى ميستريو بتعديل وضعه للجلوس على ما بدا كمقعد قارب، ثم سمع صوت مجداف يصطدم بالماء بجواره، تحرك القارب الذي يجلس أعلاه، واستمر التجديف لمدة ما.. حتى توقف الصوت وشعر ميستريو بورقة تُدس بقبضته، ثم صوت ارتطام بالماء مجددًا، يدل على رحيل البحَّار عبر الماء، اختفى الصوت بعد ثوان، ظل ميستريو كما هو لعدة دقائق أخرى لا

يبصر شيئًا، كاد يزيل العصابة من على وجهه لولا سماعه لجلبة بالقرب من القارب، ثم صوت عدة أشخاص يقتربون منه سريعًا أحدهم أحكم العصابة على وجهه مردفًا لأذن ميستريو:

"ليس بعد، فاتفاقك مع القائد لم ينتهِ!"

شعر بمن يسحب الورقة من يده، ثم صاح صوت آخر:

"كما توقعنا، أرادت ابنة الغانية تهريبه لبلاده قبيل رؤية القائد له".

لم يُقال المزيد، فقط تردد لأذنه صوت بصاق، تم التجديف بالقارب مجددًا، ولكن أسرع هذه المرة.

***

بعد مرور ساعات طويلة كاد النعاس يغلب ميستريو، رسا القارب أخيرًا على أرض ما، جذبه اثنان بقوة من عضديه حتى أوقفاه ببقعة معينة أعلى أرض رملية، ثم سحب أحدهم العصابة من على وجهه بسرعة، فأخذ ميستريو بفتح عينيه وغلقهما ليتعود الرؤية، ويرى الظلام يحيطه عدا من ضوء مصباح زيتي أو اثنان أظهرا وجه الواقف أمامه مبتسمًا أعلى رمال جزيرة أرض البعث المدثرة بالسواد، لكن بلا بدر تلك المرة.

"حسبت أن بيننا اتفاق يا إيليا، وبالنهاية تحاول الهرب بذاك المظهر، ألم تعلمك والدتك الآداب؟!"

دوت جملة أفعى ياما ساخرة؛ ليجيب ميستريو بحيادية:

"لم يُترك لي منفذ، ففجأة وجدت نفسي أُجر جرًا؛ حيث لا أدري".

قهقه أفعى ياما معقبًا: "أصدقك".

بدأ ميستريو الآن برصد المزيد من الموجودات كالقرصانين بجواره اللذين يقيدانه، وثلاثة آخرين بجوار أفعى ياما، استأنف الأفعى متساءلًا: "والآن أخبرني ماذا تخفي ابنة الغانية؟"

أدار ميستريو منظاره بين القراصنة المجاورين للافعى بتساؤل: أيتحدث أمامهم أم لا ؟

فأدرك الأفعى مجيبًا بضحك: "ليس عليك القلق، أدلي بما تعرفه فحسب".

"القرصانة إيزلا لم تذبح أيًّا من القتلى الذي أُشيع أنها قتلتهم -ليس منذ موت طفلها-، بل جندتهم لصفها مكونة جيشًا من خمسمائة ألف محارب وقرصان، لا بُدَّ أن الحمولات التي تدخلها سرًا للقصر تحتويهم؛ حيث إن أسفل القصر يقبع مقر بأكمله تخفيهم به".

ظهر وجه الأفعى متعجبًا بلمسة من السخرية المتفهمة للوضع، واستطرد:

"إذن العاهرة تخدعنا كل ذلك الوقت؛ لتكون أقوى أسطول للبحار، لكن مهما اتسع ذلك القصر من الداخل لن يستوعب أكثر من ثلاثين ألف شخص، لا بُدَّ أن البقية تحتفظ بهم بموطنها الأم جزيرة يلدا".

تجلى التفكير على الأفعى الذي أكمل لميستريو بنصف ابتسامة:

"عمل جيد يا إيليا، وعلى عكسك سألتزم أنا بجانبي من الاتفاق، اتركوه!"

أصدر الأفعى أمره؛ ليبتعد القرصانان عن ميستريو ويقف حرًا، تحرك أفعى ياما نحو ميستريو واضعًا يده أعلى كتف الأخير متحدثًا:

"الآن يا إيليا، اتفاقنا كان اطلاعك عما يربط المرايا العظيمة بجزر راندوس، وأنت بدورك كسليل للممسوسين -خُدام المرايا- ستكون الأقدر على فهم ما أوشك على أن أريك إياه، أليست معرفتك بأسرار المرايا تلك هي سبب بعث أميرك لك أنت على وجه التحديد؟!"

أومأ ميستريو، وأكمل الأفعى:

"وبالمقابل كان عليك العمل كجاسوس لي لمعرفة السر الذي تخفيه إيزلا، وبعدها يمكنني حتى إتمام تحالف ظاهري مع أميرك، وها أنا على وشك تقديمي نصيبي من الاتفاق، لكن لتعلم أن في أثناء ذلك قد تتعرض للموت".

إنه يريد شيئًا بالمقدمة تلك، برم اتفاق آخر بالتأكيد.. أجزم ميستريو، والأفعى يكمل:

"وإنقاذي لك من الموت ليس ضمن اتفاقنا، لكن بوسعنا عقد اتفاق آخر؛ لتعود سليمًا لأميرك، وهو (العهد)"ز

"العهد؟"

"إنه اتفاق سحري أشبه بالوثيقة، تتضمن: منحي إياك هبة، وبحالتنا هذه ستكون (إنقاذك)، وبالمقابل ستمنحني أنت أيضًا شيئًا، لكن ليس عليك بالقلق، لا يتضمن العهد الخاص بي القتل أو الاستعباد أو ما شابه".

تلك مجازفة كبيرة للغاية، قد تكون خسارة ميستريو لكل شيء، لكن لا مفر فهو لم يقطع كل تلك الرحلة والمخاطر؛ ليعرف سر ارتباط المرايا العظمى بجزر راندوس، وعلاقة ذلك بتدمير المرايا؛ ليتوقف الآن، كما أنه لازال لديه بطاقة رابحة للخروج من هذه الجزر حتى وإن سُدت كل السبل، فكر بهذا وهو يتذكر ذلك الشخص الأوحد.

أومأ ميستريو معقبًا: "أوافق!"

حينها مد الأفعى ذراعه لميستريو بنصف ابتسامة، فمد الآخر ذراعه وقبض كل منهما على ساعد الآخر، بينما نبع ضوء أبيض من مقلتي الأفعى، وشعر ميستريو بنبضة بداخل ساعده، عاد الأفعى لهيئته العادية متخليًا عن ذراع ميستريو، وأردف:

"لقد زدت أيضًا من قدرتك على البقاء أسفل الماء دون أنفاس، فلننهِ اتفاقنا إذن، احبس أنفاسك، فستشهد الآن ما يجذب الموتى لهذه الجزيرة الجرداء".

ابتعد الأفعى عنه متجهًا للماء حتى غمره، غطس أسفله وقبيل غطسه كان الآخر قد تبعه، لكن بمجرد نزوله لأسفل الماء لم ير أي شيء، ناهيك عن الملوحة التي أحرقت مقلتيه،

لكن فجأة خفت نور أبيض، وبدأ بالظهور تدريجيًا حتى أضاء أعماق المياه الكاحلة، وحينما رأى مصدره وجده قبضتي أفعى ياما المتلاصقتين، سرعان ما خرجت الحية العملاقة من أسفل قبعة الأفعى التي طفت لأعلى سطح الماء مظهرة من خلفها شعره الأشعث، ثم وجدت الحية سبيلها نحو عضد أفعى ياما ملتفة حوله، لكن دون الفتك به، وسرعان ما انتقلت هالة الضوء لثنايا جلد الأفعى الغليظ؛ لتصير كالمصباح المدوي لجوارهما، غطس الأفعى بينما حيته متعلقة لأحد أطرافه، وتبعه ميستريو شاهدًا غفيرًا من الأسماك مختلفة الأشكال، والألوان تتجاوزهما، بعضها أغرب ما يكون.

فبدت البعض منها بوجوه بغال، وأخرى تحمل أجنحة كالتنانين، استمر غوصهما لبعض الوقت، حتى اقتربا لجذور أرض البعث، حينها بدأ ميستريو بلمح شيء غريب للغاية على بُعد، ومع زيادة اقترابه شهد بصورة أكبر تلك الدوامة العظمى المشابهة للإعصار الجبار تلتحم بجذور أرض البعث محملة بما يبدو جثثًا استحالت عظامًا أو حتى أجزاء منها فحسب، دوامة مهولة لحد مرعب حتى بالرغم من سباحته على بُعد شاسع منها، لكن فجأة أخذ الضوء الساطع بالتلاشي بسرعة جنونية، بينما الحية تتخلى عن أفعى ياما بصورة ما ليعم الظلام الدامس، وحينها لم يدرك ميستريو لأين يجدر به السباحة، فهو الآن في خضم ما لم يخطط له أبدًا، وآنذاك ضوى الضوء مجددًا، لكن برفقته أصاب ميستريو هول لم يحسب أن هناك شيئًا مشابهًا له بالوجود بأسره، وهو ذاك الفك الأشبه بجزيرة بأكملها بأنياب شديدة البروز تصل لطول

Page ٣٢٦ / ٤٥١ العالم الجديد [9]

الأشجار لفم قد شُطر لثلاثة أجزاء، فُتح بعزم ما لديه ليبتلع ميستريو ساحبًا إياه إلى ما بدا كالأفق الكوني شديد السواد، لكن لجزء أقل من الثانية زاد الضوء بشكل مفرط محدثًا انفجارًا عظيمًا نحو الكائن المهول؛ ليدوي صوت صارخ من ذلك الفك قادرًا على الإطاحة بأراضٍ بأكملها، أغمض ميستريو عيونه واضعًا كفيه لا إراديًا أعلى أذنيه، وقد شعر أنه قد صُم، فتح عيونه وهو يرى ذاك الكائن يبتعد قليلًا، فبدأ باستيعاب حجمه الجنوني الأقرب لمدن بأكملها، ووجهه المشيب للوجدان الأقرب لتمساح عظيم بفك ينشطر لثلاثة أجزاء، عيون سوداء تدوي بلهيب كوني أحمر، و قرون سوداء كالقطران تنبع من قشور فمه، الأقرب للمقاصل المميتة.

نظر صوب الضوء؛ ليجدها ذراع الأفعى كاملة، بينما عيناه استحالت كليةً للبياض هي الأخرى، والحية كانت قد اختفت تمامًا، كاد الكائن يقترب منهما مجددًا، لكن الضوء حول الأفعى زاد بالقوة التي أجبرت ميستريو على غلق عيونه، ثم تكرر صوت الصراخ الذي يزلزل المحيطات، لكن قُبيل فتح ميستريو لعيونه تلك المرة شعر بذراعه تُشد بحزم شديد لأعلى بقبضة تلفح سخونة غير عادية للحد الذي أحرق ميستريو، وعند فتحه لعيونه وجد الأفعى يسبح بهما نحو السطح، بينما الضوء المنبعث من كلتا ذراعيه وعيونه يخفت، وكذلك سخونة قبضته حول ذراع ميستريو، لمح ما قبع خلفهما؛ ليجد أن السواد دثره مخفيًا أي معالم له، بعد وهلة ترك الأفعى ذراع ميستريو؛ ليتجه الآخر نحو السطح بمفرده الذي لاح في الأفق أخيرًا، زاد سرعته حتى شهق أخيرًا، وهو يستعيد أنفاسه فور

خروج رأسه من الماء، ورأى الأفعى كذلك يخرج شاهقًا ويتجه نحو اليابسة، بينما حركة سريعة جرت في الماء نحو أفعى ياما حتى اكتشف ميستريو أنها حيته العملاقة تنسل عبر ذراعه لمكانها فوق رأسه في حين تناول أفعى ياما لقبعته التي كانت طافية على سطح الماء مرتديًا إياها، عام ميستريو حتى وصل للشاطئ، حيثما وقف قراصنة أفعى ياما الخمسة بمصباحين أعلى اليابسة السوداء، بمجرد وصول الأفعى لأرض البعث تحدث لميستريو دون التوجه له:

"أرأيت الآن أثر المرايا العظيمة بجزر راندوس؟ لا أدري تحديدًا ما يسببه ذلك الإعصار المائي، لكنني واثق أن أراضي أخرى أيضًا بها أماكن ذات طاقة غير قابلة للتفسير كأرض البعث، ولابد أنها ترتبط أيضًا بالمرايا العظيمة".

تساءل ميستريو مسترجعًا أنفاسه:

"كيف أمكنك الجزم؟"

التفت له الأفعى مجيبًا بسخرية:

"لأنني رأيت أماكن تشع بالطاقة شبيهة لهذه تمامًا بأراضٍ، مثل شبه جزيرة لونا، وممالك السحر.. أماكن لا يجرؤ أحد على الدنو منها سوى أمثالك، أحب تسميتها (بؤر الكون)".

"عنيت كيف أمكنك الجزم ارتباطها بالمرايا العظيمة".

"لأنها بكل يوم تعرض فيه المرايا حقيقة أرواح أطفال المملكتين، تشع أرض البعث بطاقة مهولة تشمل مدنًا بأسرها، لكن لا أحد يمكنه استشعار ذلك باستثناء من تغلغلت بأوصاله

طاقة مماثلة".

ختم حديثه، وهو يحكم قبضته بتباهٍ، أمكنه قول أن السحرة هم من يستشعرون ذلك فحسب، لكن بالطبع لا بُدَّ من الزهو بذاته، فكر ميستريو بضجر مراجعًا بوعيه ما قد يعنيه حديث الأفعى، ثم استنتج أمرًا ما برأسه وشاركه مع الأفعى:

"لكن أين الأرض السادسة؟"

"أرض سادسة؟!"

وضح ميستريو:

"ثلاث مرايا بمملكة الشرق، وثلاث أخرى بمملكة الغرب، مما يعني وجود ست مرايا؛ أي ستة أراضٍ تحمل كل منها (بؤرة كون) على حد قولك، لكن هناك خمسة أراضٍ فحسب: جزر راندوس، شبه جزيرة لونا، القارة المتجمدة، ممالك السحرة، الأراضي الميتة".

هذا بالطبع إذا تم استثناء النصف الشمالي من قارة أثرا، حيثما يقبع الشعبان الأصفر والأحمر، فقد استنتج ميستريو أنه من المحال أن يحوي كلا من المرايا وأحد (بؤر الكون) بنفس الوقت، أكمل ميستريو تساءله:

"هذا يعني ست بؤر كونية، أين ستقع السادسة إذن؟!"

حك أفعى ياما ذقنه مفكرًا:

"إذن أنت تكهنت أن أراضي شعبك القديمة: (الأراضي الميتة) ستوجد بها بؤرة كونية، لكن لن يوجد مثلها بأراضي

إخوة الظل التي اغتصبها الشعبان قديمًا؟"

ربما قد صارت (الأراضي الميتة) غير مُهيأة للحياة بأي حال، ولهذا السبب هاجر قومه منها متجهين لأقرب الأراضي لهم -أراضي إخوة الظل-؛ ليحتلوها خاصة بعد رفض إخوة الظل استقبالهم سابقًا، حينما استحالت أراضي الشعبين قديمًا لجحيم، فأجلوا قومهم بأكمله من أراضيهم القديمة؛ ليشنوا الحروب التي غيرت مصيرهم ومصير إخوة الظل بأكمله، لكن ميستريو لازال متمسك بنظريته أن بوجود ست مرايا، لا بُدَّ من تواجد ستة أراضٍ كبرى تحمل ست بؤر كونية، باستثناء الأراضي التي تُوجد بها المرايا العظيمة بالفعل، حتى إن كانت إحدى تلك الأراضي -التي تحمل البؤر- ميتة، ولا أدنى حياة بها، كالأراضي الميتة.

استطرد الأفعى:

"ربما لديك وجهة نظر ما، أما حيال الأرض السادسة فمن يدري، ربما هناك أراضٍ بأكملها لم تطئها قدم الانسان حتى الآن، فهذا العالم أوسع وأغرب من أن يدركه عقل بشري واحد".

هَمَّ ميستريو بتحليل معنى ذلك، لكن الأفعى لم يترك له مجالًا، وتحدث:

"والآن يا إيليا بالنسبة للعهد".

سطع بريق بسيط من كف الأفعى، بينما شعر ميستريو باحتراق يصيب ساعده ورآه يحمر بشدة، أكمل الأفعى:

"هناك ما كنت ستفعله، وتبلغ به أميرك بعد اكتشافك -حيال ارتباط الجزر بالمرايا- هذا، ستبعث له رسالة ما في رحلة عودتك، أو ستخبره بنفسك عند رؤيتك له ما أبتغيه منك؛ ليُنفذ العهد: أن تقوم بخطوتك التالية الآن بهذه اللحظة".

أيها اللعين، فكر ميستريو، بينما راجع بعقله كيف يمكنه خداع الأفعى؟ لكن إثر ذلك ازدادت السخونة على ذراعه، فأصدر آنينًا من شدة الاحتراق، قهقه الأفعى موضحًا:

"لا تحاول حتى التفكير بخداعي يا إيليا، فالعهد سيحيلك رمادًا قبيل ذلك".

ابتلع ميستريو جوفه مراجعًا كل الدوافع التي سيبتغيها الأفعى من طلبه ذاك، خاصة بعد وصوله لما أراد بالفعل بمعرفته لسر إيزلا -الخطر الأعظم بالنسبة له-تبين فهم الأفعى لما يفكر به ميستريو، ففسر:

"بعض الأشخاص يا إيليا أو أيًّا من كان اسمك، يحسبون أنهم يفهمون كل شيء، يعرفون الكون بأسره، إنك أحد هؤلاء بالطبع، تعتقد فهمك للناس أجمعين، وبالتالي قدرتك على توقع أفعالهم، ولابد أنك تتساءل الآن: ولماذا سأبتغي أي شيء بعد معرفتي لما تخفيه ابنة الغانية، للحق يا إيليا، أنا لم أكترث مطلقًا للعاهرة".

ماذا؟! استعجب ميستريو

"إنني بالفعل أعلم ما تقوم به عاهرتنا منذ سنين، دعها تكون جيشها اللطيف، وتؤكد أنها ستقوم بالتغيير، كما تريد،

الكلمات سهلة، إيزلا ليست بالخصم السهل، لكنها ليست بالغريم الذي لأخشاه، أنت على صعيد آخر أمر مختلف كليًا".

أيعني.. كاد ميستريو يتساءل، لولا إجابة الأفعى بالفعل:

"تمامًا كما خطر ببالك الآن، إيزلا غير مهمة، لكن رسول استطاع خوض الكهف، ثم من اللاشيء التقدم؛ ليصير أُضحية ولا يموت إثر ذلك!، ثم يحاول التلاعب بخصمين، بل في سبيل ذلك التلاعب يكاد يفقد حياته. كما كدت تفقد حياتك لكسب ثقة إيزلا بدفاعك عنها! لكن كلا، لقد علمت جيدًا إنك لن تفقد حياتك، لقد خططت خطواتك جيدًا جدًا، ولم تسمح لأدنى ثغرة بتخللها أو إعاقتها، وذلك ليس لحصاد أي تحالف معي أو مع العاهرة، هذا لتعرف ما عرفته لتوك حيال المرايا العظمى، وارتباطها بالبؤر الكونية المتواجدة بكل أراضي العالم، قد تحسب أنك تفوقت على الجميع بذكائك، وربما هذا صحيح لغباء قاطني هذه الجزر، وعدم التفاتهم لصغائر كتلك، لكن بربك أخبرني أي رسول يفعل كل ما فعلته حتى إن كان من جماعة الممسوسين على حد قولك السابق؟!، ثم أي وشوم تلك؟"

أشار الأفعى لوشوم ميستريو مكملًا:

"لقد عهدت بحياتي كلها الوشوم والحبر، وأدركت منذ نظرتي الأولى لك أنها ليست سوى وشوم مزيفة كهيئتك كلها، لم تهمني أفعال إيزلا على الإطلاق، أوهمتك بذلك؛ كي أرى إلى أي مدى ستصل لإرضائي لتصل لحقيقة ارتباط جزر راندوس بالمرايا العظيمة، لقد احتجت إثبات فحسب، وها قد

حصدته يا.. سمو الأمير ميستريو".

حاول ميستريو الحفاظ على رباطة جأشه، رغم عدم اتزانه الشديد؛ فقد قصف هذا الوغد حصونه كاملة.

قهقه الأفعى:

"بالطبع الأمير سيدعي أنه مبعوث من الأمير ذاته، فهو المسئول عن أحكام الأول وجل تصرفاته، قادر على فعل ما يبتغي دون العودة لرئيسه؛ لأنهما الشخص نفسه، ومنذ خطوك هنا، وأنت لم تدلي سوى باسم واحد: الأمير ميستريو".

إنه حية بلا شك.. فكر ميستريو، والوجل يُضخ بفؤاده، ورغم زيادة احترامه الشديد للأفعى إلا أن رجلًا كذاك لا بُدَّ من قتله؛ فقد صار يمثل خطرًا حقيقيًّا.

"هناك أمر واحد لازال يشغل تفكيري، وهو لماذا الآن؟! لماذا الآن تهتم بشيء موجود منذ مئات السنين، وهو: ارتباط المرايا العظيمة بجل أراضي العالم عبر البؤر الكونية، لكنني سأحصد إجابتي قريبًا، والآن لتنفذ خطوتك التالية، وتلتزم بالعهد!"

تخلل اللهيب لثنايا ذراعه مجددًا، فقبض يده متحاملًا على الألم، وأخرج من جيبه قطعة جلد ملفوفة، وفكها ليظهر بداخلها خطابان فارغان من الكلمات، ولكن ليس من بروز دقيق للغاية، تحسس كليهما، ثم سلم الأفعى الخطاب الحاملة لبروز واحد، لكن بعد إحداث قطع ما ضئيل به دون أن يلمح الأفعى، أمسكه الأفعى متأملًا إياه، فأردف ميستريو:

العالم الجديد [9] ٣٣٣ / ٤٥١ Page

"خطوتي التالية كانت إرسال هذه للقصر الملكي بالعاصمة الشرقية".

تبع ذلك اختفاء السخونة من أعلى ذراع ميستريو وقت سطوع بريق من كف الأفعى، فانقشاعه تدريجيًا؛ ليخفت تمامًا داخل الكف، علّق الأفعى:

"إذن أنت لا تكذب؛ فالعهد نُفذ.. بواسطة خطاب لا يحمل كلمة واحدة فوقه سترسله لبلادك".

لكنه أخذ يقلب الخطاب، ثم تحسسه فشعر بالنتوء أعلاها وحينها دوت ضحكة الاستيعاب بصوت عالٍ وهو يقول: "وماذا توقعت من شخص مثلك.. الوضوح مثلا؟"

بدا سؤاله الأخير سآخرًا لأبعد الحدود، ثم مد كفه مشيرًا بعيونه للخطاب الآخر، فسلمه له ميستريو، والحقد يتمكن منه، تحسس الآخر الخطاب؛ ليشعر بنتوءين، فتساءل: "ما المعنى؟!"

لكن سرعان ما تهللت أسارير الأفعى، وأدرك ميستريو أنه فهم الأمر، هز الأفعى رأسه باستنكار مصفقًا بابتسامة واسعة:

"أُووه أحييك أيها الأمير، يا لها من شفرة حقًّا، الأمر الأول أو بمعنى أصح النتوء الواحد لتنفيذ الأمر، أما الثاني لعدم تنفيذ الأمر والتوقف، كحروب القدماء تمامًا، أنت تريدهم بالقصر أن ينفذوا أمرًا ما.. قررت أنه يجب تنفيذه بعد اكتشافك لسر (بؤر الكون)!"

"ألن تسألني ما هو ذاك الأمر؟"

هز الأفعى رأسه بالنفي مجيبًا بسخرية:

"كلا، فالعهد نُفذ ومن السهل اختلاقك لكذبة ما، كما أنني لا أود موتك الآن فلازال أمامي إثبات آخر حيالك.. وهو بالغالب ما سيجيب عن سر اهتمامك بـ(بؤر الكون) الآن على وجه التحديد، بعدها يمكنك الموت".

القذر.. كاد الجنون يتملك ميستريو؛ لتنبؤ هذا الرجل به بذاك الشكل المهين للغاية، لكنه لن يموت، ليس بعد.. فكر بثقة تامة.

أمر أفعى ياما لقراصنته:

"قيدوه مجددًا!"

لم تمر ثوان، وكانت يدا ميستريو قد اِعتُصرت بحبل لُف حولها مثبتًا إياها لظهره، ووُضعت العصابة على وجهه مجددًا، لم يقاوم فهذا بلا معنى، جذبه الرجال بعنف من عضديه دافعين إياه للقارب مرة أخرى؛ ليبدأوا رحلة أخرى، أردك ميستريو وجهتها بالفعل.

مرت ساعات طويلة من جديد حتى بدأ ضوء الصباح يتسلل لعيونه حتى برغم العصابة، سمع صوت بوق يدوي بصوت عظيم لعدة مرات.

مر ما يقارب العشر دقائق حتى أخذ صوت همهمات، ولعن يعلو من غفير ما من البشر، آنذاك سُحب ميستريو من على القارب دون ترك أي فرصة له بموازنة خطاه، ثم دُفع بعدها

بثوان للأرض؛ ليصير بوضع أشبه بالمتذلل وضغط حذاء ما بعزم على ظهره مانعًا إياه من الاعتدال، صاح أفعى ياما:

"يجدر بي من البداية قتل الداعرة منذ أُشيع أنها حاولت الاستعانة بأضحيتها لحوز الأمواج لصفها، والحصول على الحكم! إن الأمواج لم تدعمها مطلقًا لقد استعانت بالسحر لفعل ذلك!"

على صوت الذهول والسب لإيزلا، فجأة دوى صوتها هي بقوة:

"ما الذي يحدث هنا؟ التجمعات ممنوعة! عد لجزيرتك أيها الأفعى، فلم يعد لك مكان هنا!"

"اخرسي يا ابنة الغانية! هل لديك الجرأة بالتحدث حتى بعد فعلتك وخداع الأمواج؟! فانظروا يا قومي ماذا وجدت بأرض البعث!"

ثم كشف وجه ميستربو الذي استلزمه بعض الوقت للتعود على ضوء الشمس، وهو ينظر للموجودات من حوله، ويرى غفير من القراصنة والبحارة ينظر بعضهم نحوه بدهشة وآخرون باستحقار، من بينهم القراصنة الذين قابلهم عند بداية خطوه على هذه الجزيرة، وإيزلا التي بدت نظرتها محايدة، رمى الأفعى حفنة من الأشياء صغيرة الحجم الملفوفة بشكل غريب أمامهم صائحًا:

"وجدته يدفن هؤلاء بتربة أرض البعث، لفائف وطلاسم من السحر الأسود، وكل ذلك بأمر من الملعونة تلك!"

أشار الأفعى نحو إيزلا، لكن ميستريو أخذ يفكر: ألن يسأله أحد، وما دليلك على ما رأيته؟! أو حتى على أن تلك لفائف سحرية كما تدعي.. يا لا غبائهم!

لكن الأفعى لم يترك الفرصة لذلك، فأعقب:

"تلك الخائنة التي تُجند أعداء الجزر عوضًا عن قتلهم، وكل ذلك لتنقلب على الجزر لصالح شبه جزيرة لونا!"

حينها اتسعت مقلتي إيزلا بعض الشيء ونظرت لميستريو بلهيب من أصابه الخداع، التفت آنذاك وجنة الأخير للجانب، وأخذ ألم رهيب يتملكه بسبب حجر رماه أحدهم نحو وجهه، حاول البعض الهجوم على إيزلا، لكن رجالها اشتبكوا بهم، بينما أخرجت إيزلا سيفها دافعة نصله أرضًا؛ ليلتحم بأكمله، وهي تردف:

"لن أسمح لك أو لأي مخلوق بتخريب نظامي! نهايتك اليوم أيها الأفعى!"

استل الأفعى سيفه، وعبرت الحية من قبعته نحو عضده ملتفة حوله، وهو يتحدث:

"بل اليوم ستنتهى لعنتك للأرض أيتها الحية!"

لم يكد ميستريو يرى ما يحدث حتى جذبه رجال الأفعى سريعًا متجهين به نحو وجهة مجهولة، بينما كل ما لمحه ميستريو قبيل ذلك هي مئات الأجساد تلتحم في مجزرة جماعية، ودماء أخذت تنفجر أرضًا لأفراد لا يدركون حقًّا لماذا هم يتشابكون، دوى الصراخ، وصليل السيوف بأذنه وهو يعلم

أن الأفعى سيتحفظ عليه لحين الحصول على إثباته فحسب، ثم سيتركه للموت، لكن لازال لديه ورقة رابحة، فشخص أعتى من الأفعى نفسه، وتلك الجزر بأكملها لازال لديه حاجة عند ميستريو، ولن يترك ميستريو يموت حتى يصل لها.. لكيرا الأميرة الهجينة.. فكر بنصف ابتسامة وهو يُجر جرًا.

***

[10]

المختارة

تلك الأشجار المقلمة بكل مكان، تتخللها الزينة، بينما تحمل الفسقيات المزخرفة رائحة معطرة من ثنايا مياهها العذبة، وليس هناك بقعة واحدة لا تتخللها طاولة مُغرقة بكل ما لذ وطاب من شتى أنواع اللحوم، الأجبان الفاخرة، والفواكه الطازجة، بالإضافة لكم لا يُعد من أنواع مختلفة من الشراب الفاخر، سار فين وسط كل هذا بذلك اليوم المشمس عبر بساتين القصر، بينما عبق الزهور العطر يتخلل أنفه، وأصوات الألحان الهادئة يطول أذنيه، رأى الضيوف من النبلاء وممثلي الشعب بكامل هندامهم يتجولون بالأنحاء، يأكلون ويشربون، ويتبادلون النميمة ضاحكين في الأرجاء التي تسودها الزينة ومظاهر الفخامة، ها هو على وشك أن يعهد واحدة من تلك الخطب المنافقة حيال أخته لكن تلك المرة ببساتين القصر؛ حيث اجتمعت بيلا بكم كبير من الضيوف بحفل ضخم، صعدت بيلا أحد المنصات طالبة من الجميع الإنصات فتوقفت الآلات الوترية عن الإنشاد، وتوجهت العيون الباسمة بأسرها نحوها لتشرع بالحديث بابتسامة عذبة:

"ضيوفي الأعزاء، أشكركم جميعًا على التواجد اليوم؛ لنحتفل بجهودنا على دحض محاولات جماعة خُدام العائد على تفريقنا، السحرة متبعون سليلوا إخوة الظل هؤلاء، لكن مهما فعلوا سنظل متحدين، وسنظل شعبًا واحدًا بعزيمة (كوراخي) ومباركة (ثنسيا)".

سمع فين قهقهة مكتومة بالقرب منه لسيدة تمتم لأخرى:

"يا لها من متظاهرة، هل أي من أبناء الأسر الملكية تلك ليس منافقًا؟!"

ثم ختمت بيلا حديثها: "والآن أتمنى أن تستمتعوا بالحفل يا ضيوفي الأعزاء".

ثم غادرت المنصة، لتعود الآلات الموسيقية للعزف والضيوف للانسياق بأحاديثهم الجانبية، بيلا.. لازال لا يصدق كل ما سمعه ورآه منها، لازالت تتردد بذاكرته نظراتها له، حينما وجدته هو وسول مختبئين بذاك المخزن بعد قتلها لساريو.

ورد فعلها بأن يرحل سول لغرفته، بينما أخذت تُدلي بحجج لا معنى لها لفين معللة ضرورة قتلها لساريو، وأن كل ما قال ساريو كان كذبًا، وحتى إن اشتمل على بعض الحقيقة، فقد أرادت وجود فين لجوارها لاحتياجها له، وليس كي تخدعه كما قال ساريو، كما أن فين لا يتم تقديره من قبل والدته دورسيرا، ولا يحوز المكانة التي يستحقها لذلك؛ فوجودها مع بيلا، هو لأجله هو قبل أي شيء؛ ليصير بالمكان المناسب الذي يحترمه، ويقدره.

لكنه لم يعد يصدق، فقد صُدم بها كليًا، ولم يعد يدري ماذا يصدق: أن بيلا فعلا بارعة بإخفاء حقيقتها تلك؟! أم أنه كان الأبله الذي أحاله الحب مُغيبًا؟ أم أنه يسيء الظن بها، وكان لها أسباب بأفعالها تلك؟

فجأة! وجد فين المستشار بيسبور يقترب منه مبتسمًا، ويداه خلف ظهره بطريقة رسمية بعض الشيء:

"سمو الأمير.. آراك تقف وحيدًا، هل هناك خطب ما؟"

"إنني دومًا أقف وحيدًا أيها المستشار، ليس هناك خطب بذلك".

استنتج فين أن بيسبور ذلك ربما ليس سوى الحية التي توجه بيلا، خاصة بغياب خاله ميستريو.

ابتسم بيسبور للضيوف المارين لجواره أثناء سيره برفقة فين، وأردف:

"أوه، ولكن هذا خطب كبير يا سمو الأمير، أتود أن يراك ضيوفك شخصًا متكبرًا يأبى التعامل معهم؟"

"لست كذلك، أنا لا أعرفهم فحسب".

"وهذا خطب آخر أكبر يا سمو الأمير، فكيف لك بعدم معرفة ضيوفك؟! أوه سيدة لينا.. تبدين متألقة للغاية اليوم".

ختم المستشار حديثه، وهو يحي سيدة من النبلاء مقبِّلًا يدها، فابتسمت الأخرى له، ثم ابتعد برفقة فين معقبًا:

"تلك المرأة لا تُطاق، لكن واجب تحيتها، فكما تعلم لا بُدَّ إبقاء حلفائك بالقرب منك، وأعدائك أقرب".

لذلك هم يحرصون على بقاء الأمير فين ابن عدوتهم الملكة دورسيرا بالقرب منهم؟

تساءل فين دون الدلو بما يجول خاطره، بينما استأنف بيسبور:

"لهذا كما كنت أقول لا بُدَّ من معرفة ضيوفك، فكيف ستصل لأهدافك بدون.."

"بدون المداهنة؟"

قهقه بيسبور، وهو يهز رأسه لفين:

"أوه يا سمو الأمير حسبت بقدرتك على اقتراح الحل للقضاء على خُدام العائد سابقًا.. إنك ستكون مُلمًا بالحال أكثر من ذلك".

"ملم بماذا يا سيدي؟! بأنه يجدر بي التلون، ومخالفة مبدأي مقترفًا الآثام؛ كي لا أصير "مثاليًا" من منظوركم؟!"

"كل تغيير عظيم يستلزمه تضحيات يا سمو الأمير، ليس هناك قرار لا تنجم عنه خسائر.. استيعابك لذلك هو ما سيجعلك لست "مثاليًا" بمنظورنا، وبحكم مكانتك كأكبر الأبناء الذكور للأسرة الملكية سيتحتم عليك أخذ الكثير من القرارات".

تململك الحنق فين مجيبًا: "وربما لا أريد أن أتخذ أي قرارات أو أن أكون طرفًا بأي من هذا!"

"هذا خطب ثالث يا سمو الأمير، فالهروب ليس حلًا، فإن اتخذت أنت القرارات ستختار الخسائر الأقل قيمة، لكن ماذا إن تركت الاختيار لغيرك.. أواثق أنه لن يتسبب بفناء أمة

بأكملها؟! أحينها سيصير اختيارك بالتخلي عن كل شيء أمر أخلاقي من منظورك؟! حين تدرك أن عوضًا عن خسارة فرد واحد خسرت ألف لتخليك عن المسئولية لمن هو غير كفؤ.. أسترُضى ضميرك آنذاك؟!"

صمت فين قليلًا، وهو يفكر بحديث بيسبور الذي أعقب:

"إنها لمعضلة أخلاقية حقًّا، لكن تذكر؛ كي تكون مخولًا للحكم، فعليك التفكير بالجماعة لا بالفرد.. عليك برؤية الصورة الأكبر، وليس التفاصيل الصغيرة.. يجدر بك التعلم من ابنة خالك، فالأميرة لا تترك فرصة إلا واقتنصتها، مشاعرك لها على سبيل المثال تنم عن فرصة اقتنصتها هي".

ضيق فين عينيه بغير استيعاب لما قاله المستشار الذي ابتسم متسائلًا:

"أحسبت حقًّا يا سمو الأمير أن مشاعرك نحوها لهي وليدة قرارك، وليس أنها بسبب قدرة الفتاة على قراءتك وقراءة أكثر ما تطمح له، خاصة بعد فقدك لساقك، شخص كان يحوز كل شيء؛ الحفيد الذهبي للملك، وكذلك الذكر البكري، وفجأة! فقد تقدير الآخرين له، وصار عاجزًا بسبب فقده لساقه، لكنه لازال يحظو قوة هويته كالأمير الذكر البكري للعائلة الملكية.. أليست تلك القوة أيضًا "فرصة".. أخبرني بما سيتطلبه إحالة امرئ كهذا كالخاتم بالإصبع سوى منحه ما يتعطش له للغاية بعد فقده لساقه، وهو الشعور بالتقدير والقيمة، الشعور أن هناك من يحتاجه، وأنه الفارس المنقذ لأحدهم، وقد قررت الأميرة أن تغدو هي أحدهم.. أخبرني يا سمو الأمير ألم تلحظ

المختارة [10] ٣٤٣ / ٤٥١ Page

مطلقًا أنك بدأت حقًّا بحبها بعد فقدك لقدمك؟ لا تقلل من سطوة المرأة على الرجل، خاصة حين تبدي ضعفها واحتياجها له.. فبهذا تكمن جل قوتها".

صُعق فين، وهو يلمح بيلا التي تحي الضيوف.. كل ذلك كان تلاعبًا؟! لم يصدق

لكن فجأة اقترب منه حارس مردفًا: "سمو الأمير.. المستشار أران طلب حضورك!"

أخذ فين بضعة ثوان؛ ليتناسى ما سمعه للتو، وأومأ بتشتت للحارس، بينما انحنى له بيسبور

ذهب فين للمكان الذي أراد أران لقاءه به، وهو أحد الأبراج العالية للقصر، لم يفهم سبب ذلك المكان على وجه التحديد، خاصة بحالة قدمه التي استلزمت أن يساعده الحارس كثيرًا أثناء الصعود، تجول بالمكان مفكرًا بحديث بيسبور، حتى يحضر أران، بينما الاحتفال يظهر من أعلى البرج، سار نحو السور المعدني للشرفة التي يقف بها، وهو يهم بالاستناد إليه لولا أن صوت جلبة ما قريب أثار انتباهه، وانتباه الحارس برفقته الذي سرعان ما تحرك لداخل البرج نحو مصدر الصوت آمرًا فين بالبقاء مكانه.

ظل الأخير ساكنًا لوهلة حتى جذب سمعه صوت آخر بالقرب من السور المعدني، فاقترب من السور ليُصعق بما رآه، فقد كان ذاك سول مستندًا لأحد بروزات الزينة الخارجية للبرج، استند الفتى حرفيًا لقطع بارزة من الصخر المنحوت بيد

وقدمين مرتعشتين، صاح فين:

"سول، ماذا تفعل؟! تشبث بمكانك، سأطلب المساعدة!"

أجاب الفتى بصوت مرتعش، وأوصال مرتعدة:

"لا بأس يا فين، فهذا ما يجب حدوثه.."

"ابقَ مكانك فحسب، سأذهب".

لم يكمل فين جملته؛ ليقاطعه سول:

"لن تجد أحدًا يا فين؛ لا يوجد بهذا البرج سوانا الآن، الحارس برفقتك رحل!"

لم يستوعب فين الأمر فحاول التمسك بالسور ببيده المعطوبة، ويترك العكاز بيده الأخرى؛ ليمدها لسول قدر ما استطاع مردفًا بعزم: أمسك يدي!"

نظر سول لفين بحزن، وهز رأسه بمنتهى الحسرة قائلًا:

"أخشى أنه لا يمكنني فعل ذلك، فإن عشت أنا سيموت هو، وأنا لا يمكنني أن أكون السبب في موته!"

"عمَّ تتحدث؟! أمسك بيدي الآن، ودعك من هذا!"

"فين، لقد أخبرتني بيلا أنَّها رأتْ أختك تركض بمدينة تغرقها ألسنة النيران، ومن بين صرخات المُعذَّبين بكت هي باسم شخصٍ حسبته أنتَ، وأشكرك يا فين؛ لتصديقك إياي".

لم يكد سول ينتهي جملته حتى ترك الأجزاء الصخرية؛ ليهبط عبر ذلك الارتفاع الشاهق.. لم يستوعب فين أي شيء،

Page ٤٥١ / ٣٤٥ [10] المختارة

حتى وجد سول قد سقط أرضًا دون حراك، فغر فين فاهه غير مصدق لسرعة الحدث، بينما عمت الشهقات والصرخات من الضيوف لرؤيتهم لجثة سول، أخذت في الازدياد حتى ظهرت بيلا، وركضت عبرهم صوب جثة أخيها آخذة بالصياح به ليفيق عقب ذلك نواحها الشديد بذلك الحين وجه أحد الضيوف نظره للموضع الذي سقط منه سول؛ ليرى فين، ويشير نحوه بأصابع اتهام، ازدادت بفعل رؤية آخرين له، واعتباره من دفع سول قاتلًا إياه، هز فين رأسه بصدمة، ولم تمر دقائق حتى جاء حراس مصطحبين إياه للحديقة وسط نظرات الموجودين، ونواح بيلا على جثة سول، أردفت امرأة سريعًا:

"لا بُدَّ أنه من دفعه؛ فهو الوحيد الذي ظهر بالشرفة".

تردد صوت باتهام:

"أجل، فهو ابن دورسيرا لا بُدَّ أنه بُعث لقتل أقاربه هنا؛ كي لا يبقى خصوم لجلالتها".

ثم صوت آخر: "أليس ذلك شقيق الهجينة؟ وماذا لتتوقع منه؟!"

عند ذلك الحد كان اشتعال فين قد بلغ ذروته فصاح:

"توقفوا عن إقحام شقيقتي بمشاكلكم، كلما وددتم مذنبًا ما! فهي لا علاقة لها بأي من هذا! وأنا لم أقتل سول.. لقد حاولت مساعدته من وضع انتحاري لا أعلم كيف وصل له بالمقام الأول!"

لم تتغير نظرات الموجودين نحوه، اتهامات بلا دليل اشتعلت

المختارة [10] ٣٤٦ / ٤٥١ Page

كالنار بالهشيم نحوه، وهو يصيح ببراءته، ولا شخص واحد يقف بصفه حتى بيلا التي أخذت تبكي حيال أخيها، وحينها انسل سؤال واحد لمؤخرة رأسه:

كيرا ما أشعر به الآن كان نفس شعورك، حينما اتهمك الجميع بأنك سليلة إخوة الظل عقب إظهار المرايا لحقيقة روحك؟! ألهذا تمسكت نظراتكِ بي بقوة؟!

صاح فين متناسيًا تساؤلاته:

"اسألوا الحارس الذي كان برفقتي.. سيخبركم أنني كنت بمفردي حين تركني".

حينها سطع الحارس من بين الصفوف معترضًا بقوة:

"هذا ليس صحيحًا يا سمو الأمير لقد تركتك برفقة الأمير سول، حتى إنك أصررت أن تحادثه أعلى ذلك البرج عوضًا عن التواجد بالحفل".

نظر فين بفم وعيون منفرجة للحارس الذي لم يدرٍ متى وصل لهنا من الأساس، وقد بدأ باستيعاب الذي يحدث، خاصة بعد التفات بيلا الباكية برأسها له، وهي تتساءل بحزن جم:

"فين، كيف أمكنك فعل ذلك بأخي، وابن خالك؟!"

نظر لها الأخير، وهو لا يدري بما يفكر.. ولوهلة شعر بالهلع يتملكه، هل وقع لتوه فريسة لمصيدة أران؟! بيسبور؟! أو.. لم يرد نطق الاسم الأخير، أهي بيلا؟!

أخذت بيلا تنوح بتوسل:

"بحق شعبنا العظيم أعده لي! بحق القائدين العظيمين روخو وأمار أعده لي!"

هز البعض رؤوسهم رثاء على حالها، وصدرت بعض الهمهمات تجزم على موت الفتى المؤكد بفعل الارتفاع الشاهق للبرج.

لكن بيلا استمرت بنواحها العالي رافعة رأسها للسماء، كأنها تخاطب شخصًا ما:

"أُقسم أني سأفعل كل ما بوسعي لنشر الفضيلة، والخير بالأرض إن أعدت لي أخي فحسب! سأكرس روحي لك للأبد!"

هم الحراس بالقبض على فين بإشارة من المستشار بيسبور الذي لمحه فين لتوه، لكن قبيل أخذ فين.. شهق سول مسترجعًا أنفاسه، بينما عيناه لازالتا مغمضتين، لم يستوعب فين أو أي من الموجودين ما حدث للتو، وأخذوا ينظرون لسول الممدد بين ذراعي أخته بدهشة، آنذاك تحول بكاء بيلا لدموع السعادة محتضنة سول بشدة في أثناء اقتراب المستشار بيسبور منهما، وهو يهز رأسه بصدمة هو الآخر قائلًا:

"هذا مستحيل، إنها لمعجزة!"

ثم صاح نحو بيلا بدهشة:

"لقد استمع لكِ، القدير بالسماء! لقد استمع لكِ، وقبل هبتك بتكريس روحكِ لنشر الفضيلة بالأرض!"

في التو بعدها التفت بيسبور للجموع الواقفة صائحًا بانبهار

شديد:

"لقد استمع لها! لا أصدق، لقد رأيت بأم عيني الفتى ميتًا، ولكنه عاد للحياة بعد توسلاتها ووهبها لروحها! لقد اختاركِ القدير يا سمو الأميرة! لقد اختاركِ؛ لتكوني تابعته في الأرض تنشرين الخير، وتطهرين الأرض من الدنس!"

"هذا صحيح!"

"لا أصدق، لكني رأيت بأم عيناي الأمر!"

تعالت الهمهمات، وتلا ذلك علو صوت بيسبور مرددًا: "الأميرة بيلا إنكِ المختارة!"

أخذ يكرر ذلك، حتى بدأ بعض الموجودين بدورهم التأكيد على الأمر مرددين كالقطيع:

"المختارة! المختارة! المختارة!"

***

[11]
الظُّلمات

ظل قابعًا بمكانه، والتفكير يغزو ملامحه أثناء استناده لتلك الطاولة الحاوية لخريطة توضح البلاد المجاورة لهم، وحفنة من التماثيل متناهية الصغر التي تمثل جنود جيشه، وجيش الخصم.

تأملت دورسيرا زوجها، وهي تقف على بُعد داخل تلك الخيمة، بينما هو يدلي أمره بحزم:

"نفذ الليلة!"

أومأ أحد القواد: "أمرك، مولاي!"

ثم انصرف القائد برفقة الآخرين، بينما ظلت دورسيرا تنظر صوب بودير الذي ظهر عليه التركيز الشديد للخريطة، غير مدركة لماذا يصر على تواجدها كطرف صامت بتلك الاجتماعات سابقًا؛ لأصرت هي على ذلك، لكن الآن لا تفكر بشيء سوى بحال أطفالها المشتتين، المهددين بالموت بأية لحظة، تنهدت مفكرة أنه يفعل ذلك؛ ليريها ما سيفعله بأخيها.. أحمق، لا يدري أنها تود موت نايلس أكثر منه، لكنها أيضًا لا تود الاستمرار بالمجزرة التي ستُبيدهم جميعًا في النهاية.

مر الوقت بطيئًا كالسلحفاة حتى جاء مرسال يسعى، وهو يبشر بودير قائلًا:

"مولاي، نجحنا في اختراق المدينة!"

لاحت ابتسامة نصر على وجه بودير وتوجه للخارج، لكن قبيل ذلك أردف لدورسيرا باقتضاب:

"حضري نفسكِ، فسنتوجه لداخل المدينة".

أومأت أثناء انصرافه مسترجعة خطته لاختراق حصن أقرب المدن للعاصمة الغربية، والتي تقع بحوزة نايلس، أو بمعنى أصح كانت بحوزته.

مر بعض الوقت حتى رافقها بعض جنود المخيم لداخل المدينة التي أعلنت استسلامها لتوها، تخيلت دورسيرا ما قام به جنود بودير على مرور أسابيع أثناء حصارهم لتلك البقعة، تخيلت الجنود وهم ينتظرون أستار الليل، ويرمون بدمى بحجم البشر لداخل أسوار المدينة بواسطة الحبال، وبكل مرة تنهال أسهم الرماة نحو الدمى حتى يكتشفوا أنها لم تكن سوى خدعة، تكرر الأمر مرارًا ومرارًا حتى الليلة المنشودة.. ليلة اليوم.

التي عوضًا عن رمي الدمى لداخل أسوار المدينة، رموا جنودًا حقيقين، فرسان، ورماة الذين لم يهتم رماة العدو كثيرًا لهم في البداية لحسبهم أنها ليست سوى خدعة الدمى المكررة، ذلك حتى وجدوا أن رؤوس زملائهم تُشطر إربًا، بينما يسود التزعزع صفوفهم، ويتم اختراق مدينتهم.

اتجهت دورسيرا عبر الشوارع والمواطنين المنصاعين للجنود متوسلين الرحمة لهم ولأطفالهم، رأت طفلة صغيرة تختبئ

خلف والدتها، ولوهلة تذكرت ثنسيا المريضة، وصلت في النهاية للقلعة العظمى بتلك المدينة حيثما أمر بودير بأسر نبلاء المدينة أثناء وقوفه بإحدى الردهات برفقة قادة قواته.

توقفت دورسيرا قليلًا، وهي تسمعه يأمر:

"لا تنتظروا حتى الغد، حالًا انصرف برفقة كتائبك، مصدرًا إلهاء للجنود المحاوطين للعاصمة الغربية، أريد أن يتراءى لهم أن كتيبة صغير هي من تتجه نحوهم، وأن بوسعهم تدميرها، وحينما يتوجهون نحوها يجدونها لم تكن سوى خدعة مماثلة لخدعة الدمى، وحينها انهال بقواتك عليهم من الخلف، والأمام واحصرهم بين قبضتي الكماشة!"

ثم أشار نحو آخر أمرًا:

"وحينها اهرع أنت بقواتك لاقتحام المدينة!"

أومأ كليهما منصرفين، بينما توجه جندي لبودير موجهًا التحية العسكرية، وأعقب:

"مولاي، تسلمنا الأخبار من قائد الجيش الفارس رادو، ويخبر جلالتك بأنه لم يتوصل لأي شيء مما بُعث لإيجاده بمهمته!"

"أمره بالعودة، أخبره أن ملكه بحاجة له ولقواته بهذه الساعة أكثر من أي وقت مضى!"

"أمر، جلالتك!"

أدركت دورسيرا حينها أن بودير لن يلتفت لرحلة العالِم ران

تلك مجددًا، وأن الأمل صار معدومًا بإزالة الروح الهجينة من ابنتها، يا لا الحسرة.

مرت أيام، أسابيع طوال، ولا شيء يتغير وعاصمة المملكة الغربية محصنة بالكامل ضد ضربات بودير.. وكل ذلك بسبب جيش المرتزقة الخاص بنايلس، الذي تمركز بالقرب من العاصمة، وأخذ يصد ضربات بودير ويخرب حصاره للمدينة لأكثر من مرة، حتى جاء ذلك اليوم الذي طلب بودير بحضور دورسيرا؛ لتجده جالسًا أعلى أحد المقاعد الفخمة بردهة واسعة بالقلعة التي اتخذوها مسكنًا لحين انتهاء كل هذا، تحدث بودير ملوحًا بخطاب بيده:

"إنه خطاب بختم أخيكِ ميستريو يطلب عقد هدنة بشكل مبدئي، وإذا وافقت سيعود فين لكِ، لماذا أشعر أن هذا الموقف تكرر سابقًا؟!"

تفهمت دورسيرا ما عناه، بأن الموقف ذاته حدث سابقًا مع نايلس، لكنها لم تكد تتحدث حتى استأنف هو:

"لكن هذه المرة لن أقع بالشرك ذاته، وسأقلب الكفة لصالحي!"

عقب ذلك بندائه لأحد جنوده، وأمره بجلب أحد القواد الذي أتى فورًا؛ ليدلي بودير بأوامره له، بينما دورسيرا لازالت بالمكان:

"حرك جيشنا بأكمله من ليس الكبرى، لكن احرص على إحاطة آبار الحياة بحماية شديدة، وابعث خطابًا فوريًا للأميرة

جودي بالرحيل نحو الجنوب، حتى أبعث قوات لإعادتها، أريد أن تسود الشائعات بأن قواتنا انسحبت من ليس الكبرى للمملكة الشرقية للنظر بأمر ميستريو ومكائده".

"هل أوجه قوات جلالتك جمة للمملكة الشرقية؟!"

"بالطبع لا، لن تكون سوى إشاعة أريدها أن تنتشر كالنار بالهشيم، وتصل لمسامع نايلس وحلفائه -أن ليس الكبرى لم تعد محمية إطلاقًا، ورحل جيشها نحو المملكة الشرقية-، بينما قواتنا تقبع بالجنوب لنحاصر مرتزقة نايلس من الشمال والجنوب مدمرين إياهم، وأرسل بكتيبة صغيرة للتحري بأمر الهدنة مع ميستريو بشكل ظاهري، وإعادة الأمير فين لأراضينا بالمملكة الشرقية! والآن انصرف!"

"سمع وطاعة، جلالتك!"

حيا القائد بودير منصرفًا سريعًا؛ لينفذ الأوامر، بينما أخذت دورسيرا تستوعب بوجل ما عناه فعل بودير، ثم سألت بصدمة: "أتنوي جعل (ليس الكبرى) كبش فداء؟!"

أجابها بودير:

"هذا هو ما سيجذب أنظار أخيكِ مدعِ القوة ذلك: كون ليس الكبرى بالفعل ليست محمية؛ ليستطيع أن يطالها، لكن على إثر ذلك سأسحق قواته وأحوز عاصمة المملكة الغربية إنها تضحية لا بُدَّ منها؛ فأنا لن أنتظر حياتي في مناوشات، بينما هو يحتمي بمرتزقته؛ كي لا نغزو المدينة! سأقصم شوكته بالقريب البالغ!"

تساءلت دورسيرا بصدمة: لكن ماذا حيال محاولة إيجاد علاج للمرض الأزرق الذي اجتمع أناس من شتى أنحاء الأرض بـ(ليس الكبرى)؛ لإيجاد الترياق له بها، ماذا عن الشعب حتى الموجود بتلك الأراضي ألا يكترث لأمره؟! وماذا عن كيرا التي تتجه صوب (ليس الكبرى)؟!

اهتز كيانها غير مصدقة لكون مجون بودير أوصله لتضحية كتلك، وبالأرض التي شب بها؛ ليجذب أنظار العدو لمهاجمتها، بينما يستغل هو تشتت عدوه ذلك ليدمر جيشه، ويخترق عاصمة المملكة الغربية، كادت الاعتراض بالرفض القاطع، لكن قبيل ذلك، تحدث باقتضاب شديد:

"لا أريد سماع حرف واحد، فالأمر سينتهي هنا!"

ختم حديثه مشيرًا لها بالانصراف، نظرت له بصدمة مهولة حتى شعرت بأنفاسها تزداد، وهي تخرج بسرعة جنونية لتكتب ذلك الخطاب لأختها إنستازيا، عما يجدر بها فعله لإعادة كيرا للعاصمة الأم في خضم ما ستؤول إليه الأمور، لا تدر كيف ستتدبر وصول الخطاب لأختها بلمح البصر، لتقوم أختها بدورها بعمل اللازم، وبعث خطابًا لأدريان يصله أيضًا بالسرعة الكافية قبيل انسياق أخيها خلف خدعة بودير، وللمرة الأولى تخلت دورسيرا عن هيبتها كليًا، وهرولت لتكتب ذلك الخطاب، وتبعثه كما لو أنها تصارع الزمن!

***

[12]

الوحش بداخلي

تلك الدائرة أمامها تبدو كهدف بعيد للغاية، لكن لا يجب أن تتزعزع رؤيتها عنه أبدًا، تحاول إحكام قبضتها على القوس وتوجيه السهم نحو تلك النقطة بالمنتصف، تبدو ضئيلة للغاية، أبعد ما يكون، تحاول أخذ أنفاسها لكن الدائرة تبتعد مع كل غمضة عين حينها فتضطر لإطلاق العنان للسهم بأنامل مرتعشة، فقط لتجد السهم قد استقر على الطرف العلوي الأقصى للدائرة، تنظر نحو الأفق فتجد طيورًا تغادر المكان والشمس توشك على الرحيل، سحقًا.

تنظر نحو الدائرة؛ لتجدها تواصل الابتعاد فتسحب سهمًا آخر سريعًا، وتسحبه للخلف محاولة إحكام ضربتها تلك المرة، لم تنتظر كثيرًا فتركته يطير برفقة الرياح بأسرع ما أمكنها، علها تستطيع اللحاق بتلك الدائرة التي صارت تلوح بالأفق البعيد الآن، لكن ما حدث هو أن السهم لم يطلها على الإطلاق، وعند ذلك الحد تحول الوجود من حولها للحلكة الشديدة، وتلاشت الدائرة كليًا، أصاب الوجل قلب ليليس ساحبة سهمًا آخر بسرعة جنونية مترقبة كل الأرجاء من حولها، إنها لازالت هنا بنفس الموضع منذ مغادرة سيليك، ظلت برفقة أنيسة إيفان -رامي الأسهم- لكنه لم يكن بنفس اللطف، ولم يرافقها نحو أحلام وردية تشبه جنة الخلد، أطلقت سهمها سريعًا صوب فراغ ما لاعتقادها أنها سمعت صوتًا، لكن السهم استقر بشجرة بدت كالفحم المحترق، كأنها آتية من صلب الجحيم،

كل الأشجار تلونت بذلك الشكل، والعشب استحال رمادًا، والخيام اختفت، وحل بموضعها أشلاء لأشخاص تُفحموا كليًا، السبب الوحيد لعدم دخولها في حالة كاملة من الهلع إثر رؤية ذلك هو معرفتها أنها تحلم.

"انفعالاتك يا فتاة، سيطرتك على مخاوفك، ستتحكم بشكل كبير على قدرتك على النجاة من عدمها، وإذا كان سيليك المتفلسف آراكِ عجائب سحر الأحلام، فأنا سأريكِ أهواله".

تذكرت كلمات المدعو إيفان، لم تحسب أبدًا أن الأمر قد يتحول لهذا الرعب، من جنة الأحلام لهاوية الكوابيس، أخذت كلماته تتردد بعقلها مجددًا:

"أمثال سيليك يسحبونكِ في مغامرة لطيفة عبر الخيال، ينسونكِ واقعك الأليم، ويعدونكِ بالسعادة الأبدية، لكن في لمح البصر يختفون أتدركين لماذا؟! لأنه لا يوجد شيء يُسمى "السعادة الأبدية"، إنه ليس سوى حلم ساحر يرسمونه أمامك كوهم لا يكاد يخطف بريق عينيك؛ لتركضي خلفه وتسقطي في الهاوية، وسحر الأحلام كالحياة لا تكادين ترى لمحة لحلم جميل، ثم يليه كوابيس قد تُفني كيانك تمامًا، وتترك حبيسة في هذا العالم؛ لذا فبقدر إصابتك للسهم بالموضع الصحيح ستستطيعين التركيز أثناء الكوابيس ومجابهة مخاوفك.. إن أردتِ النجاة فعليك تعلم كيفية الدفاع عن نفسك!"

لوهلة نست الموجودات، وتذكرت لحظة ختامه لجملته تلك بإعطائه قوسه إياها، لحظة تشتت واحدة كانت كفيلة بصدمتها بصراخ أنثوي قادم من عقر الجحيم صم أذنها، ولمحت ما

يركض بقوة صوبها، إنه ذلك الكيان مجددًا.. الضخم معدوم الملامح يحفه السواد عدا من عينين تشرّ دمًا، وفمًا ينفرج على أسره قاسمًا الوجه كليًا لجزئين، شعر غزير يصل حتى الأرض، ومخالب أشبه بالسكاكين تنبع من أصابع شديدة الطول لأطراف لم يبدُ حقًّا أهي قدم أم ذراع، فقط التحمت بذلك الجسد بشكل غير متسق تمامًا، شعرت ليليس بدمائها تتجمد، بينما يعدو الكيان صوبها صارخًا، لم تشعر بنفسها وتركت العنان لقدمها راكضة بلا وجهة محددة، تكررت كلمات إيفان مجددًا بعقلها:

"في سبيل وصولك للحقيقة، والغوص بتلك الأحلام وأعماقها اللامتناهية.. ستتربص بك أعداد لا تُحصى من الشياطين، الأرواح الضائعة، الكيانات مجهولة الهوية، وجميعهم سيريدون شيئًا واحدًا: استحواذ روحك، وتملك جسدك المادي؛ ليخطوا عبره لأرض الواقع، فكما ترين كما نحاول نحن الولوج لعالمهم، هم أيضًا يسعون للخطو لعالمنا، الفاسقين منهم والدعرة، وكي لا يتمكنوا منكِ فعليك بقتلهم أو الهرب للأبدية".

أخذت تركض مستنكرة إمكانية قتلها لرعب كهذا! وصلت حتى منحدر منخفض قليلًا، فوثبت منه، وهرعت لأحد الأشجار مختبئة خلفها، تباطأ عدو الكيان المطارد لها لعدم رؤيته إياها، وأخذ يصرخ بعزم ما به.. فشعرت أنها ستتجمد بموضعها، لماذا تخوض كل ذلك؟! إنها بحلم.. يمكنها الاستيقاظ فحسب، إن ركزت على ذلك.. فيمكنها، فكرت

Page ٤٥١ / ٣٥٨ [12] الوحش بداخلي

وقلبها سيخترق حصن صدرها، بينما هي تستمع لخطوات الكيان تقترب من موضعها، لكن لتعرف الحقيقة وتجد المعلم عليها خوض ذلك، فكرت بذلك مغمضة عينها مركزة بشيء واحد: "فلتختفي!".

فتحت عيونها؛ لتجد نفسها مستندة لجدار صخري بجوار قصر عظيم الهيئة، اختفى ذلك الكيان، سارت بالأرجاء، ولم تجد أنيس لها سوى المطر الغزير، رأت بالأفق شجرة ما عملاقة تقف وحيدة، بدت غريبة عن باقي المكان.. شيء ما حيالها جذب ليليس لتقترب منها، كما لو أنها الملاذ لعائد بعد دهر من الركض، اقتربت منها وفور وقوفها لجوارها.. شعرت بمن يسلط عيونه نحوها، فاستدارت لتجد ما صعقها كليًا.. جسدًا بلا رأس يقف بمواجهتها، وإن كانت عيونه لازالت موجودة لأقسمت أنه يتطلع نحوها، لم تفكر مرتين، وهمت بالركض لكنها سرعان ما سُحبت لأسفل ساقطة أرضًا، اتسعت عيناها نحو ما سحبها؛ لتجد يد من تحت الأرض تمسك بساقها، إن كان الذعر حشرات فلغدت الآن جثة محللة تمامًا لإلتهامهم لأدق أجزائها، حاولت الوقوف لكن اليد أحكمت قبضتها حول ساق ليليس ساحبة إياها للأسفل، نظرت للأفق لتجد الجسد دون الرأس يقترب ببطء، كاد الجنون يفتك بها، وهي تحاول التملص من اليد، وسرعان ما سحبت أحد الأسهم موجهة إياها نحو الجسد، وهي تراه يقترب، سحبت السهم للخلف سريعًا، ثم تركته حرًا، لكنه لم يصب الجسد، سحقًا!

سحبت سهمًا آخر، وحاولت التصويب، لكنه السهم لم يصب

سوى ذراعه، وقد صار على بُعد خطوات منها، صارت أناملها كالثلج، وهي ترتعش بقوة محاولة تصويب سهم ثالث، لكن هذا لن يجدي، خطرت ببالها فكرة وبيدها المرتعشة أحكمت قبضتها على السهم موجهة إياه للذراع التي قيدتها، فخر منها الدماء وأفلتتها؛ لتقف ليليس راكضة بسرعة، أرادت الخروج فحسب من ذلك المكان، لكن الجدران المحيطة بالقصر أخذت تقترب من بعضها محاصرة إياها، بينما الجسد يدنو منها، لهثت وقد أصابت الغشاوة عينها، وكادت تفقد الوعي، أغمضت عينها، وتخيلت شيئًا واحدًا: "ممر".

فتحت عيونها؛ لتجد ممرًا ضئيل الحجم بدأ بالتشقق بإحدى الجدران الصخرية، ركضت نحوه، ثم استندت لأطرافها الأربعة زاحفة بأسرع ما لديها؛ لتعبر من خلاله، كان كاحلًا طويلًا للغاية، وعند اجتيازها ربعه نظرت للخلف فوجدت الجسد دون الرأس ثنى جزعه محاولًا الزحف واتباعها، تمكن الهلع منها وأخذت تسرع زحفها بأقصى ما لديها حتى كادت تصل لمخرج يطل على غابة، تلك الغابة التي تكررت رؤياها في سائر أحلامها السابقة، لم تكد تصل للمخرج حتى انتفضت كليًا متجمدة بموضعها إثر سماعها؛ لذلك الصراخ الأنثوي مجددًا، ورؤيتها لذلك الكيان الذي يتربصها ينظر نحوها عبر المخرج عائقًا إياه، بينما الجسد صار على بُعد خطوات فحسب منها، "هبوط"!

كررت تلك الكلمة فاستحالت الأرض أسفلها سرابًا، وشعرت بنفسها تسقط من على ارتفاع شاهق، أخذ صراخ الكيان يتردد

بأذنها، لكن لم تجرؤ على فتح عينها من فرط الهواء الشديد الذي أصاب وجهها، فجأة اصطدمت بسطح مائي؛ لتجد نفسها أسفل مياه سحيقة، صعدت لأعلى الماء واستنشقت الهواء، وهي بالكاد تستطيع الرؤية من فرط الأمطار الغزيرة المتساقطة على وجهها، جاهدت للمح أي شيء، لكن الأمواج أخذت بلطم وجهها وعدم السماح لها باستنشاق نفس كامل حتى، لمحت على مبعدة ما يبدو كالجزيرة، لكنها ظهرت سوداء كليًا.

رأت شيئًا ما طافي على سطح الماء يتجه نحوها، اعتقدت أنه بقايا زورق مدمر أو ما شابه، فاتجهت له؛ لتستند إليه، لكنها انتفضت بعيدًا عنه حين اكتشفت أنه جثة بشرية، أخذ الجسد يطوف برفقة الأمواج باتجاه الجزيرة الموجودة بالأفق، الأمطار تكاد تعميها، لكن رغم ذلك رأت أجسادًا أخرى تطفو متجهة لنفس المكان، حاولت تمالك أنفاسها، لكن سرعان ما تردد صوت الصراخ الأنثوي بصدى تقشعر له الأبدان، التفتت حولها وقلبها يخور كالثلج الذائب، لم ترَ أي شيء ليس سوى الأجساد الطافية، لا شيء حتى بدا كأن صاعقة ضربت ظهرها، وحين التفتت وجدت مخالب الكيان قد غُرزت بلحمها، ثم صرخ بوجهها صرخة سحبت منها الحياة تمامًا، عليها أن تستيقظ الآن!

فكرت بهلع، وهي تغوص بأقصى ما لديها تحت الماء غير مدركة لوجهتها الحقيقة، أغلقت عيونها وأخذت تفكر فحسب في كلمة واحدة: "استيقاظ"! لكن عندما فتحت عيناها مجددًا

كانت لازالت بموضعها تحت الماء.

"كل كيان ستقابلينه إن لم تستطيعي قتله، فعليك تركيز كامل حواسك بكلمة واحدة فقط، ستكون هي ملاذك للهرب، لكن تذكري أن ذلك الكيان سيظل يطاردك حتى ينال منكِ أو تنالي منه؛ وبكل مرة هرب جديد سيصير أسرع، وأكثر عزيمة لاقتناصك، وإذا تسبب بأذيتك سيفقدك جزءًا كبيرًا من طاقتك، وبالتالي لن يؤتي تركيزك بما تريدين حصاده، وستضطرين للانتظار حتى تتعافين أو تلوذي به أو سيلوذ هو بكِ، ويتمكن من تملك روحك.. وبالتالي جسدك بأرض الواقع!"

تذكرت ليليس كلمات إيفان شاعرة بظهرها يحترق بالآلام، أخذت تغوص، وتغوص لأسفل حتى رأت على بُعد أغرب ما قد تسقط عيناها عليه في الوجود، رأت إعصار مائي مهول الحجم أسفل أرضًا ما تندثر بالسواد.. نظرت خلفها، فرأت الكيان يتبعها مطلقًا صوته المجمد للأفئدة عبر موجات الماء، عامت نحو الاعصار، ولم تدرِ كيف بدا التنفس بالماء بتلك السهولة، ومنذ ثوان لم تستطع أخذ أنفاسها.. بيئة الأحلام تلك صعب التنبؤ بها، أخذت بالاقتراب من الإعصار شاسع الحجم، حيثما رأت مئات الأجساد الفانية تتخلل دواماته، كان مشهدًا مشيب للوجدان، لكن هذا هو ملاذها الوحيد الآن من الكيان، لم تركز بالأجساد وعبرت بين طيات الإعصار كما لو أنه مياه انسيابية للغاية، نظرت خلفها مجددًا فرأت الكيان يقترب، وصلت لمركز الإعصار، وحسبت أنه سيقودها لمكان ما، لكنه كان مسدودًا بما يشبه لوحًا زجاجيًا عملاقًا، وخلفه ظهر مشهد

غريب للغاية، لأشخاص من جماعتين بعيون مختلفة أغلبهم يحملون سيوف وأدرع كالجنود، بينما تتوسطهم فتاة ظهر استماع الجميع لها، حاولت ليليس اختراق ذلك السد المفارق بينها وبينهم، لكنه كان متينًا للغاية، أخذت تضرب بقبضتها عليه فربما سيراها أحدهم ويحررها.

كررت ضرباتها بقبضتها محاولة لفت نظرهم لها، لكن أحدًا لم يلمحها، أغمضت عينيها، وأخذت تكرر: "استيقاظ"، لكنها فتحتها؛ لتجد أنها لازالت هنا، ولم تُشف كليًا بعد، نظرت خلفها فرأت الكيان اقترب للغاية، فطرقت مجددًا بيدها على الجدار، وهي تصرخ بعيون دامعة، وصوت لا تكاد المياه تظهره: "أنجدوني!"

لوهلة رأت أن شخصية ما اقتربت لها رغم عدم انتباه أي شخص آخر، وما كادت تلك الشخصية تقترب حتى تردد بأذن ليليس صراخ الكيان وهو يقبع خلفها تمامًا، لكن ما إن لامست يد من بالطرف الآخر اللوح الزجاجي حتى دوى انفجار مفجع، انفجار شطر الجدار لشظايا متناثرة بكل مكان وأحال المحيط بأكمله لما يشبه البركان، كانت ليليس مغمضة عينها، وهي تردد: "استيقاظ" حتى شعرت أنها تستنشق الهواء، وأنها قد قُذفت للهواء من شدة الانفجار.

فتحت عينيها شاهقة؛ لتجد نفسها بتلك الخيمة المعتادة، والظلام يحاوطها من كل صوب، هرعت للخارج بذلك الاتجاه الذي حفظته عن ظهر قلب؛ لتراه يقف هناك بنفس هيئته مصوبًا الأسهم نحو نفس الدائرة، ولا يخطئ أبدًا حتى في

جوف هذا الليل القاحل، ركضت ليليس له، وأخذت بسرد آخر حلم رأته، بينما لم يتوقف هو عن التصويب سوى حين بدأت بسرد جزئية اللوح الزجاجي والشخصية التي توجهت نحوها بكامل أوصافها، ثم ذلك الانفجار المدوي.

وللمرة الأولى تلمح أي شيء بعيونه غير الجدية، ففي تلك المرة كان تعبير آخر أقرب للدهشة، وأيضًا للمرة الأولى لا يناولها القوس، وحاملة الأسهم عقب سردها لأي حلم تحلمه حتى تتدرب؛ لتجد نفسها قد خطت نحو حلم جديد.

بتلك المرة نظر نحوها نظرة طويلة، وقال:

"لم تتمكني من قتل أي من الأرواح التي قابلتها سوى مرتين فحسب، لكن المشكلة الحقيقة أنك حتى الآن لم تتمكني من الكيان الصارخ ذاته الذي يترصدك بكل حلم".

نظرت له غير مستوعبة حقًا لماذا وصولها للعالم -عن طريق إبصارها بالحقيقة- يتطلب كل ذلك؟! ألا يمكن أن تكون الأمور بسهولة حلمًا واحدًا فحسب؟! أحقًا عليها الخوص بطبقات أحلام غير عادية، والسفر عبرها كلها سليمة، والتعرض لكل ذلك لتعرف أين مكان المعلم ران؟!

أكمل إيفان:

"المكان الذي يمنعك الكيان من الولوج إليه، دومًا يكون نفس المكان، بكل الأحلام، أليس كذلك؟!"

أومأت مجيبة:

"أجل، تلك الغابة.."

تذكرتها ليليس جيدًا، بل أنها حُفرت برأسها، وليس الآن فحسب، بل منذ رأتها للمرة الأولى عند محاولتها؛ لتبليغ العالِم ران بمحاولة اغتياله وتحول السلالم لسبعة؛ أحدها قادها لتلك الغابة حيثما رأت ست مرايا.. عقبها أهوال أوقفت ضخ الدماء لفؤادها.

أجاب الآخر:

"كل أوصافك لا تشي سوى بأنها غابة الظل.. إذن أنتِ تعلمين لأين عليكِ بالاتجاه؟"

تلك ثاني مرة يؤكد تلك المعلومة، كيف يستطيع الجزم؟! لم يخرج أحد سليمًا من ذلك المكان؛ ليسرد تفاصيله، لكن إيفان يتحدث بصيغة مؤكدة، كما لو أنه عاش عمره كاملًا بغابة الظل؛ ليعرف أدق ثناياها، لا يجيب حين تسأله عن كيفية ثقته، لكن لا بُدَّ أنه جال بأحلامه بذلك المكان من قبل.

نظر إيفان للأفق، ثم تحدث بجدية:

"أخشى أن الأمر لا بُدَّ أن يحدث مبكرًا.. حتى قبل قتلك للكيان".

لم تفهم ليليس، فتساءلت:

"أي أمر؟! أتعني أني سأحلم الآن؛ لأرى الحقيقة وأصل للمعلم؟!"

تأملها لوهلة، ثم أجاب: "كلا، أعني أنكِ ستستيقظين!"

اتسعت عيونها، وهي لا تفهم، ثم اتضحت رؤية ما بعقلها، رأتها حين خطت برفقة سيليك للمرة الأخيرة بالقرب من أنقاض مقر الحالمين، ورأت مصدر الضوء الأخضر الذي أغرق قلبها حزنًا.

رأت إيفان يبتعد عن رؤيتها، ويردف بصوت بعيد: "وداعًا يا ليليس".

حينها تذكرت أن الضوء الأخضر لم ينبع سوى من تلك القلادة المنسدلة من رقبة جسدها المهمد، القابع بالقرب من أنقاض مقر الحالمين، أجل فهي لم تستيقظ مطلقًا! لم تحاول تلك السيدة روزالين خطفها، ولم تلتق بقائد الجيش رادو أبدًا، وبالتأكيد لم تقابل الساحرين سيليك وإيفان، لم يكن كل ذلك سوى حلم لمسار أحداث كان من الممكن خوضه وما ترتب عليه.. لم يكن ذلك سوى تفرع واحد من ملايين التفرعات، والاحتمالات التي كانت ممكنة الحدوث.. لكنها لم تحدث أبدًا، فقد هامت أرواح هذين الساحرين بالقرب منها قامعين قدرتها على الاستيقاظ؛ كي يجعلاها تخوض مئات الأحلام والكوابيس، وتتعلم كل ما أطلعاها عليه.. الأمر منطقي الآن ففي حال آخر كيف استطاع شخصان يُشاع عنهما استعمال السحر السفر برفقة الجيش للعاصمة الأم -للبلاد التي تُحرم السحر-بكل تلك البساطة؟!

وكل ذلك؛ لأن ذلك الكيان الموجود بداخلها يمنعها من رؤية الحقيقة التي ستوصلها للمعلم لسبب قد يدمرها، ويأسرها هي والكيان بعالم الأحلام للأبد؛ لذلك فقبيل خوض دربها للحقيقة

كان لا بُدَّ من تعلم سحر الأحلام.

تراءى كل ذلك ببال ليليس، بينما صوت المطر يتردد بأذنها، وتشعر بقطراته تبللها أثناء فتحها لعيونها واستيقاظها حقًّا تلك المرة.

***

[13]
أراك لاحقًا يا ليليس

أخذت صفعات الهواء تتخبط بها والأمطار الغزيرة تبللها، لكنها لم تكترث لشعورها بالبرد هذه المرة، توقفت ليليس من موضعها ناظرة للمشهد أمامها الذي بدا كالرعب الجاثم على الأنحاء، أنقاض مقر الحالمين على الأفق تتزين بأضواء البرق البراقة.. تردد صوت الرعد، لكنها ظلت تنظر للأنقاض التي بدت لوهلة كأكثر القصور هولًا، بينما تغطيها مياه الأمطار، حركت ساقها التي كُسرت سابقًا فوجدتها سليمة، الأمطار تُغرق حتى أدق ثغراتها، لكنها تجاهلت ذلك رافعة تلك القلادة ذات الزمردة الخضراء، والمعدن البالي لنظرها فوجدتها خافتة تمامًا.. لا بُدَّ أن تلك علامة كونها مستيقظة، فعلى مدار أحلامها ظلت القلادة تضوي باستمرار..

سارت مبتعدة، وهي على علم بوجهتها..

استغرقها بعض الوقت حتى وصلت للقرية المجاورة، عبرت خلال الظلام، ولم تكترث للأصوات أو الظلال، لم يظهر على أفق بالها سوى شيء واحد:

"غابة الظل".

خطت عبر دروب القرية المألوفة لها، كان الأغلب بمنازلهم، لكنها رغم الأمطار لاحظت أصوات عدو غريب قادمة من الشمال، وحينما ركزت وجدتها بعض الحيوانات تختبئ بأي موضع قريب لها.

أكملت سيرها وقدماها تقتادها عبر الطريق الصحيح، إنها تعلمه فقد رأته لمئات المرات، عدا بعض المشاعل فلم تُضاء الكثير من البيوت ربما منزل أو اثنان بالإضافة لحانة ما.

تردد صوت المطر، لكنها ميزت صوتًا آخر يقترب، صوت عدو شديد لحدوات حصان، حاولت تتبع الصوت؛ لتجده جنديًا ما يركض بعزم ما لديه، فلحقت به سريعًا.. لتجده يقف أمام الحانة المضاءة تاركًا فرسه بأسرع ما لديه، وهو يقتحم الحانة بقوة بهيئته المبللة حتى أظافر قدمه، ويصيح بالموجودين ساحبًا إياهم من مجونهم:

"ليس الكبرى تحت الهجوم!"

أخذ الموجودون يسخرون منه، ويصفونه بالمجنون بسبب سكرهم وعربدتهم، لكنه صاح مجددًا:

"إنها الحقيقة! لقد هربت خلال الهجوم، وعند ذهابي لاستدعاء القوات علمت بأن الملك أمر بإجلائها للشرق!"

كرر الموجودون استهزائهم، سألهم الجندي بغضب:

"أين الكتيبة التي تركها الفارس رادو؟!"

ضحك أحد الموجودين، وهو يبتعد عن عاهرة تجلس بالقرب منه، وأردف:

"علم يا سيدي، أنا هنا!"

اقترب منه الجندي والغضب يتطاير من عيونه متسائلًا:

"أين باقي كتيبتك؟!"

نظر له الآخر، ثم نظر للموجودين فانفجروا جميعهم ضاحكين، بينما تجشأ الجندي الثمل، مردفًا:

"تعلم يا رجل.. يستمتعون قليلًا، وما الضرر؟! لقد بقينا هنا للبحث عن عالم ما، ومساعدته الصهباء، ولا أثر لهما، وهذه القرية جميلة ممتعة، لا تحتاج حقًّا لأي حماية، للحق نحن من نحتاج حماية من ملذاتها".

كرر الثمل ضحكاته، بينما قبض الجندي الآخر على ياقتي قميص الثمل مباغتًا إياه، وهو يصيح:

"أيها اللعين، ألا تدرك ما نحن بغراره؟! لقد أحرقوا كل شيء! حتى الأطفال!"

بدا عدم الاتزان بعيون الثمل، بينما شهقت بعض الموجودات، لكن رغم ذلك فجأة دوت ضحكة عالية لأحد الرجال الجالسين، وأخذ يضرب بقبضته أعلى طاولته محاولًا كتم ضحكاته، وهو يردف من بين ضحكاته:

"احرقوا.. الأطفا..ل، إنها لأفضل دعابة.. سمعتها اليوم..".

تجاهلت ليليس المتبقي من تلك المسرحية الهزلية متوجهة للحصان الخاص بالفارس ممتطية إياه، أخذ يصهل لكنها حثته على الركض مردفة: "اصمت.."

ركضت مبتعدة بين شلالات الأمطار عبر السواد الحالك،

والأرض الطينية، وهي تتذكر المرات المعدودة التي حاول العالم بها تعليمها التحكم بالفرس عبر رحلتهم للأنقاض.

بسرعتها تلك إما ستصل لوجهتها، أو ستفقد حياتها بسبب سقطة ما لكن لم يعد أي شيء مهمًا بقدر وصولها لوجهتها، ومعرفة كيفية الوصول للمعلم.

مع بداية أشعة الشمس بدت أنها على الأفق، لكم من الوقت ركضت؟ لكم من الوقت ظلت تعدو؟! أهذا أول شروق منذ القرية أم أنه على بُعد أيام أم على بُعد أسابيع؟! هل توقفت على مدار رحلتها؟! هل تركت الفرس للارتواء أو للراحة، ربما احتوت حقيبة الجندي أعلى الفرس على طعام تغذت به، ربما على رداء أسود وضعته أعلاها للاحتماء من الأمطار، لم يبدُ شيء مهم أو واضح، لا شيء عدا إيجاد المعلم ران، والذي سيكون عبر تلك الغابة.

عبرت بعض الرحالة في الجوار الذين نظروا لها بتعجب، وعند رؤية وجهتها صاحوا:

"إلى أين تذهبين؟! يا أنتِ؟! لن تخرجي حية!"

لكن عند ذلك الحد كانت قد تجاوزتهم بالفعل.. راكضة بفرسها عبر أغوار غابة الظل التي ظهرت عادية للغاية، ترجلت من على الفرس، وأخذت تسير بالأرجاء، وهي لا ترى أي شيء يدعو للريبة.. الأشجار تقف شامخة بكل مكان، والعشب يهتز هزة خفيفة بفعل الرياح، لا شيء حقًا حتى إنها رأت سنجاب يعدو نحو أحد الأشجار أمامها، كما رأت بما يبدو كعصفورين

يحلقان في الفضاء الشاسع فوقها، كل شيء طبيعي وليس مقارب حتى للدرب القاحل الذي خاضته من قبل.

تأملت شجرة ما، ثم جلست مستندة لها ممددة قدميها أمامها، ورفعت قلادتها لنظرها لتجدها خافتة فتركتها، ونظرت عاليًا للسماء، بينما النعاس يتسلل لجفونها ويشوش رؤيتها حتى كان آخر ما رأته هما العصفوران ذاتهما وكأنهما يلاحقانها، وتردد بالها تساؤل واحد: "أيها المعلم، أين أنت؟"، ثم انطفأت الرؤية.

فتحت عيونها؛ لتجد نفسها تقف مستندة للشجرة ذاتها، بينما السواد عم المكان، والأمطار أخذت تتساقط بغزارة، حاولت تهدئة نفسها عل المطر يخفت لكن شيئًا لم يتغير.. ألا يعني هذا أنها بحلم شخص آخر؟!

سارت بالأرجاء التي بدت أقل لونًا ونضارة عن السابق، ولكنها توقفت عند ساحة أوسع قليلًا حين سمعت صوت يهز الأرض كالصاعقة: "أظهروا أنفسكم يا جبناء! فاليوم هو موعد فنائكم!"

ومن خلف هذا الصوت ضوت نار مهيبة بما يشبه الانفجار العظيم تخلف عنه شرارة كبرى تلاها ظهور آلاف الأجساد الشبيهة بالبشر يحملون أسلحة للقتال على مسافة قريبة، كانت دروعهم مهيبة الهيئة لها خوذات أشبه بوجوه الأسود، ويتخللها بعض الفراء وبالأخص على أكتافهم، كما أن الجزء الحامي للذراعين من الدرع بدا كمخالب حقيقية، من خلف الانفجار كذلك برزت شعلات تضوي عبر جزوع الأشجار

الواقعة خلف الجيش، ولم تفهم ليليس كليًا كيف ذلك حتى وجدت آلاف السهام تُطلق عبر الجزء الآخر المواجه للجيش مشعلة الأرض، وأشجارها.

"اخرجوا وحاربوا كالرجال، عوضًا عن الاختفاء خلف ظلالكم!"

صاح بنفس الصوت الجهوري فارس مهيب الطلة يمتطي جوداه، زاد الانفجار من هالته، وجثته الضخمة، وعيونه الصفراء التي تشر عزمًا خلف وجهه الممتلئ بالندوب، ومن خلف النيران التي شبت بفعل ضربات الأسهم على الجهة الأخرى ظهر قوم يلتحفون بالسواد كليًا، لا يظهر لهم أي لون آخر، بل إن عيونهم من خلف خوذاتهم بدت سوداء كليًا، ثم فجأة انقشعت النيران، وعمت الظلمة الكلية جهتهم، فصاح الفارس ذو العيون الصفراء:

"المشاة، هجوم!"

ركض الجنود الملتفين بجلود الأسود بكل قوة نحو الجهة الأخرى صائحين بعزم ما فيهم، التحم الجيشان بكل طاقتهما، وأخذ صوت صليل السيوف يتردد بقوة، لكن رغم ذلك غطت الظلال المكان، وبدا أن مشهد شهدته ليليس من قبل يتكرر أمام عيونها، وهو تشتت جنود القائد ذو العيون الصفراء، وعدم قدرتهم على الرؤية بفعل أحد جنود الجيش الآخر الذين استنتجت أنهم إخوة الظل، ثم يقتل المشتت جنديًا آخر من إخوة الظل، ويتركه صريعًا بدمائه.

وخلال وقت ليس بطويل خرّ أغلب جنود القائد أصفر العينين أرضًا، ثم تقدم من صف إخوة الظل شخص عظيم الهيئة برداء أسود يصل حد الأرض وقلنسوة تُخفي ملامحه، لكن رغم ذلك أغرقت وجهه نقوشًا سوداء غريبة الهيئة برفقة عيونه السوداء كليًا، أطارت الرياح العاتية بعض خصلات شعره الذي يصل حتى ظهره، صاح بصوت نافس حدة الأمطار المنهمرة:

"أرينا ما لديك! فالحرب ستُحسم هنا!"

ابتسم القائد ذو العيون الصفراء، وصاح: "هجوم!"

فجأة! ولصعقة ليليس، وحتى جموع جيش إخوة الظل دوت عبر الغابة أصوات زئير يشيب لها الولدان، وبدأت أعداد غير عادية من الأسود بالظهور، وهي تزأر بعزم ما فيها، منطلقة بسرعة جنونية نحو جيش إخوة الظل الذين بدت الهزة على بعضهم ورغم اختفائهم خلف الظلال، إلا أن الأسود سرعان ما اقتحمت صفوفهم وهي تهجم عليهم قاذفة إياهم كجثث وأشلاء بكل صوب وأوب، حينها صاح القائد ذو العيون الصفراء مجددًا:

"باقي المشاة، هجوم!"

فركض باقي جيشه نحو جيش إخوة الظل الذي أخذت الأسود تمزقه إربًا، ولم تعد الظلال تحميه!

رغم بسالة إخوة الظل، لكن أعدادهم بدت بالانهيار، وظهر العراك الملتهب لقائدهم في مواجهة أسد أسقطه من على فرسه محاولًا قتله حتى أصابته أنياب الأسد بإصابة مميتة

لكنه استغل اقتراب الأسد الشديد منه، وغرز سيفه بعنق الأسد ناحرًا إياها، ثم نظر صوب القائد ذو العيون الصفراء بمنتهي الغل، وهو يتمتم بصوت مسموع:

"الأرض لنا! الأرض لنا!"

ثم وقف بشموخ رغم إصابته مبرزًا سيفه، وركض بعزم ما فيه متوجهًا عبر الأمطار الغزيرة نحو القائد ذي العيون الصفراء، صارخًا: "المجد لإخوة الظل!"

بدا كأن الوقت تواقف وعند لحظة اقترابه الشديدة من القائد الآخر قفز أسد عليه ساحقًا عظامه، فاصلًا رأسه عن جسده، ثم باصقًا إياها لتُقذف بالساحة، ويراها الجميع بمن فيهم جنود إخوة الظل الذين لازالوا يحاربون، وقد اهتزت سيوفهم وخناجرهم بأيدهم، وهم يشهدون ذلك المشهد، فجأة صاح أحدهم بالمتبقين: "تراجعوا!"

بدأت الصفوف بالتقهقر، بينما ترك القائد ذو العيون الصفراء فرسه، وخطا عبر الأرض الملوثة بالطين نحو رأس قائد إخوة الظل -مشوهة الهيئة- وأمسك شعره رافعًا رأسه، وهو يردف بسخرية:

"حسبت أن شعبك الوحيد الذي يمتلك قدرات سحرية؟! لقد انتهت الحرب، والنصر لنا!"

لكن دون أن يدري أخذ كيان ما يقترب منه بسرعة جنونية، وعندما كاد أحد الرماة بإصابة الكيان بسهمه انبثقت الظلال بكل أوب وصوب يحيط الكيان.

لكن -على هذا البُعد- كيف أن يؤثر ذلك الشخص على رؤية رامي الأسهم؟! وقبل أن تكمل ليليس تساؤلها كان القائد ذو العيون الصفراء قد خر أرضًا مفلتًا رأس قائد إخوة الظل، وهو يصارع لاحتواء كم الدماء التي انفجرت من عنقه.

صُعقت ليليس، لكن كيف لم يهجم الأسد تلك المرة على هذا الجندي؟!

في الواقع حينما لمحت ليليس الاتجاه الذي ركض له الأسد بتلك اللحظة رأت أنه صار صوب جيش القائد ذوي العيون الصفراء، ليقتل ويسفك من استطاع دون هدف حقيقي.

ساد الهلع بجيش القائد ذو العيون الصفراء وكذلك لموت قائدهم، ثم تردد صوت قوي -لم تظهر وجهته- لامرأة ما تصيح: "اقتلوا مُسخري الأسود! إنهم يحتمون بالأشجار، متحكمين بأسودهم تلك! اقتلوهم ليفقدوا السيطرة على الأسود وتنقلب ضدهم".

أخذت سهام جمة تطول الجهة التي صدر منها الصوت، والذي كان لنفس الشخص الذي قتل القائد ذا العيون الصفراء لتوه، سيول من السهام حتى بدأت الظلال بالانقشاع، وظهرت من خلفها جندي أو جندية حسب صوتها ملتفة كليًا بالأسود، بينما الدماء تُغرق جسدها بالأسهم التي لم تترك موضعًا إلا وأصابته، استندت أرضًا محاولة الوقوف، ولكن سرعان ما اتجه نحوها أحد جنود جيش القائد ذي العيون الصفراء مزيلًا الحاجب الذي أخفى وجهها، لتظهر من خلفه ملامح مشابهة لقائد جيش إخوة الظل الذي قُتل لتوه، الفارق الوحيد أن عيونها

لم يسودها السواد كالأغلب، بل تحولت تدريجيًا؛ ليظهر السواد بالبؤبؤ فحسب، هتف أحد جنود إخوة الظل:

"إنها أندريا ابنة القائد!"

لم تهتم أندريا للجندي الذي حاول سحلها أرضًا، وصاحت بعزم ما فيها:

"استهدفوا الأشجار! المجد لإخوة الظل!"

سحلها الجندي بعنف لأي جحيم؟! لم يتضح، لكن آخر ما صاحت به:

"الأرض لنا!"

عادت العزيمة لقلوب جنود إخوة الظل إثر قتل أندريا للقائد ذي العيون الصفراء الذي لا بُدَّ، وأنه القائد أمار، ولابد أن تلك هي حرب "الدمار والأشباح"، وصاحوا:

"الأرض لنا! المجد لإخوة الظل!"

ثم بدأت الظلال تحيطهم مجددًا، منهم من لم تسنح له الفرصة، واقتنصته الأسود أو الجنود، لكن المؤكد هو استطاعة الأغلبية بالتواري عبر الظلال نحو الأشجار، وإذا فجأة صدر صوت ارتطام أجساد باليابسة، لجثث تسقط أرضًا من بعض الأشجار بفعل قتل إخوة الظل لهم، وحينها بدأت بعض الأسود تُجن وتحارب جنود القائد أمار، أو أي شخص تطاله مخالبها، بينما توجهت أسود أخرى في إثر جنود إخوة الظل نحو الأشجار، صاح أحد من صفوف القائد ذوي العيون

الصفراء لباقي المشاة بالهجوم، لكن بمجرد اقترابهم من جنود إخوة الظل المتبقيين ورغم ضآلة أعدادهم، بدأت مجازر الظلال بالانتشار مجددًا، لكن على الرغم من ذلك فقد استطاعوا الظفر ببعض الجنود المندثرين بالظلال على عكس المرة السابقة.

استمرت المعركة بكل ضراوة حتى لفت نظر ليليس ضوء خافت يضوي عبر السماء المندثرة بالغيوم، وفجأة ازداد بريقه حتى شمل الكون بأسره، وكاد يعميها؛ لذا تحاشته واضعة ذراعها أمام عيونها، وحين أبعدت ذراعها وجدت أنها بقاعة الحالمين تلك التي تحوي البئر والمرايا.

رأت كبيرة الحالمين تقف بمنتصف القاعة عاقدة كفيها، لم تكن هي ليليس تلك المرة، بل كانتا منفصلتين، وقفت المرأة متأملة المرايا الموجودة، وعلى بُعد وقفت ابنتها التي رأتها ليليس في رؤية سابقة يتم اغتصابها، وذبحها أمام والدتها.. تسألت الشابة لوالدتها بحزن:

"أتعني أن لا مفر؟!"

أجابت كبيرة الحالمين غير مولية نظرها لابنتها:

"أجل"

أعقبت الشابة ببوادر من الهلع:

"لا بُدَّ أن هناك حل! هل أنتِ واثقة برؤيتك لكل الاحتمالات؟!"

"أجل، وبجميعها سنموت، وسيندثر الحالمين كليًا"

ساد الإحباط معالم الشابة، وهمت بالحديث لكن والدتها قاطعتها:

"اعلم ما ستقولين.. فلنهرب.. لكن لأي أرض؟! ولأي مكان؟! جميعهم سيجبروننا على مساعدتهم على القتل وسفك الدماء، لا أحد سيدعنا نعيش للمعاونة بالخير فحسب، لم ولن يفعل ذلك سوى شعبنا الأصلي إخوة الظل، لكن الحرب وكم الخسارة اعمت بصيرتهم، ومحاولات أندريا لاستعادة مُلكهم بقلب حفيدها على الشعب الأصفر، وتفرقة صفوف الشعب لشعبين بعد إجبارها على خوض دور في الهدنة والزواج من حكام الشعبين، لن تؤتي ثمارهم، لن تسبب أي شيء سوى خسارة إخوة الظل كليًا، وحرقهم أحياء أثناء سعيهم للهرب فحسب.. كل ذلك ليس بالزمن البعيد عنا، وقريبًا سيقتحم بابنا أحد الأخين المتبقيان كحكام للناجين من إخوة الظل، وسيجبرنا على مساعدته أو سيقتلنا بأبشع الطرق.."

"إذن فستحل نهايتنا يا والدتي"

"أجل".

تساءلت الشابة واضعة يدها على بطنها، وقد غطى اليأس وجهها:

"وماذا عن طفلي الذي أحمله بأحشائي، هل سيموت ميتة بشعة كذلك؟!"

"لا أدري".

بدأت الدموع تتلألأ بعيون الشابة، لكن والدتها سرعان ما التفتت لها، وعلى وجهها نظرة حازمة قائلة:

"إياكِ، والتفكير بتهريبه!"

اندهشت الشابة، بينما اقتربت منها والدتها مردفة:

"أنتِ وميا آخر من سيسمح لهما بحمل أطفال حتى هذا الحد، وذلك فقط، لأنكما اقتربتما من شهور الإنجاب، أي رضيع آخر من نسل الحالمين الفترة القادمة قد يتسبب بكارثة!"

"ماذا تعنين؟!"

استدارت السيدة، وظهر التشتت بعيونها، ثم اتجهت نحو البئر مستندة إليه، ونظرت نحوه مردفة:

"ذلك سيعني أن غريزة الأمومة ستضرب بكل شيء آخر عرض الحائط، وستقوم الأم بتهريب طفلها، وتناسى أي شيء آخر..".

حاولت الشابة تبرير الموقف مقتربة من والدتها:

"لكن يا والدتي، إنهم أطفال وليس من المؤكد حتى انتماؤهم مستقبلًا للحالمين، لماذا عليهم أن يشهدوا ما سنراه من عذاب؟!"

تنهدت كبيرة الحالمين مجيبة بخواء:

"لأن سبب عدم قدرتي على رؤية إن كان طفلك سيتعرض لميتة بشعة أم لا، هو أنني لم أعد أستطيع التنبؤ كالسابق".

هزت الشابة رأسها باستنكار:

"هذا مستحيل! والدتي.. أنتِ دون عن الكل من المحال أن تتلوث صفاتك! أنتِ حكيمتنا، مرشدتنا".

"ليس بعد يا بنيتي.. أخشى أن ما قد أراه مستقبلًا من أذى لكِ أو لطفلكِ.. قد يحيلني لشخص آخر كليًا، وقد اقترف شيئًا لا يمكن وصف بشاعته، طوال حياتي حسبت أن لا شيء قد يهزني، يهز مبدأي.. حتى عائلتي، لكن.. ".

توقفت السيدة قليلًا، وأكملت بأسى مفرط، وهي تواجه ابنتها:

"حين رأيت ما قد يحدث.. لم أرَ سوى أنني أرتكب إثمًا مهولًا، ومنذ ذلك الحين وأنا لا أستطيع التنبؤ جيدًا، منذ بدأت بالتساؤل هل لأقدم على فعل كهذا.. من فرط يأسي ودماري؟!"

أمسكت الشابة يد والدتها بكلتا يديها ضاغطة عليها برفق:

"والدتي، لا تقلقي لن أسمح لنفسي بأن أكون السبيل؛ لكي تخسري ذاتك! مطلقًا!"

"سيبقونكِ حتى النهاية؛ لأشاهدك تتعذبين.."

"والدتي، لو كان باستطاعتي قتل نفسي لفعلت ذلك؛ كي لا يصيبكِ ما تخشين، لكني أؤكد لكِ أنني سأتذكر كل يوم مخاوفكِ تلك، وسأفعل ما بوسعي حينها، كي يقتلونني باكرًا، ولا يبقوني للضغط عليكِ".

نظرت لها والدتها بملامح تشرّ يأسًا، لكنها لم تتحدث، فأكملت الشابة:

"والدتي، ليس عليكِ لوم نفسك.. لقد أبقيتنا آمنين لسنوات، وأنا واثقة أنكِ حاولت بكل طاقتكِ إيجاد احتمال واحد حتى لنجاتنا، لكن ذلك هو قدرنا فحسب، ولكل شيء نهاية حتى الحالمين".

صمتت لوهلة، ثم تساءلت بحزن:

"لكن لماذا على صغيري رؤية ذلك؟!"

"لأن هروب أي طفل في هذا الوقت، سيؤكد أن ما رأيته سيحدث! هروب طفل واحد سيكون هو البداية لنهاية كل شيء!"

صمتت الابنة، وقد بدت مترنحة، وهي تتساءل:

"إذن؛ كي لا يشهد هذا الجحيم يجدر بي قتله قبل أن يصير محصن ضد الموت؟!"

"أنتِ تدركين ما عليكِ فعله، لكن تذكري كلما طالت سنونك برفقته، كلما تمكنت غريزة الأمومة منكِ وستقومين بتهريبه في النهاية، لكن في النهاية أنتِ من تعلمين العواقب وأنتِ من ستتخذين القرار، فأخبريني هل لإنقاذ ابنك ستكونين على استعداد لإحالة هذا الكون لجحيم، وسلب مئات الألوف بل ملايين الأرواح؟!"

نظرت لها الشابة بعيون ذعرة تفيض بالدموع، سمعت ليليس

صوت ضحكات طفل ما بالجوار فنظرت لمصدر الصوت وتوجهت له، كان عبر السلالم الموجهة للأسفل، عبرتها ليليس وهي تسمع الصوت يتعالى عبر أحد الممرات التي توجه لها السلالم، دخلته متجهة صوب الغرفة التي ينبع منها الصوت؛ لتجد الشابة تجلس على فراش ما ناظرة نحو طفل يركض بكل مكان بالغرفة مشيرًا لأي شيء، وكل شيء بها، ثم يقتنص أي شيء، ويهرع به بأرجله الصغيرتين تلك نحو والدته معطيًا إياها هذا الشيء عديم الجدوى، ضاحكًا بسعادة كأنه يهديها الكون بأسره، كان هذا هو الطفل نفسه الذي رأته ليليس من قبل يُقتل أمام جدته كبيرة الحالمين، وقبيلها تُقطع أذنه، لكنه بدا مختلفًا جدًا الآن.. إنه ضاحك، يقوم بتصرفات بلهاء؛ كأي طفل عادي.

لاحت ابتسامة صغيرة على فم الشابة إثر أفعال ابنها تلك، لكنها سرعان ما تغيرت لنظرة خواء مصدومة كليًا، قبضت بيدها على آله ما معدنية حاد بإحكام، ثم عند مجيئه في أحد المرات ليعطيها شيء أخذته منه، ووضعته جانبًا، ثم حملت طفلها مجلسة إياه على قدمها وتأملته قليلًا وقبلت جبينه وعيونها مغرورقتان بالدموع، همت برفع الآلة الحادة التي تحمله بيدها نحو عنقه، لكن قبيل ذلك سالت دموعها على وجنتيها بغزارة، وعوضًا عن رفع يدها عانقته بشدة وبدأت بالنحيب، احتضنها الطفل، لكنه لاحظ صوت أمه فتساءل:

"أمي، لماذا تبكين؟!"

لكن والدته لم تجب.. ظلت تعانقه فحسب، وهي تشهق بقوة

من بين دموعها، شعرت ليليس بالأسى نحوها، فأي بلاء هذا الذي عاشته تلك الشابة؟! أن تضطر لقتل ابنها بيدها؛ كي لا يتم تعذيبه؟!

فجأة اقتحمت الباب سيدة أخرى، وأردف بصوت منخفض للشابة:

"أنا اعرض عليكِ للمرة الأخيرة.. يمكنني تهريب ابنك برفقة ابنتي!"

أبعدت الشابة الطفل عنها برفق موجهة حديثها للأخرى بقلة حيلة:

"ميا، توقفي عن فعل ذلك بي، لقد وعدتك ألا أفشى سرك باتفاقك مع جنديين أخوة الظل المنشقين هذين، لكن لا تضعيني بذلك الشرك، أتوسل إليكِ.. فإن حلت كارثة لا أريد أن أكون قد ساهمت بها".

أجابت الأخرى باستياء شديد:

"توقفي عن التفكير بذلك الشكل! أي كارثة ستحدث بعد الذي سيحل بنا؟! وما ذنب أطفالنا بكل ذلك؟! ألا يكفي أننا بقينا هنا لكل تلك السنوات منتظرين فنائنا، ونحن نعلم عدم قدرتنا بتغيير مصيرنا، وإذا فعلنا سنقترف ما يحيلنا لوحوش؟! تمر سنة وأخرى، ونحن نعلم أننا سنُذبح ونُعذب، ونعيش في رعب كل لحظة أن تكون اللحظة التالية هي نهايتنا، ولا يمكننا حتى إنهاء حياتنا بأنفسنا! أليست تلك لعنتنا؟!"

ضحكت تلك الملقبة ميا بسخرية وعيونها تضوي بالدموع:

"الحالمين.. المختارين.. أليس هذا ما يلقبوننا به؟! نحن الذين نعيش ولا نفنى أبدًا، وحتى وإن غادرت أرواحنا أجسادنا.. تظل عالقة بذلك البئر لترشد خلفاءنا، ولا يمكننا مجرد التفكير حتى باقتراف أي خطأ من الممكن أن يقترفه الشخص العادي.. ويعتذر فيما بعد محاولًا التكفير عن ذنبه، ألم يكن ذلك سبب عدم قدرة والدتك على التنبؤ كالسابق؟! هذا لأننا لا بُدَّ أن نكون رمز للنبل، وللإيثار كليًا، وبعد كل ذلك.. سنموت هذه الميتة؟!"

فاضت الدموع من عيون المتحدثة مكملة:

"أتعلمين ماذا؟! لقد كبحت زمام رغباتي كل تلك السنوات، وكنت لأفعل أي شيء يؤدي لرخاء إخوة الظل لكن لا يتعارض مع مبادئي، لكن ليس الآن.. ليس فيما يتعلق بابنتي، لم أعد أعبأ حقًّا لأي شيء، فليحترق الكون بأسره، ولكن لتظل ابنتي سالمة، انظري لابنك وفكري.. هل أي شيء قد يكون أهم منه؟!"

نظرت الشابة بعيون منكسرة نحو طفلها، وظهر على ملامح إمارات التساؤل

شعرت ليليس بالإضاءة القادمة من نافذة الغرفة تخفت، فتحركت عبرها ونظرت من خلال زجاجها؛ لترى فارسين متشحين بالأسود يعلوان حصانين كاحلين كليًا ينطلقان للأفق، وبحوزتهما طفلين ضئيلا الهيئة.. غربت الشمس كليًا باختفائهما من منظورها تمامًا.

عادت ببصرها للغرفة؛ لتجدها خالية من أي مخلوق، وقد حاوطت أركانها الأتربة وشباك العنكبوت..

خرجت من الغرفة، وأخذت تتجول عبر الردهات باحثة عن أي شيء أو شخص، حتى جذب نظرها كبيرة الحالمين، وهي تجلس أرضًا مستندة لركبتيها، بينما جذعها منحني قليلًا نحو الأرض أيضًا.. لحيثما ركزت نظرها لكن عيونها كانت مغلقة بوضع أشبه بالتضرع، بدت القاعة خالية كليًا عدا من بعض الصخور متوسطة الهيئة المرصوصة بشكل مشابه للدوائر المحاوطة لبعضها حتى تصغر وتقل باقترابها للمنتصف، وهو حيثما قبعت الحكيمة، جدران الغرفة الصخرية سال من بعض أركانها ما يشبه الماء العذب متجهًا لأجزاء محدودة جدًا من الأرضية بشكل مشابه لمصبات المياه ضئيلة الحجم، ولم يتضح لليليس كليًا من أين ينبع هذا الماء، أو لأين يتجه بعد استقراره على الأرضية مع استمرارية هبوطه بذلك الشكل، بينما أخذت الأحجار الخضراء المزينة لجدران القاعة تضوي لفترة وجيزة للغاية، ثم تخفت تمامًا بشكل متكرر، فجأة تردد نداء:

"جدتي".

فرفعت الحكيمة جذعها فاتحة عيونها التي ظهرت سوداء كليًا، وسريعًا ما انقشع هذا السواد منحصرًا في بؤبؤ عينها فحسب؛ لتصير عيونها رمادية كسابق عهدها، وهي تنظر لحفيدها الذي بدا في العاشرة من عمره بأذنه المبتورة، وملامحه التي صارت لا تحمل أي تعبير ومخالفة كليًا لمظهره

في الذكرى الماضية.

تساءلت الحكيمة، وهي لازالت بمكانها: "أرأيت؟!"

أومأ حفيدها بعيون خاوية وتساءل:

"ولماذا هربتني والدتي، وهربت ميا ابنتها رغم علمهما بالعواقب؟!"

"لأنهما تركتا مشاعرهما تتمكن منهما؛ ولهذا لم يجدر أبدًا أن يحتوي الحالمين على أي أطفال بهذا الوقت! لأن غريزة الأمومة ستمحي كل شيء آخر".

"ولماذا لم توقفيهما إن كنتِ على علم بما سيقترفانه؟!"

"لأن ذلك ليس قراري.. لقد أخبرتهما بما سيحدث، وبما سيليه من مصير، لكن إيقافهما ليس بمقدرتي".

"أم أنكِ أردتِ حدوث ذلك؟! لأن جزء بداخلك أراد تهريبي وإنقاذي؟!"

ابتسمت الحكيمة، وهي تقف وتتحرك بأركان الغرفة مردفة:

"لازال أمامك الكثير؛ لتتعلمه رغم معرفتك لكثير من السابق لآوانه.. نحن لسنا كسائر البشر يا بني.. نحن لا نأمر! لا ننهى! نحن ننصح فحسب.. هذا هو صلب كونك حالمًا.. إلغاء نفسك بشكل كامل، لا يمكنك التفكير بنفسك، أو بما تحسبه أنت كشخص صائب أو خاطئ، أنت تبذل فحسب من أجل الآخرين.. ترى شتى ما قد يصيب أمة بأكملها وتنصح الحكام، إن اتبعوا نصائحك أو رفضوها فهذا خيارهم هم،

نحن لا نشرك أنفسنا يا بني بتفاصيل قد نحسب أنها تقود للصواب، لكننا إن انغمسنا بها فسننخرط بما سيفقدنا هويتنا، سبيلنا لا نتوقف عن النصح والمشورة سوى عندما يتعلق الأمر بشكل قاطع بأذى الغير؛ لأن ذلك مرفوض بقانوننا منذ بعث الخليقة، قد يتراءى لك إني إذا أوقفتهما لمنعت كارثة، ولكن ما أدراك إني لم أكن لأتسبب بكارثة أخرى، لم أكن لأخلق بلبلة، وفرقة بصفوف الحالمين أنفسهم تؤدي لانشقاق بعضهم، وخسرانه لنفسه بانضمامه للعدو أو حتى لأي جماعة قد تحوله لملك على الأرض".

"لكن هذا يتعارض مع الخصال الحميدة لصفوة الحالمين الذين من المفترض أنهم هم وحدهم من يخولون للوصول لهذا القصر".

"هذا صحيح يا بني لكن اليأس الذي حول إخوة الظل -الذين لطالما قدسونا- لقتلة يذبحوننا.. قادر بالتخلل حتى لأنقى النفوس، وبظروف كهذه سيتزعزع إيمان الكثيرين، وقد يفقدونه كليًا وينجرفون عن سبيلهم، ومن أخدع.. أليس هذا ما أصابني حين قررت صنع المرايا العظيمة؟!"

ظهرت ملامح السخرية على وجه الحكيمة لتساؤلها، وأكملت:

"لهذا لم أجبرهم على شيء.. أخبرتهم بما ستؤول إليه الأمور، وتركت لهم الخيار، وهم من فضلوا الموت بتلك الطريقة عن خسران هويتهم.. قدرة الحالمين تلك إن أُسيئ استخدامها قد تؤدي لأقدار بشعة، وما أعظم من قوة القدرة

على معرفة كل شيء؟! الماضي والحاضر والمستقبل، معرفة كل الأسرار، كل الأكاذيب، كل الاحتمالات.. أليست تلك هي الغاية الموحدة بسائر البشر: معرفة إلام سيؤول مستقبلهم، بل إن ما نمتلكهم هو المعرفة التامة لكل ما يخصنا، ويخص الكون بأسره، فتخيل إن انجرف ذلك لدرب الإثم؟!"

بدت لمحة حزن بعيونها، وهي تقترب منه معللة:

"وهذا ما تناسته والدتك، وميا حينما اتخذا قرارهما بتهريبك أنت والفتاة، وما لازلت أحمل أملًا ضئيلًا بقلبي ألا يحدث حين آراك تموت أمامي..".

تساءل الحفيد بعدم اقتناع كلي:

"وما أدراكِ إني سأموت؟!"

"جميعنا سنموت.. إنها الحقيقة الوحيدة بهذا العالم..".

لم تتغير نظرات الحفيد الخاوية، ولكن الحكيمة مدت كلتا كفيها نحوه مردفة:

"أعطيني يداك".

مد الحفيد كفيه بدوره واضعًا إياهما أعلى كفيها، وأغلق الاثنان عيونهما، فبدأت الأحجار الخضراء تسطع بقوة، ثم أخذ ضوءًا سماوي اللون بالانبعاث لأعلى من الصخور الموجودة بالقاعة، وانعكس على مصبات المياه كما لو كانت مرآة.. فساد اللون السماوي كل مكان حتى لم يعد يظهر شيء سوى الأزرق، ولكنه بدأ بالانقشاع رويدًا رويدًا، مظهرًا من خلفه

منظرًا مغايرًا تمامًا لشكل القاعة الهادئة التي أحاطتهم من ثوان، رأت ليليس مشهدًا راودها من قبل بحلم ما بعيد، لكن ذلك لم يغير بشاعة تلك الأرض القاحلة الممتدة حتى الأفق.. متزينة برداء الموت؛ حيث تفترش بمئات الجثث لأشخاص محروقين، مذبوحين، أو حتى مقطوعين لأشلاء يتناثر كل منها في صوب، اصطبغت الأرض بالدماء حتى بدا أنها خُلقت؛ لتكون بذلك اللون، فتح كل من الحفيد والحكيمة عيونهما، ولم يظهر على أي منهما التأثر كأن أفئدتهما تحجرت.. سارا سويًا وسط الجثث، بينما تحدثت الحكيمة:

"تلك هي أرواح قومنا يا بني.. كل هؤلاء الذين رفضوا الانجراف عن سبيلهم وخسران هويتهم.. لطالما ظلت أرواح الحالمين موجودة حتى بعد مغادرتها لجسدهم؛ لتهدي من سيخلفونهم، لكن والآن لم يعد لنا وجود لمن ستبقى؟! وهل ستظل تريد الخير لذلك العالم الذي أحال آخر لحظاتها لعذاب لا مثيل له؟!"

تبعتهما ليليس، وعلى الأفق بدأ كيان مهول بالتجلي، ومع اقترابهم أخذ ذلك الكيان بالوضوح.. لقد كان أشبه بباب أو بوابة عظيمة الحجم تصل حد السماء.

حدقت الحكيمة ببعض العزم؛ لذلك التواجد الشاسع بالأفق، بينما للمرة الأولى ظهرت بوادر الدهشة على الحفيد الذي نظر صوبها وبعيونه صدمة ما، تحدثت الحكيمة:

"ما قد تسبب في فوز الشعبين للحرب: هو القدرة على بعث أرواحهم بالأسود وتسخيرهم لخدمتهم، لكن هذا لن

يعود ممكنًا بوجود المرايا العظيمة.. لقد بدأ المرض الأزرق بالانتشار بالفعل بسبب مخالفة قانون المرايا، وبعدم القدرة على تسخير الأسود سيكون هناك بعض الأمل الواهي لقائد إخوة الظل ديابلوس بأنه يستطيع الانتصار على الشعبين مما سيؤخره عنا؛ ليعطينا الوقت الكافي لإتمام الأمر قبيل موتنا".

غادرت الصدمة معالم الفتى، وقد استوعب ما يحدث بالفعل موضحًا بهدوء:

"جدتي، أخشى أنكِ انجرفتِ عن الدرب بالفعل، أخشى أنكِ تفقدين هويتك ببطء منذ ذلك اليوم الذي هوجم به الحالمين، لكنكِ ترفضين الاعتراف بذلك، وتتمسكين بأمل غير موجود أنكِ تخسري نفسك في النهاية".

أجابت الحكيمة محكمة بصرها على المرآة العظيمة بالأفق:

"هناك بعض الأقدار محتومة، لا مفر منها.. مهما حاولنا.. مهما أملنا، وقد أفنى الحالمون حياتهم محاولين إحلال السلام فحسب ورافضين أي أذى، وإلى هذا آل مصيرهم؟! بسبب الشعبين.. بسبب إخوة الظل.. لماذا حاربنا؟ ولأجل من؟! ولماذا رفضنا الأذى لمن لم يمانع باغتصاب أرضنا؟! قد أتمنى ألا يتحقق المصير الذي رأيته منذ سنوات، قد أخبرك بأسبابي لمحاولة ولعدم محاولة منع ذلك المصير من التحقق، لكن المؤكد هو أن بمرور الأيام ينمو كيان بداخلي، وهو يسعى بكل ما لديه ليتحقق ذلك المصير؛ لأنني أدرك أن الحالمين هم شعبي الذي خذلته، وتركته ليندثر لأحافظ على قانون ومعتقدات بالية".

صمتت العجوز لوهلة، بينما نظر الحفيد أرضًا بانعدام أمل تام، ففسرت هي:

"عند لمس كل فرد من الشعبين لهذه المرايا، ستُحبس روحه بداخلها محاولة إيجاد سبيلها للخارج، وحينما تفعل ستلمس دماء إحدى جثث قومنا فقط؛ لتحل روح الحالم محل روح من لمس المرآة ويُبعث هو بجسده، سنوات ستمر، ولن يشعروا بالفارق بدرجة كبيرة ذلك لوجود اتصال دائم بأرواحهم المحبوسة بهذه المرايا، لكن الموجود حقًّا بداخلهم هو نحن، بينما هم مسجونون ولن يعرفوا حتى ذلك، ليس حتى تفرقتهم لشعبين تؤتي ثمارها، محطمة صفوفهم كليًا، وحينها سنقف أنا وأنت بمواجهة هذه المرايا مجددًا، وسنُعيد الحالمين، ستُبعث أرواحنا من جديد ولكن في أجسادهم وستظل أرواحهم هم أسيرة بهذا الجحيم للأبدية".

صُعقت ليليس لما سمعته، كل ذلك الوقت الشعبين لم يكونا سوى حاملين لأرواح الحالمين التي لم تفنَ؟! كل ذلك لم يكونوا سوى وسيلة لنقل أرواح الحالمين من هذا الجحيم للأرض الصلبة؟!

أعقب الحفيد:

"لكن ذلك ليس المصير المظلم الذي تحدثتِ عنه مرارًا، كما أن عودة الحالمين التي تتحدثين عنها لا يمكن أن تتحقق إذا تدمرت المرايا.. أم أنها منيعة كليًا؟!"

"لا شيء منيع كليًا، لكن المصير المظلم: هو ما سيحدث..

أراك لاحقًا يا ليليس [13] ٣٩٢ / ٤٥١ Page

إن تدمرت المرايا؛ لأنها إن تدمرت فمن المحال أن يعود الحالمون، وأنا لن أسمح بهذا ولن يهمني حتى إن أحلت هذا الكون خرابًا في سبيل عودتهم".

تساءل الحفيد: "وإن كنا سنموت فمن سيحقق ذلك؟!"

"أعطيني يدك، وانظر معي عبر المرآة".

نفذ أمرها، وفجأة شعرت ليليس بتسارع الوقت، وهي تلمح كائنًا هلاميًا في السماء يشبه الهيئة البشرية، لكنه شفاف دون معالم تتولد منه شرارة حمراء بسيطة أخذ الكائن يُسحب نحو المرآة العظيمة، وأثناء طيرانه دون أجنحة لوثت دماء إحدى الجثث يده، وحينها سُحب الكيان لداخل تلك الجثة، وظلت الشرارة الحمراء تنبعث من الجثة نفسها، بينما خرج كيان بهيئة مغايرة من الجثة.. وسُحب هو صوب المرآة المهولة، وأخذت الشرارة الحمراء تضوي وتخفت من الجثة باستمرار وكأنها تطلب الغيث، رأت المشهد يتكرر مع كيان آخر بشرارة صفراء رأته يُسحب أيضًا نحو المرآة، ثم تتكرر عملية لمس جثة دون عمد ودخول الكيان لداخل الجثة بشرارته، وخروج كيان مغاير وسحبه هو للمرآة العظيمة، ثم كيان آخر، وآخر، وآخرون بشرارات تتفاوت بين الأحمر والأصفر، وبكل مرة تكرر الأمر ذاته، فجأة وجدت ليليس نفسها تُسحب صوب المرآة بسرعة تزداد بقوة حتى لم تعد قادرة على رصد أي كيانات، وحين اقتربت للغاية حسبت أنها ستصطدم بحائل المرآة عن العالم الخارجي، فوضعت كلتا ذراعيها أمام وجهها مغمضة عينها بقوة، لكنها فتحتهما بصدمة حين وجدت أنها اجتازت

الحائل، وكأنه ليس سوى جدار من الهواء، وآنذاك لمحت أحد الكيانات يلمس المرآة العظيمة، بينما يلمس نفس الموضع فتى من الخارج.. في ذلك المكان الواسع حيثما يقبع جبل مهول يجاوره شلال عالٍ، وبمجرد ملامسة الكفين لبعضهما -الكيان داخل المرآة والفتى بالخارج- ضوت هالة غريبة من الضوء سرعان ما أحاطت جسد الفتى كاملًا، ثم سُحبت لداخله سريعًا، وأخذ الفتى أنفاسًا عميقة كأنه غريق وجد نسمة هواء أخيرًا، رأت مئات الأطفال يصطفون خلف ذلك الفتى، بينما يجاوره مرآتان آخريتان يقف أمامها طفلان آخران ليلمساهما بدورهما.

سرعان ما سُحبت ليليس بعيدًا عن كل ذلك ورأت منازلًا، وبيوتًا أسفلها، بينما هي تتجه لوجهة لا تعلمها؛ وإذ فجأة بالشمس تختفي كليًا، بينما هي تمر بجوار القصر الملكي.. حيثما لاح ذلك الكيان الصارخ الذي لطالما ترصدها بالأحلام لجدار أحد الأبراج العالية، وصرخ بكل حدة أثناء اندفاعه نحوها بمخالبه؛ لتفكر هي بكلمة واحدة: "الهاوية" فتُسحب أرضًا نحو حفرة العملاقة تكونت أسفلها، بينما تضارب الهواء بظهرها، وهي ترى ذلك الكيان يحاول اجتياز الهاوية بإثرها، لكنها تنغلق من بعدها مانعة إياه من اتباعها، سقطت أعلى تلك الأرض الطينية المقاربة لسواحل بحر ما، ورأت فارسًا ملتفًا بالأسود يترك فرسه سريعًا، ويحوزته فتاة صغيرة، وهو يتمتم أثناء اتجاهه للقارب سريعًا:

"علينا الإسراع، وإلا تم إمساكنا كرفيقتي والطفل بحوزتها

سابقًا".

بدا أنه يحادث نفسه أو الطفلة ربما التي أخذت تنظر للطريق الذي أتيا منه، توقف الجندي على مبعدة من ملاح ما ينتظرهم بقاربه، واستند لركبتيه ليصل لطول الفتاة ممسكًا بكتفيها، وهو يردف بحزم:

"استمعي يا فتاة؛ لتعملي أنك ستخطين لأرض شبه جزيرة لونا بهوية غريبة، عليكِ نسيان والديكِ، وموطنكِ وكل ما يخص الماضي، ستنسين أنكِ من نسل الحالمين تمامًا، وستعيشين كفتاة عادية، ولحسن الحظ لم تظهر إمارات انتمائك مستقبلًا للحالمين، وستتذكرين أنكِ كنتِ يومًا من الحالمين فحسب؛ كي تمنعي اختلاط ذريتك بأي شخص بعيون صفراء أو حمراء".

نظر الفارس للطريق الذي أتوا منه بقلق، ثم أعاد تركيزه لها خاتمًا حديثه:

"وشيء أخير، أي شخص من ذريتك يراوده حلم بأنه يحمل لفافة كالرضيع، لكنها تشع ضياء مهولًا؛ عليه بالتخلص من وليده فورًا فذاك الطفل سيكون قادرًا على شطر المرايا بلمسة يده فحسب، وإحلال المصير المظلم للكون! والآن ارحلي برفقة السيد!"

نظرت له الفتاة برعب، بدا أنها بالعاشرة من عمرها؛ لا بُدَّ أنها قضت سنين بالهرب قبل التوجه لشبه جزيرة لونا.. تحرك الواقف بالقرب من القارب للفتاة؛ ليردف الجندي له:

"إنهم بإثرنا، وسيصلون بأي لحظة.. سأضللهم حتى تهربها".

أومأ الرجل، ثم أشار للفتاة بمرافقته بصرامة فسارت معه نحو القارب، وهي تلتفت خلفها لتُلقي نظرات قلقة على الفارس الذي امتطى جواده على الفور منطلقًا عبر الدرب الذي أتيا منه.. فجأة علت أمواج المياه مخفية الفتاة والملاح من أمامها، والموجودات بأكملها، ومغرقة ليليس أسفل مياهها لتندثر كليًا، ولكن سرعان ما انقشع الماء من حولها، ووجدت نفسها أعلى أرض رمادية صلبة بينما تتحدر الماء عبر شقوق بالأرض لمكان غير معلوم، نظرت حولها، فوجدت أنها بمنزل ما، ذي هيئة مختلفة عن زمنها، وقفت به امرأة بنفس ملامح الفتاة التي رأتها ليليس برؤيتها السابقة، كان أمامها طفلان بسن متوسطة، بينما كررت هي على مسامعهما نفس وصايا الفارس لها:

"نحن أفراد عاديون، ولن نتذكر أن أسلافنا كانوا من الحالمين إلا لأمرين من المحرم اقترافهما: أولهما اختلاط ذريتنا بأحد الشعبين ذوي العيون الصفراء والحمراء، والآخر أن من يحلم بأنه يحمل لفافة كالرضيع لكنها تشع ضياء مهولًا؛ عليه بالتخلص من وليده فورًا!"

أومأ الفتى والفتاة الواقفين أمامها، بينما ظهر رجل يشبه الطفلين متجاوزًا لباب المنزل، وقد بدا عليه عدم الفهم لملامحهم الجدية تلك فركض الطفلان له، وهما يدعوانه بـ"أبي" مشتتين إياه عن جديتهما السابقة بأحاديث فارغة..

بدا أن الزمن يتسارع أمام ليليس، وأخذت برؤية لمحات كثيرة لحياة تلك الأسرة.. وفاة والدهم.. انضمام ابنهم للجيش.. عودته.. زواج شقيقته ومغادرتها للمنزل، زواج الابن وإقامته بالمنزل برفقة والدته.. وفاة الوالدة.. وقوف الابن أمام أطفاله الثلاثة، وهو يردد وصايا والدته:

"نحن أفراد عاديون، ولن نتذكر أن أسلافنا كانوا من الحالمين إلا لأمرين من المحرم اقترافهما: أولهما أن تختلط ذريتنا بأحد الشعبين ذوي العيون الصفراء والحمراء، والآخر أن من يحلم بأنه يحمل لفافة كالرضيع لكنها تشع ضياء مهولًا؛ عليه بالتخلص من وليده فورًا!"

ثم يومئ الثلاثة بتفهم تام.. أخذت أحداثًا مشابهة لحال الأسرة السابقة تتكرر، أشخاص يكبرون، ملامح تشيب، بعضهم يغادرون، وبعضهم يبقون، وآخرون يموتون، أخذ الأمر يُعاد مع أطفال أحد الأبناء، وهو يسرد الوصايا ذاتها، أسرة تأتي وأسرة تختفي، هيئة المنزل تختلف باستمرار، حتى أطفال العائلات أنفسهم بدأت أشكالهم تقترب لملامح قاطني شبه جزيرة لونا بمرور الزمن، وأخذت عيونهم في التبدل للوني الأزرق والأخضر والبني عوضًا عن الرمادي، أجيال تتبعها أجيال أخرى، وباختلاف أشكالهم وألوانهم تظل جملًا واحدة، تُعاد على مسامع الجميع، لم تدرك ليليس كم مر من الزمن كاللمحة أمام عيونها.. ذلك حتى بدا أن الوقت قد تباطأ قليلًا.. بينما أحدهم يوصي أطفاله الخمسة المكونين من ثلاث فتيان وفتاتين بالكلمات ذاتها، ولكن بعد انتهائه، ورحيله،

ركضت أصغرهن نحو النافذة بالمنزل، وأخذت تتأمل شيئًا بابتسامة شاسعة، وحين ألقت ليليس نظرة رأت أن الفتاة تنظر صوب تاجر أقمشة يقع محله أمام منزل الفتاة تمامًا، لكن ما وجهت الفتاة نظرها له حقًّا كان فتى يكبرها بقليل من الأعوام يقف بداخل المحل، وحين لمحها أشرق وجهه بابتسامة واسعة مظهرة اللمعة بعيونه الحمراء.

ماذا تفعلين يا فتاة؟! ألم تسمعي وصايا والدك للتو؟!

تساءلت ليليس بصدمة ناظرة للفتاة التي لم يبدُ أنها اكترثت البتة لما سمعته.. مرت السنوات كالهفوة.. وظلت الفتاة تتأمل النافذة فحسب، لكن مع مرور الوقت ظهر الحزن الممزوج بالأمل بمعالمها إثر اختفاء تواجد الفتى بحلول سن المراهقة.

أخذت الفتاة تكبر وتزدهر لكن ملامحها تشيب، وهي لا تتوانى عن النظر عبر تلك النافذة منتظرة عودته؛ حتى رأتها ليليس في أحد الأيام، وقد صارت فتاة عشرينية ورحل كل إخوتها عن المنزل، تجلس بأحد زواياه، وهي تخط كلمات بذاك الخطاب الطويل الذي ختمته بـ: "حتى وإن خالفت وصايا عائلتي.. حتى وإن انتظرت لمئات الأعوام.. لدهور بأكملها، فسيظل فؤادي ينبض بحبك حتى بعد تحوله لرفات بقبري.. حتى إن تشكل العالم وتغير من حولنا لمئات الهيئات.. حتى إن تعلق قلبك بأخرى ونسيني.. حتى إن أحالت بيننا أكوان بأسرها.. سأظل دومًا بانتظارك..".

مضت سنوات أخرى، والفتاة التي صارت شابة ساد وجهها

اليأس التام.. ذلك حتى طُرق الباب بأحد الأيام وفتحته؛ لتتغير ملامحها كليًا لعدم التصديق.. كادت الدموع تسيل إثر رؤيته يقف بهيئته الناضجة أمامها، ويبتسم وقد ظهرت اللمعة ذاتها بعيونه التي استحالت صفراء.

كادت ترمي نفسها بين ذراعيه، لولا سماعها لصوت آتٍ من علوية المنزل يسألها عن هوية الطارق، لكن عند ذلك الحد باغتها حبيبها بجذب يدها، والركض وهي بحوزته ليهربا أبعد ما يكون عن هذا المكان؛ ليصيرا سويًا حيث لن تعثر عائلتها عليهما مطلقًا.

حينها بدأت جدران البيت بالتحول للون الأسود، كما ظهر سائل فحمي اللون شديد اللزوجة، وأخذ يسقط قطراته تباعًا من علوية الجدران؛ لتتخلل إحدى القطرات ثغرات الأرض كأنها بذرة ما لتنبت فروع غاية في القتامة شديدة الالتواء أخذ في سيادة المكان بشكل متسارع، والالتفاف حول كل شيء، وحول ليليس نفسها، ليستحيل كل شيء للسواد الحالك، ولكن برغم ذلك بدا كأن ضوءًا سطع بعيون ليليس، ومعه انغمرت سلسلة رؤيا بسرعة فائقة: لأب الأسرة الأخيرة يحمل خطاب ما بأصابع مرتعشة لكنه سرعان ما يسقط من يده ومعه الحياة من جوف الأب، جنازة يحضر بها باقي أبنائه عدا الصغرى وعلى وجه كل منهم ملامح متجهمة لمحات سريعة للغاية عن اشتعال منزل أحدهم؛ ليقتله هو وعائلته، وتسمم عائلة آخر، وهو برفقتهم ليلاقوا منيتهم أيضًا سريعًا، وأخ ثالث ظهرت جثث عائلته طافية أعلى الماء، وأسفل الماء ظلت جثته

معلقة بحبل رُبط بحجر ثقيل لقدمه، بينما ظهرت الأخيرة أعلى كرسي هزاز، متناولة حفنة من الرسائل لشخص ما لم تظهر ملامحه، وهي تقول بصوت، وهن:

"عليك بإيصال الخبر لكل أقاربنا، فإما يتخلصون من حياتهم وذويهم، كما فعل إخوتي؛ كي لا يكون لهم دور في المصير المظلم الذي بدأته أختي، والذي قد يقترفه أحد ذريتنا من بعدنا، أو يجدوا ملاذًا لعدم اقتراف خطيئة مشابهة لخطيئتها، فهي البذرة الدنسة التي سينبت من ذريتها ذاك الرضيع القادر على إحلال المصير المظلم".

أومأ المواجه لها، ثم بأنامل مرتعشة أعطته خطابًا أخير معقبة:

"وهذا الخطاب ستحتفظ به حتى يحين الأوان.. ستتناقله ذريتك.. حتى يقوموا ببعثه لذلك الشخص الذي لطالما رأيناه -أنا وإخوتي- في أحلامنا أنه سيكون سفاح البذرة الدنسة؛ إنه لم يوُلد بعد، لكن حينما يحدث هذا ستعلم، وآنذاك ستوصل هذا الخطاب له؛ ليستطيع الوصول لذرية أختي ودثرها؛ فهو الوحيد القادر على منع الشر الذي أتت به لهذا العالم.. ذلك الذي سيلقب قريبًا بـ"قاتل الحالمين".

تساءلت السيدة:

"أنت تتذكر إماراته، أليس كذلك؟!"

أومأ الواقف أمامها، فأومأت بدورها، وأشارت له بالرحيل بصدمة على وجهها، وقفت من موضعها، ونظرت لأمامها، ثم

قادتها قدماها بهدوء تام نحو كرسي ينسدل من السقف أعلاه مشنقة، فصعدت لأعلى الكرسي محاوطة عنقها بالمشنقة بأصابع مرتعشة للغاية أخذة بضعة أنفاس هلعة، ودون سابق إنذار قفزت من أعلى الكرسي لتنتفض لثواني، ثم تنقبض روحها أثناء تدليها من السقف.

أخذت الفروع القاتمة بالتدحدر تدريجيًا من حول ليليس لمصدر غير معلوم، رأت نفسها تقف على أرضية خشبية مختلفة لمنزل آخر ألفت للغاية، لكنه أجدد من الحالة التي تذكرتها بها، فالجدران لازالت سليمة من الشروخ والأرضية كذلك، رأت بأحد الزوايا فتاتين يافعتين تطغو عليهما سمات بدء سن المراهقة، كانت إحداهن بعيون عسلية وشعر بني طويل منسدل، بينما الأخرى أغلقت ليليس عيونها وفتحتها لعدة مرات، فقد بدا الأمر كما لو كانت تنظر لنفسها بالمرآة، فتلك الأخرى ليست سوى نسخة طبق الأصل من هيئتها.. رأت امرأة ثلاثينية تجلس أمامهما ذاكرة اسم كل منهما، وآنذاك استوعبت ليليس أن تلك الجالسة ليست والدتها أثناء يفعها.

بدأت تردد المرأة الثلاثينية:

"عليكما أن تدركا أن ما قصصته عليكما لتوي حيال جدتكما الكبرى لهو إثم لا يغتفر قد اقترفته بزواجها ذلك.. لقد صرنا ملعونين لا بُدَّ الدهر بفعلتها تلك، لكن لتتذكرا من تحلم بأنها يحمل لفافة كالرضيع، لكنها تشع ضياء مهولًا؛ عليها بالتخلص من وليدها فورًا، ولتعلما أن عما قريب سيظهر شخص يُدعى بـ"قاتل الحالمين"؛ لينتهك دماء المتبقي من

ذرية الحالمين تباعًا".

تغير الزمان كالسابق، وتبدل حتى غادرت كل من الفتاتين لزواجهما.. لكن بعد آونة ظهرت والدتها بالمنزل مجددًا حاملة لطفلة بيديها لا تتجاوز الثالثة، فغرت ليليس فاهها، وهي تنظر لنفسها بزمن آخر.. وقفت والدتها حاملة ليليس الصغيرة بمواجهة باب الدار، وهي تمسك بإحدى كفيها يد رجل ما، يرتدي زي الجنود مردفة بأمل:

"ستعود لنا عمّا قريب، أنا واثقة".

أومأ الرجل مقبلًا جبينها، ثم قبل جبين ليليس الصغرى بدورها متحدثًا:

"أجل سأفعل ذلك، لكن حتى يتحقق ذلك أبقي برفقة والدتك؛ لتكوني أكثر أمانًا".

أومأت له والدة ليليس، ثم وجه حديثه لليليس الصغرى قائلًا:

"اما أنتِ يا صغيرتي، فاعتني بوالدتكِ لحين أعود".

أهذا هو.. والدها؟! تساءلت ليليس شاعرة بدموع تجد سبيلها لمقلتيها، أخذت نسمات الهواء تطير خصلات والدة ليليس، بينما هي تتأمل زوجها الذي يبتعد في الأفق بحزن.. رياح الربيع.. رياح الشتاء، رياح الخريف.. مرت السنون، بينما الطفلة تكبر، والجندي لا يعود حتى بدا أن الأمر صار جليًا.

كما صار جليًا أن بعد لحظات أخرى غادرت الجدة هي

الأخرى للأبد، رغم كل الدموع التي اغرورقت بها عيون والدة ليليس إلا أنه بمجرد رؤيتها لابنتها اختفى كل ذلك، وابتسمت نحوها بدفء فحسب، بدا الكون كله يشع دفء بوجودها تسربت الدموع على وجنتي ليليس ناظرة نحو والدتها، وهي تلاعب ليليس الصغرى.

لكن ذلك لم يدم طويلًا ليس حتى رأت ذلك المشهد مجددًا.. ذلك اليوم حين زارت والدة ليليس تلك المرأة حاملة لرضيع حديث الولادة، والهلع يسود وجهها، بينما أمرت والدة ليليس ابنتها بالدخول لغرفتها، ثم استطردت حاملة الرضيع برعب للأخرى:

"عليكِ مساعدتي! عليك إخباري ماذا أفعل؟! فوليدي هو ذلك الصبي الذي أخبرتنا والدتكِ عنه! الذي سيصير التنبؤ بالنسبة له أسهل من التنفس! فقد راودني الحلم الذي كررته على مسامعنا! عليكِ إخباري بما يجدر بي فعله! ماذا إن علم "قاتل الحالمين" بأمر طفلي؟!

"إن كان ما تقولينه حقيقي، فلن يستطيعوا قتله؛ فالحالم الحقيقي لا توجد سوى طريقة واحدة لإنهاء حياته.. نحن نعلم ذلك، أمثالنا فحسب هم من يُقتلون بسهولة!"

"ولكن هذا بعد وصوله للسابعة! إنه الآن ليس سوى طفل رضيع بلا حيلة!"

"لا تقلقي".

ثم أخذ دق شديد يعلو باب المنزل، وضعت حاملة الوليد

رضيعها فوق الأريكة، وتوجهت للباب لتفتحه، بينما دخلت والدة ليليس غرفة ابنتها لتطمئن عليها، ثم على حين غرة دوى صراخ والدة الرضيع، فخبأت والدة ليليس ابنتها سريعًا أسفل ذاك الفراش ذي الخشب غير الملتئم مردفة:

"مهما حدث.. مهما رأيت لا تفتحي فمك، لا تتحركي.. ابقِي مختبئة فحسب!"

وبذلك التوقيت ظهر باقي المشهد الذي لم تتذكره مطلقًا، رأت أشخاصًا ملثمين يتجاوزون باب المنزل جاذبين الزائرة مكممين إياها، بينما أخذت هي تئن والدموع تغمر عيونها، لكنها لم تستطع التغلب عليهم والوصول لرضيعها لحمايته منهم، وسرعان ما أخذ أحدهم رضيعها من على الأريكة الذي أخذ يبكي بدوره، وهي تتلوى بموضعها محاولة الإفلات من مقيديها، رأت ليليس والدتها وقد أخرجت سكينًا من أحد الأدراج، وظهر على ملامحها الخوف الجم، وقد بدأت الدموع بالتجمع بمقلتيها هي الأخرى.. لكنها حاولت الحفاظ على رباطة جأشها وانطلقت تعدو ملوحة بالسكين نحو شخص كان قد ولاها ظهره، وحين انتبه التفت لها فأصابت السكين ذراعه، تأوه الرجل لكنه سرعان ما سدد قبضة لذقنها زجتها أرضًا، ازدادت أنفاس ذعر ليليس، وهي ترى ما يصيب والدتها، ولوهلة أرادت الوقوف أمام ذلك القذر.. لكنها تذكرت أن تلك ليست سوى ذكرى من الماضي.

أردف أحد الخمسة الموجودين:

"إذن تلك هما المرأتان.. نفذ الأمر إذن".

أخرج أحدهما خنجره متجهًا نحو الزائرة التي حاولت الصراخ بدموع والهلع يغزو وجهها، لكن صوت شخص آخر منهم أوقفه: "توقف!"

نظر الجميع صوبه، ليعقب: "المصادر أقرت بوجود طفلة أخرى غير هذا الرضيع.. أين الطفلة الأخرى؟ انطقا!"

صاح بسؤاله الأخير للزائرة، ووالدة ليليس التي ظلت ممددة أرضًا من حدة الضربة، لكن أي منهما لم تجب، كوم ذلك الذي شهر خنجره جزءًا من رداء الزائرة بقبضته مقربًا وجهها منه، وهو يضع خنجره على عنقها: "أين الطفلة الأخرى؟"

تنفست بقوة، وهي تنظر بهلع نحوه، أشار للذي كممها بإزالة كفه من على فمها؛ لينال إجابة لكن كل ما ناله هو صراخ هيستيري منها محاولة الاستنجاد بأي شخص، لكن قبيل اتمامها لذلك تم تكميمها مجددًا، ثم نحر عنقها على الفور، شعرت ليليس بأطرافها ترتعد، بينما المقيد للزائرة يترك جسدها ليخور أرضًا، وآنذاك ارتفع بكاء الرضيع، بدأت والدة ليليس بالتعافي من أثر صدمة القبضة، وحينها شهقت بهول لرؤيتها جثة قريبتها تلك هامدة لجوارها، لكنها لم تكد حتى تُصدم حتى غدا قائد الملثمين بموجهتها، وكوم ياقة فستانها الأرجواني بقبضته رافعًا إياها من على الأرض وسأل بحدة: "أين الطفلة الأخرى؟ أين ابنتك؟"

"فلتحترق في الجحيم..".

تفوهت بصعوبة بسبب عنقها التي بالكاد تتنفس، لم تفت

ثوان حتى دوى صوت صفع قاسٍ أدمى وجه والدتها، شعرت ليليس بفؤادها ينخلع من موضعه لرؤيتها ما تقاسيه والدتها، كرر القائد سؤاله:

"أين ابنتك؟"

أخذت والدة ليليس تتنفس بقوة دون الإجابة، فقام بصفعها بقوة أشد حتى ظهر أن دماء لوثت إحدى مقلتيها، ردد سؤاله فنظرت نحوه تلك المرة من بين الدماء التي تسيل من وجهها مردفة بوهن:

"ابنتي بأبعد مكان على وجه هذه البرية، وسأطلعك عليه لتخبر "قاتل الحالمين" به..".

"تحدثي إذن!"

استجمعت أنفاسها، ثم بصقت بوجهه، حينها مسح الرجل البصاق مع على وجهه صافعًا إياها مجددًا؛ لتسقط تلك المرة أرضًا، لكنه لم يردد السؤال ذاته، بل أخذ بركل أطراف جسدها كله، وبالأخص وجهها الذي صوب نحوه كمية ركلات لاشت ملامحها كليًا حتى انكسر عنقها تمامًا! وحينها بصق على جثتها، لماذا هي بهذا المكان تشاهد هؤلاء الناس؟! من هم هؤلاء الناس؟! أو بالأحرى من هي؟! شعرت أن حواسها جميعها شُلت، بينما سائل ما ينحدر نحو الأسفل عبر وجنتيها.. لم تدرك كيف صارت جاثية فجأة على ركبتيها، مراقبة تلك الجثة المشوهة، بينما تسيل دموع صامتة منها بغزارة لكنها لا تصدر أدنى صوت.. فقد أمرتها والدتها بذلك.

"مهما حدث.. مهما رأيت لا تفتحي فمك، لا تتحركي.. ابقي مختبئة فحسب".

من تلك الموجودة أرضًا؟ لما يبدو أن كل الموجودات تشوشت، وكل شيء استحال رمادًا عدا وجه الممددة أرضًا معدوم الملامح، حاولت إغلاق عينيها، لكنها سرعان ما فُتحت مجددًا على مصرعيها كاشفة عن المشهد ذاته مرارًا، لكن لوهلة جذبها من عذابها ذاك سلسلة من الرؤى أمام عيونها رغم أنها لازالت بالموضع ذاته، رأت امرأة ترتدي السواد بخصلات شعر سوداء طويلة، ومموجة وعيون حمراء تقف متحدثة في ظلال الليل مردفة بلهجة سآخرة لشخص بعيون زرقاء:

"سيتواصل معك شخص يُدعى ساريو؛ لتقوم بمهمة قتل عالم حضارات ما لأجله، أريدك أن تنجز مهمته على أكمل وجه، فلا أريد أن تسود الشائعات أن الأميرة إنستازيا غير قادرة على إيجاد أفضل قتلة الزهرة الدامية".

أومأ الموجود أمامها، لكن ليليس كانت شبه مغيبة، تراقب فحسب دون أي مشاعر، وقد علمت بما ستراه بعد ذلك حين ظهر أمام عينيها مشهد رأت به نفسها، وهي تسند العالِم ران سيء الحالة محاولة إخراجه من أنقاض الحالمين، لكن قلادتها سقطت.. فهمت بجلبها؛ ليظهر ظل يليه ذلك القاتل المأجور ذو العيون الزرقاء، وقد نحر عنق المعلم؛ لتطرش دماؤه نحو ليليس التي أعادت جذعها لوضعه الطبيعي.. بعد وضع القلادة بحقيبتها، نظرت نحوه بعيون متسعة، وفم مهزوز،

بينما استند هو لها، وأخذت دماء عنقه تطلي مقدمة ملابسها بأكملها حتى سقط أرضًا، وسقطت برفقته، وهي لازالت بنفس الملامح المغيبة أثناء هزها لكتفه عدة مرات متسائلة:

"أيها المعلم، هل غلبك النعاس؟!"

لم يُجب، فابتعدت عنه بهدوء، مردفة بنفس ذهولها السابق:

"حسنًا، لن أزعجك، سأتترك؛ لتنال قسطًا من الراحة".

ثم ربتت أعلى كتفه بلطف ووقفت، وهمت بالابتعاد، ولكنها استدارت بنفس العيون الواسعة، ولكن بابتسامة كبيرة أعلى وجهها، وهي تردف:

"أيها المعلم لقد أخبرتني أنني سأصير مساعدتك الدائمة، هذا يعني أنك لن تتركني كوالدتي، أليس كذلك؟"

لم تصدر أي إجابة، ولكن سرعان ما صدرت منها ضحكات رقيقة وهي تومئ:

"علمت.. علمت أنك لن تتركني؛ لأكون وحيدة أو ليؤذيني أي شخص آخر؛ فقد أخبرتني أنك لتود ابنة مثلي..".

ثم ازدادت ضحكاتها خاتمة حديثها:

"حقًّا أيها المعلم؟! وأنا أيضًا أحبك كثيرًا، لم أكن لأتصور مطلقًا أن أي شخص قد يرى بكائن قميء مثلي سببًا ليحبه".

رفعت نظرها للقاتل الذي رمقها بسخرية، لكن ابتسامتها اتسعت نحوه، وأردفت:

"هل تتخيل؟! إنه يحبني كابنته! ألم تسمعه لتوك؟!"

تساءلت بدهشة، بينما ضحك الآخر بسخرية، فضحكت برفقته بقوة لكن ضحكاتها تلاشت تدريجيًا، وابتعدت دون وجهة محددة لتقف للحظة، وهي تحاول استيعاب ما الذي حدث، وكيف وصلت لهنا؟ آنذاك عادت ليليس لموضعها بمنزل طفولتها ولمنظر جثة والدتها أمامها، وشعرت أنها لم تعد تشعر بأي شيء البتة.

وقفت متجهة نحو الغرفة التي خبأتها بها والدتها، ونظرت عبر الشقي الخشبي بالسرير؛ لترى ذلك الوجه الصغير ذا العيون المغيبة يقبع بالظلام متأملًا جثة والدتها، مدت أناملها ملامسة الخشب، وكأنها تحاول الوصول للصغيرة القابعة خلفه، لكن نظرات الصغيرة ظلت كما هي.

أسندت رأسها للخشب، وقد سالت دموع جديدة من عينيها المنفرجتين، بينما تسلل لأذنها حديث من بالخارج:

"يا رجل لم يجدر بك قتلها بذلك الشكل، الأوامر واضحة.. قتل مباشر بأقل قدر من الألم".

"لقد بصقت بوجهي!، ثم إن القتل يظل قتلًا! فليتوقف "قاتل الحالمين" ذاك عن إزعاجنا بمثالياته.. إن أراد قتلًا سريعًا فليأت هو، ويقوم بالعمل القذر عوضًا عن التواري عن الأنظار".

في تلك اللحظة التفتوا للرضيع الذي لازال يبكي حتى تلك اللحظة، وتساءل أحدهم:

"أسنقتله الآن؟!"

سمعت ليليس خطوات أحدهم متجهة نحو الرضيع، لكن سرعان ما فُتح باب المنزل على مصرعيه؛ ليدخل منه شخص لم تره، ثم أمرهم بصوت أجش:

"ارحلوا الآن، وعودوا بعد ساعة لتنظيف هذه الفوضى!"

سمعت خطواتهم يبتعدون، بينما تساءل نفس الصوت الأجش فجأة بصدمة:

"ما منظر الجثة ذاك؟!"

تنحنح أحدهم قائلًا: "لقد كان الأمر ضروريًا!"

"عليكم اللعنة! ارحلوا فورًا!"

بدا الأخير مستاء للغاية بجملته تلك، مرت دقائق حتى صدر أزيز من الباب مجددًا يدل على فتحه، فانتفض ذو الصوت الأجش متسائلًا: "لكن كيف؟! كيف وصلت لهنا؟! ألست لازلت تخضع لقانون المرايا؟!"

لكن الآخر، لم يجبه فتحدث ذو الصوت الأجش بتوتر: "سامحني.. تلك الجثة.. لقد..".

أجابه صوت آخر طغى عليه الهدوء:

"قلة كفاءة.. تلك الجثة لهي تشي بقلة الكفاءة؛ فقد كانت أوامري واضحة".

أبعدت ليليس وجهها عن خشب الفراش، وقد زالت نظرة

الذهول بعيونها ولم يبق أي شيء بملامحها، وكأنها صارت صنمًا من العاج، استدارت بوجهها للخارج؛ لترى ملامح ذلك الشخص، فقد بدت تلك الرغبة أشبه بالتوق لكوب ماء مثلج بعد السير لأيام بصحراء شديدة الجفاء.

رأت ذلك الشخص ذا الملامح الباردة التي يقبع بمنتصفها عيون صفراء غير منبهرة أو مبالية، لكنها لوهلة تغيرت قليلًا إثر حمله للرضيع الباكي، وأردف بنفس نبرته السابقة:

"أتعلم لقد توفت زوجتي من ساعات، وكذلك طفلي الذي كنت أنتظره".

ظهرت الدهشة على أسارير الآخر، بينما أكمل حاملًا الرضيع:

"لقد أردت تسميته بما يدل على أنه الروح التي ستُفني المرايا، وما تسببه بشعوبنا، لقد أردت تسميته "سول".

"سمو الأمير ميستريو، أنا في أشد الأسف لخسارتك".

"لا بأس، ما تعلمته في دربي هذا أنه لا بُدَّ من خسائر فادحة؛ لتحدث تغييرات جذرية، لم أحسب أن الأذى سيصل لزوجتي أثناء زيارتها لشبه جزيرة لونا، لكن جدر بي منعها حين أصرت على الإنجاب بهذه الأرض؛ كي يتم مباركة الطفل كعالم منذ وطأته الأولى للحياة.. لم أدرك أن رغم كم الحماية المحيطة بها، أن شخصًا ما سيستطيع تسميمها، ويطول الأذى طفلي أيضًا ليموت كليهما، لكن جدر بي أن أعرف أن عدم وجودي بشكل كامل سيعني فشل ما أصبو إليه".

"أيها الأمير، أنا آسف حقًّا.."‌.

"أتدري لم أتحدث بما يختلج كياني بهذا الشكل منذ أمد لا يمكنني إحصاءه، ليس منذ مقابلتي للشخص الذي غير مسار حياتي، والذي علمت بسببه أن نسل الحالمين هم البذرة الدنسة التي يجب استئصالها من جذورها، فأمامي خيارين؛ إما أعلم أن أرواح شعبي سيتم حبسها بالمرايا، بينما تصير أجسادهم ليست سوى حاملات لأرواح الحالمين الذين سيأتي يوم ما ويعود شخص منهم أو من المهجنين لسبر أغوار أرواح شعبي كليًا، وحبسها لا بُدَّ الدهر بتلك المرايا، بينما يعيشون هم حيواتنا بأجسادنا، أو أغدو سفاحًا بانتهاكي لدماء نسل الحالمين بأكمله، أخبرني ماذا لكنت تفعل إن كنت بموضعي؟! أستسعى لتحرير شعبك وقتل ذرية من سيأسر أرواحهم مثلي أم ستقف دون فعل أي شيء؛ كي لا تتلوث يداك بدماء الأبرياء لكن لا بأس إن فنى شعبك كله؟"

تخشب ذو الصوت الأجش، ولم يجب، لكن ميستربو تجاهل ذلك مكملًا:

"لكن ذلك الشخص الذي غير حياتي خدعني.. فهناك سبيل آخر لتحرير شعبي.."‌.

أردف ناظرا للرضيع ذي العيون الصفراء.

"لا أعلم العواقب حتى الآن فحسب.. عواقب تدمير المرايا التي لم يخبرني بها من عرض علي يومًا "أمنية ونصيحة"، حسبت أنني خدعته بقدرتي على حوزة أمنيتين: تحرر روحي

من المرايا كليًا قبل إتمام الثلاثين، وقبل أن تلتحم روح الحالم بجسدي للأبد، وأن أحظى بطفل خليفة لي يكرس نفسه كليًا لتحقيق أهدافي، لكنني اكتشفت أن صاحب "النصيحة والأمنية" هو من خدعني وليس العكس؛ فبموت طفلي صارت أمنيتي الأخيرة بلا قيمة".

دُهش الآخر، بينما ابتسم له ميستريو:

"ضلالات ذهني التي تمثلت على هيئة ظل أخي رانل هي آخر من حدثته بذلك الصدق والانفتاح، من المريح مشاركة ما يعتري فؤادك برفقة أحدهم من آن لآخر".

وضع الرضيع جانبًا، واقترب من الآخر مربتًا على كتفه بامتنان، ثم سأله:

"أتفقدت الغرف؟"

التفت ذو الصوت الأجش لجزء من الثانية للغرف، لكنها كانت كفيلة لغرس ذلك الأمير لخنجر بعنق الآخر.. الذي شهق ناظرًا نحو الأمير بصدمة، وهو يتلوى من الألم ويسقط معلنًا عن تصاعد روحه، علل ميستريو:

"أعتذر يا صديقي، لقد كنت محل ثقة لسنوات، لكن منظر الجثة ذاك يشي بانعدام كفاءتك بالآونة الأخيرة، وأسراري لا بُدَّ أن تموت برفقتك".

همدت جثة الرجل بعيون جاحظة بجوار الجثتين الآخرتين على الأرض، بينما أخذ الأمير الرضيع ناظرا له، وأردف:

"بك سأفترض أن طفلي لم يمت، فستصير أنت "سول".

ثم انصرف به تاركًا المنزل، استمر الصمت لدقائق طوال، لم تدرك ليليس فيهم لماذا لازالت بهذه الرؤية حتى عبر شخص جديد للمنزل؟ في الواقع لم يكن جديدًا، فهو أحد الملثمين السابقين، لكنه لم يشارك بقتل أي من المرأتين، كان مشاهدًا فحسب.

ثنى جزعه مستندًا لركبتيه، وتأمل الجثتين.. لكنه فور ما توقف واتجه للغرفة التي تتوارى بها ليليس، لم تستطع ليليس رؤية ملامحه، أو فهم ما الذي يدور لكنها رأته يرفع الأفرشة الثقيلة المغطية للفراش حويصل لليليس الصغيرة المختفية خلفهم، وهي لازالت بحالة الذهول التي سقطت فريسة لها، ثم يحملها برفق مبتعدا.. رغم حالة التخشب التي أصابت ليليس الحالية إلا أن الفضول اقتنصها حيال ذاك الشخص، وحين وقفت مستديرة حيثما توجه، رأت الموجودات من حولها اختفت لتجد نفسها بشارع ما واسع.. بمكان مختلف تمامًا بشبه جزيرة لونا، شارع حفظته عن ظهر قلب، وجدت أن باب الغرفة قد استحال لإحدى الأبواب الخارجية للملجأ الذي شبت به، حيثما وضعها الملثم، ثم أعلى إحدى درجات السلم الواقعة أمام الباب، وتحدث لها:

"لقد أنقذتني يومًا، وها أنا رددت المعروف، هذا هو المكان الوحيد الذي لن يعثر عليكِ "قاتل الحالمين" فيه..".

ظلت ليليس الصغرى بنظرتها المغيبة، بينما ختم الملثم حديثه:

"أراك لاحقًا يا ليليس.."

ثم انصرف مبتعدًا، ومع إغماض ليليس لعينها للثانية التالية، وفتحها وجدت أنها قد عادت لغابة الظل؛ حيث بدأ كل شيء، رأت كبيرة الحالمين أمامها تنظر إليها متسائلة:

"أرأيتِ كل شيء؟"

وآنذاك علمت أن ذلك لم يكن سوى حلم طويل لحكيمة الحالمين نفسها، لم تجب ليليس لكن صوتًا مألوفًا حاول صم أذنها، كان الكيان الصارخ الذي حاول مرارًا الفتك بها.. يعدو بأقصى ما لديه نحو جانبها، مالت بذلك الجانب أرضًا دون النظر للكيان الذي أخذ يقترب بسرعة جنونية، أحكمت قبضتها على حجر بالأرض وبمجرد وصول الصوت لذروة اقترابه التفت مصوبة الحجر بأعتى ما لديها نحو أي موضع بالكيان لم تدرك حتى لأين صوبته لكنه أدماه، ولم تترك له فرصة بعد ذلك فانهالت ضربات بالحجر لكافة أنحاء جسده، وخاصة رأسه، شعرت أنها عُميت لا تبصر شيئًا، لا تدفعها سوى غريزة الفتك بما أمامها، ضربات متتالية بحدة لم تدرك مطلقًا أنها تملكها، دماء تتناثر بوجهها حتى غدت المواضع غير الملوثة بوجهها معدودة، ضربات حتى غدا الوجه أمامها دون ملامح كجثة عهدتها قريبًا.. حينها فقط أدركت من الساكنة تحت رحمة قبضاتها، فقط حينها ظهرت معالم الكيان الحقيقية، بشعرها الأصهب وبشرتها الباهتة لتدرك أن الكيان لم يكن سوى نفسها.

لكنها لم تشعر بأي شيء، وهي تبتعد عن جثتها مشوهة الوجه، بينما تلوث دماء الجثة وجهها.

تحدثت الحكيمة مجددًا:

"لقد كانت تحاول الفتك بي لا بكِ؛ إنها نفسكِ التي تحاول حمايتكِ مني، ومن تلك الذكريات وترفض تصديقها؛ لهذا منعتكِ دومًا من الولوج لتلك الذكريات واكتشاف الحقيقة، لقد كانت نفسكِ هي من حسبته عدوك منذ البداية.. للحق لم أر سوى أنها حاولت خلق عالم وهمي لكِ؛ لتعيشي به الحياة السعيدة التي لطالما تمنيتها.. قامعةً كل تلك الذكريات التي ستحيل ذلك العالم خرابًا؛ لكن كل ذلك ليس سوى وهم.. فالواقع أقتم من تلك الوردية.. ولتفهمي ذلك كان عليكِ رؤية الحقيقة بأسرها، ولتعلمي من هو العدو الذي اغتصب أرضنا وكان النيران التي أحالتنا رمادًا وأفنتنا تمامًا، هذان الشعبان.. بل أي قوم بالوجود لن يتوقف عن التخريب والدمار، واستحلال دماء الآخرين تحت مسميات لا تنتهي، أدركت متأخرا أن كل ما قام به الحالمون لهو خاطئ، جدر بنا تطهير الأرض من دنسهم منذ وطؤوا أرضنا! لكن الأوانن قد فات بالنسبة لي ولقومي، أتدركين الآن لماذا يجدر بك إعادة الحالمين؟"

نظرت ليليس للحكيمة، وللمرة الأولى على الإطلاق تتساءل نحوها بملامح وصوت صاروا أشبه بالأصنام الجوفاء:

"أين أجد الرضيع الذي بالرؤيا؟"

"نحو الجنوب.."

حينها أغمضت ليليس عيونها مكررة "استيقاظ"؛ لتفتح عيونها، وتجد نفسها مستندة للشجرة التي نامت قبالتها فتقف وتخطو نحو الجنوب، بينما الليل أسدل أستاره، وقد رفعت هي قلنسوة ردائها الأسود لتتشح بالسواد كليًا.

***

[14]
شظايا أرواح

"أتعلم إن أوجدنا نحن مختارًا خاصًا بنا، وأشعنا أنه سيكون المخلص من جماعة خُدام العائد الساحرين هؤلاء، ومختارهم الذي عاد ليلعن الأرض، لن نمتلك دعم الشعب فحسب، بل سنمتلك طائفة مؤمنة بالمختار الخاص بنا لنحركهم كالدمى بكامل إرادتهم لأي اتجاه نبغاه!".

استرجع فين كلمات المستشار بيسبور التي تلت اقتراح اتهام أخته بكونها المختارة الذي ينادي بها جماعة خُدام العائد، ذلك اللقب الذي استطاعت بيلا حوزته باتباعها لتلك النصيحة على وجه التحديد.. فيبدو أن منذ واقعة سول، وتلك الجملة هي التي أخذت تتكرر ببال فين بشكل مبالغ به، ثم كيف استيقظ سول؟! كيف لم يمت إثر سقطة كتلك؟! وبتوقيت وجود سول بتلك الحالة تم استياق فين لنفس المكان.. بالطبع؛ ليصير المتهم الواقع حتى أخمص قدميه بالجرم.. تكهن فين أثناء جلوسه.

وقع نظره على الجالسة أمامه بالعربة التي يجرها الأحصنة متوجهة صوب المرايا العظيمة بالجهة الشرقية، تفسير تلك الرحلة ببساطة: هو أن بيلا تريد إقامة هدنة لإعادة فين لأراضي والدته؛ كي يكون آمنًا بمبعدةً عن الشعب الذي صار يسخط حياله بعد تهمة محاولة قتل سول، لكن بالواقع ففين لم يصدق أيًّا من هذا، ولم يعد قادر على تصديق أي شيء تخبره

به بيلا، برغم تشتت موقفه منها، بعد رؤيته لكل ما فعلته وسماعه لحديث بيسبور حيال تلاعبها به لم يستطع كرهها كليًا فلازال جزءًا من كيانه يرفض كل تلك الحقائق أملًا في التمسك بصورتها السابقة التي أحبها.. لكنه تأكد أن الثقة بها لهي أكبر شرك قد يقع به.

أعقب بهدوء:

"استمعتِ لنصيحة المستشار بيسبور جيدا..".

نظرت له بحيادية مجيبة:

"أنا لم أستمع لنصيحة أي شخص، لقد اختارني القدير لأنشر الخير".

هز فين رأسه باستنكار، وهو واثق أن هذا هراء.. هناك ألعوبة ما تم التخطيط لها؛ لكي تبدو حادثة سول بتلك الشكل، فكل ما حدث من المحال أن يكون محض مصادفة.. أعقبت بيلا بحزن:

"لا أدرك لماذا لا تصدق بالمعجزات يا فين؟ لكني أتفهم موقفك، فإن كنت بموضعك لأصابتني الشكوك، أنا أطلب منك فحسب الثقة بي، والإيمان بأنه ربما اختارني القدير فعلا، لطالما كنت لجواري يا فين.. من فضلك كن لجواري هذه المرة أيضًا، فأنا بأمس الحاجة إليك".

نظر نحوها وبداخله تضاربت مئات المشاعر.. أيصدقها؟! أم أن تلك ألعوبة جديدة؟! أتعني ما تقوله حقًا، وأنها في حاجة إليه؟! أم تلك وسيلة لخداعه؟! لم يعد قادرًا على تصديقها

فحسب..

خطر تساؤل جديد بعقله فأدلى به:

"بيلا، كيف عرفتِ كل تلك الأشياء التي أخبرتها لسول؟! لطالما أخبرني سول حيال أشياء غريبة معللا معرفته بها لإخبارك إياه، فكيف لكِ بتلك المعرفة؟!"

دُهشت الفتاة، ثم أجابت بحزن:

"أنا لم أخبر سول بأي شيء يا فين، لطالما كانت تلك عادته فحسب: معرفة أشياء من العدم، ثم إلصاق تهمة الدراية بالأمر لي".

ساورته حيرة تصديقها أم لا مجددا، لكن أمرًا ما تردد بخاطره، وهو: لماذا ستدلي بيلا بأمور في غاية السرية قد يستغلها سول لفضحها، كما فعل عند قتلها لساريو؟! ما سيكون منطقها من ذلك؟! هذا يعني أنها صادقة وسول هو الكاذب حيال ذاك الأمر.. سول هو من عرف كل تلك الأشياء، كما لو أنه مطلع على الغيب، ثم ألصق تهمة المعرفة ببيلا، لكن كيف علم كل ذلك؟!

التزم فين الصمت، فأكملت بيلا بنبرتها الحزينة:

"فين، أعلم أنك صرت تتساءل حيال أفعالي مؤخرًا. وتشعر أنني صرت شخصًا آخر غير الذي عهدته، لكنني أقسم لك أن هذا ليس صحيحًا!"

نظر لها بتوجس، فاستأنفت هي:

Page ٤٥١ / ٤٢٠ [14] شظايا أرواح

"قد أكون اقترفت أشياء سيئة للغاية، لكن أقسم أنني لم أفعل ذلك سوى لأجل والدي؛ كي لا يخسر كل ما بناه، وكي لا يخسر ثقته بي".

"وهل تحسبين حين علمه بما فعلته لن يخسر ثقته بكِ؟! ثم أين هو والدك؟! ماذا؟ هل ستخبرينني مجددا أنه يحاول إقامة هدنة مع بودير ووالدتي المشغولين بحربهما مع نايلس؟"

تساءل باستنكار، بينما نكست هي وجهها أرضًا، وأعقبت:

"أنك محق بعدم ثقتك بي.. فلربما كذبت حيال بعض الأشياء، لكنه كان بأوامر من والدي، ولم أرد أن أثقل عليك".

زاد شعور فين بالاستفزاز:

"لم تريدي أن تثقلي علي؟! كلا يا بيلا، لقد علمت جيدا ما.."

كاد يقول: "ماهية شعوري نحوكِ"، لكنه استعاض عن ذلك بجملة أخرى:

"ما كنت لأفعله لأجلكِ، كنت لأفعل لأجلكِ أي شيء! وأنتِ قررتِ استغلال حماقتي تلك لجعلي أصدق أكاذيبكِ".

قاطعته بيلا معتصرة كفيها ببعضهما:

"فين، كيرا لم تعد للعاصمة الأم حتى الآن، وثنسيا.. أصيبت بالمرض الأزرق!"

جبل ثلجي آخر يُسحق فوقه؛ ليحيله أشلاء، أكملت بيلا بحزن:

"أتعلم الآن، لماذا اختلقت الأكاذيب ولم اخبرك بالحقيقة؟! لأنني أعلم وقعها عليك.. وأنا أعلم كم المآسي التي تعرضت لها، ولازالت تصيبك منذ فقدانك لساقك.. هل من المفترض -بمعرفتي تلك- أن أخبرك: فين، خالك بمأزق، وقد لا يعود بسبب عنده على خوض رحلة مميتة.. فين، أختاك ووالدتك بحالة سيئة للغاية.. فين، أنا لا أستطيع تولي المنصب الذي تركه والدي لي.. أخبرني أيجدر بي تناسي كل ما قاسيته، وإثقالك بمزيد من المصائب؟!"

لم يجب، وقد شعر بتخدر عقله منذ خبرها الأخير حيال أختيه، كررت بيلا تساءلها:

"أخبرني؟"

لكنه أعقب باقتضاب:

"من فضلك، اتركيني الآن لحالي".

صمتت بيلا تاركة إياه لعقله المدمر.

***

هذا المكان أليس هو نفسه الذي وقف به منذ ما يقرب من العام؟، لكن حينها كان كل شيء على ما يرام..

نظر صوب المرايا التي تصل حد السماء، يحاوطها التماثيل الخمسة: الشبيه بالحالم، أندريا، مواطن من الشعبين، الوحش الصارخ، والكيان المشابه لشياطين الجحيم.

تأملهم فين بوعي غائب لا يفكر سوى بما حل بأسرته، أحاطه

جنود بيلا التي وقفت أمامه بعض الشيء ولجوارها المستشار أران، ولخلفها هي وجنودها تقبع أحد المرايا، التي لامسها فين بالتحديد يوم العرض على المرايا.

اقتربت كتيبة من الجنود نحو بيلا وجنودها، وقد أظهر زيهم انتماءهم لبودير.. توجه قائد الكتيبة لبيلا وأران وأخذا بمناقشة بنود تسليم فين، لكن الأخير تجاهل كل ذلك، ولمح أثناء وقوفه شيئًا غريبًا بأحد الجنود.. ذلك -الذي يقف لجوار أحد الرماة- هيئته بها شيء ما مختلف.. يكفي شعره الأزرق البارز من خوذته بهيئة لا تظهر عادة بالمملكتين، لكن فين التفت عن كل ذلك عند سماعه لبيلا تتساءل بصوت عال لكتيبة بودير، وقائدها:

"هل تثقون حقًّا أن بودير هو الشخص السليم لتتبعوه؟!"

لاحت إمارات السخرية على القائد معقبًا:

"لنركز حيال استرجاع الأمير فين فحسب..".

"قد لا تدرك أيها القائد، ولكن بحوزتي قوة كبيرة؛ فقد اختارني القدير لأطهر هذه الأرض من الدنس الذي سادها.. وإذا انضممتم لي، ولوالدي فستكونون أتباع القدير".

ازدادت ملامح السخرية على وجه القائد، وحتى المستشار أران نفسه ظهر عليه الانزعاج لما تقوم به بيلا.. والذي لم يطمئن له فين، آنذاك سمع بصوت ما خلفهم وحين استدار لمح صبيًا ما بالقرب من المرآة التي لمسها فين، يتخفى متجهًا نحوها، بينما صف جنود بيلا الواقفين أمام المرآة كانوا كفيلين

بصنع جدار لا يظهر الصبي لعيون كتيبة بودير.

احتد صوت بيلا:

"لقد صنعت معجزة بالفعل في الأرض، ووهبت روحي للقدير لاستعادة روح أخي الميت.."

أجاب القائد بملل:

"لا أقصد الإهانة يا سمو الأميرة، لكن إن وهبتِ روحكِ، فكيف أنتِ واقفة برفقتنا الآن، من فضلك لنركز على سبب تواجدنا هنا من البداية، وهو استرجاع الملكة دورسيرا للأمير فين".

رغم الحديث السائر إلا أن فين ركز بملامح الصبي المقترب من المرآة؛ ليتضح أنه سول، لكن ألم يكن الفتى طريح الفراش عند مغادرتهم، كيف وصل لهنا؟! ذُهل فين، وشعر بأنه يهزي، لكنه حاول الابتعاد عن الجنود المحاوطين له، ومناداة الفتى:

"سول؟!"

آنذاك لم يلتفت لفعلة فين سوى ذاك الجندي أزرق الشعر وزميله الرامي، ارتفع صوت بيلا بتحد:

"يمكنني القيام بمعجزة أخرى لأثبت لكم أنني المختارة!"

ليسألها القائد باستهزاء: "حقًّا مثل ماذا؟!"

كرر فين نداءه: "سول!"

التفت له سول مردفًا بصوت لم يسمعه سوى فين أو ربما

لم يهتم أحد لسماعه بسبب النقاش المحتد بين بيلا وقائد الكتيبة:

"فين! هناك فتاة صهباء خضراء الأعين بالمرآة، إنها أسفل مياه ما! تصرخ مستغيثة طارقة زجاج المرآة! يتبعها كيان آخر شيطاني، ويحاول حبسها برفقته، علينا مساعدتها!"

ختمت بيلا حديثها بعزم ما بها: "يمكنني تهشيم المرايا بأمر مني فحسب!"

رأى فين سول يقرب يده من المرآة محاولا الوصول لمن يراه خلفها، بينما القائد يضحك ساخرًا:

"إذن، افعلي..".

لم يكمل جملته، حتى تحول الوجود حولهم للون قاتم للغاية، ولم يدر فين ما الذي أصابه لكنه شعر أنه قُذف حتى حافة الكون، بينما دوى انفجار مهول بصوت زلزل الوجدان، وأخذ يدوي ويدوي، أغلق فين عينه بقوة واضعًا يده كحائل أمام وجهه، بينما هو يشعر بمئات الشفرات الحادة، والشظايا الزجاجية تغرس بجسده بصورة عشوائية، لم تترك بقعة بجسده إلا وادمتها -ليس لحد الموت- لكن للحد الكفيل بأن ينهش الألم أوصاله، أخذ يضوى ضوء عظيم، وكأن ثقبًا كونيًا فُتح أمامهم مبتلعًا ضوء الوجود بأكمله؛ ليصب به أعلاهم، استمر صوت الانفجار لما بدا أنه دهورا طويلة، وبرفقته سمع فين آلاف الصرخات، لأشخاص هلعين ومُعذبين، سمع أصوات أشخاص يغرقون كما لو أن الطوفان أصاب البراري بأكملها

حتى استشعر طعم الماء المالح بفمه وخشمه، لكن الأسوء لم يصبه سوى الآن، حين بدأ يتراءى له أنه يرى ذلك الأسد الأعور على مبعدة يقترب منه بفمه الأشبه بالكون بأسره، حينها أخذ فين يحاول استنشاق أنفاسه، لكنها أخذت تختفي، وتختفي كأنها تُسحب من داخله بفعل قوة ما! وضع يده أعلى حلقه محاولًا الوصول لنفس واحد فحسب لكنه تبخر كليًا، احتقنت عينا فين، وأخذ يسعل بقوة باحثًا على أي شيء يروي ظمأ رئتيه الجرداء تلك، لكن لا شيء، حتى شعر أن الروح تغادره بالفعل، فتح عينيه، وهو يرى هالة مضيئة تشع من أنامله وتكبر، وتكبر حتى شكلت كيانًا كاملًا يطفو أعلاه، لم تظهر له أي ملامح ولا يدر فين كيف رآه حتى.

لكنه سرعان ما طفا لأعلى بسرعة جنونية خلف السحب، آنذاك رغم عودة الأنفاس لفين تدريجيًا إلا أن حياة ما انطفأت بداخله للأبد، تأمل السماء وهو غير مدرك لأي شيء حتى خفتت الرؤية بهدوء تام كما لو كان يستند لتلك الشجرة بقصر العاصمة الشرقي بعد حرب طالت لدهور بأكملها.

لم تمر سوى لحظات حتى فتح عيونه بثقل ناظرًا للسماء نفسها، لكن الموجودات اختلفت فهو لم يعد بالقرب من المرايا، لقد انتقل نحو مكان أبعد كثيرًا.. نظر حوله لتلك الصخور الطويلة المنظمة، الواحد وخمسين صخرة، تأملهم وهو يرى ذلك الأسد الوحشي أعور العين يقترب من على بُعد، لكن تلك المرة لم يصب الخوف فؤاد فين، وعند اقتراب الوحش منه بدأت المعالم بالتحول لذلك الشخص الأعور الذي

لطالما رآه فين بأحلامه، ثم وقف على بُعد خطوات من فين مردفًا:

"هنيئًا لك يا فين.. لقد حوزتها، لقد حوزت قوة الأسلاف بتسخير الأسود".

"أنا لا أفهم، من أنت؟ ولماذا تلاحقني؟"

ابتسم الأعور مجيبًا: "أنت من خطوت لأرضي، لعريني بنفسك..".

هز فين رأسه بغير استيعاب:

"لقد جئت لوادي الأسود لأجد حلًا لإزالة الروح الهجينة من شقيقتي، فقد قيل أن هجينًا ما توسل الأسلاف و.."

"وزالت الروح الهجينة منها، أليس كذلك؟"

"بلى.."

لاحت ابتسامة سخرية على وجه الأعور، واستطرد:

"ومنذ متى نصدق التاريخ يا فتى؟ هؤلاء الذين تعرفهم يتزيفون، ماذا حيال من لم تعرفهم أبدا.. كل تلك لم تكن سوى أكذوبة..".

"أكذوبة؟!"

"أجل، أكذوبة لأتصيد بها هجينًا آخر، فكما ترى يا فتى لقد كان والدي من كبار القادة بالجيش، وقبيل بلوغي حتى.. صار لي اسم ومكانة لجواره، لكن بمجرد إظهار المرايا

لكوني هجينًا لفظني الجميع، وحاولوا قتلي، حينها أقسمت أني سأحوز القوة التي تخضعهم جميعًا كلابًا أسفل قدامي، وأبدأ بها العالم الجديد؛ حيث سيحكم المهجنون مخضعين الشعبين.. وكانت تلك القوة هي القدرة على تسخير الأسود كأسلافنا القدماء.. القدرة التي توقفت واندثرت كليًا.. منذ تكون المرايا بسبب تلوث أرواح شعبنا بفعل بعث أرواح الحالمين بأجسادنا.. ".

فتح فين عينه على مصرعيهما، وهو يستمع لصدمات تلو الأخرى، أكمل الأعور:

"لكني علمت أن روحي أنا لم تكن ملوثة، وأخبرني ساحر أن باستطاعتي بطقوس سحرية ما أن أحوز تلك القوة، ولكن سيجدر بي التضحية بخمسين فردًا، وسأكون أنا الواحد وخمسين، لذلك تخلصت من أحد عيناي، وبدأت بتضليل الخلق بأنني مُنزل؛ كي يتبعوني لهذا المكان، رغم محاولة شخص غريب قابلته عن إثنائي عن هذا القرار مخبرًا إياي أنني لست من الشعبين، بالتالي لن أستطيع حيازة قوة أسلافهم أبدا، وأن فعلي هذا سيؤدي للعنتي، لم أعرف أي شيء حيال ذلك الشخص، لم تظهر حتى ملامحه فقد اندثر بالسواد كليًا، وأنا لم أكترث لكلامه حقًا، وقمت بالتضحية، وظهرت الأسود لتنهش الموجودين، لكنها لم تلتف لي في النهاية، وأخذت في التبدل مدركًا أنني لُعنت لأصير بتلك الهيئة لأمد عمري، وأن أصير خادمًا لأول شخص التقيه من الشعبين، ولا يتخلل جسده دنس أرواح الحالمين، وهذا ما حدث لك بعد تدمر تلك المرآة،

وخروج روح الحالم من جسدك".

هز فين رأسه بصدمة:

"خروج روح الحالم من جسدي؟!"

"أجل، فعندما تلامسون المرآة فهي لا ترشدكم حقًّا لأين تنتمون، بل إنها تقحم أحد أرواح الحالمين بداخلكم.. مجبرة إياكم على البقاء بالأرض حتى تتمكن الروح منكم كليًا بعمر الثلاثين حينها لا يمكن إزالتها أبدًا، بينما قبيل ذلك فتدمير المرايا يحرركم منها..".

"لكن لماذا.. تُوضع روح حالم بأجسادنا؟!"

"هذا أمر يطول شرحه.."

شعر فين أن الجنون سيطاله وتساءل سريعًا:

"لكن ماذا عن أكذوبتك تلك.. حيال محاولتك لترصد هجينًا آخر.. على حد قولك".

"آه، ذلك.. في حالة قدوم هجين لأرضي، أستطيع ختم اللعنة به لتلعنه هو، وأتحرر أنا؛ لذلك حرصت قبيل تحولي الكلي على نشر إشاعة أن وادي الأسود أزال روحي الهجينة؛ كي يخطو لعريني يومًا هجين أبله ليحررني من هذا العذاب.."

"ويحبس هو بموضعك؟!"

أومأ الأعور ليفقد فين اتزانه بعض الشيء مستوعبًا ما كاد يفعله بأخته لاقتراحه ذهابها لوادي الأسود.. كانت والدتهم محقة لعدم الاستماع لرأيه آنذاك.

"قلت أن روحك لم تكن ملوثة بروح حالم؟! ما معنى ذلك؟"

جاوب الأعور:

"معناه أن الهجين ليس محكمًا بقانون المرايا، بوسعه الذهاب لأي مكان، بأي اتجاه.. المهجنون ليسوا مربوطين بالمرايا بأي شكل؛ إنها فقط تغير مظهرهم، لكن دون ذلك فالشعبان والحالمون هم من يتصلون بها فعليًا".

هذا يعني أن كيرا ليست محكمة بأرض أو عمر محدد.. فكر فين.

ختم الأعور حديثه: "والآن يا فين، أنا طوع أمرك.. فقد صرت سيدي بعدما حوزت القدرة على تسخير الأسود.. وسأقطع دربي لأصل إليك بأسرع ما لدي".

انحنى الرجل لفين الذي سرعان ما فتح عيونه ليلحظ اختفاء الهجين، حدق بالسماء، بينما تجاوره بعض الأجساد الساكنة وسط أرض أصابها الدمار، بينما ذلك المستشار أران يقترب من فين صائحًا به أن يفيق لكن فين يتجاهل ولا يتردد بأذنه سوى صوت بيلا صارخة بالأفق: "سول، أين أنت يا أخي؟!"

لكن كيف علمت بيلا بوجود سول من الأساس؟! تجاهل فين تساؤله ذاك، وأخذ يتأمل السحب بالأفق..

***

[15]

إلى الأمواج نعود

إنه ذاك اليوم مجددًا.. حينما تعثر سول ساقطًا بالبحيرة، دُهشت بيلا مقتربة منه، لكنها وقفت بموضعها وتبدلت نظرتها لشخص غير آبه على الإطلاق، حسب ميستريو في البداية أنها مصدومة ليس فإلا، فاقترب منهما بأقصى ما لديه بينما الفتى ينازع؛ كي يبقى على قيد الحياة، ينازع كالرجل الأربعيني الذي صار أضحية أفعى ياما، وعوضًا عن الثبات حتى.. التفتت بيلا مبتعدة عنه! كما لو كانت نسمة رياح مرت عبرها ليس فإلا، زاد ميستريو من سرعته وهو يرى حركة الفتى تخفت كليًا، وبيلا تسير مبتعدة، لكنها سرعان ما التفتت حين سمعت قفز ميستريو بالبحيرة مخرجًا سول الذي بهت وجهه، حاول إخراج الماء من رئتي الفتى بأي طريقة لكن سول ظل ساكنًا بلا حراك، وبيلا ظلت بنظراتها الثلجية، كرر ميستريو محاولاته بجعل الفتى يستنشق الهواء لكن حتى نبضه كان توقف وصار جسدًا خاويًا، آنذاك نظر ميستريو لبيلا بصدمة صائحًا بها عكس طبعه:

"لماذا لم تنقذيه؟! لماذا لم تنقذي أخاك؟!"

لم تجب الفتاة، لكن لصدمة ميستريو سمع أنفاس بسيطة من منخار سول، فصُعق كليًا! الفتى كان قد مات، نظر لبيلا فوجدها ترمق سول بنفس نظراتها السابقة، ثم تساءلت:

"من هذا؟! أنا حقًا لا أعلم، لكن أنت تعرف جيدًا؛ فإن لم

تكن تعرف فأخبرني يا والدي لماذا أمرت الممسوسين بتبديل موضع كيرا وأدريان بيوم المرايا؟ أممن الممكن كي لا يبقى أي من أطفال الأسرة الملكية بعد فوضى كيرا سوى ذاك الفتى؟!"

أشارت لسول، وأكملت:

"أمن لمس المرايا يومها بعد كيرا كان هو نفس الذي مات لتوه وعاد للحياة أمامنا؟! كلا، يا والدي لقد كان شبيهًا له استعنت أنت به بعد إخفاء هذا الفتى بعد الهرج الذي ساد إثر ظهور كيرا هجينة؛ لأنك علمت أن فاجعة ستحدث إن لمس هذا الفتى المرايا.. تماما كما علمت جيدًا يا والدي يومها أن كيرا ستظهر هجينة، لطالما علمت آلاف الأمور التي حتى الجان لا يستطيعون الإلمام بها! بيد أنك مطلع على المستقبل كما لو أنه حاضرك، كيف إذن يا والدي؟ أذلك بسبب أن هذا الفتى هو من أخبرك بكل تلك الأمور كما أخبرني بمئات الأمور التي حدثت بعدها بالفعل، ثم لفق لي معرفتها؟! وكيف لم تحل فاجعة بسبب عدم إخضاع هذا الفتى لقانون المرايا؟! لقد احتاجت إثباتًا واحدًا آخر للهواجس بداخلي وقد حصدته، هذا الفتى ليس بأخي".

رغم صدمة ميستريو لاستنتاجها لكنه كرر سؤاله:

"لماذا لم تنقذيه؟"

أجابت بيلا:

"لأنه ليس من شعبي، إنه من الحالمين لهذا يستطيع التنبؤ

بالمستقبل، كما لو كان حاضره، والحالمون هم أعداؤنا؛ وأنا لا أنقذ عدوي حتى إن شببت برفقته؛ فلأجل التغييرات العظيمة لا بُدَّ من تضحيات".

تلك كلماته هو.. تعاليمه لها، ما سار دربه مكررًا إياه بعقله؛ كي لا يحيد عن سبيله مطلقًا، لكن لماذا يصيب صدره وغزة شديدة لسماع تلك الكلمات من فم ابنته..

جالت كلمات شبح أخيه رانل بباله: "ابصر يا أخي!"

إلام استحالت ابنته؟!

عقب سؤاله كلمات إيزلا التي لم تفارق أفكاره منذ قالتها:

"ولماذا هو لديه الحق بفعل ما فعله، ثم ينالني الغضب لأنهم ارتكبوا بحقه نفس الجرم؟! ألأنه طفلي؟! أم لأنه شب؛ ليجد أمه وقومه بأكمله يرتكبون المجازر فغدا مثلهم، كلا، لقد تقززت من كلمة "تضحيات" تلك، تضحيات ليتفوق قوم على آخر، ثم تضحيات أخرى لتصارع أبناء القوم نفسه، حتى تغدو الأراضي جرداء من جنس البشر في سبيل التضحيات لأجل جنس البشر".

"لم تبعث الأمواج أحدًا كبذرة دنسة، نحن من جرعناها ذلك الدنس".

هل صار ابن الحالمين هو الضحية وابنته.. هي البذرة المدنسة؟! بيلا يا ابنتي، أي دنس جرعته لكِ؟!

تساءل مستندًا لجدار الزنزانة السوداء تلك، حيثما يقبع يراجع

ذكرياته كلها، ومنذ سنين طوال بدأ الشك بالتسلل لفؤاده مجددًا، الشك حيال أفعاله جمة؛ لم يمانع بأن يغدو "قاتل الحالمين" ذابحًا في سبيل ذلك العشرات ممن لا ذنب لهم مؤكدًا أن تلك التضحيات لا بُدَّ من خوضها، وارتكاب إثمها لتحرير شعبه وحمايته من الأسر داخل المرايا للأبدية، وأيضًا لحدوث تغييرات عظيمة كتدمير المرايا، محى الندم والشك من قاموسه تمامًا، كما فعل مع بذرة الحالمين الدنسة؛ كي يستأصل ذاك الشر من جذوره لكنه لم يدرك مطلقًا أنه بدوره يحول ابنته لشخص لا يحمل مثقال ذرة تعاطف، ولا مانع لديها بخوض نفس دربه لتحقيق أهدافه، حتى إن استلزم ذلك ترك من شبت؛ لتجده أخاها ليموت.. دون التأثر مقدار ذرة لفقدانه، لقد حولها ميستريو لبذرة مدنسة هي الأخرى.. بيد أن أمنية ميستريو بحوز طفل يكرس نفسه لأجله لم تفن.. لقد تحققت كليًا بإبنته بيلا.

وتلك الفكرة وحدها كانت كفيلة بإدخال الشك لجبين ميستريو حيال كل شيء، وكل مسلماته.

أحول ابنته لأكثر شيء مقته بالوجود؟! أحولها لنسخة أخرى من نايلس قاتل العائلة؟!

أفاق من أفكاره تلك على هزة بسيطة أصابت المكان، وقف وتساؤل يجوب عقله: هل من الممكن؟

لكن قطع أفكاره هزة أعتى أدت لعدم توازنه واستناده للجدار ذي الشروخ التي تصدر بصيصًا من الضوء، اللعنة! فكر بقلق شديد، بينما أصابت هزة جديدة المكان لكن تلك المرة أسقطته

أرضًا، وتناثر سيل من حبيبات رملية نابعة من السقف على وجهه، فتح عينيه على مصرعيهما وقد تأكد أن الأمر حدث.. لقد استطاع سول تدمير أحد المرايا بالفعل بلمسه لها! نفذت بيلا أمر والدها بجعل سول يلمس المرآة المرتبطة ببؤرة الكون الخاصة بجزر راندوس.. إذن لا بُدَّ أنها فهمت القطع الذي أحدثه بالخطاب المرسل، وأدركت أن والدها بحاجة للمساعدة وعليها ببعث سفينة لإنقاذه! اللعنة، أين هو الذي سيخرجه من هذا السجن؟! تساءل والجنون سيفتك بعقله بينما هزة أقوى تصيب المكان دافعة إياه على وجنته المصابة من قبل لتحترق بالألم.

لا بُدَّ أن يأتي فورًا!

تكررت أفكاره الذعرة، وهو مغمض العينين غير مستعد لاستقبال موته إن كانت توقعاته في تلك المرة دون عن المرات السابقة جميعها ستخذله كليًا.. لكن لم تمر سوى ثوان، حتى سمع صوت نقرة فتح الباب ذي القضبان الحديدية، نظر جهة الباب فرآه بهيئته التي لم تظهر جيدا، لكنه علم هويته جيدًا، أردف ميستريو بسخط: "تأخرت كثيرًا"

"لا وقت للحديث، من هنا الآن!"

ختم ذاك الملقب بـ"البحّار" كلامه مفسحًا لميستريو؛ ليخرج ويسير مهرولًا بأحد الاتجاهات المعتمة، تبعه ميستريو راكضًا، بالطبع الملقب بـ"البحّار" كان سيأتي لإنقاذ ميستريو؛ فالبحار لم يصل بعد لهدفه الأصلي من مجيئ لهذه الجزر بالأساس وهو: إيجاد كيرا الأميرة الهجينة، ووحده ميستريو يستطيع

توصيله لها، فكر ميستريو وسأل سريعًا: "ما الذي يحدث؟"

"أمواج عاتية قادمة بقوة من جهة أرض البعث، وما عاهدته ليس سوى البداية.. ".

دُهش ميستريو، وقد علم أنه كان محقًا؛ فسول لمس المرآة المرتبطة ببؤرة الكون الخاصة بجزر راندوس والقابعة أسفل أرض البعث، والآن سيشهد ميستريو ما سيتسبب به تدمير مرآة واحدة فقط! ازداد الاهتزاز حولهما، وكاد يسقط ميستريو، فصاح البحّار: "اركض بعزم ما لديك!"

وختم جملته وهو يعدو كالريح وفي إثره ميستريو الذي أخذ يترنح بعدوه الأقرب للوثب من فرط الاهتزاز، بدأت صخور السقف خلفهما تسقط أرضًا، ذاك حينما وصلا لسلالم طويلة ركضا أعلاها؛ كي يصلوا للنور، اعترض نهاية طريقهم باب حديدي، الذي اخترقه البحّار بلمح ثوان، فبالتأكيد فتح قفله بالفعل أثناء مجيئه من البداية، تساقطت صخور السقف أعلى السلالم، وكادت إحداها تكسر ساق ميستريو لولا سطوع عصا البحّار الشبيهة بالرمح كعائق أمام الصخرة لجزء من الثانية التي دفع بها ميستريو ساقه بمعدةً عن الصخرة، مهرولًا للخارج، بينما انكسر جزء من عصا البحّار، وظهر السخط على وجهه، لكنه رغم ذلك ثبتها على ظهره أثناء وثبه للخارج، أن خروج ميستريو شهد الجزيرة من حولهما ومن أعلاها يركضون هرعين باتجاهات مختلفة، بينما المبان المثبتة بالصخر تهتز بحدة جنونية، صاح البحّار:

"لا وقت للتأمل، هيا!"

صاح ميستريو:

"فلنتجه للكهف، ستكون هناك سفينة بانتظاري هناك!"

أومأ الآخر، وهرع لجهة مدخل الجزر، تكررت الهزات تحتهما، وأخذ منسوب الماء الذي يتخلل الجزيرة يزداد بسرعة مهولة..

"احذروا!"

دوت صيحة ما فنظر ميستريو أعلاه؛ ليجد المباني تُسقط صخورها لتسحق قراصنة يهرعون كالنمل المشتت، بينما اندفعت نحوه صخرة عظيمة كالجمرة الملتهبة فقفز بعزم لديه مبتعدًا؛ ليسقط في الماء لكن وأثناء سقوط الصخور اندفع بعضها لتحت الماء معيقًا قدمه عن الحركة، أخذ يحاول إبعاد حفنة الصخور تلك بعزم ما لديه محاولًا ألا يفقد أنفاسه أثناء تجاوزه للعديد من الصخور الأخرى التي دُفعت كالجمر الملتهب لأسفل الماء، استمر بسحب قدمه بكل ما أوتي من طاقة حتى استطاع أخيرًا تحريرها قليلًا، لكنها أخذت تجرح لحمه كأنها تسلخه حيًا، التهبت أوصاله بألم لا يُطاق، لكنه رغم ذلك استمر بالسحب رغم بركة الدماء المتكونة حول موضع قدمه، سحب للمرة الأخيرة، وهو يتمالك أنفاسه الأخيرة التي أدت ضآلتها لتشوش الرؤية بعض الشيء ذلك، حينما حرر قدمه أخيرًا، وسبح للأعلى محاولًا تجاوز الصخور الساقطة، ثم أخيرًا ملأ جعبته بكل ما استطاع من الهواء أثناء طفوه للسطح، آنذاك استوعب أن أغلب المباني تنهار تمامًا،

بينما أغرقت المياه أغلب الجزيرة، شعر بمن يجذبه للأجزاء البسيطة التي ظلت قائمة من الأرض الصلبة بفعل الصخور المحطمة، وقف ميستريو وقد ابتل تمامًا، بينما قدمه أخذت تقطر خيوطًا من الدماء عبر جلد مُزق أغلبه، أكمل العدو خلف البحَّار وهو يسمع الصيحات والسب.. لم يدر لمن كانت الأصوات لكنها بكل صوب..

وصلا أخيرا للمعبر شاهق الارتفاع الذي يودي لمخرج الكهف، كثر الراكضون أعلاه لكن البحَّار لم يهتم ودفع أي شخص أمامه؛ ليسقط صارخًا من على هذا الارتفاع الشاهق، لكن المعبر نفسه أخذ بالاهتزاز بل إن منتصفه بدأ بالانهيار مسقطًا من حاولوا الهروب عبره، كان ميستريو والبحار قد اقتربا للغاية حينما تلاشت الأرض من أسفل قدميهما، هوى ميستريو لإنشات بسيطة حتى أمسكت ذراعه قبضة قوية، ووجد البحَّار قد تمسك بعصاه الذي ثُبت الجزء البارز بها ببداية الأرض الموجهة لمخرج الكهف، وبيده الأخرى أمسك بميستريو منقذًا إياه من السقوط.

أي عصا هذه التي تتحمل وزن كليهما؟! بل ويثبت سنها للصخر البارز؟

تساءل ميستريو بتعجب شديد، بينما بدا الآخر متحيرًا عما يجدر به فعله حتى يصلوا للحافة، ومن ثم للأرض الصلبة، ثم على غرة أخذ البحَّار يهز جزعه بقوة محاولًا سند ساقيه للأرض الصلبة التي ثُبت إليها سن الرمح، وما إن فعل ذلك حتى صاح بميستريو: "تسلق للحافة عبري!"

استعجب ميستريو الفكرة، لكنه لم يفكر كثيرًا، ونفذ المطلوب، لم يكن الأمر بالهين فهو ليس ملك العالم بالمرونة ليتسلق عبر شخص لحافة خاصة مع الاهتزاز المستميت للأرض التي ثبتوا العصا بها، وكذلك بالجروح التي أصابت ساق ميستريو، لكنه تمالك نفسه حتى وصل لأن يسند قدميه على حافة العصا، ويتسلق للحافة أمامه لاهثًا، ولم تمر ثوان حتى رأى البحّار يستند للعصا بكلتا يديه، ويتسلق أعلاها بكل بساطة كما لو كان سلمًا، ثم يصل للحافة بعد استعادة عصاه التي ظلت نسبيًا سليمة بشكل لا يصدقه العقل، لكن هذا ليس وقت الانخراط بالتساؤلات.

فكر، وهما يركضان لداخل الكهف، اللعنة، ماذا إن انطبق أعلى رأسيهما ناهيك عن أسماك الشيطان، لكن لا مهرب آخر، وصلا لبداية الكهف؛ حيث الأحجار الزرقاء المضيئة التي سرعان ما وجه البحّار سن العصا البارز نحو اثنين منها لينكسرا من أعلى الصخر ناثرين بعض الشظايا الكريستالية، وقذف بإحداهما نحو ميستريو ليلتقفها الأخير، بينما أمسك الأخرى قائلًا:

"أضئ بها الطريق؛ كي لا تنالك الشياطين!"

لم يقل كلمة أخرى حتى غطس لداخل المياه تاركًا ميستريو الذي تأكد أن تلك مجازفة قد تؤدي بحياته بلا رجعة، ولكنها كل المتاح الآن، فكر مستجمعًا أنفاسه، ثم غطس بدوره لداخل الماء متحركًا بأسرع ما لديه وهو يرى العديد من الأسماك التي تحاول الوصول إليه هو تحديدا.. بالطبع! جز على أسنانه

وهو يتذكر جرح قدمه، أخذ يتجاوزها، بينما هي تعطل سباحته صوب النهاية، اقترب منه إحداها للغاية فبعزم ما لديه صوب الحجر المضيء نحو وجهها ليطيح بها بعيدًا، وأخذ يزيد من سرعته بقدر الإمكان حتى رأى البحّار يلتفت نحوه وبكل قوته يوجه عصاه جهة ميستريو، صُعق الأخير لذلك لكنه استوعب ما يحدث حين رأى الجزء البارز من العصا يتخلل رأس سمكة كادت تفتك بقدمه الدامية، بدا السخط على البحّار لفقده لسلاحه، لكنه أكمل السباحة بقوة للأمام، من حدة ما يحدث لم يستشعر ميستريو إلا الآن أن الإضاءة خفتت عما قبل.. وعندما نظر للحجر رأى إضاءته بهتت بشكل كبير، كاد يصل برأسه لسطح الماء لولا التفاف غفير من أسماك الشيطان حوله، حاول الإطاحة بهم جميعا وعندما عاد لسباحته وجد بفعل تشتته سمكة على وشك اقتلاع لحم وجهه! لا إراديًا عاد للخلف موجهًا نصل الحجر نحو فمها المنفرج، بينما ألم جارح انتشر لساعده، آنذاك أدرك أن الحجر اخترق الفك العلوي للسمكة، بينما تمكنت أحد أنيابها من اختراق ساعده، ليس هناك وقت للألم، لذلك فرغم ألمه الشديد سحب بيده الأخرى رأس السمكة للخلف؛ ليسحب الناب منها حتى صرخ من فرط العذاب، ولكنه بعد تحرير ساعده، ترك حجره بفكها مطيحًا بها جانبًا؛ ليخرج رأسه من الماء مستنشقًا الهواء، وهو يعوم بعزم ما لديه نحو الأفق الأبيض في النهاية، حيثما رأى البحّار يتجه بسرعة مفرطة، وبمجرد وصول الماء لجذعه أخذ يعدو بأسرع ما استطاع، وقد اقترب من البحّار، ولكن بدون أي إنذار قفزت سمكة من الماء محاولة اقتلاع وجهه كسابقتها

مسقطة إياه لتحت سطح الماء فأمسك بفكيها من الخارج بكل قوته محاولًا إبعاد وجهه عنها ما استطاع، ثم فجأة رأى قبضة تسحب السمكة لأعلى فتركها ميستريو طافيًا على سطح الماء؛ ليرى من بين نظراته المشوشة البحّار يكسر فكي السمكة لنصفين، ثم يُلقي بجثتها جانبًا، بينما الاهتزاز حولهما زاد ليبدأ بإسقاط صخر الكهف، فعادا للعدو ليوثبا في اللحظة الأخيرة لخارج جدران ذلك كهف، بينما هو ينهار خلفهما، وتبتلعه الأمواج برفقة كل شيء آخر، رأى ميستريو سفينة على الأفق كما توقع، ركضا نحو البحر أمامها، ثم وثبا ليعوما نحو تلك السفينة، التي بمجرد وصولهما لها، ومساعدة البحارة أعلاها لميستريو و"البحّار"، نظر ميستريو صوب تلك الجزيرة التي استحالت سرابًا، وغرقت كاملة تحت الماء ساحبة برفقتها آلاف الأرواح، لا بُدَّ أن قدرًا مماثلًا أصاب الثلاث جزر الأخرى ياما ويلدا وكبرثا.. أتلك عقوبة تدمير المرايا إذن؟! تدمير الأراضي التي تحوي بؤر الكون المرتبطة بالمرايا بصورة ما، مما يعني تدمير العالم بأسره عدا مملكتي الشعبيين إن أراد تحرير قومه.. أتلك تضحية أخرى سيراها مبررة في سبيل فك أسر قومه؟! تساءل والجنون يوشك على تملكه لكن تساؤلاته لم تطل حتى شعر بألم بشع بظهره، اندفع للخلف على غرة ولم يفهم ما حدث وسبب له ذلك الألم الذي يفتك بأوصاله، فجأة التفت؛ حيث سمع أكثر من صوت حشرجة موت..؛ ليرى إيزلا مبللة كليًا يملأ وجهها الندوب والكدمات، وقد وثبت أعلى سفينته محاولة قتله، وحينما دفعه جنوده مدافعين عنه أخذت تبطش بهم، لم يستوعب كم من رجاله قتلت حتى رآها تندفع

نحوه بسيفها وبعيونها لهيب الكون بأكمله، ثم وبلمح الثانية دُفعت جانبًا بفعل ركلة من "البحّار" الذي لم يترك لها فرصة واستل أحد سيوف القتلى أرضًا، ومنديلًا ربطه أحدهم حول رأسه، وأمسك السيف من كلتا نهايتيه كالعصا، بينما اعتلت النهاية الحادة المنديل؛ كي يحيل بين يديه وبين المعدن الحاد، صاحت إيزلا للبحار:

"أنا لست هنا لأجلك! فلا تنهِ حياتك كهؤلاء الموتى أرضًا".

فأجاب البحَّار: "إن أردت الظفر به فعليكِ الظفر بي أولا!"

ما الذي سيجنيه البحَّار من الوصول لكيرا؛ كي يحمي ميستريو بهذا الشكل المتفاني فقط ليوصله لها؟!

لم تنتظر إيزلا المزيد من الحديث، واندفعت نحو البحَّار الذي أخذ بصد ضرباتها في البداية لكنه سرعان ما حاكى ضرباتها بشكل غريب.. كما لو أنه صار نسخة منها، آنذاك تشتت إيزلا بعض الشيء، ولكنها باغتته بضربة أعادته للخلف، وحين انقضت عليه مجددا كرر محاكاته لضرباتها بصورة أحد، وأسرع وحين همت بضربة مباغتة تلك المرة صدها، بل وأوجد ثغرة ما أسقط بها إيزلا التي كادت تتدحرج بعيدًا، لكنه اقتنص كتفها المصاب سابقًا وهوى أعلاه بضربة أظهرت الألم الجلي على وجهها، وبعد ذلك لم يفهم ميستريو حقًّا الذي يحدث فقد بدا البحَّار ذلك كالسهم بضرباته، ودفاعاته ذلك حتى اسقط سيفها، وقبيل حتى أن تدرك الذي يحدث دفعها بقدمه نحو الحائط ليثبت حلقها لجدار السفينة بواسطة حذائه، بينما هي تحاول التقاط أنفاسها ولا يسمح لها هو بذلك بضغط حذائه

المستميت على حلقها، ثم أفلتها قبيل تصاعد روحها، وجه البحَّار أمره لأحد الذين وقفوا على سطح السفينة مراقبين كل ذلك:

"قيدوها بالسلاسل المعدنية!"

فنفذوا أمره مرتعدين، أخذ ميستريو أنفاسه، وهو لا يفهم كيف إيزلا أعتى الجبابرة تلك.. تمت هزيمتها بذلك الشكل؟ من هو ذلك "البحَّار"؟!

تساءل بصدمة، بينما استطرد البحَّار باقتضاب:

"لا بُدَّ أنها استطاعت الفرار من الأسر الذي وضعها به أفعى ياما، وتبعتنا للانتقام منك".

أومأ ميستريو، وقد عاد الألم لظهره بينما هرع نحوه أحد الموجودين أعلى السفينة؛ ليضمدوه لكن قبيل ذلك سمع صوت إيزلا يردف بسخط وارهاق شديد: "ستدفع الثمن! ستدفع ثمن تخريبك لموطني وللتغير!"

رأى ملامحها المغرقة بالكدمات والدماء؛ لتصير خليط بين الأرجواني والأحمر، وحينها تذكر جثة المرأة مشوهة الملامح التي رأها يوم قابل سول للمرة الأولى، حينما كان رضيعًا باكيًا، بينما ميستريو تسبب بمقتل والدته، وتلك المرأة الأخرى.. التي لسبب ما ذكرته هيئة إيزلا دومًا بها فمظهر جثتها وجهها المشوه لم يفارق مخيلته يومًا.

أكملت إيزلا:

"لا آثام تُمحى! وما اقترفته اليوم سيفتك بك في الغد! وكل الدنس الذي زرعته لن يحصد ثماره العفنة سواك".

كبلها الموجودون، وهم يسوقونها نحو الزنازين، لكن ميستريو فكر بحديثها ناظرًا للأفق متذكرًا أطفاله.

***

[16]

أسود ضارية

وقفت على مبعدة مراقبة ذلك الحشد المهول من الجنود، الفرسان والرماة يترأسهم بودير ولجواره رادو، بينما في مقابلتهم جيش القارة القطبية من المرتزقة مختلطًا بكتائب من الجنود التابعين لنايلس، الذي حسبوا أن بعد عودتهم من مهمتهم بسبر أغوار (ليس الكبرى) سيجدون الدرب مهيئًا للاشتباك بجنود بودير، وفض الحصار حول عاصمة المملكة الغربية.. لكن ما حدث هو أنهم وجدوا جيش بودير على أعتاب طريقهم، ولخلفهم القوات التي تظاهرت بذهابها لدحض ميستريو؛ ليصيروا محاصرين بكل اتجاه، بينما المدينة نفسها لازالت قابعة تحت الحصار، ولكن بمجرد فوز بودير بتلك المعركة، فلن يبقى لنايلس أي قوات يحتمي بها، خاصة هؤلاء المرتزقة السفاحين.

فكرت دورسيرا مراقبة أرض المعركة من على بُعد بمنظارها.

اتخذت قوات بودير أماكنها، ولكن قبيل بدأ أي شيء على زئير عالٍ هُزت له الجبال، ورأت دورسيرا جنود يتقدمون بقفص عملاق من وسط صفوف جيش نايلس؛ لترى خلفه واحدًا من أعظم الأسود بالوجود ذي لون أبيض وعيون حمراء كالنيران المشتعلة، ولم تمر ثوان حتى حرروه؛ ليعدو كالصاعقة باتجاه جيش بودير الذي أصابه الوجل، حتى بكم السهام التي صوبت تجاه الأسد لكنها لم تصبه بمكروه شديد، لمحت دورسيرا

بعيونها الفزعة بودير يصيح بشيء ما بالجنود ليتخذوا وضعية معينة لإحاطته، وحمايته بصورة ما، ثم يصيح بودير بعزم ما به للجنود بالانطلاق وقد بدأ بالعدو هو نفسه بدون أدنى ذرة خوف! وهو ينطلق كالجمرة بسيفه نحو الأسد الزائر صارخًا بصوت زلزل الجبال أيضًا، ثم يهجم بأعتى ما لديه على الأسد، ومن خلفه جنوده يركضون نحو جيش العدو كالأسود الضارية.

***

[17]

ميلاد ميت

تركض هاربة بكل ما أوتيت، كما لو أنها تلوذ من الوحش القابع في الظلمات، النيران تشتعل بكل أوب وصوب وترى الناس صرعى بدمائهم في الطرقات يستجدون عونها لكن بمجرد مدها ليدها ترى براميل معبأة بالزيت المغلي تنطلق صوبهم فتقذف نفسها على مبعدة لتسمع حينها أعتى أصوات العذاب، وترى الساقطين أرضًا تتفحم جلودهم أمامها فتقف بكيان مرتعش غير مستوعبة لهذا الجحيم.. ذلك حينما ترى جنود أشبه بالجبابرة ينطلقون عبر النيران ذابحين من يرونه بكل أوب وصوب.. مسنين، نساء وحتى أطفال.. يذبحون ويحترقون أمامها.

ركضت.. ركضت بكل ما لديها والنيران تحاوطها والجبابرة من خلفها تجمعت دموع الرعب بمقلتيها، وحينها أخذ ذلك الاسم يتكرر ببالها المشلول عن التفكير.. آنذاك فتحت عيونها مستيقظة مرددة ببالها "أدريان"؛ لتجد نفسها وحيدة أعلى تلك الأرض المدثرة بالرماد تعلوها أشجار سوداء متشابكة بلا حياة، حاولت الاستناد ليديها والوقوف لكن ألمًا شديدًا طال كفيها فرفعتهما لمرآها لترى آثار الحروق السابقة التي سلخت الجلد أعلاهما برفقة سبابتها التي بُترت، استندت كيرا لمرفقيها متحاملة على أوجاع جسدها المحطم والحروق التي طالت يديها ناظرة صوب غفير الرماد المحترق المتطاير عبر الليل الكاحل مما كانت يوم "ليس الكبرى".

***

خاتمة

سار هذان الظلان عابرين الدروب القاحلة.. جاذبين فرسيهما خلفهما، بينما قبع جسد يتنفس بصعوبة أعلى أحد الفرسين.. بدأ صوت ينشد بترنيمة بسيطة:

"سيدتي، اسردي على مسامعي الحقيقة، هل أنا فعلا تلك الفتاة البريئة؟!

أم أن هناك وحشًا قابعًا بثنايا جلدي.. منتظرًا اللحظة التي يتم بها وأدي.

أم أن الظلال التي مررت هي من كونت الوحش، وغدت هي البريق لانبعاث كل هذا الفُحش؟

تساءلت الفتاة.. هيلما، هيلما.."

صدر صوت آخر: "أوقف تلك الأغنية؛ إنها تزعجني".

"على العكس يا إيفان يا صديقي، تلك الأغنية تعبر عن ألعوبة الوجود بأسره، فماذا نحن سوى كائنات تسعى بكل ما تملكه لتقطع دربها مقترفة أي شيء لتحوز ذلك الشيء الأوحد.. لتخطو للهيلما، للحلم.

وما هو الحلم يا صديقي؟! أهو جنة الأرض التي نلوذ إليها أم أن خلف كل جماله يقبع جانب مظلم باستطاعته إحالتنا نحن وحوشًا..".

"أعلم أن هيلما تعني الحلم، وأعلم قصة تلك الفتاة التي استحالت وحشًا بفعل الظلال التي التقتها بدربها نحو الحلم،

كفاك تفلسفًا، الآن يا سيليك.. أواثق أن كل شيء جاهز حين نصل لممالك السحر؟!"

"إيفان يا صديقي، لا تقلق فأفعى ياما سيكون بانتظارنا، والفتاة الحاملة لروح حكيمة الحالمين ستتوجه إلينا، والأهم من ذلك جله أن الفتى الذي تنبأ به الحالمون منذ مئات السنين بحوزتنا".

أنهي سيليك حديثه مشيرًا لسول الفاقد للوعي أعلى الجواد.

"ليس عليك بالقلق يا صديقي، ليليس وأوصلتنا للفتى الحالم دون أن تدري برؤيتها له في كابوسها.. أتَذكُر حين حاولت الهرب من الكيان المطارد لها عبر الإعصار المائي، ثم أخبرتك بعد ذلك بمواصفات الفتى الذي دمر الحائل الزجاجي؟ لم يكن علينا بعد ذلك سوى الاندساس بصفوف جنود الأميرة بيلا لنحصل على الفتى".

أعقب إيفان بسخط:

"لكن شعرك الأزرق الغبي كاد يفشي سرنا، ألم ترَ كيف حدق بك ذلك الأمير الملقب بفين؟"

"هذا غير مهم، فقد نجحنا بالمهمة واستطعنا حوز الفتى بعد تدميره للمرآة وتشتت الجميع".

"هل حقًّا الفتاة الصهباء التي رآها الفتى بالمرآة هي..؟"

"بالطبع يا صديقي.. إنها ليليس في الماضي من عالم الأحلام أثناء محاولة هروبها عبر الإعصار المائي من الكيان

الصارخ.. لكنه رآها في الحاضر وعلى أرض الواقع.. المرآة لم تكن سوى حائل بينها عبر المستقبل والماضي.. وأرض الواقع وعالم الأحلام..".

قهقه سيليك مكملا:

"ليليس، وأوصلتنا للفتى سليل الحالمين، بينما الأمير المتنكر وبسببه علم أفعى ياما بوجود السلاح القادر على إحالة هذا العالم رمادًا متمثلًا بهذا "الفتى" وسيأتي الأفعى لأقدامنا ليحوز السلاح أو بمعنى أصح الفتى.. كل شيء سار بالشكل السليم، وقريبًا؛ لتحوز ممالك السحر القوة المطلقة، وتستعمر البرية بأكملها..".

أومأ إيفان، ونظر للسماء منعدمة الغيوم معقبًا: "لقد انتهى موسم الأمطار بمملكتي الشعبين".

أضاف سيليك: "وعن قرب سيحل موسم الرماد".

ثم أكملا سيرهم جارين الأحصنة خلفها، بينما أخذ صوت يُنشد مجددًا: "هيلما.. هيلما..".

تمَّت

فجر المرايا

موسم الرماد

لم يكمل جملته حتى تحول الوجود حولهم للون قاتم للغاية، لم يدرِ ما الذي أصابه لكنه شعر أنه قُذف حتى حافة الكون بينما دوي انفجار مهول بصوت زلزل الوجدان، أغلق عينيه بقوة واضعاً يده كحائل أمام وجهه بينما هو يشعر بمئات الشظايا الزجاجية تُغرس بجسده، أخذ يضوي ضوء عظيم وكأن ثقب كوني فُتح أمامهم، وبرفقته سمع آلاف الصرخات لأشخاص هلعين ومُعذبين، سمع أصوات أشخاص يغرقون كما لو أن الطوفان أصاب البراري بأكملها حتى استشعر طعم الماء المالح بفمه وخشمه
وآنذاك علم أن تلك هي النهاية

منار بدر الدين

SANDOBY design



منار بدر الدين

روائية مصرية، درست تربية طفوله مبكره لذوي الاحتياجات الخاصة بجامعة المنصورة، كاتبة مقالات ميثولوجيا وتاريخ وعلم نفس. صدرت روايتها الأولي (فجر المرايا) اواخر ٢٠١٠ وهي الجزء الاول من سلسله فانتازيا ملحمية بنفس الاسم تم تصنيفها من النقاد كواحدة من أفضل ٤ روايات فانتازيا لعام ٢٠٢١. روايتها الثانية فجر المرايا (موسم الرماد) هي الجزء الثاني من سلسلة فجر المرايا





